مطبوعات مكتبة مصر

ليلى المريضة في العراق

« تاريخ يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد . من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ويشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر القلوب ».

زكي مبارك

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

سنة ١٩٣٨ ومن بغداد ، نشر زكى مبارك فى مجلة الرسالة عدة مقالات تحت عنوان « ليلى المريضة فى العراق » .

سنة ١٩٣٩ صدرت هذه المقالات فى كتاب من ثلاثة أجزاء ، والكتاب بنفس عنوان المقالات « ليلى المريضة فى العراق » .

قدم زكى مبارك الكتاب بتقرير طبى رفعه إلى حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وكان يومها وزيرا للمعارف .. أى وزيراً للتربية والتعليم ..

وزكى مبارك عندما يقدم كتبه أو يكتب تقريراً طبيا كالذى سنقرؤه فى بداية هذا الكتاب ، فإنه يقول لك كل ما تريد أن تعرفه عن ظروف الكتاب وملابساته ، إن كانت هناك ملابسات .

لذا فإننى فى مقدمتى هذه أحب فقط أن أشير إلى نقطتين ربما يحتاج بعض الشباب اليوم إلى إيضاحهما ، لأنهم لم يعيشوا عصر زكى مبارك .

والسؤال الأول الذى يطرح نفسه : من هى ليلى المريضة فى العراق ؟

قال زكى مبارك(*) :

« طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلى الزهاوى ، فإن الزهاوى كانت ليلاه فى بغداد هى العراق ، وأنا أصرح بأن ليلاى فى بغداد هى ليلى المريضة فى العراق ، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد » .

وأنا بدورى أقول : ومن تكون ليلى المريضة فى العراق والمعروفة لجميع الناطقين بالضاد ، غير اللغة العربية ؟

والسؤال الثانى ، والذى يطرح نفسه أيضا : ولماذا قصة الحب التى عاشها زكى مبارك مع ليلى ؟

لو عدنا قليلا للوراء لعصر زكى مبارك ، لرأينا أن الكلام فى الحب كان غير مستحب ... ولكن زكى مبارك لم يكن مجرد كاتب يريد أن يكتب ... أو أديب يسحرك بيانه ... أو شاعر

(*) من كتاب (ليلى المريضة فى العراق) الطبعة الأولى مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٣٩ ص ٣٤

يعبر عن ذاته وعصره ... أو ناقد يريك الطريق ... أو باحث يبحث عن الحقيقة ... أو ، أو ... إنما كان زكي مبارك كل هؤلاء . أضف إلى ذلك أن زكي مبارك كان صاحب رسالة .. رسالة لها أبعادها الوطنية والسياسية والدينية والاجتماعية ... والتربوية ... إلخ .

كان زكي مبارك يريد أن يحبب الشباب فى اللغة العربية ، لغة القرآن ... وأقرب طريق إلى قلوب الشباب لغة الحب ... ولهذا كثر حديث زكي مبارك عن الحب ، فكتب عن ليلى فى الزمالك ، وليلى فى أسيوط ، وليلى فى لبنان ، وليلى المريضة فى العراق ، إلى آخر ما هنالك من الليليات إذا جاز هذا التعبير ؟

على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٤٤٦ وبتاريخ التاسع من فبراير سنة ١٩٤٠ يقول زكي مبارك تحت عنوان « تشريح عاطفة الحب »(*) .

حديثى عن الحب صار مذهبا أدبياً أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء ، ونحن لم نبتكر الكلام فى الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟

ولأى غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية ؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج والدوافع حين استطاعوا أن يقولوا : إن الدنيا فى حرب وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب ...

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا من صدور مراض ، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ، وهو يساور قلوب الجنود فى أصعب أوقات الحروب . وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب من فنون المزاح ؟

الحب جده جد ، وهزله جد ، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ فى تلوين الوجود .

الحب جد صراح والاهتمام بدرسه يؤدى خدمات عظيمة لعلم النفس ، فكيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع ، وله تأثير شديد فى توجيه مصاير الرجال ، وبأى حق تخلو دنيانا من تشريح عاطفة الحب ؟

وكيف يجوز أن يقهرنى العيش فى عصر التزمت على الدفاع عن كتاب « ليلى المريضة فى العراق » وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل .

(*) هذه مقتطفات فقط من المقال .

كنت أحب أن أؤلف كتابا عن « ليلى المريضة فى الزمالك » أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى هذه البلاد بطريقة تفيض على شبابنا روحا من أرواح الوجدان ، ولكن خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء .

إن عصرنا عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ فى خدمة العقل والقلب والذوق .

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب ، فمن يتحدث عنها ونحن ندعى النيابة عن الجمهور فى تشريح النوازع والأهواء ؟.

الأوربيون لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية ، وتشريح عاطفة الحب هو عندى باب لتربية العواطف .

تربية العواطف ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زمانى ، ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وصناعة الأراجيف .

نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف ، وإهمالها ستكون له آثار أيسرها رياضة الشبان على رذيلة « عدم الاكتراث » وهى أقبح الرذائل وأشدها تأثيرا فى قتل حيوية الشعوب . وهل نستطيع القول بأن الرأى العام عندنا يحس هذه المعانى ؟

وما الرأى العام ؟

أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا هيابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول ؟

وضمور العواطف هو الذى قتل الشاعرية فى مصر ، وهو الذى جعل المصريين أقل الناس إحساسا بمعانى الوجود .

نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية .

نحن نفكر فى خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية ، ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول ، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطمعنا فى الخلود » .

أيضا يقول زكى مبارك :

ساءنى أن يقال إن « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب ، فألفت كتاب (ليلى المريضة فى العراق) لأقيم الدليل على أن فى كتّاب اللغة العربية من يتفوق أظفر التفوق على « راسين » .

والآن ...

إذا كانت هناك كلمة يجب أن تقال فهى تحية لصاحب دار مصر للطباعة الأديب الشاعر الفنان الأستاذ سعيد جودة السحار — أحد تلاميذ زكى مبارك فى الجامعة المصرية — فهو أول عربى مصرى يتصدى لإعادة طبع هذا العمل الكبير ، حبا منه فى أن يعرف الشباب كبار الكتاب الذين أفنوا شبابهم فى خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، فعاشوا فى وجداننا على مر الأزمان ... وليترسم الشباب خطاهم ويكملوا المسيرة بالمزيد من العمل والفكر والفن .

كريمة زكى مبارك

تقريظ

مرفوع إلى حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف

أيها الأستاذ الجليل

كنت سألتمونى منذ شهرين أن أقدم إليكم تقريرا عما صنعتُ فى مداواة ليلى المريضة فى العراق ، فأنا اليوم أجيبكم إلى ما سألتم ، راجياً أن تغضُّوا النظر عما وقع من إمهال وتسويف .

وأُسارع فأعتذر عن تقديم هذا التقرير مطبوعاً إلى الجمهور فى الوقت الذى أقدمه إليكم ، لأن لى من ذلك غايةً نبيلة : هى تذكير زملائى من الأطباء بواجبهم فى التعرف إلى الدراسات الأدبية والفلسفية ، على نحو ما كان يصنع الأطباء العظام فى الأمم العربية والإسلامية ، وقد أعلنتُ هذا المعنى منذ شهور طوال فى مجلة « المعلم الجديد » التى تنشرها وزارة المعارف العراقية ، فاستقبله الأطباء هناك بالترحيب .

ومعاذ الأدب أن يكون فى نشر هذا التقرير بطريقةٍ علنيةٍ دعايةٌ لنفسى ، فما أطمع فى أن أكون أستاذا للحكمة الوجدانية بكلية الطب بعد أن صنع الأدب بحُياتى ما صنع : فقوّض عيادتى بشارع المدابغ ، وأغلق عيادتى بشارع فؤاد ، وأصارنى إلى احتراف الصحافة والتدريس .

وقد كنت نشرت بعض فصول هذا التقرير بمجلة الرسالة فى السنة الماضية فارتاع زملائى من أطباء بغداد وشكونى إلى الجمعية الطبية المصرية وكانت حجتهم أنه لا يليق بالطبيب أن يفشىَ سرا لمريض . .

وما أجهل أنى أخطأت ، ولكن متى سلمتْ أعمال الرجال من الأخطاء ؟ وهل يَدَّعى العصمة إلا أهل الغفلة والحُمق والخبال ؟

إن أعظم مزية يتحلّى بها كاتب هذا التقرير هى أنه يعترف سرًّا وعلانية بأنه إنسانٌ يخطئ ويصيب ، وقد يشطح وينطح فى كثير من الأحايين !

وما أتخوفه اليوم وأنا أقدم إليكم هذا التقرير قد تخوّفته من قبل : فقد كاد ما نُشِيرَ من هذا التقرير يزلزل الأرض تحت قدميّ فى بغداد ، واضطرنى ذلك إلى الدفاع عن نفسى أمام « نادى القلم العراق » وفيه كثير من الأطباء ، فتقبل الزملاء دفاعى بأحسن القبول . ومن ذلك عرفت أن الأطباء قد يحسُّون معانىَ الإنسانية حين يتصلون برجال الأدب والبيان .

وما أُخفى عليكم أنى كنت أعرف أن اهتمامى بمداواة ليلى سيعرِّضنى لكثير من المكاره ، فهدَتْنى الفطرة إلى أن أحتاط لنفسى فأوهمتُ أهل العراق أنى أديب عظيم ، واستطعت بذلك أن أتصدر لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العالية ، على قلة ما أملك من الذخائر الأدبية ، وقد أعاننى الله تباركت أسماؤه على تحقيق ما ادعيت ، فألقيتُ على تلاميذى وعلى جمهور أهل بغداد محاضراتٍ أسبوعيةً بكلية الحقوق كان لها فى آذان أدباء بغداد رنينٌ أىُّ رنين .

ولم أكتف بذلك ، بل بالغتُ فى ستْر الموقف فأنشأت الفصول التى رأيتموها فى كتاب « وحى بغداد » .

فإن عجبتم من أن أُوفَّق إلى ما وفِّقتُ إليه فى زمن لا يزيد عن تسعة أشهر فتذكروا أن الإخلاص قد يزعزع رواسى الجبال .

أليس من العجيب أن أُهاجر إلى بغداد وأنا طبيب فأرجع وأنا أديب ؟!

* * *

ولكن ما الذى ستقرأونه فى هذا التقرير الذى تعدُّ صفحاته بالمئات ويقع فى ثلاثة أجزاء ؟

من المؤكد أنه يغاير التقارير التى أقدِّمها إلى مكتب تفتيش اللغة العربية من أسبوع إلى أسبوع .

ستجدون فى هذا التقرير صِراعاً مروِّعاً بين الحلم والجهل ، والرشد والغىّ ، والهدى والضلال . وستجدون فيه ما هو أخطر من ذلك : ستجدون فيه صِراعاً بينى وبين نفسى ، والجهاد الأكبر جهاد النفس ، كما قال الرسول .

سترونني هززت شجرة النفس الإنسانية هزة عنيفة لأعرف ما تحمل من الثمار المعطوبة والثمار الصحاح .

سترونني صنعت بالقلوب والنفوس ما تصنع الأعاصير بالشجر والنبات لا ينجو من عنفها إلا القوىُّ المتين .

فإن رأيتمونى قدَّمت إلى أُصْونة وزارة المعارف تقريراً لم تعرف مثلَه قبل اليوم فاجْزُونى بكلمة ثناء تخفِّف ما أصارتنى ليلىٰ إليه : فقد رجعتُ من دارها مفطور القلب مصهور

الروح . وإن رأيتمونى أحدثت فى عالَم الطب بدعةً سيئةً فاغفروا ذنبى ، فحسبى من المحنة أن أسكب الدمع كل يوم على ما أسرفتُ على نفسى من الهُيام بأودية المعانى ، والضلال فى هَوَى الملاح . أعاذك الله من بلاء الحب ، ونجّاك من فَتْك العيون السُّود !

أتذكر أيها الوزير الجليل كلمة جاءت فى كتاب « ثورة الأدب » الذى ألفه كاتب من أقطاب الكتّاب فى هذا الجيل ؟

أتذكر أن ذلك المؤلف قال : إن هناك آفاقاً من المعانى يتحاماها كتّاب العصر الحديث ؟

فما رأيك فيمن يكفّر عن سيئات أولئك الكتاب فيتحمل المشاقّ فى ارتياد تلك المجاهيل ؟

لقد اقتحمتُ تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء ، وأنا أعرف أنى أعرِّض سمعتى للأقاويل والأراجيف ، لأن الناس عندنا لا يفهمون كيف يدخل الطبيب على نفسه ليُشرِّح على حسابها أهواءَ النفوس والقلوب والعقول .

اقتحمتُ تلك المهالك وليس لى إلا سِنادٌ واحد هو الشعور بأنى أؤدِّى خدمة للأدب والطب . وهل يُخدَم الأدب والطب بأفضل من التغلغل فى تشريح النزعات والأهواء ؟

وهل كنتُ أملك الفرار من الصُّنع الذى صنعتُ ؟

لقد قضيت نحو تسعة أشهر فى بغداد وأنا فى جِوارٍ موصول مع ليلى وظمياء، وأنت تعرف كيف يتعرض القلب — حين يألف مثل هاتين الشيطانتين — للطواف بأركان الحقائق والأباطيل .

أقول هذا وأنا أشعر بأنى لم أوفَّق كل التوفيق فى تدبيج هذا التقرير لأنه خلا خلوًّا تامًّا من شوائب الرياء ، فى وقت صار فيه الرياء سيد الأخلاق ، وإلّا فما الذى كان يمنع من أن أضيف إلى نفسى وإلى ليلى محامد ومناقب يسير بها الركبان ؟ ما الذى كان يمنع من أن أقول إن ليلى لم تَعْتِب علىّ مرةً واحدة وإنى كنت فى هواها أعقل الناس ؟

منع من ذلك التعقل مانعٌ واحد هو الغرام بالصدق ، منع من ذلك أنى أشعر بأن الأدب أصبح على شفا الهاوية بفضل شيوع التدليس فى تصوير العواطف والغرائز والطباع .

منع من ذلك أنى أبغض أشد البغض أن تشعر وأنت تقرأ هذا التقرير بأن فيه شيئاً من الزور والبهتان .

وما الذى تملك من أمرى حين تجد فى هذا التقرير ما لا يرضيك ؟

قد تغضب علىّ وأنت وزير ، لأن الوزراء فى الأغلب يتوقرون ويتزمَّتون ، ولكنك لن تبقى وزيراً طول دهرك ، فقد ترجع إلى فردوس الأدب بعد شهور أو بعد أعوام ، ويومئذ تقرأ هذا التقرير بروح الأديب الفيلسوف فتعرف أنى لم أكن من المسرفين .

وهل من القليل أن ترانى وصلت إلى ضمير الحياة العراقية ثم وصفته بأسلوب يخفى سِحْرُهُ الدقيق على هاروت وماروت ؟

* * *

فى هذا التقرير ، أيها الوزير ، ما يشبه التحامل على الأطباء .

ولى فى ذلك عذر مقبول .

فأنت تعرف أن الحكومة كانت أوعزت إلى الجمعية الطبية المصرية أن تقيم مؤتمرها العاشر فى بغداد لتعيننى على مداواة ليلى المريضة فى العراق .

ولكن أولئك الأطباء حاربونى وقاتلونى بلا ترفق ، وقد جزيتهم بما يستحقون ، وأنا مع ذلك أشعر بأنى أحسنت إليهم كل الإحسان .

أمَا يكفى أن أصوِّر بقلمى فِلْماً للمؤتمر الطبى العاشر ، فلماً رائعاً لم يشهد مثله الناظرون ؟

فإن كنتَ فى ريب من ذلك فانظر كيف يصوَّر المؤتمر الطبى الحادى عشر ، الذى تشهد موكبه القاهرة فى هذه الأيام ؟

أُنظُر أيها الوزير فسترى أن هذا المؤتمر سيمر بلا صدًى ، لأنه لم يُرزَقْ كاتباً يصوره كما صورتُ المؤتمر الذى عُقِد فى بغداد .

وكان فى نيتى أن أصوِّر المؤتمر العتيد ، ثم تذكرت ما حاول الدكتور على باشا إبراهيم ، تذكرت أن هذا الرجل العارم كان يريد أن يأخذ ليلى من يدى . ولكن هيهات !

أترى كيف كانت الدسائس تتعقبنى من القاهرة إلى بغداد ؟

سهمٌ أصاب وراميه بذى سَلَمٍ مَن بالعراق لقد أبعدتِ مرماكِ

كنتُ أظن أن زملائى فى مصر يفرحون حين يروننى أفلحت فى كسْب ثقة العراق !

كنتُ أظن أن زملائى فى مصر يسرهم أن يعرفوا أن لى هوًى بشارع العباس بن الأحنف فى بغداد!

كنت أظن أن المصرىَّ للمصرىِّ كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهُ بعضاً ، ثم عرفت أنى أُقيم البناء على ثَبَج النيل !

وأؤكد لك يا معالى الوزير أن ليلى هى التى أنقذتنى من عُدوان الزملاء فى هذه البلاد .

ليلى — شفاها الله وهدانى — هى التى أمدت طبيبها بالعافية ، وعاونته على أن يحيا بهامة مرفوعة بين هامات الرجال .

ولولا لُطف الله وعطفُ ليلى لكنت اليوم من الهالكين .

* * *

سترى فى هذا التقرير أن ليلى ــ وإن بالغتْ فى الدلال ــ لم تُضْمِر غير الحب ، ولم تمنح الواشين الآثمين غير الصدِّ والإعراض .

سترى أن ليلى عرفتْ أنى لم أكن إلا طيفاً زار فى السَّحَر بساتين الكرخ وبغداد .

ويؤذينى أن أعرف أنه قد يصعُب أن أرى ليلى بعد اليوم : فقد قيدنى أهلى وأبنائى بقيود من حديد ، وقهرونى على أن أعترف بأنى من مصر لا من العراق .

وإن رأيتم فى هذا التقرير حبًّا شديداً للأمة العراقية فلا تعجبوا ، فما ذقتُ طعم الحياة إلا فى العراق ، ولا رأيت صدق القلوب إلا فى العراق ، ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت لون مائه فى دجلة والفرات .

وما أسفتُ على شيء كما أسفتُ على أن لم يُقْدَر لشاعرنا شوقى أن يزور العراق .

وقد دعوتكم إلى زيارة العراق ، فمتى تجيبون ؟

أحب أن أعرفَ متى أراكم فى العراق بين قومى وأهلى ؟

أحب أن تسمعوا سجع الحمائم فى الموصل ، وأن تروا غابات النخيل فى البصرة ، وأن تعانوا بقايا السحر فى بابل ، وأن تكحَّل أعينكم بغبار الصحراء فى النجف ، وأن تستصبحوا بظلام الليل فى بغداد .

أدعوكم أيها الوزير إلى زيارة الأماكن التى قضت بأن يتموَّج هذا التقرير بعُباب الهدى والضلال .

أدعوكم إلى زيارة العراق لتواجهونى بما فى هذا التقرير من الزائف والصحيح ، إن ارتبتم فى بعض ما ستقرأون .

سترون فى هذا التقرير رموزاً كثيرة ، وقد تجدون من يحدثكم بأنى سلكت فيه مسلك الغمز والتجريح ، فإن سمعتم شيئاً من ذلك فاختبروه بأنفسكم على ضوء الحق لتعرفوا أنى أخلصت النصح للأمتين العظيمتين مصر والعراق .

وما الذى يوجب التصريح فى مواطن يكفى فيها التلميح ؟

إن البلاغة تجعل اللَّبس والغُموض من أغراض الكتّاب فى بعض الأحيان ، فكيف تحرِّمون علىّ ما استباحه المفكرون فى مختلف العصور والأجيال ؟

إن هذا التقرير يحدِّد صلات مصر بالأمم العربية والإسلامية ويدلُّها على مذاهب الخلاص من الشُّبهات والأراجيف . وهو كذلك يشرح المعضلات التى يتعرض لها الجيل الحديث فى مصر والشرق ، وما كان يتيسر ذلك إلا إذا اعتمد الكاتب على رموز وإشارات يفهمها أُولو الألباب .

وإنى لواثق بأنكم ستعجبون حين تروننى وصلتُ إلى دقائق لم يفطن إليها أحدٌ قبل اليوم وأنا أتلقى الوحى من ليلى ومن ظمياء .

وهل كان ينتظَر من رجل يلهو ويلعب أن يصل إلى ما وصلتُ إليه فى تشريح السياسة الدولية بالشرق العربى والإسلامى ؟

ذلك شيء غريب ، ولكن الأغرب أن تتلقوا الحكمة عن أفواه المجانين !

وأعيذكم أن تظنوا أنى آذيت بهذا التقرير أحداً من الناس ، فقد عَرَضْت بعض فصوله على ليلاى بالعراق قبل أن أعرضه عليكم فتلقته بالقبول ، وهى التى علمتنى مذاهب الرمز والإيماء ، وسيُرمَى النقاد منى بداهية إن بدا لهم أن يعترضوا على ما فى هذا التقرير من رموز لا يدرك مغازيها إلا الراسخون فى الحب والطب .

ولك يا معالى الوزير أن تبْلوَ سرائر هذا التقرير إن أردت .

لك أن تسأل — بينى وبينك — عما فى هذا التقرير من غرائب وأعاجيب ...

وليس لك أن تطالبنى بأن أفسر للجمهور ما يقصد إلى طيِّه الحكماء ، وأنا من الحكماء لأنى بحمد الله مجنون !

* * *

فى هذا التقرير خطاباتٌ شخصية ، فلا يُرْعك ذلك : فقد كان أدبى من مواسم الأفراح الروحية فى بغداد ، وفيه صور كثيرة لمعالم العراق وبعض أهل العراق ، وكان فى نيتى أن أحلِّى هذا التقرير بصورة ليلى — أعزها الحب — ولكنى خشيتُ أن أخرج على أمرها العالى ، وهى قد أشارت بأن يصان وجهها الجميل عن شرّه العيون .

لا تعجب من أن أُفْتن بما وُفِّقْتُ إليه فى هذا التقرير ، فسترى أنى لم أُفرِّط فيه من شيء ، وسيدعوك إلى أن تستوحىَ ليلى المريضة فى أسوان كما استوحيتُ ليلى المريضة فى العراق !

* * *

أيها الأستاذ الجليل .

سترى فى هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التى كانت سبباً فى وقوع فاجعة بغداد ، فاقرأ تلك الصفحات — غير مأمور — لترى أن ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجَّهة إلى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجةٌ لتصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لنعرف ما فى أنفسنا من الصلاحية للاستبسال فى خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان فى نيتى أن أطوىَ تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن دعانى إلى إثباتها ما عرفتُ

من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق .

وأرجو أن تعرفوا أنى لم أتلطف فى سرد تلك الأسباب ، ولم أضف إليها شيئاً يمليه الغرض فى مراعاة مصر أو التحامل على العراق ، وإنما وقفتُ موقف الرجل الأمين الذى يقدر المسئولية أمام الله وأمام التاريخ .

وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة سترون أن الله قدَّر ولطف : فلم تكن تلك الحوادث إلا سحابة صيف ، وقد تقشعتْ بفضل الله الكبير المتعال .

وإنما أدعوك إلى النظر فى الأسباب التى دونتها بنزاهة فى هذا التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرَّضتنى إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لى غرضاً فى دفع قالة السوء عن العراق فى هذه البلاد ، وما أذاع الفِرية الأثيمة إلا أُناسٌ حميتُ أعراضهم بقلمى ولسانى ، أُناسٌ .

يَرجون عثرةَ جَدنا ولو انهم   لا يدفعون بنا المكارهَ بادُوا

وقد آذتنى تلك التهمة الفظيعة فصرت لا أمشى فى شوارع القاهرة إلا على استحياء .

ومن دعا الناسَ إلى ذَمِّهِ   ذموهُ بالحق وبالباطلِ

ولكن كيف يدعو إلى ذم نفسه من يقول كلمة الحق ليصلح بين أمتين شقيقتين مثل مصر والعراق ؟

أفى الحق أن الرجل لا يقول كلمة الصدق فى أعقاب فتنة هوجاء ، إلا إذا كان من أصحاب الأغراض ؟

لقد عشت دهرى وأنا من أقطاب الشجعان ، ولكن المقام الأغر فى حياتى هو المقام الذى استطعت فيه أن أدفع قالة السوء عن العراق فى وقت كانت فيه كلمة الحق تعرِّض قائلها لعُدوان الشُبهات السُود .

أيُتَّهَمُ رجلٌ مثلى بالغرض ؟

إن كان مثلى يُتَّهَمُ بالغرض فمصر كلُّها صائرةٌ إلى الزوال .

وعند مَنْ تُرجَى الأمانة إذا كتب الله على رجل مثلى أن يخون ؟

لقد قلتُ ما قلتُ ، وكتبتُ ما كتبتُ ، فى الدفاع عن العراق ، ومن الله وحدَهُ أنتظر حُسنَ الجزاء . فمن كان له هوًى فى أن يصدَّنى عن قول الحق فليمض فى ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد أقمتُ حياتى الأدبية على قواعد من الحديد .

وما هذه الدنيا الصغيرة التى يتعادى فيها الناس بلا بينة ولا بُرهان ؟

وما بالُ قوم يؤذونني وما قدمت إليهم غير الجميل ؟
اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

محمد زكى عبد السلام مبارك

مصر الجديدة فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٥٧
٤ من شبـــاط سنـــة ١٩٣٩

حاشية :

عزّ علىّ يا معالى الوزير أن يمرّ المؤتمر الطبى بلا وصف ، وهو أروع ما شهدت القاهرة فى هذه الأيام ، فهل يكون من الفضول أن أضيف إلى هذا التقرير صفحات تسجل ما وقع فى أيامه ولياليه ؟

إن مؤتمر العام الماضى عُقِد فى بغداد لمداواة ليلى ، ومؤتمر هذه السنة عُقد فى القاهرة لمواساة طبيب ليلى ، وفى هذا ما يوجب أن أُسجل أيامه الغُرّ فى رحاب القاهرة وسقارة والقناطر الخيرية ومصر الجديدة .

وتقبل تحيات الحافظ للعهد ...

زكى مبارك

« .... وأرجو أن يشفىَ الله ليلى على يديك ، ولا سيما وقد حشدت لها الأقطار العربية مؤتمراً طبيًّا يعاونك على أداء مهمتك السامية ...

... ويسرنى أن أعلم أنك ملأت فراغاً بالحياة الأدبية فى القُطر الشقيق ...

وأرجو أن أسمع من أخبارك ما يُطَمْئِن مصر على أحد سفرائها لنشر الثقافة المصرية العربية بالعراق »(١) .

(١) قطعة من خطاب أرسله سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف إلى طبيب ليلى فى مطلع آذار سنة ١٩٣٨

ليلى ...

ليلى ... ليلى ...

يقولـــون ليلى فى العـــــراق مريضة　　فيـا ليتنـى كنت الطبـيب المداويـــا

ليلى ... ليلى ...

يقولــون ليلى فى العـــراق مريضة　　فيـا ليتنى كنت الطبــيب المداويــا

ليلى ... ليلى ...

يقولـون ليلى فى العـراق مريضة　　فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

ليلى ... ليلى ...

يقولون ليلى فى العراق مريضة　　فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ليلى ... ليلى ...

يقولـون ليلى فى العـراق مريضة

فياليتنـى كنت الطبـيب المداويـا

ليلى ... ليلى ...

يقولـون ليلى فى العـراق مريضة

فيا ليتنى كنت الطبيب المداويـا

ليلى ... ليلى ...

يقولون ليلى فى العراق مريضة

فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

أخى الأستاذ الزيات

تحيتى إليك ، وإلى السامرين فى نادى الرسالة من كرام الأصدقاء . وتحيتى إلى القاهرة التى لا تقع فيها العين إلا على نجم أزْهَر أو كوكب لَمّاح . وسلامى على مصر الجديدة وعلى سِنْتِريس . ولو شئتُ لسلّمتُ على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلُو الجدَل ويطِيب الضجيج !

وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد .

أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبتْ أستاذاً للأدب العربى بدرجة دكتور ؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمتْ أن الغرضَ من ذلك مداواةُ ليلى المريضة فى العراق . وقد صرح بهذا سعادة الأستاذ عوض إبراهيم بك وسعادة الأستاذ محمد فهيم بك ، وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف « مدامع العشاق » .

* * *

تلك هى الأسباب التى قضت برحيلى إلى العراق ، ولولا ذلك لبقيتُ فى مصر أُحارب من أُحارب ، وأُسالم من أُسالم ، وَفقاً للنزق والطيش ، وطاعةً لصديقنا الشيطان !

ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التى سبقتْ رحيلى إلى العراق : فقد قضيتها فى درس الطب النفسانىّ والروحانىّ ، وزَوَّدتُ عقلى بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث ، من أمثال الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد عبد الحى ، والدكتور منصور فهمى ، والدكتور طه حسين .

ولم يَفُتْنى أن أستفتى بعض المولَعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوى ، والأستاذ محمد مسعود ، والموسيقار محمد عبد الوهاب .

وكان فى النية أن أستفتى بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف ولكن ضاق الوقت عن ذلك .

* * *

وجاءِ يوم الرحيل ، والتفتُّ فإذا محطةُ القاهرة تموج بعدَدٍ كبير من كرام الأصدقاء ،

وكنت أظنهم جاءوا مودِّعين ، ثم دَهِشْتُ حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليُحمِّلونى التحية إلى ليلى المريضة فى العراق !

وعند ذلك عاهدتُ نفسى وعاهدت الواجب أن أكون عند ما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل .

ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمتُ خيالىَ إلى مُغريات الأحلام . ولما وصلت إلى بيروت رجانى بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً فى ضيافة لُبنان فأبيت وقلت : كيف أتلبَّث فى الطريق والواجب يدعونى إلى عيادة ليلى المريضة فى العراق ؟

وكذلك كان حالى حين وصلتُ إلى دمشق ، فقد رجانى الأستاذ كرد على والأستاذ عبد القادر المغربى أن أقيم مدة بالشام فى ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد ، فأبيت وقلت : كيف أتمهَّل فى الطريق والهوى يدعونى إلى موافاة ليلى المريضة فى العراق !

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة فى الطريق من دمشق إلى بغداد . ولا تسلنى كيف قضيت تلك الساعات الطوال ، فقد كانت كألف سنةٍ مما تَعُدُّون ، بسبب القلق على ليلى المريضة فى العراق .

ولما وصلت ألقيت أثقالى فى الفُنْدُق ، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف أتلقى تعليماته فيما يختصُّ بذلك الروح العليل .

* * *

ستمضى الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف فى العراق ، فقد بدا رجلًا شاعراً لا يهمُّه غير الاطمئنان على ليلى المريضة فى العراق .

وجلستُ فتحدثتُ معه فى كثير من الشؤون ، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلى ، فأخذ منى العجبُ كلَّ مأْخذ ، وخشيتُ أن تكون « قصة » ليلَى قصة مخترعة ، وأننى كنت حين صدقتها من كبار الأطفال !

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطانى وكيل العميد جدولًا يقصم الظهر ، وهو دروس فى الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن ، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلى المريضة فى العراق . فتأكدت مرةً ثانيةً أن قصة ليلى من اختراع الخصوم الألِدّاء الذين أرادوا أن يستريحوا منى فزينوا لى الرحيل إلى العراق .

ثم خطر بالبال خاطر طريف : فقد حدثتنى النفس بأن مرض ليلى لا يهمّ أهل العراق ، وإنما يهمّ المصريين ؛ وإذنْ فلا بدّ أن تكون المفوضية المصرية على بينة من هذه القضية . فأخذت

.عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال المفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة في العراق وصرح أحدهم بأن هذه القصة من أوهام الشعراء .

وكذلك عرفتُ مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً فى خداع . وعند الله جزائى على الصدق فى الحب .

* * *

قضيت الأسبوع الأول وأنا فى همٍّ مُقْعِدٍ مقيم . وهل كان يُعْوِزُنى أن أدرس الأدب وفقه اللغة والتفسير ؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلى حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً للأدب فى مدرسة عالية ؟ إنما كنت أرجو أن أؤدى رسالة عجز عنها الزيات والسنهورى وعزام ، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلًا ساذجاً لا يدرك وجه المِحال ، فى أحاديث الرجال .

وفى الأسبوع الثانى تلقيت رسالة من القاهرة : رسالة من الآنسة جيمى التى ملكتْ نُهَاى حيناً من الزمان ، وهى تسأل وتُلحُّ فى السؤال عن ليلى المريضة فى العراق . وللآنسة جيمى حقوق ، فقد كانت أوهمتنى فى السنين الخالية أن الهوى إلٰه معبود ، وبالرغم من تجنِّيها فى الأيام الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمرٌ يجب أن يطاع . ومنَّيت نفسى برضاها فى الليالى المقبلات ، حين يسمح الدهر بمسامرة الأنجم الزُّهر على ضفاف النيل . فهل ترانى أعيش إلى ذلك العهد يا صديقى الزيات ؟ وهل أعاقر الهوى من ذلك الرُّضاب بعد أن تدول دولة الفراق ؟

ولكن ماذا أصنع ؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة فى العراق أصل بها إلى قلب الآنسة جيمى ؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد اختراع الأقاصيص ؟ ومعشوقتى تميز بين الصحيح والمزيف من أحاديث الوجدان !

رعاك الله يا جيمى وأرانى وجهك الجميل ؟

* * *

ما أعجب ما تصنع المقادير !

هذا رجل يسأل عنى بالتليفون تسع مرات فى كل يوم ؛ وها هو ذا ينقلنى بسيارته إلى منزله الفخم بالكاظمية ، ويسألنى كيف وجدت ليلى ، فأتضاحك وأنا محزون ، وأقرر أن ليلى اسم اخترعه العابثون من الشعراء ؛ وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول : إن ليلى لا تزال مريضة فى العراق ، ولكن العراقيين يتجاهلون ذلك ، لأنهم فى هذه الأيام مرضَى بالجد والنشاط ،

ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان . ولا تعجب إن كتم عنك رجال المفوضية المصرية أخبار ليلى ، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوقار الذى تصطنعه حكومة العراق .

وما أكاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضى به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلَى ، وما هى إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع فى شارع العباس بن الأحنف ، أحد شوارع بغداد ، وأطْرُق الباب برفق كأننى على ميعاد ، وتخرج وصيفة فتقول :

« من الطارق ؟ » .

فأقول :

« أنا الدكتور زكى مبارك » .

فتقول :

« أُدخل بسلام ، فإن ليلى تنتظرك منذ سنين » .

... ودخلت أعدُو خلف الوصيفة فى بَصَرٍ زائغ ، وقلبٍ خفّاق ، فلم أكد أتبين مَدخل البيت ، وعثرتْ قدمى على السلم عثرةً خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتنى الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفتُّ أدرس أثاث الغرفة فى لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نُقش عليها هذا البيت :

يقولــون ليلى فى العــــراق مريضة   فيا ليتنى كنت الطبـيب المداويــا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التى جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعتْ فى ترجيع هذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكى مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهدى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة فدفعنى الملال إلى التلهى بالنظر فى سَلّة المهملات ، وما أدرى كيف وقعت فى هذا الفضول ، فهل تصدقون أنى رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من « فلان » يؤكد لها أن زكى مبارك أديب وليس بطبيب ؟ سامحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

* * *

لعل ليلى فى زينتها ، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائى كل هذا الزمن الطويل ؟

ثم فُتح الباب ، ودخلت امرأةٌ ملفوفةٌ بالسواد لا تقع العين منها على شىء ، ولِم لا أقول : دخل شَبَحٌ أسود نحيل كأنه عود الخلال ؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبى من تواتر الخفوق ، وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمتْ ليلَى .

رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أُذنىَّ لا عهد لهما بمثل هذا الصوت المتكسِّر الناعم الحزين .

ومضت ليلى تتكلم وتُسهب ، ولكنى لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا الصوت ، هذا الصوت الذى يذكرُّنى بتلك الفتاة التى خَفَقَ القلبُ لها أولَ خفقة ، والتى قلتُ فيها أول قصيدة ، وسكبتُ عليها أول دمعة ، تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت

سماء سِنتريس .

ما هذا الصوت ؟ يا رباه ! أفي الحق أني سمعت أمثال هذه النبّرات على كثرة ما طوّفتُ في البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهرٌ لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس وإنما هو من جواهر العراق ، هو صوت تحدَّر عن تلك الإنسانة التي قال فيها أحد المفتونين :

وكـأنَّ رَجْـعَ حديثهـا قِطَعُ الريـاض كُسِين زَهـرا

هو صوت تحدر عن تلك الإنسانة التي قال فيها أحد القدماء :

رُهبانَ مَدْيَنَ والذين عهدتُهمْ يبكون من خوفِ العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خرُّوا لِعَزَّةَ رُكعًا وسُجُـودا

هو صوت ليلى يا بني آدم ، ليلى المريضة في العراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللُّعاب !

* * *

ثم انتبهت ، فقلت في نفسي : إن ليلى بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تَهُدُّ رواسيَ الجبال .

ثم انطلقنا نعدو في شجون الأحاديث ، فسألتني عن مصر ، وسألتني عن صاحبة الذهبية التي ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جِسر إسماعيل ؛ فعجبتُ من أن تصل أخباري إلى ليلَى وهي مريضة في العراق ، وقلت : إن تلك الإنسانة بخير ، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة وقد صحا القلب يا ليلى فلم يعد بيننا تلاقٍ منذ ربيع سنة ١٩٣٥ ، والله المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلى وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خلَّيتَ لِغُلْفِ القلوب ؟

ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل ، وسألتني عن كثير من الأدباء ، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت : إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟ فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين في بغداد ولم يسأل عني ؟ فتشجعت وقلت : لعل له عذراً وأنت تلومين ، ذلك رجل يتهيب أقاويل المرجفين .

واستطردتُ فقلت : ولعل الدكتور السنهوري قام بالواجب .

فضحكتْ ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت : السنهوريُّ أغلظُ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟

فأجابت : أَوَكنت تحسبنى أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك فى قلبه مجالًا لرقيق الأحاسيس .

فقلت : لقد مر الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟

فقالت : هو رجل صافى الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه فى مصر أن العالم الحق لا يليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان .

ثم أغرقتْ فى صمت مُوحِش حسبتُه لوناً من العتاب .

* * *

وجاءت أقداح الشاى ، فتجرأتُ وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟

نحن فى حضرة ليلى وتحت سماء بغداد !!

فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن فى رمضان ... وأنتَ ؟

فقلت : وهل حسبتنى من الكافرين ؟

وفهمتُ أننى أخطأت فغيرت مجرى الحديث .

— مولاتى ليلى !

— نعم ، يا مولاى !

— إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين .

— أعرف ذلك ، وهو فضلٌ سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحشُ ما أوحشُ من الشعر والخيال ، ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون .

فقلت : البركة فى الحكومة العراقية .

فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغانى والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :

يقولــون ليلى فى العـــــراق مريضةٌ   فيا ليتنى كنت الطبــيب المداويــا

وهنا تنبهت إلى أنى لم أسمع هذا الصوت فى بغداد .

فقلت : وكيف تحرِّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟

فأجابت : إن الحكومة فى هذا الزمن لا تعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع ، وهى تُبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يُرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى

المريضة بالعراق .

فقلت : وكيف يصح ذلك وعندكم وزيرٌ مُشرِق الجبين هو المِدفعيّ ، وعندكم وزيرٌ أديبٌ هو الشبيبى ؟

فقالت : أما المِدفعيُّ فله من اسمه نصيب ، لأنه منسوبٌ إلى المِدفع ؛ وأما الشبيبى فلا تغرّنك بسماته العِذاب ، فقد كان شاعراً فيما سلف ، أما اليوم فهو من دواهى العراق ، العراق الذى يعبد النضال .

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح .

* * *

ـــ مولاتى ليلى !

ـــ نعم يا مولاى !

ـــ إنما جئت للاهتمام بصحتك .

ـــ أشكر لك يا دكتور ، ولكنك تكرر هذه العبارة ، فماذا تريد ؟

ـــ أريد أن أرى وجهك ويديك .

ـــ وهل تريد أن تخطبنى ؟

ـــ ليس هذا ما أريد ، فلى بحمد الله أهل وأبناء .

ـــ إذن ماذا تريد ؟

ـــ اعقلى يا ليلى ، إن الأمر كله جِدّ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتنى إليك ، ثم بالغتُ فى الاحتياط فأوعزتُ إلى الدكتور على باشا إبراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل فى بغداد ، وأنا أحب ألا يُعقَد المؤتمر إلا وأنت فى عافيةِ الفرس الْجَمُوح ، فإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن أقدِّم للمؤتمرين تقريراً ضافياً يشهد بأننى لم أُضع الوقت فى التعرف إلى عيون الظباء . وسيَقْدَم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومى الألدّاء وأخشى أن يَشىَ بى فيصرح لمعالى الأستاذ نجيب الهلالى بك بأننى لم أكن فى الحرص على مهمتى من الصادقين .

وبدأتْ ليلى فكشفتْ عن يديها ، فانخلع قلبى من الرعُب ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق .

فتماسكتُ وقلت : وعيناك ؟

فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له فى ماضيه تاريخ جميل ، وتأملتُ أنفها مرات

ومرات فرأيت فيه أخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان .

ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وقُوعَ الطائر الظمآن على الورِد النمير .

الله أكبر ! ما هذا السحر المبين ؟

أأنت مريضة يا ليلى ولك هاتان العينان ؟

فابتسمتْ وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إلىّ أنك أديب ولست بطبيب !

فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة فى قلبك المروَّع يا مريضة العراق .

وقضيت ساعتين فى مسامرة ليلى ثم استأذنت فى الانصراف . والله المحمود على نعمة ذلك الحديث .

* * *

والآن أُوجِّه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على ليلى المريضة بالعراق ، ولا سيما الأستاذ محمد الهراوى الذى دسّ فى جيبى دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق ، إليهم أوجِّه الكلام فأقول :

بنى وطنى .

إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وجلاوة العينين ؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنَى والنُّحول ، وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة .

وقد كلَّفتُ السيدة جميلة المقيمة بشارع صريع الغوانى أن تحتال فى دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة فى منزلى بشارع الرشيد ، فإن حضرتْ تلك الوصيفة فسأعرف سِرَّ ليلى ، سأعرف كيف قضتْ أهوالُ الحب بأن تصل إلى ذلك النحول .

فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شىء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبى أدراج الرياح .

وأنا أرجو صديقى الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما أُحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول .

* * *

وأنت أيتها السيدة التى اسمها جميلة ، والتى زعمتْ أننى فتى جميل ، اسمعى ، ليس يهمنى بالدرجة الأولى على حد تعبيركم فى بغداد أن تغسلى ثيابى ، وأن تحضرى لى مائدة فخمة فى كل أسبوعين ، يا بخيلة ، وإنما يهمنى أن تقودى وصيفة ليلى إلى منزلى ، إلى غرفة الاستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق .

يا جميلة ! لقد كنت فى صباك جميلة ، فكونى عندما أرجوه من محمود الظنون .

يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى فى الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله بالتوفيق كفيل .

٣

... وفى صباح يوم السبت توجهتُ إلى بَهْو أمانة العاصمة لأؤدِّى واجب التحية ، تحية العيد إلى وزراء الدولة . وقد ظننى فخامة الرئيس عراقياً ، لأنى كنت بالسُّدارة ، فسرنى ذلك . وكانت فرصة طيبة عيَّدت فيها على رجال كان يجب أن أذهب إليهم فى منازلهم ؛ وراقنى أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد ، وهى عادة حسنة كنت دعوت إليها فى الرسالة التى قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية : رسالة (اللغة والدين والتقاليد) .

وتلفتُّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير إلىّ ، وما هى إلا لحظةٌ حتى كانت يدٌ كريمة تصافحنى وتقول : أنا الدكتور شوكة الزهاوى رئيس الجمعية الطبية العراقية ، وقد سألتُ عنك مرات لأن اسمك يرد كثيراً فى المخابرات التى تجرى بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية ، والحمد لله على أن اهتديتُ إليك بعد التشوف والاشتياق .

ثم استطرد فقال : إيش لون ليلى ! (واللون فى عرف العراقيين هو الحال فى عرف المصريين) .

فقلت وأنا أبتسم : ستعرف ذلك يوم أُلقى بحثى فى المؤتمر الطبى عن ليلى المريضة فى العراق .

فقال : عجِّل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء . فأخرجت ديناراً لم يكن معى سواه وقلت : إليك الدينار فى سبيل ليلى ! والله المستعان(١) .

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التى كلفتُ الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقى الزيات من كلمة تكليف ، فكذلك قلت ، وما أكذب عليك) .

* * *

وفى المساء ذهبتُ إلى نادى المعارف واشتركت فى استقبال الكشافة السورية ، وألقيت خطبة تناسب المقام . وما كادت تنقضى الحفلة حتى عَدَوت إلى منزلى لأنتظر وصيفة ليلى .

---

(١) اعترض باحث فى مجلة الرسالة على عبارة « إليك الدينار » وقال إن الصواب « هاك الدينار » . فليعرف أن العبارة الأولى هى أيضا صواب .

وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضُرْ أحد ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء الفُضول !

ثم تذكرت أنى أُؤدى خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ ، فانشرح صدرى بعض الانشراح ، وهدأت ، ثم أخذت أقلب أوراق فى سكون واطمئنان .

وبعد نصف ساعة أحسستُ يداً رفيقة تطرُق الباب ، فخففت إليه فى وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين .

وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة فى نصف الليل ؟ وليتها كانت زيارة تذكِّر بالأيام الخوالى حين كنتُ أدرس الطب فى باريس ، وحين كنتُ أترك الباب بلا رِتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء .

إنها زيارةٌ جَرْداء ستنقضى فى السؤال والجواب ، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية الحرمات .

* * *

دخلت جميلة أولًا ، وتبعتها وصيفة ليلى . دخلتا ملفوفتين ، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين ؛ وشعرتُ بشىء من الخجل للفقر البادى فى غرفة الاستقبال ، ثم تماسكتُ حين تذكرتُ أن هاتين المرأتين تفهمان بلا ريب أنى طبيب غريب ، وأن الوقت لم يتسع لتأثيث العيادة والبيت .

ــ يا جميلة ، ما اسم هذه الوصيفة ؟

ــ اسمها ظمياء ، ولكن ما ذنبى عندك يا دكتور حتى تغير اسمى ؟

فقلت : لن أذكر اسمك الصحيح فى علاج ليلى ، لأنى لا أريد أن تغتنمى الفرصة فتصبحى عَلَماً على حسابها يا خَيزبون !

وأخذت المرأة فى اللجاجة ، ولكنى انصرفتُ عنها والتفتُّ إلى ظمياء .

ــ إيش لَون ليلى ؟

ــ بخير ، يا دكتور ، وقد سَرَتْ فى روحها البشاشة منذ الوقت الذى رأتك فيه ، ولكن فى نفسها منك شىء .

فقلت وأنا منزعج : وما هو ذلك الشىء ؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين !

فأجابت : كَتب إليها كثيرٌ من أدباء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب .

فقلت : هؤلاء دساسون ، وقد آذونى قبل ذلك أبلغ إيذاء ، فقد كنت خطبتُ فتاةً فى باريس وطاب لى معها العيش ، إلى أن تدخَّل المفسدون وحدثوها أنى متأهل ، وأن لى خمسة

أبناء . وأنا يا آنستى رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولى رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب .

فقالت : ولكن ليلى رأت فى صدور كتبك أنك دكتور فى الآداب .

فقلت : هذا تواضعٌ منى ، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب ، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبلغى ليلى فتطمئن . عندى يا آنستى ثلاث دكتوراهات : الأولى فى الآداب ، والثانية فى الطب ، والثالثة فى القانون .

فتهلل وجه ظمياء وقالت : الآن فهمت ما يُنشر فى الجرائد من أنك تلقى محاضرات فى كلية الحقوق .

فقلت : هو ذلك يا آنستى . وستقرئين فى الجرائد بعد حين أنى أُلقى محاضرات فى كلية الطب .

والآن ندخل فى صميم الغرض من هذه الزيارة الليلية ، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف ، لأنى لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتى مرة ثانية ، فإن العيون تترصدنى من كل جانب ، وسمعة الطبيب هى كل ما يملك ، وأنت فى الحق فتاة حسناء ، وأخشى أن تحيط بى من أجلكِ الظنون .

فتنهدتْ وقالتْ : العفو يا دكتور ! إن مرض ليلَى هدَّنى ولم يُبق منى على شيء من العافية .

فقلت وقد غاظنى أن تحسبنى أتغزل : اسمعى ، ليس الوقتُ وقتَ دَلال ، أنتِ هنا فى خدمة الواجب ، أجيبى على الأسئلة الآتية بصدق وصراحة ، واحذرى عواقب المداورة فى الجواب .

— هل ترين ليلى امرأة مصونة ؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات ؟

— ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور ، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أثيمة أن تقول فى حقها كلمة سوء ، فهى مثال الطهر فى بغداد ، وحديثها كالعِطْر فى جميع أرجاء العراق .

— وكم سنُّ ليلى الآن ؟ وكيف كان ماضيها فى الحياة الزوجية ؟

— هى فى حدود الأربعين ، ولا تزال عذراء .

« وعندئذ دونت فى مذكرتى أن المرأة التى تصل إلى سنّ الأربعين وليس لها زوج ولا أطفال معرَّضةٌ لكثير من الأمراض ، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس فى المؤتمر الطبى » .

ثم رفعتُ بصرى إلى ظمياء وقلت : ولكن كيف اتفق أن تعيش ليلى كل هذا العمر عذراء القلب ؟

فتلجلجت الفتاة ثم لاذتْ بالصمت ، فنهرتْها بعنف ، فأُجابت وماتكاد تُبين :

ـــ كانت تحب الضابط عبد الحسيب .

ـــ ومن هو الضابط عبد الحسيب ؟

ـــ فتًى كان فى الجيش العراق ، وأبوه من مصر ، وأمه من لُبنان .

٤

ـــ ضابط فى الجيش العراق أبوهُ من مصر وأُمهُ من لبنان ؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء ؟

ـــ لذلك يا سيدى تاريخ ...

ـــ انتظرى قليلًا ... قبل أن ندخل فى تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب ، أحب أن أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أولَ حب ؟

ـــ نعم يا سيدى أول حب .

ـــ منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط ؟

ـــ منذ اثنى عشر عاماً .

ـــ تذكرى يا ظمياء أنك قلت إن ليلى فى حدود الأربعين ، فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين ؟

ـــ نعم يا سيدى ، وما أقوله تشهد به السِّت جميلة ، وتعرفه الخالات والعمات والجارات فى شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى .

ـــ ولكن هذا غير معقول ، فما يمكن أن تَظَلّ فتاةٌ عذراءَ القلب إلى الثامنة والعشرين !

ـــ أنت يا سيدى غريبٌ بهذه المدينة ولا تعرف النساء فى بغداد .

ـــ بغداد فى عينك يا ظمياء ! وهل بغداد تحمى المرأة من أن تكون لها عينٌ تنظر وقلبٌ يميل !

ـــ أؤكد لك يا سيدى أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب

ـــ ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زواج إلى الثامنة والعشرين ؟

ـــ لقد حَفِيتْ أقدامُ الخاطبين وهى ترفض بلا سبب معقول .

« فدونت فى مذكرتى أن الفتاة التى ترفض الزواج ، ويطول بها ذلك ، لا بدّ أن تكون أُصيبتْ بنوبة حب ، ولا بدّ أن يكون ذلك الحب صوَّر لها فحولة الرجل فى صورة فلسفية أو أدبية . ولكن هذا الحب سيظل مجهولا ما دامت ليلى تكتمه ، وما دام النساء اللائى يُحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة ، على قلة ما نرى من النساء الغافلات . ويظهر أن موقفى سيكون دقيقا فى المؤتمر الطبى ، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال فى أخيلة النساء ، ولكن لا بأس فهى

فرصة طيبة لشرح آراء شِيث بن عَرْبانُوس* فى هذه القضية . على أنى سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب ، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذى نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب فى الأمراض العصبية » .

— دكتور ! ماذا تكتب ؟

— اسمعى يا بلهاء .

— هذا جزاء من يصنع الجميل !

— أستغفر الله ! إنما أردت أن أقول : اسمعى يا ظمياء . أنا يا بُنَيَّتى أُقيِّد ملاحظات تنفعنى فى مداواة ليلَى ؛ ومرضُها كما تعلمين عصيب ، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد ، والله المعين .

« ولكن ألا يمكن أن يقال : إن ليلى مرضتْ فى صباها بالغفوة الروحية ، ولم تُفِق إلا فى الثامنة والعشرين ؟ ومن يصدِّق حديث الغفوة الروحية ؟ لقد كنتُ الطبيبَ الوحيدَ الذى استكشف هذا المرض الخبيث وألقيتُ عنه محاضرة فى باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية فى الطب ثم نشرتُ خلاصة بحثى فى المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر — وأسفاه — بغير السخرية يواجهنى بها زملائى فى مصر ، ويراسلنى بها أساتذتى فى باريس » .

— دكتور ، ألا ترى كيف أُقَفْقِف من البرد ؟

— اسمعى يا بلهاء ، فما عندى لك دفء .

« وما الذى يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة ، فرصة انعقاد المؤتمر الطبى فى بغداد ، لإعلان نظرية الغَفوة الروحية بطريقة دولية ؟ إن الشواهد تحت يدى ، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا فى سلك الكَهَنُوت وهم شُبّان ، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين ، ثم استيقظَتْ أرواحهم فجأةً فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين ، ومنهم صديقى فلان الذى عرفته فى حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديقى فلان الذى عرفته فى مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ .

ولكن كيف أقول هذا الكلام فى المؤتمر الذى يعقد فى بغداد وأنا أشتغل بالتعليم فى بغداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم فى المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب ، والناس جميعا يعرفون أنى أحرزت الدكتوراه فى الطب قبل أن أحرز الدكتوراه فى الآداب » .

— دكتور ، أروح ؟

— وأين تروحين ؟ اجلسى يا بلهاء .

* تجد هذه الآراء فى كتاب زكى مبارك (بين آدم وحواء) طبع دار الجيل . بيروت

— أنا اسمى ظمياء .

« ولماذا أفضح نفسى فى المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارس ؟ لماذا لا أكتفى بالشواهد التى أعرفها فى مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس فى صباه ؟ ألم يكن يُحَوْقِل ويستغفر ويسترجع حين يَطْرق أذنيه بيتٌ من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقنى اليوم إذا قلت إنه كان فتًى عفيفاً ؟ وكيف يصدقنى الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطفُ ماجن وأظرف عِرْبيد ؟! » .

— دكتور !

— اخرسى يا بنت !

— إيش لون ؟

— ما أدرى شلون !

« إن حال ليلى فى جوهره يرجع إلى فَرْضين : الفَرْض الأول أن تكون رأت فى مطلع صباها صورة مسَّت شغاف القلب ثم اختفتْ تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملامحها فى أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيه ملامح الحبيب الضائع ، فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم يقظةً مُرْعِبةً ضجَّت لها بغداد ؛ والفرض الثانى أن تكون أصيبت بالغفوة الروحية ، ذلك المرض الخطِر الذى تفردتُ باستكشافه والذى سيجعل لى مَقام صدقٍ فى عالَم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب » .

— دكتور ، طال مُقامى عندك ، وليلىَ ستظنُّ الظنون !

— أىّ ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذى خُرِّبتْ عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره فى العَشيّات .

— وأنتِ تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هذا الغرور الفظيع الذى لا تخلو منه امرأة شوهاء !

« وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكةً رجّت أركان البيت » .

— اعقلى يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغِم . فأنت فى حماية هذا التخوُّف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش فى بلدكم ما أعيش ، ثم أخرج بإذن الله وأنا أبيض الصحائف وضّاح الجبين .

— هل معنى ذلك أنى فى أمان ؟

— فى أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهيننى ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تَهِيج الغواية فى قلوب الرجال !

« وهنا دونتُ فى مذكرتى أن المرأة لا يسرها أن تكون فى أمان ، لأنها لا تكون فى أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياءَ فتاةٌ شريفة ، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهى تحبُّ أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدَّعيه لنفسها من حسن مرموق » .

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثينى عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب .

— كانت بداية القصة فى سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشَّعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت فى وصف المعرض الزراعى والصناعى الذى أقيم فى الجزيرة بالقاهرة فى ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرتْ من ضجيج السياسة فى بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجَّعتها والدتها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلَى تطالع سِفر الحياة على شواطئ النيل ، وطن مولاى الطبيب .

٥

أخبار قصيرة

١ ــ اعترضتْ مجلة الحاصد على عبارة « ليلى المريضة بالعراق » . وقالت : إن البيت المشهور يجعلها مريضة فى العراق لا بالعراق ، وتسألنا عن معانى الباء ، ولكننا نعرف أن الجدل فى النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم ، فلنصرح بأن الباء فى العنوان القديم لم يكن لها فى ذهننا معنى غير الطرفية ، على حدّ ما قيل :

ومن يك أمسى بالمدينة رحلُه فــإنى وقيــارٌ بها لغــريبُ

فاتركنا يا سيد أنور ما تركناك !

٢ ــ نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الإذاعة اللاسلكية ينفى بها ما نُشر فى مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة السيدة نادرة :

يقولون ليلى فى العراق مــريضةٌ فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه الأسطوانة من الأذاعة ، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلى وهى عندنا أصدق .

٣ ــ كثر الاستفهام عن السيد الذى يقيم بالكاظمية والذى تفضّل فهدانى إلى منزل ليلى ، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه فى هذه الأحاديث الوجدانية .

٤ ــ طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلى الزهاوى ، فإن الزهاوى كانت ليلاه هى العراق ، وأنا أصرح بأن ليلاى فى بغداد هى ليلى المريضة فى العراق ، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد .

* * *

وبدتْ لى ظمياءُ فتاةً شاعرةَ العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين . وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل .

والحق أن ظمياء فى جوهرها فتاةٌ مليحة ، ولكنى أغالب نفسى فأقول إنها شوهاء ، مداراةً للمرأة جميلة التى تفحص أسارير وجهى بعينين كأنهما عينا العُقاب ، وما أدرى والله كيف نجحتُ فى اصطناع التجمل والتوقر وكنتُ طول حياتى مَفضوحَ النظرات .

— ظمياء .

— نعم يا مولاى .

— كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيتى ؟ بالسيارة أم بالطيارة ؟

— لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً فى سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام ، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس ، وقد قضينا على شاطئ القناة ثلاث ساعات مرتْ كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات .

— وهل التأمل يقصِّر الوقت يا ظمياء ؟

— لا أعرف يا سيدى الطبيب ، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقى فى قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهى فى حلاوة الرَّشأ النَّشوان .

— لا أعرف أن لشوقى قصيدة فى قناة السويس ، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى .

— لا ، يا سيدى ، هي قصيدة .

— هل تحفظين منها شيئا ؟

— أحفظ المطلع :

تلك يا ابْنَىَّ القناه　　　لقومكما فيها حياه

— هذه ليست قصيدة يا ظمياء .

— ليلى تقول إنها قصيدة .

— القول ما قالت ليلى ! ثم ماذا ياظمياء ؟.

— كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورنى فى أمر المصريين الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون فى التاريخ .

— ولكنها أضرت مصر يا ظمياء .

— هذا يا سيدى كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتُنشئ من المرافق ما بَخِلَتْ به الطبيعة القاسية على الإنسانية ؟ إن الحياة يا سيدى الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد ضحتْ مصر بمالها وسلامتها فى سبيل الإنسانية ، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء .

— هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تهمنى الآن ، ثم ماذا ؟

— ثم دخل الليل ونحن على الشاطئ ، وطلع القمر فتحوَّل الوجود إلى مَوْجة فِضِّية تفتن القلوب ، ونظرتُ إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آيةً من آيات السّحر والفُتُون .

— دخلنا فى الغَزَل يا ظمياء .

— أنت الذى شجعتنى على الوصف يا مولاى .

— اسمعى ، هنا سؤال مهم : هل رأيتِ ليلى على القناة فى حال تختلف عما كنت تعهدين وهى فى بغداد .

— أنا أصغر من ليلى سنًّا كما تعرف .

— مفهوم ، مفهوم ، وهل تخفى على مثلى هذه الفروق ؟

— لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقةٌ سطحية بابن عمى عبد المجيد .

— يظهر أنك فتاةٌ مُتْعِبَة وحمقاء . ما شأنى بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟

— أنا أريد يا سيدى أن أقول إنى لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يَطلُع القمر أو حين يَهُبُّ النسيم ، وإنما فَطِنتُ إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى . وأقول لك إنى فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحبٍ مجهول ، فقد كان للقمر على وجهها أضواءٌ وظِلال يطير لها لُبُّ الحكيم ، وقد مددتُ ذراعىّ فطوقتُها فانعطفتْ علىّ وقبلتنى قُبلةَ عطفٍ لن أنساها ما حييت !

« وهنا تذكرت الوجه الذى كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال ، وجه الإنسانة النبيلة التى أتحفتنى بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل فى بغداد ، وكِدتُ أتنهد ثم تماسكت . ولى قدرة على ضبط النفس فى بعض الأحوال » .

— كَفَى ، كَفَى .

— تحب يا سيدى أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟

— إن كنت تحبين ذلك ...

— أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهى تحب ذلك .

— وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال شوقى إلى القاهرة .

— تعرف يا سيدى محطة باب الحديد ؟

— أراها يا بُنَيَّتى فى طيف الخيال !

— لقد أرهقنا الحمالون ...

— أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين . إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء .

« ثم سكتُّ لحظة فقد تذكرتُ أنى زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين والمودعات فى القطار الذى يقوم إلى بورسعيد كل مساء . وتذكرت أنى كنت أُضحِّى بمكانى فى قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عينى وقلبى

بالحسن الذى يموج فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التى استقبلتها فى تلك المحطة عند منتصف الليل فى الشتاء الماضى ، تلك الفتاة التى جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معى الأهرام فى ليلة قمراء . تذكرتُ وتذكرت حتى كاد يفضحنى الدمع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فهو وحده يعلم ما يقاسى قلبى من الغربة بين القلوب » .

ــ ثم ماذا يا ظمياء ؟

ــ ثم اخترقنا شارع كامل .

ــ هو اليوم شارع إبراهيم .

ــ أفادك الله !

ــ يا لئيمة ، فيك أشياء من دعابة بغداد !

ــ ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم فى شارع قصر النيل ، وكانت ليلَى قد تعبتْ فظلت فى البيت يومين كاملين .

ــ وهل فى الدنيا إنسانٌ يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه فى البيت يومين ؟

ــ قلت إن ليلى كانت قد تعبتْ ، والحق أن ربة البيت الذى نزلنا فيه نهتنا عن الخروج ، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد ، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم من فضول الناس ، وفى يومين اثنين أحضرتْ تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بثيابى ورأيت أنى تجددت ؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنتْ أن الخروج بهذه الثياب ينافى الحياء . وفى الحق أن ليلى بدت فى تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب أن تمشى فى الجادّة(1) وهى سافرة الوجه ، وكان الثوب المصرى يكشف بعض االطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى فى تلك الساعة وهى غاضبةٌ لرأيت العجب العُجاب ، فقد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها المرموق ، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحةً للعراق .

وعندئذ قهقهتْ ربة البيت وقالت : « اسمعى يا ليلى ، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف » فسكنتْ ليلى قليلاً ، ثم لبست المعطف فوق الفستان ، ونظرتْ فى المرآة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية

---

(١) الجادة فى بغداد هى الشارع .

المعرض .

ـــ ثم ماذا ؟

ـــ وخرجنا فعبرنا جِسر قصر النيل .

ـــ هو اليوم جسر إسماعيل .

ـــ أفادك الله !

ـــ يا مضروبة ، هل تخرجت فى الأزهر الشريف !

ـــ دخلنا المعرض ، أو دخلت أنا ثم تبعتنى ليلى ، فقد كانت على غاية من التهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدى الطبيب .

« وهنا ابتسمتُ ابتسامةً خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذى لزيارة المعرض ، فيهم إبراهيم رشيد وإبراهيم نصحى ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادى شعيرة ومحمد على حافظ ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمى ومحمد حمدى البكرى وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيرى ، ويسرنى أن أقول : إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالى . ثم شعرتُ بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرارُ من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية مَن فى المعرض ، ولعلنى كنت أعثر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولكن ما فات مات فاقتل نفسك إن شئت يا صريعَ المِلاح » .

ـــ ثم ماذا يا ظمياء ؟

ـــ ثم طوَّفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده .

ـــ مات ، يرحمه الله .

ـــ يا عينى ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة وقدَّم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم .

ـــ ثم ماذا ؟

ـــ ثم ركبنا القطار ، قطار المعرض ، وكان أَمَامنا شابٌ يُسارقنا النظر بعينين خَضْراوين ، فتكلَّفتُ الشجاعةَ وهممتُ بزجره ، ولكن ليلى ضغطت على يدى فاعتصمتُ بالصفح الجميل .

٦

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأنى سأهتدى إلى سرّ ليلى . وقد عرفتُ أيضاً أنه لا بدَّ لى من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مَداه ، فقد قضيتُ دهرى وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقارى أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التى قضت بأن يُطوَى عنى إلى الأبد سرُّ السيدة (ن) فقد كانت عرفتْ من صواحبها أن شفاءها عندى ، وجاءت الشقية إلى عيادتى بشارع المدابغ ، فلما فحصتُها تبين أن العلة لها سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تَفرُّس المُحجَّب من سرائر النفوس ... انهدَّتْ تلك السيدة على المقعد وبدأت أحاورها فى ماضيها لأعرف سرَّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضى حتى طار صوابى ، فوضعتُ يمناها على صدرى ولكن الشقية لم تمهلنى وأفلتتْ كالظبى المذعور ، وبذلك طُوِىَ عنى سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً فى انتقالى من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد .

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف : فهى عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيتُ لا تسكن إليك إلا إن ضمنتْ حسن الأدب وكرم العفاف ، وهى عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها بمعسول الأحاديث وإنما تنطلق كالبحر الثجَّاج ؛ فإذا ارتابت فى أدبك ... لا أدرى ما تصنع فإن الله رحمنى من أمثال هذه المواقف منذ قَدِمْتُ العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّنى إلى وطنى مُشرق الجبين .

وجملة القول أنى تجلدتُ وتماسكت ، فمضتْ ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عَذُول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلاتٌ يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود .

ـــ ثم ماذا يا ظمياءُ ؟

ـــ ثم وقف قطار المعرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورةً ثانية قطعتها فى ذهول .

ـــ وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

ـــ ألست إنسانة ، يا سيدى الطبيب ؟

« وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتى ، فأفهمتها أنى أنكر عليها هذه البَدَوات ، لأن الذى يهمني هو الوقوف على سرّ ليلى ؛ وأشهد أنى لم أجد صعوبة فى اصطناع هذا النفاق ، فقد مَرَنْتُ عليه بفضل ما ابتُليتُ بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت ، ويكفى ما مرَّ بى من التجارب ، وأخشى أن تقنعنى الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق » .

— أنت يا مولاى طلبتَ أن أقص الحديث كما وقع .

— كما وقع لليلى ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت فى عافية وليلى هى المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفنى استقصاء أخبار المتيمين فى العراق ، وإنما كلفتنى مداواة ليلى المريضة فى العراق .

— فهمتُ يا سيدى فهمت .

— زين ، زين ، ثم ماذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان .

— عاشقان ؟ وهل يتم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السينما يا ظمياء ؟

— وقع التلاحُظ بين ليلى وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق من عندى .

— شىء جميل ! فى أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمتْ فيها ليلى ، وهى المدرسة التى أنشأها حكمت سليمان فى سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثمانى ، وكان حكمت سليمان مدير المعارف فى بغداد ، وكان تعليم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التى يختلف حولها المسلمون ، فكانت ليلى أول فتاة قُيِّد اسمها فى تلك المدرسة .

« وهنا دونت فى مذكرتى أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبى ، ولعلها تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على التقاليد تُحدِث رجّةً فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب فى باريس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق » .

— وهل دُرتم بالقطار دورةً ثالثة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد خشيتُ ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلتْ ونزل الفتى ؛ ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض ، فإنى أراها غريبة بهذه البلاد ؟ ولكن ليلَى لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف الفتى أن سهمه طاش فمضى كاسف البال .

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، وكان الجوُّ كله جوَّ ضحك ، ولكن ليلى لم تبتسم ، ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام فى ذلك اليوم .

ـــ مسكينة ليلى !

ـــ نعم يا سيدى مسكينة ، فقد قضتْ ليلةً مؤرقة ، ثم أزعجتنى من نومى قُبَيْلَ الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض .

ـــ ورجعتما إلى المعرض ؟

ـــ رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة .

ـــ عشرين مرة ؟ ولماذا يا حمقاء ؟

ـــ لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

ـــ ورأيتماه ؟

ـــ ما رأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور ، هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تُنبت الجمال . وقد أمتعتُ عينى بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال .

ـــ مسكينة ليلى !

ـــ هل تسمح لى أن ألطم يا سيدى ؟

ـــ تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة يا ظمياء ، ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث .

ـــ لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى وإنما كانت تدّعى أنها تحب الوقوف على سرّ تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحملتْها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود .

ـــ سمعت بمعروضات هذا السيد يا ظمياء .

— وكتبتْ ليلى مقالة فى وصف المعرض نشرتها جريدة « البلاغ » .

— سبحان الله ! لقد قرأتُ تلك المقالة فى ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى لصحيحة فى حُلوان .

— لا ، يا سيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ! ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقدم مصر فى الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئستْ ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك .

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعتْ من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة فى القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزّية ، علها ترى ما يذكّرها بأحياء بغداد ؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حىّ يسمّى الغورية ، فدخلنا الحمزاوى والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذى يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلى رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردّتْ ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى فنظرتُ إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعيذ بالله يا سيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيذ بالله من شر العيون الخُضْر ، فهى سبب بلائى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضتْ تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وإنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسى . ونظرتُ فرأيت ليلى تمشى وهى نَشْوَى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق .

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس .

— الشيخ دعّاس ؟

— نعم يا سيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وإبراهيم وشلبى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل .

ـــ رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

ـــ ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة فى منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره فى محلة الزمالك . ولما دخلنا أبصرنا فتاةً هى قَيْدُ القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرتْ ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عَسَلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريات ، وهو لونٌ ينطق عن السحر الحرام والحلال .

ـــ اتقى الأدب يا ظمياء ، فأنت فى حضرة طبيب !

ـــ الطبيب يسمع كل شىء !

ـــ آمنتُ وصدقت !

ـــ ومضت درية تباغم أمها باللغة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه .

(وهنا أجهدتُ ذاكرتى لأعرف من هى تلك التلميذة ، ثم تذكرت أننى لم أتصل بمعهد الليسيه إلا فى سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فما يسرنى أن تكون تلميذاتى محوراً لأمثال هذه الأحاديث) .

ـــ نعم يا ظمياء .

ـــ وبدا لليلى أن تسأل عن السر فى اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورةٌ لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلى : وهل اللبنانيون خُضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الموطن ، تركية الأصل . فقالت ليلى : ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل .

٧

وعند هذا الحد من الحديث تذكرتُ ليلى .

تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التى طلّت بها قلبى منذ أول زيارة ، فقد قالت حين رأتنى أهمّ بالرواح :

« فراقك صعب ، سيِّدى » .

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء ، وكانت لى سياسة أوحاها الشيطان ، فقد رأيت الفتاة تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته نجلاء بحماسة سحرية ، ورأيتها تطنب فى وصف ابنتهما الجميلة ، تلك الفتاة التى اسمها درية ، وهو اسم لا أدرى كيف يلذَع قلبى ، ولكن لا موجب للمضىِّ فى سماع ما تقول ظمياء فى وصف درية ، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها فى ليلة واحدة . وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تمّ هذا الحديث ؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهى فى نشوة الحديث فلا أتعب فى رَجْعها إلى منزلى حين أشاء .

* * *

ولكن كيف أصرفها وقد استأنستُ كل الاستئناس ؟

يجب أن أصرفها بعلة طبية لتتهّيأ للمرض ، فقد أمسيتُ أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاى ، ولا بدّ للطبيب من مريض ؛ وستعافَى ليلَى بإذن الله ، فلتكن لى ذخيرة ألتمس بها البقاء فى بغداد . وكذلك صوبتُ نظرى إلى الفتاة وقلت :

ـــ ما هذا الذى أرى بوجهك يا ظمياء ؟

فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول : إيش بى يا عمِّى ؟

فقلت وأنا أتكلف الحزن : سأُخبرك يا بنيتى حين أجيىء لعيادة ليلى . فاذهبى الآن واستريحى ، وتجنبى التعرض للتيارات الوجدانية .

فخرجت الفتاة مذعورة لا تُلوى على شىء . والجمال الساذج يفتن القلوب حين يَكْرِثه الانزعاج .

* * *

فراقك صعب ، سيِّدى .

كذلك قالت ليلى .

فراقك صعب ...

إى والله ، فراق صعب ، يا ليلى ، وفراقك أصعب ، فمتى يكون اللقاء ؟

وأويتُ إلى فراشي فى ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات . ثم خرجتُ مبكراً فى الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكى مبارك وانتخاب مجلس النواب .

أعوذ بالله !

ثم سألتُ فعلمتُ أن مجلة الرسالة نشرت كلمةً عن ليلى المريضة فى العراق ، فتذكرت الخطاب الخاص الذى أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع . وما أتهم هذا الصديق بسوء النية فى نشر ذلك الخطاب ، فهو رجل عاش سنين فى بغداد و لم ير ليلى بعينيه ، فهو يحب أن يراها مع قرائه بأذنيه ، تأسياً بقول الشريف الرضىّ :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى   فلعلى أرى الديار بسمعى

ومضى يوم ، ويوم ، وأيام ، وأنا طُعْمة الألسنة والعيون فى كل مكان .

وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسى فى السنين الخوالى ، فقد كنت عدوَّ نفسى من حيث لا أريد . أنا الطبيب الذى أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة والتعليم . ولولا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية ، فأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف .

* * *

تذكرتُ وتذكرت ...

تذكرتُ العيادة التى أقمتها فى الزمالك مع زميلى الدكتور أديب نشوان ، وهى عيادة كان يُرجَى أن تكون مضرب المثل فى عالم الطب ، ولكن مقالاتى فى جريدة البلاغ جنت علىّ فلم يَعُدْ أحدٌ يصدِّق أننى طبيب .

وتذكرتُ مجلة (طبيب القلوب) وكانت والله مجلة لطيفة ، ولكنى تفلسفتُ فى الدراسات النفسية ، ثم مازلت أوغل فى التفلسف حتى حسبنى القراء من العابثين ؛ وعُطِّلت المجلة ، ولا نزال إلى اليوم فى نزاع حول ما تراكم عليها من ديون .

وقد نجا زميلى بجِلْده ، وكيف لا ينجو وهو جبان ! وبقيت أنا أضع الدينار بجانب الدينار لأتخلص مما جناه قلمى البليغ !

يرحمك الله يا أبى ! فكم نصحتنى و لم أنتصح ! كم قلتَ إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث فى أشعاره عن الخدود والعيون والنحور والثغور ، ولا ينبغى له أن يتفجع على مواسم الروح فى مصر الجديدة والزمالك . ولكنى أحسنتُ الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم ، فكان

جزائى أن أعيش عيش المشرَّدين بين القاهرة وباريس وبغداد .

* * *

تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى !...

تذكرت العيادة الجميلة التى أقمتها فى شارع فؤاد بعد أن خُرِّبت عيادتى بشارع المدابغ بسبب السيدة (ن .) ، وكانت عيادتى بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع ، فقد كانت مجهزة على أحدث طراز ، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب عقول الرجال ؛ ولكن الله ابتلانى بطائفتين من الناس كانوا السبب فى خراب تلك العيادة الفيحاء : الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن أداويهم بالمجان . أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتى سامراً يلتقون فيه كل مساء . وفى تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم ، وجمعية عُطارد ، وأصدقاء أفروديت . وفى تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد ، وفيها نظِّم أول مؤتمر لكليات الجامعة المصرية ، وفيها أُسستْ نقابة المحبين .

ومالى أكتم حقائق التاريخ ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر فى حياتى ولن يراها الزيات ولا غير الزيات ، فلأدوِّنْ فيها كل شيء ، وليقل الناس بعدى ما شاءوا ، فسأكون فى شغل عنهم بما أعدَّ الله للأشقياء من نعيم الفراديس . وهل يُرضى الله فى كرمه أن نشقَى فى الدارين ؟

كانت عيادتى بشارع فؤاد هى الملاذ لكل أديب لا يجد فى جيبه خمسة قروش يجلس بها جلسة لطيفة فى مشرب ... أو مشرب ... أو مشرب ... ولا موجب لذكر أسماء هذه المشارب فأصحابها لئام لا يستحقون الإعلان ، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت . أليس فيهم الرجل اللئيم الذى استقبل فى حانته صديقى ... فلما انصرف سألنى عن اسمه فطويته عنه . وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذى يخاصر تلك الشقراء ؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة المالية .

إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يلقى فيه الرجل حبيبته وهو فى أمان من عيون الرقباء . ومع ذلك يقولون إن مصر تحضرت . كذبوا !

وهذا الكلام الذى أدونه فى مذكراتى هو السبب فى خرابى ، فأنا طبيب دقيق الإحساس ، ودقة الإحساس فى زماننا من أشنع العيوب . ومن حسن الحظ أن هذا الكلام سيُطوَى إلى حين ، لأنى سأدفن مذكراتى بالمكتبة العامة فى بغداد ، ولن يطلبها مجلس كلية الآداب بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين ، وستكون لكلية الآداب جهودٌ مشكورة فى درس النثر الفنى فى الأدب الطبى .

ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون فى مصر ، وهم محجوب ثابت ، وأحمد زكى أبو شادى ، وزكى مبارك .

ولكن هل ضاع محجوب ثابت ؟ وكيف ؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائى فنجح أعظم نجاح . وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ ليال لتناول طعام العشاء . وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضى فأشاد بنبوغ محجوب ثابت فى التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكى طليمات . وعندئذ أحسست الغيرة تُلهب أحشائى فهذا زميلٌ أضاعه الأدب وحفظه التمثيل .

وأبو شادى أحيته المعامل البكتريولوجية ، فهو يفحص (عَيِّنات) الجراثيم ثم يخلِّد أصنافها بالشعر البليغ . أما زكى مبارك فقد أضاعه الأدب جملةً واحدة ؛ وإنى لأخشى أن لا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت ؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب فقد ضاع فى الكليتين ، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب ، وعند كلية الطب رجل أديب . وعند الله جزائى !

* * *

ومما زاد فى البلاء أننى صرحت بأن ليلى تقيم فى شارع العباس بن الأحنف ، وهو شارع معروف فى بغداد ، فما الذى كان يمنع من اختراع اسم موهوم أضلل به أهل الفضول ؟

كذلك أمسيتُ فى حيرة وارتباك ، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيتُ الشارع يعجُّ بالناس . ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية ، فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مُضاءٌ بالكهرباء ، وبذلك ضاع علينا الحظ الذى كان يتمتع به المتنبى إذ يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذى تصطنعه شرطة باريس ، وليلى نفسها لا تخلو من عُنْجُهِيَّة البدويات ، وأنا نفسى لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء .

* * *

وفى معمعة هذا الكرب وقع حادثٌ ظريف ، فقد تلقيتُ صكاً من مجلة الهلال على بنك إيسترن فى بغداد ، تلقيته فى ساعة ضيق ، فمضيت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسى وعلى بعض مرضاى من الملاح .

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت : هات جواز السفر ، أو أحضر رجلاً يعرفك . فقلت : أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهمر والطريق كله أوحال . وأما البحث عن رجل يعرفنى فهو سهل ، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك . فقال فريق من الموظفين : وكيف ؟ فقلت : لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكى مبارك وهو رجلٌ يشار إليه بالبنان فى كل أرض ، وفى صدره ودائع أغلا وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن فى أعظم البنوك .

وعندئذ ضجّ موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة ؛ ولكن أحدهم ترفق وقال : أنت الطبيب الذى جاء يفتش عن ليلى والذى ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية ؟

فقلت : نعم !

فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال : يا جماعة ، هذا هو الطبيب الذى جاء يفتش عن ليلى !

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتى . وفى لحظة واحدة تسامع من فى البنك بقصتى ، وقد استظرفونى جدًّا ، بالرغم من أنى أحمل أنفًا أعظم من أنف ابن حرب ، كما قال الأستاذ حسن فهمى الدجانى زميلى فى أيام البؤس ، يوم كنتُ تلميذ الشيخ سيد المرصفى . وصحبنى ذلك الشاب إلى مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبى الفضل لا قهوة أبى نواس . ولم يفتنى أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذى يقرأ مجلة (الرسالة) وهو فى البنك — وتلك إحدى الأعاجيب — فعرفت أنه يسمى ألبرت داود يعقوب ، فمضيتُ وأنا أرتّل الآية الكريمة : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتىَ التى أنعمتُ عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » .

* * *

لقد نفعنى الأدب فى بنك إيسترن ، فهل ينفعنى الأدب عند ليلى ؟
وهل نفعنى الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعنى عند عروس بغداد ؟
أمرى إلى الهوى !

* * *

ظهر المقال الثانى فى مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء ، وقد صارحنى السيد عبد الجليل الراوى بأن لذلك عواقب ...

فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات ، ولتكن هذه الحوادث بدايةً لرجوعى إلى العقل ، فأنا لا أزال شاباً ، ومن السهل أن أحسّن سمعتى وأن أعيد تنظيم عيادتى فى شارع فؤاد ، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء .

على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة ، فقد أصبح العراق جذوة وجدانية ، وصار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث فى الأندية والمعاهد ، بغضّ النظر عن الفتنة التى ثارت بسبب ليلى فى الرستمية ، وبغضّ النظر عن المشاجرة التى وقعتْ من أجلها فى كلية الحقوق ... وينبغى أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر

الطبى ، فقد حدثنى الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات فى أسبوع واحد ، والسبب لا يخفى على من سيقرأون مذكراتى فى السنين المقبلات ، فقد صار مفهومًا أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح ، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العُقاب وجريدة الرأى العام وجريدة الهدف ، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت : إنه لا يليق بأمه إسلامية أن تُعرِّض امرأة لعيون الناظرين ؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يُعقد هذه السنة فى بغداد إلا بسبب النظر فى أمر ليلى المريضة فى العراق .

ولكن هل أسمح بخروج ليلى ؟ وهل ضاقت الحيل حتى أمكّن الناس من رؤية ليلى ؟

رباه ! لقد بدأتُ أشعر بالغيرة على ليلى ، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

نشرت جريدة البلاد فى أبرز مكان كلمة تحت عنوان :

« أنشودة اللقاء »

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إلىّ بتوقيع (ليلى المريضة) وأنها حوّلت القصيدة إلى الدكتور زكى مبارك راجية أن يكون له فيها شيء من العزاء .

وقد تلقيت القصيدة وتأملت الخط ، فعرفت أنها من ليلى غير ليلاى .

ونشرت جريدة العُقاب كلمة قالت فيها إننى شرعت فى تعلّم الطب ، وذلك دليل جديد على أن شهرتى الأدبية أضاعت منزلتى فى عالم الطب ، فمتى يشفينى الله من الغرام بالأدب وصحبة الأدباء !

آه ! آه !

هذا خبر جديد ، فقد أخبرنى الدكتور حسين كامل أن الزيات سيحضر إلى بغداد لشهود المؤتمر الطبى ، وأنا أفهم جيداً ماذا يريد ، وهل تجوز علىّ الْحِيل وأنا خِرِّيج مونمارتر ومونبارناس ؟ هيهات هيهات !

• أترك هذا العبث فى تدوين مذكراتى ، وأمضى لعيادة ليلى ، فقد طال الشوق إلى صوتها الرخيم و ... عينيها الناعستين . أليست هى التى قالت : فراقك صعب ، سيِّدى !

فراق صعب ؟ نعم ، إن لميلى تقول ذلك ، والقول ما قالت ليلى ولو كره السفهاء من العذال .

بغداد ٨/١/٢٥

لحضرة الفاضل الدكتور زكي مبارك المحترم

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد أهدي تحياتي العاطرة الصادرة من قلب مشتاق . ومن نفس صادقة في ودها وفية مخلصة في حبها .

الصديق لهذه الأنشودة معبرة بها عما يخالج ضميري من سرور بلقائك . وإعجاب برقة نفسك وصدق إخلاصك . وتقبل مني شكري وتحياتي الطيبة

من حبيبتك الموفية

ليلى المريضة

(انشودة اللقاء)
مهداة الى الدكتور زكى مبارك
او
قيس الطبيب

ايتها النفس ابشرى واطربى   بمنية القلب بما تطلبى
وانظرى   زوال ضل البؤس واستبشرى
واعطرى   قلبك من فيض الهنى الكوثر
واسكرى   فى صوتك العالم او عذب

× × ×

ياطير غنى يا غدير انشد   ياروض ازهو يازمان اسعد
وارشفو   كأس الهنى فالدهر لا ينصف
واعزفو   فى معزف الحب ولا تصرفو
واقطفو   كل جميل فهو طوع اليد

× × ×

ما اجمل العالم ما ابدعه   فى ضل حب ~~الحبيب~~ والوفى يتبعه
والتقى   (وا جمل الا جمل يوم اللقى)
ياشقى   زال محبيبى جائنى يا شقى
فالبقى   عندى لمن مثلك لا ينفعه

× × ×

ياقيس ما هذا البعاد الطويل   هل قد نسيت الحب ام تستطيل
قل ليا   حاشاك لم تنس ولا ناسيا
باقيا   يضهر لى من جسمك الضانيا
بعديا   عنك لقد اسقم جسمى العليل

× × ×

انت الذى قد كنت يا ليتنى   كنت طبيباً لتداوينى
يا حبيب   اشكر عطفاً لك لا بالغريب
لا طبيب   الله لى انت الطبيب الأديب
والمصيب   تبقى وان تسكن فى مسكن

× × ×

قد جُرّد الروضُ وغاض الربيع   ونامت الطير وتاه القطيع
والقدر   قد فرق الأرحام لما غدر
وانحدر   مجد علا شمس الضحى وانهدر
والقمر   قد غاب لا يظهر لا يستطيع

× × ×

مجالس الأنس غدت صفصفا   لا حشدٌ تبصر لا عازفا
لا رحيم   يجمع عقد فُضّ كى يستقيم
لا سليم   ما بقى الأخلاص فينا سقيم
لا عظيم   ما دامت الرحمة لن تُعرفا

× ×

هيا اتلِ فى الكون نشيد الأمل   معى لكى نوقض روح العمل
طر معى   نغرس زهر الروض بالبلقع
وازرعِ   قمحاً لقد جار على المجمع
وارفعِ   صوتك كى نوقض روح العمل

× × ×

من حبيبتك الوفية
(ليلى المريضة)

٨

... ومضيتُ أعود ليلَى مرة ثانية ، بعد أن قبّلتُ الصورة التى أدفع بها وحشة الليل فى بغداد ، وبعد أن قرأتُ الرسائل المعطَّرة التى وردتْ من مدينة بغداد وكذلك أعددت قلبى للرفق واللطف ، وأنا فى عالَم الطب كالبُلبُل فى عالم الأغاريد ، لا أطرب إلا بعد مُناجاة الأحلام ، ولا يطربُ إلا بعد أن تَضَوَّع من حوله أرواح الأزهار . فهل تعرف معنى ذلك تلك الإنسانة التى بلغ بها العناد أن تصرح بأنها لن تفتضح فى حُبِّى إلا يومَ يظهر أنها دفعتْنى إلى الخلود ؟

رباه ! ما أصعب تكاليف الخلود !

ولكن كيف ألقى ليلاى ؟

إننى أخافها أشد الخوف ؛ فقد بدتْ لى فى المرة الماضية على جانب من الوُعُورة ، ولا يبعد عندى أن تكون حمقاء ، فإن الجمال يورث أهله بعض خِصال النزق والطيش ؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر ، فإن رمتنى بالحمق رميتها بالجنون ؛ ولكن ذلك لا يقع بدون جزاء ، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق .

***

فراقك صعب ، سيدى ! كذلك قالت ليلى منذ ليال .

فما الذى يمنع من الأدب ؟ وهل كُتب علىّ أن أظل دهرى شقياً لا أعرف غير الرجس ؟ مالى لا أجرب الحب العذرى مرة واحدة فى حياتى ؟ ما لى أحْرِم قلبى أطايب العفاف ؟

آمنت بالله ! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول ؟

إنك يا ربى تعلم كيف ابتدأتُ وكيف انتهيتُ . إنك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوَّته يمناك ، مع استثناء الأنبياء ؛ ولكنى طبيب جنَى عليه الأدب فسار فى بقاع الأرض أنه من الفاسقين .

***

كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

ألقاها بالتجارب التى أفدتُها فى باريس ، فقد وردتُ مدينة النور أول مرة فى سنة ١٩٢٧

وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوَى والفُتون ، فكان أكبر همى أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيتُ الأمرَّين من عيش الجفاف فى شارع الحمزاوى وعطفة الجمالية !

ودخلت السوربون ، سقاها الغيث ، وجعل الله لها لسان صدق فى الآخرين ، فكانت عينى لا تقع على الأساتذة ، وإنما كانت تقع على الطالبات ، وهنّ فى دروس الأدب أكثر من الطلاب . والفتيات هناك يفهمن وَحْى العيون ، وكان يتفق أن تلقانى فتاة بعد المحاضرة فتقول : من فضلك يا سيد ، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار ؟ فأجيب : نعم ، يا آنستى ! فتقول : هل تتفضل فتعيرنى إياها لأنسخها ثم أردها إليك ؟ فأقول :: وهل لمثلى أن يرفض ما تطلب هاتان العينان ! فتنظر الفتاة إلىّ نظرة سخرية وتنصرف !

وحدث مرة أن قالت لى فتاة ريًّا الجسم كأنها من دمياط : هل لك يا سيد أن تتفضل فتعيرنى مذكراتك عن دروس المسيو مُورْنيه ؟ فقلت : لك ذلك يا آنستى ، ولكنى لن أعود إلى السوربون إلا بعد يومين . فهل أستطيع أن أراكِ غدًا عندى فى الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات ؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمتْ عن اسم الشارع ورقم البيت .

وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تملك فرنسا من ألوان الشراب ، ثم مضت ثوانٍ ودقائق وساعات ، ولم تحضر الفتاة ، عليها وعلى أمها اللعنات !

وفى ذات يوم قالت إحدى زميلاتى فى الدرس إنها تجيد الرقص ، فقلت إنى لا أحسن منه غير « الْحَنْجَلة » ورجوتها أن تعيننى على إتقان ذلك الفن الجميل فأجابت جواباً كله إغراء .

ولكننى اشترطت أن يكون ذلك فى غرفتى حتى لا يعرف أهل باريس أننى رجل « غشيم » .

وانتظرتُ ، ثمَّ انتظرت ، ثم انتظرت ، ولم تحضر الراقصة الحسناء !

ولم تمض أسابيع حتى شاع فى جميع أروقة السوربون أنى فتًى ماجنٌ خليع ، فكنتُ ألقي أطيب التحيات ولا يجيبني مجيب . والشيطان يشهد أنى كنت فى ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس .

ونظرتُ فرأيتُ فتيانًا أقلَّ منى فتوّةً وجاذبية يعيشون فى ظلال الحب عيش الملوك ، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام ، وللغرام فنون ...!

* * *

ولكن أين أذهب ؟ لقد ضاع حظى فى كلية الآداب ، فهل أذهب إلى كلية العلوم ؟ وكيف وهى أيضاً من السوربون ؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب

من جديد ، بعيداً عن جوّ الأراجيف الذى خلقتُه خَلْقًا بفضل الغفلة والجهل .

وكانت فرصة عرفتُ فيها قيمة الشر فى خَلْق الرجال . فلولا الحب ما عرفت كلية الطب ؛ ولولا الطب ما شرفتنى الحكومة المصرية بمداواة ليلى المريضة فى العراق .

أقول إنى ذهبتُ إلى كلية الطب بعد أن صقلتنى التجارب ، وبعد أن عرفتُ أن من العيب أن أخيب فى باريس وأنا شاعر سنْتِريس ؛ فلم تمض أيامٌ حتى كنت فى تلك الكلية فتى الفتيان .

وبيان ذلك أنى كنتُ أخفى عواطفى كل الإخفاء ، فكنتُ ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها وخديها وشفتيها ونهديها — وما أجمل نهود الفتيات فى باريس ! — وإنما كنت أسارع فأتحدث عن حدائق الحيوانات فى القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان فإن اعترضتْ إحدى الفتيات وفضَّلتْ حدائق الحيوان فى لَنْدَنْ تحمستُ وقلت إن هذا مستحيل ، لأن مصر هى البلد الوحيد الذى يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان !

وما كنت أكتفى بهذا ، بل كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنت أقول إن بلدنا هو الذى نبغ فيه فلان وفلان ، وهى أسماء تحلّى بها بعد ذلك جماعة من الناس .

وفى أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناى فى أعطاف الفريسة الحسناء ، فإنّ بدا لها أن تعترض على ما تقول عيناى ، أنكرتُ ما تقول عيناى : وهل كنت مسئولاً عما تقوله عيناى ؟ وما هى لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إنْ هذا إلا اختلاق !

وما زلت أوغل فى المداهنة والنفاق حتى تقدمتْ إحدى الفتيات وقالت : ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك ! فتكلفتُ الغضب وقلت : أنا أكره المزاح ! فطوقتنى بذراعيها وقالت : أنا أحب الشبان العقلاء ! فقلت : وأنا أحب المجانين من الفتيات !

وكانت لحظة ستُنْصَبُ لها الموازين يوم يقوم الحساب !

* * *

وفى ظلال هذا الروح الطَّيب مضيتُ لعيادة ليلى ، وقد صممت على الخوض فى أحاديث لا تتصل بالحب . وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا فى ديار الاغتراب ؟

دخلت على ليلى فى ليلة مَطِيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم ، فتفضلتْ حرسها الله ومدت يديها الناعمتين لمعاونتى على دَرَج السلالم ، فشعرتُ كأن خيوطاً من نور تجذبنى إلى العِلّية ، وقد تكلفتُ التعب والضعف لأرى كيف تجذبنى تلك الأنامل الرقاق . وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدِلتْ عليه الستائر فى ليلة قمراء بالقصر الذى يعرفه القلب فى الشارع رقم ١٣ بالضاحية ... إحدى ضواحى القاهرة الفيحاء .

رباه ! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون !

رباه ! إن القاهرة هى الشاهد على أن اللغة العربية خليقةٌ بالسيطرة فى عالم العلم والمدنية .

رباه ! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كِنانتك واحفظها من السوء حتىَ أعيش فيها عيش السعداء ، وحتى يعيش فيها أبنائُى وأحفادى وأحفاد أحفادى عيش النَّضرة والنعيم ، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية .

* * *

كانت ليلى فى زينتها ، وكنت فى عقلى !

وكان فى نيتى أن أثير الجدل حول « قضية الأخلاق » التى اشتجرتْ فيها أقلام الخولى وعزام والزيات ، وكنت أنوى أن أقرر أن المنافقين ينجحون باسم الأخلاق ، فكيف لا ينجح بها الصادقون ؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين ، فالذين يثورون على الدين لا يُبغضونه من حيث جوهره ، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلف الغيرة على الدين . وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق . وكان من شهوة النفس أن أعلن فى حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق فإذا رأوا رجلاً قوىَّ القلب مُشرِق العبقرية ، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفضَّ الناس من حوله ويخلو لهم الميدان . ومن أجل هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول فى تجريحه ألسنة المتخلفين والمنافقين . وهل سلم الأنبياء من ألسنة الناس ؟

كان فى نيتى أنْ أصول وأجول فى حضرة ليلى ، فأعظم لذة فى الدنيا أن يعذُب لسانك ، وتقوى حجتك ، فى حضرة امرأة حسناء . والكلام فى هذا الموضوع يسهل علىَّ بفضل ما أضعتُ من العمر فى دراسة علم النفس وعلم الأخلاق ، وبفضل ما ابتلانى الدهر من معاشرة أهل الرياء .

ولكن ليلى ابتدرتنى وقالت :

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة ؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبى ينخلع ، فقد تذكرت أننى رجعت عن عزيمتى فى طىّ هذه المذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات . وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك الذى أوصانى بالاعتصام بالعقل يوم سفرى إلى

العراق ؟ وما وجه الخوف ؟ إن مذكراتى بريئة من العبث ، وأنا أعيش فى بغداد عيش النُساك ، وإن لم يكن لى فضل فى هذا التنسك ، فإن الحفلة التى كرمنى بها أدباء بغداد جعلتنى ممن يشار إليهم بالبنان ، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة ومصر الجديدة وباريس .

ثم تشجعت فقلت : وماذا فى مجلة الرسالة ؟

فقالت : إن الأستاذ سعيد العريان يتحداك .

فبلعتُ ريقى ، وحمدت الله . وهل يؤذينى أن يتحدانى كاتب من الكتاب ؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور فى طريقى ، وحين كانت مقالاتى فى جريدة البلاغ كالسيف المُصْلَت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين . يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم فى جريدة البلاغ . ولكن واأسفاه ! أنا اليوم أعيش فى قفصين من الفولاذ . وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال : تذكر يا صديقى أنك أصبحت موظفاً فى حكومتين ، وأن مركزك دقيق ؟

* * *

لقد قرأت كلمة الأديب العريان ، ولكن لا بد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعى ، فإن الهجوم علىّ يعذُب ويطيب حين أسمعه من ليلى . وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى ، ليلى التى زعموا أنها مريضة فى العراق ، مع أن فى صوتها من الحلاوة ما يَهُدُّ رواسىَ الجبال ؟

وقرأتْ ليلى :

« ولقد سرنى والله أن تُعْنَى وأنت فى العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ، وإنها لعاطفةٌ وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد » .

— أعيدى يا ليلى .

— ولماذا ؟

— أعيدى يا ليلى ، ففى مصر إنسان يشهد بأنى أعرف معنى الوطنية ! وهل كنت فى حاجة إلى من يشهد لى بصدق الوطنية ؟ عِشنا وشُفْنا !

— ولكنه يتهمك بمصانعة أهل العراق !

— أنا أصانع أهل العراق ؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق ؟ لقد جنتْ علىّ الشجاعة ما جنت. فلم أتهيَّب ولم أتوجَّع ، وتركتُ الجبناءَ يتمتعون بمناصب كنت بها أحق ، فكيف جاز لأديب مصرىّ أن يتهمنى بالمصانعة فى معاملة أهل العراق ؟

إسمعى يا ليلى . إن هذا الأديب نسى أن مجلة « الرسالة » لها فى العراق قراء يعدُّون بالألوف ، ونسى أن كلمته قد تؤذينى ؛ وهذا الأديب الطيب القلب نسى أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته فى عبقرية زكى مبارك ونسى كذلك أننى لا أحتاج إلى سناد يتفضل به كاتب يجعل الرافعى إمام الأدباء . فأنا أعيش فى مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيمتى ، وإن كنت لا أنكر أن فى مصر إخوانًا كرامًا يجعلون سيرتى مسك الختام فى كل حديث .

إسمعى يا ليلى . إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون . أليس من البلاء أن أنفق أوقاتَ الفراغ فى الدفاع عن مصر والمصريين ؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبى أن أتنقل فى الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التى يرتكبها الكتاب المصريون ؟ إن مصر ليس لها مطامع فى العراق ، ولكن ما الموجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق ؟ إن العراقيين يروننا إخوانهم ، أهلاً وسهلاً ! فبأى حق يستبيح ناس فى مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق ؟

إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومَودّات فى الأقطار الأوربية والأمريكية ، فكيف يغيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية ؟

هل يعلم أدباء مصر ـــ ولا سيما أعدائى ـــ أنى أدفع عنهم قالة السوء فى العراق .

إسمعى يا ليلى . إن أهل بلدكم يقولون إن زكى مبارك لا يزال يحافظ على مصريته ، وهذا حق ، ولكننى أتشبث بمصر فى سبيل اللغة العربية ، فاللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى سيكون فى المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربىّ من قوة البنيان .

* * *

وكنتُ وصلتُ إلى حد من التأثر انزعجت له ليلى . فقالت : هوِّن عليك يا صديقى !

فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرءوم ، ثم قلت :

ليلى ، إنها سنةٌ واحدة أقضيها فى العراق !

فقالت وهى تتنهد : ستبقى عندنا طول حياتك .

فأجبت : على شرط أن تُعفونى من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائرهم صباح مساء .

فقالت ليلى : وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك !

فقلت : ذلك إليكِ يا لُيلى !

فصوَّبتْ إلىَّ عينين عاتبتين ، فعرفت أنها تُنكر التشبيب .

ما أجمل ليلى حين تعتب بعينيها ! إن ليلى جميلة يا بنى آدم ، وإنها لخليقة بأن تنسينى من فى

مصر الجديدة ومن فى الزمالك ، إن جاز لقلبٍ مثل قلبى أن يعرف العقوق .

* * *

— ليلى !

— مولاى !

— ليلاى !

— لست ليلاك !

— معذرة يا ليلى ، فأنا طبيب جنى عليه الأدب . وهذه عبارة شعرية سبقتْ إلى اللسان .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول ... أريد أن أقول إنى سأعيش فى بلدكم سنة واحدة ، أعنى أننى سأفارقك بعد أشهر معدودات .

— هذا وعيد ؟

— لن أعيش فى بلدكم إلا إذا عينتنى الحكومة المصرية واعظاً فى بغداد .

— واعظ ؟ ما هذا الكلام ؟ هل جُنِنْت ؟

(وقد انتشيتُ من هذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع بينه وبينها التكليف) .

— ما جُنِنْتُ ، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يَرعَى العلائق بين البلدين فلا ينْشَر خبر فى جرائد العراق عن مصر ، ولا ينْشَر خبر فى جرائد مصر عن العراق ، إلا بعد أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات .

— وأنت ذلك الرجل الحكيم ؟ آمنت بالله !

— إسمعى يا ليلى ، إن المحررين فى الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق .

— دع هذا ، وحدثنى عما تعرف من أسرار ليلى المريضة فى لبنان .

— تريدين (فلانة) التى قيل إنها كانت تحب الرافعى ؟

— نعم ! وهذه أهم نقطة تعنينى فى كلمة الأديب العريان .

— وأنا أريد أن أمُنَّ على مصر وأدباء مصر فأقول إنى قضيت فى بغداد سنة كسبتُ لوطنى فيها ألوفًا من الأصدقاء .

— أنت تمنُّ على وطنك ، والمنُّ على الوطن لا يليق بكرام الرجال

— وماذا أصنع إذا كان وطنى لا يعرف غير من يمنُّون عليه ؟ وهل يعرف وطنى أنى أكتب

فى كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة فى كل يوم ؟ هل يعرف وطنى أنى أهتم بالمصريين المقيمين فى العراق أكثر مما أهتم بنفسى ؟ هل يعرف وطنى أنى أزور كلية الحقوق مرتين فى كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمى وفهمى وسيف ؟

— ومن هؤلاء ؟

— هم أساتذة فى القانون لا فى الطب ، وهم من أبناء القرن التاسع عشر .

« وكانت غلطة فظيعة ، فإنه لا ينبغى أن تعرف ليلى من المصريين أحدًا سواى » .

— حدثنى عن ليلى المريضة فى لبنان .

— كانت ليلى المريضة فى لبنان زميلتى فى الدرس يوم كنا طالبَيْن فى الجامعة المصرية ؛ وكنت أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة ، فأزعم أن الكونت دى جلارزا لا يفهم الفلسفة ، وأن الشيخ المهدى لا يعرف أسرار الأدب ، وأن الشيخ الخضرى لا يدرك حقائق التاريخ ، وأن إسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب !

— يظهر أنها كانت طالبة شقية ؟

— كانت أشقى من ليلى المريضة فى دمياط .

— أنا لا يهمنى إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة فى لبنان .

— انتظرى ، انتظرى ، إن الله مع الصابرين .

٩

خرجتُ من عند ليلى وقد انتصف الليل ، فما كدت أبلغ الجادّة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفى فى الدربونة[١] فالتفتُّ فإذا هى ظمياء .

ــ دكتور ، متى أرجع إليك ؟

ــ حين تشائين يا ظمياء ، ولكن ما الموجب لهذا الاستعجال ؟

ــ هل نسيتَ البقية من قصة ليلى مع عبد الحسيب ؟

ــ ما نسيتُ . ارجعى إلىّ مساء الغد يا ظمياء ، ومعك ماعونٌ من الكُبّة الموصلية[٢]

* * *

لا موجب للنفاق فى هذه المذكرات ، إن ظمياء فيما يظهر تتشهى أن تتكلم فى عبد الحسيب ؛ وأنا فيما يبدو أتشهى الكلام عن درية ؛ وأكرر ما كتبته من قبل : (إنى لا أعرف كيف يلذعنى هذا الاسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء ، فأنا شاعرٌ مُقِلّ ، ولكن الاقلال لا يمنع من التشرف بجنون الشعراء . ولعل الاقلال أدل على الجنون ، وإلا فما الذى كان يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعرى حديث الأدباء فى سائر البلاد ؟

درية ! درية ! ما أعذب هذا الاسم ! وما أشقانى فى (استلطاف) الأسماء !

* * *

رجعتُ إلى المنزل وأنا أتشوق إلى اقتيات النعاس ، فقد كنتُ انتشيت من حديث ليلى ، والمنتشون يتشوقون إلى الهجود ؛ كذلك سمعت . ولكنى صادفت ما أطار النوم من رأسى ، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات :

« فُجِع الأدب والعلم ونُكِبت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقرى المنقطع النظير المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشئ الشهير واللغوى المعروف ،

---

(١) الدرب فى مصر هو الدربونة فى العراق .

(٢) الكبة عند العراقيين هى الكبيبة عند السوريين ، ويقال إن الكبة الموصلية كانت السر فى براعة أبى إسحاق فى الغناء !

فقوبل الخبر بحزن شديد ، وألم عميق ، لما اشتهر عن المرحوم من واسع العلم والاطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق » .

وقد هدنى هذا الخبر المزعج ، ونشر أمام عينىّ كثيراً من الصور والأطياف ، فتذكرت أنى رأيت صادق عنبر أول مرة سنة ١٩٢٣ فى جريدة الأخبار ، فسألنى عمن أفضّل من الشعراء فقلت : شوقى ، فقال : أسألك عن الشعراء الثلاثة . فقلت : ومن هم ؟ فقال : أبو تمام والبحترى والمتنبى فقلت : أنا أفضل الشريف الرضىّ على هؤلاء الثلاثة . فاستغرب وقال : هذا كلام لم يقل به أحد سواك !

وتذكرت أنى كنت أتلقى مجلة النهضة النسائية وأنا فى باريس سنة ١٩٢٧ وفيها رسائل وجدانية عنوانها : (الرسائل الضائعة) وهى رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر ، فلما لقيته بعد حين أثنيت عليها ، فقال وهو يتوجع : ليتها كانت صحيحة ، فهى خيالية ! فقلت : ليتك تمضى فى هذا النظام البديع !

وبعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عنى ، فمررت عليه فى قلم المطبوعات فحبسنى ساعتين ليمتع أذنىّ برسائله : (رسائل الحب بين قيس وليلى) فقلت : أهى أيضاً رسائل خيالية ؟ فتنهد وقال : لو كانت تنبئ عن وجد دفين لما كان جسمى أضخم جسم فى هذه البلاد ؟ فنصحته بتكلف العشق ليخف وزنه فيمسى وهو فتًى رشيق !

وتذكرت أنى أردت مداعبته فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٥ فذهب إلى صديقى الأستاذ كامل كيلانى وقال له : قل للدكتور زكى مبارك : إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول ؛ فليثق حضرته بأن الأرض لن تزُلزل تحت قدمىّ ، ولن يتقوض ماضى صادق عنبر لأن زكى مبارك يهجم عليه فى جريدة البلاغ !

وتذكرت والدمع يملأ عينى أن الأستاذ محمد على الطاهر أراد أن يحتفل بسفرى إلى العراق فدعانى إلى الغداء عند العجاتى مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان ، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر ، ولكنه يومئذ لم يشترك فى أطايب الحديث ، فهل كان انتهى من دنياه ؟

يرحمك الله يا صديقى ، ويرحم عهدك فى جريدة اللواء ، يوم كان أكثر كتّاب اليوم أطفالاً يلعبون !

* * *

الشجى يبعث الشجى !

هل أستطيع أن أنتهز هذه الفرصة فأدوّن فى هذه المذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ

أشهر طوال ؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إنني كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطخاب الجدل السياسي فى مصر ؟ لقد آن لقلبي أن يفصح عن بلائه المكنون . إن الجدل السياسي فى مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقي الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها فى دنياه ، وهى اختصار الغُصن المطلول الذى اسمه طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق(١) .

آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ ديوانى ، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط بيوم واحد . آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يرانى أكرم أصدقاء أبيه ، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعارى ويقتنى مؤلفاتى . آن أن أبكى هذا الشاب النبيل الذى كان أطهر ضحية ظفرتْ بها الأمواج .

لقد حضرتُ الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسى فى السُّرادق يواجه مجلس النقراشي باشا فلم أسلِّم عليه ؛ وظن بعض الحاضرين أننى خشيت أن يكون فى السلام عليه ما ينقض مودتى للنحاس باشا . فهل أستطيع أن أنص فى هذه المذكرات على أننى لم أخَفْ يومئذ إلا أن يقع بصرى على الأستاذ عباس الجمل فأذكِّره بتلك المصيبة التى تذيب لفائف القلوب ؟

كان طاهر الجَمَل لا يلقانى فى الطريق إلا دعانى إلى رؤية منزلهم الجديد فى مصر الجديدة ، وكان يغرينى فيقول : إن لونه كالشُّلَّيك !

ولكنى لم أطعه و لم أرَ المنزل . وما أظننى سأراه فى بقية حياتى ، لأن جزعى على طاهر خليقٌ بأن يقتلنى إذا رأيت ما كان يهواه فى دنياه .

أخى الأستاذ صادق عنبر .

أرأيت كيف كانت مصيبتى فيك باباً من البلاء !

إن طاهراً فى نضارته كان مثلك فى ذكائك ؛ وعبقرية النضارة لا تقل روعةً عن عبقرية الذكاء . وأنت قد تجد من يحبِّر الرسائل الطوال فى الثناء عليك ، ويقيم لك حفلات التأبين ؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره ، لأنه كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الحقوق ، فلم يبق إلا أن أقف وحدى لبكاء تلك الزهرة النضيرة التى اقتطفها الموت فى شاطئ دمياط .

وما يؤذينى وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أننى

---

(١) الاختصار بالخاء المعجمة هو الموت فى عهد الحداثة والشباب .

فكرت فى طاهر ، فيتذكر أننى ما عزيته فيه ، فيتجدد عَتْبه على صديقه القديم ، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس ؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن نعم بوجهه وروحه سنين ، وأنا ما نسيته مع أن بصرى لم يقع على وجهه الجميل غير مرات ؟

يا طاهر !

آذكُرنى عند ربك ، وقل إن فى سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل !

***

وقضيت تلك الليلة وأنا مُؤَرَّق الجفون ؛ وزاد فى الغم والحزن أن الوهم خَيَّل إلىّ أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى ، مع أن ليلاه خيالية ، فكيف يكون مصيرى وليلاى امرأةٌ رخيمةُ الصوت ، ساحرةُ العينين ، تقيم بشارع العباس بن الأحنف فى بغداد ؟

فكرت ثم فكرت ، والشُّجون من جملة الأرزاق !

ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء :

فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورنى فى منزلى ليؤدى واجب التحية لرجل هَجَر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربى فى العراق ؛ وكانت زيارته فى الليل ، فراعه أن يرى الظلام يَغْمُر السلالم والدهاليز ، فاستشاط غضباً وقال : كيف يجوز لصاحب المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يُهمل الإضاءة الواجبة ، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب « النثر الفنى » ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور فى دهاليز البيت ؟

فقلت وأنا أتخوَّف العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ ...!

فقال : وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ .

ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ما أراد سعادة الوكيل .

ولكن ظمياء استرابت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت ؟

ـــ ماذا تخافين يا ظمياء ؟

ـــ أخاف الأقاويل والأراجيف .

ـــ من المفهوم أنك وصيفة ليلى ، وأنى طبيب ليلى .

ـــ هذا كلام لا يصدِّقه غير المطلعين على ما جرى فى هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة العراقية والحكومة المصرية .

ـــ والجمهور ؟

ـــ أترى الجمهور يصدّق أنك جئت لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

ـــ خبر أسود !

ـــ خبر أسود ، خبر أبيض ، خبر بنفسجىّ ، خبر خَمْرى ؛ أنا لا أدخل هذا البيت فى هذه الأنوار وكل سكانه يعلمون أنك رجلٌ وحيد .

ـــ نعم ، أنا رجل وحيد .

ـــ وحيد ، أعنى تعيش وحدك .

ـــ مفهوم ، يا ألأم الناس فى بغداد .

ـــ إيش لون ؟

ـــ لا شىء ، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف ، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى .

ـــ اسمع يا دكتور ، أنا أثق بأمانتك ، وليلى لم تنهنى عن التودد إليك ولكنى لا أقبل أن أكون مُضْغَةَ الألسنة فى هذا الخان .

ـــ ومن الذى سيعرف مثلاً أنك ظمياء ؟

ـــ يجب أن تفهم أنك فى بغداد !

ـــ باسم الله الحفيظ !

ـــ اسمع يا دكتور ! يظهر أنك رجل طيِّب أكثر مما يجب . إن التعرض لأقوال الناس كالتعرض لأقوال الجرائد ؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس ، لأنك تستطيع أن تكذّب ما تنشر الجرائد من الباطل فتدفع ما تؤذيك به من بهتان ؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان ، ثم لا تمضى أيام حتى يأكل لحمك المُفترون ، ويأثم بسببك الأبرياء .

ـــ وماذا أصنع يا ظمياء ؟

ـــ ارحلْ عن هذا البيت .

ـــ وكيف بعد أن تكلّف صاحبه ما تكلف فى تبديد الظلمات ؟

ـــ اختلق سبباً من الأسباب .

ـــ أختلق ؟!

ـــ الاختلاق مما يجوز فى بعض الأحيان .

* * *

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ محمد بهجة الأثرى كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم

الحمّام ولم يفعل ؛ فطمأنتُ ظمياء ، ومضيت فقضيت معها السهرة فى بيت أمها ، وهو منزل صغير فى درب ضيق لم أسأل عن اسمه وهو درب يشبه ما يسمونه فى مصر : شق الثعبان .

وفى صباح اليوم التالى قابلت حضرة النائب المحترم وذكّرته باقتراح حضرة الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، فاراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت فى سخرية مصطنعة : كذلك تكون وعود النواب يا سيد عبد الهادى !

ولم تمض غير ساعاتٍ حتى انتقلتُ إلى منزلٍ آخر فى شارع السموءل .

ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة فى يوم واحد ؟

ذلك أمر كان يعجز عنه السنهورى والزيات وعزامٍ .

والواقع أنى رجلٌ خطِرٌ جداً ، فقد أمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس ؛ ومعرفتى بهاتين المدينتين تساوى جهلى بمدينة القاهرة التى لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء . أما الإسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذى تُعطّره أنفاس الملاح فى الصيف .

* * *

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل ؟

لأنه شارع البنك وأكثر سكانه من أهل المال ، وأهل المال فى الأغلب لا يعتدون على الأعراض ، وإنما يعتدون على الجيوب ، فالشُّرطة فى مثل هذا الشارع لا تفكّر فى الفَجَرة وإنما تفكر فى اللصوص ، وكذلك تَعُودنى ظمياء بلا تهيب ، لأن المآثم فى هذه الجادّة قليلة الخُطُور بالبال ، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول

وقد عزّ علىّ أن يتطاول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسمُّوا به شارع البنك ، وكان السموءل على يهوديته عربياً سخىّ اليدين ، فما كان ضرهم لو نطقوا اسمه على طريقتهم فقالوا (صمويل) ؟ ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عَبَّر عن ضمائر البنوك حين قال :

ونُنكِرُ إن شئنا على الناس قولَهُم ... ولا ينكرون القول حين نقــول

فالبنك هو الذى يُنكر ما نقول ، ولا تستطيع أن تنكر ما يقولُ ، فهو الفَيْصَل فى التصحيح والتزييف .

ولعل انتقالى إلى شارع السموءل يُدْخِل على طباعى بعض التعديل ، ولعلنى أكتسبَ شيئًا من أخلاق بنى إسرائيل ، فإن الحب يبدّد ما أجمع من المال . أليس من السفه أن أرانى مسئولاً عن طوائف من البيوت تُسدَل ستائرها على طوائف من الوجوه الصِّباح ؟ وهل رأى الناس حالا أغرب من حالى وأنا أنفق على بيت فى النمسا منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت

ترافقني فى السوربون ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

تركت أول منزل سكنته فى بغداد . ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذى كنت أسكن فيه حين كنت طالبًا بالأزهر الشريف . كان صورة لرَبْع يعقوب بالغورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتى فى ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن إسرائيلية تأتمننى على كل شيء وتقول : الشيخ زكى مُسْلِم ولكنه ابنُ حلال .

وكنت حقاً ابن حلال . كنت مستقيماً أؤدى الفرائض والنوافل وأقرأ الأوراد ، وما تغير حالى إلا منذ استطعت أن أقول : بُونجور مَدْمُوَازيل ! بُونْسُوَار مَدام !

لم أفارق منزلى فى شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة ، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة ، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات وهو يذكرني بمأواى القديم فى رَبْع يعقوب الذى أَلَّفتُ فيه كتاب (الأخلاق عند الغزالى) واستقبلتُ فيه الشيخ الزنكلونى والشيخ عبد المطَّلب ويذكّرنى بأول منزل سكنته فى مصر الجديدة وهو الذى ألفت فيه كتاب « التصوف الإسلامى » واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسِّينيون ، ويذكرنى بغرفتى بشارع أرَّاس فى باريس ، وهى الغرفة التى ألفت فيها كتاب « النثر الفنى » وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتُها ، وكما يلْحَنُ بها الإنجليزيات والاسبانيات والنمسويات والألمانيات ، ولا سيما الشقراء التى ما كانت تتكلم بغير الغناء :

هل الله عافٍ عن ذُنوبٍ تسلَّفتْ — أم ِ الله إن لم يَعْفُ عنها يُعيدها ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الحمالين من الأكراد ينقلون أثقالى ، وبالغ فى التلطف ليردنى إلى المنزل ، ولكن هيهات ، فأنا طبيب أفسده الأدب ، والطبيب الفاسد لا يطاق .

أنا أعرف أنى خاصمتُ نائبًا ، ولكن يعزِّينى أن نواب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية ، فلن ينالنى شرٌّ من هذا النائب على الاطلاق . وسأرجو الأستاذ معروف الرصافى أن يصلح ما بينى وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك ... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق فى سبيل ظَمْياء ؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى وهي أيضاً ستحدثنى

عن دُرِّية . ويالوعة القلب من طيف درية ! فهل يتلطف الحظ فيمتعني بهوى امرأة تحمل هذا الإسم الجميل ؟!

* * *

إن أحزانى لا تحملها الجبال ، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم ، فهو يسوق إلىّ موجبات الابتسام ، أنا الرجل الحزين الذى لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين ، وكيف أفرح وقد طلبنى أبى يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات ؟

انتظرت ظمياء فى المنزل الجديد وأنا محزون ، وأشهد أنى مُكْرَهٌ على تأدية هذه الخدمة الوجدانية ، فما أعرف كيف يصير حالى مع ليلى ، ولعلها تُعافَى ويمرض الطبيب !

ودخلتْ ظمياء وهى تُرغِى وتُزبد .

ـــ هل عرفتَ ما صنعت المرأةُ جميلة ؟

ـــ ماذا صنعتْ ؟

ـــ لقد مزقت قمصانك بعد أن غسلتْها وكوتْها .

ـــ عجيب ! ولماذا ؟

ـــ لأنها قرأتْ فى مجلة الرسالة أن اسمها جميلة ، واسمها الحقيقى هو ...

وعندئذ ضحكتُ ضحكةً قويةً كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد .

إن تلك المرأة لم تعرف إحسانى إليها بتلك التسمية ، فقد خلعتُ عليها اسماً أحبه أصدق الحب ، ورحمتها من الاسم الذى كانت تحمله ، لأنه يقرِّبها من شيخ أبغضه أشد البغض ، ويكفى أن يكون اسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء !

تلك امرأة حمقاء ! ولكنى لن أنسى معروفها عندى ، فقد كانت أول إمرأة خدمتنى فى بغداد . ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء .

* * *

ـــ ظمياء .

ـــ إى ، مولاى . .

ـــ لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية ، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قمصانى .

ـــ وأنا أكره لسيدى الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأتْ تغتابه منذ يومين .

ـــ تغتابنى ؟ وما عساها أن تقول ؟

ـــ تقول إنك تحب ليلى .

ـــ أنا أحب ليلى ؟ وهل جُنِنْتُ حتى أحب امرأةً عليلةً لا تملك من شواهد الحياة غير صوتٍ بَغُوم وطَرْفٍ يشيع فيه التكسُّر والنُّعاس ؟

ـــ إيش لون ؟

ـــ ما أدرى يا ظمياء .

ـــ الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب .

ـــ أو قصة درية .

ـــ قصة عبد الحسيب .

ـــ قصة درية ، قصة درية .

ـــ وهل تكره قصة عبد الحسيب ؟

ـــ قُصّى علىّ حديث الأخوين : درية وعبد الحسيب .

ـــ وأخذتْ ليلى تقلّب الجرائد بحضور السيدة نجلاء ، فرأت فى السياسة الأسبوعية مقالة فى رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب اسمه طه حسين . وتدخّل الشيخ دعّاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق .

١٠

أقف قليلاً حتى أستعدّ لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعتُ بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يُزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى ، وحماسة ظمياء فى سرْد القصة قد تنتهى بتذكير ليلَى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زِمامها إلا أن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبى نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيماً كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمّارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تُعافَى ليلى لأتفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها بإخلاص ، فإنه يعزّ علىّ والله أن تُعطَب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تُعطَب مثل تلك الإنسانة وإن خلَتْ منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضتْ أعوامٌ وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممتُ بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها نَدَمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت .

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعدٌّ للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بَغْى ولا عُدوان . والخلاصة أنى أريد أن يُنسَى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلّمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان ساذجاً لا يعرف ما يأتى وما يَدَع . وكان مصيره أن يُحرَم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضَى !

يضاف إلى هذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم يهمنى جداً ، ولا أعرف السبب فى ذلك ، ولعلى أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانة التى تحمل هذا الاسم الجميل أن الفتى الذى كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال فى شارع فؤاد . ولعلها تمرض هى أيضاً فيدعَى لها الطبيب الذى يداوى ليلى

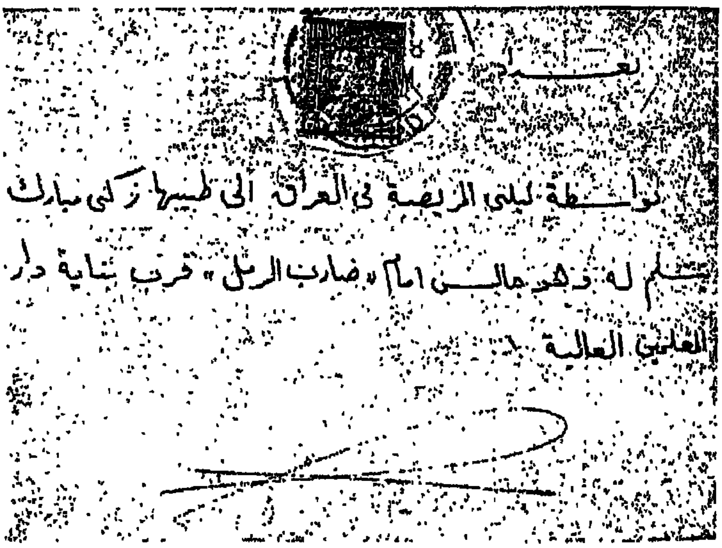
المريضة فى العراق .

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — فى غير ريبة — ممدَّدةً على السرير ؟ متى ؟ متى إن بلائى سيطول !

* * *

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجِّل حديثه لحظات ، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث .

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكّرنى بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيرى فى الحب حين كنت أمشى بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلى البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة .


بواسطة ليلى المريضة فى العراق الى طبيبها زكى مبارك
يسلم له وهو جالس امام «ضارب الرمل» قرب بناية دار
المعلمين العالية .

أقول إنى أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا فى طريقى إلى الدرس ، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أنى بدأت أتخوف مصيرى فى هوى ليلى ، وأصبحت كالطفل أصدّق كل شىء . ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية ، وفى مقدورهم أن يأخذوا صورتى على تلك الحال ويقدموها إلى

الجرائد فأصبح محور السَّمَر الساحر فى الأندية والمعاهد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرِّج على ضارب الرمل لأشوف بَخْتى .

وكذلك فعلت .

ويلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟

أنا أجلس أمام أحد الدراويش فى بغداد لأشوف بختى ، وأنا الذى غلبتُ الساحر الهندى على شاطئ الإسكندرية فى صيف سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أيامى تعود !

فمازلت أذكر كيف أعطانى ذلك الساحرُ الهندىُّ عشرين ديناراً فى سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك الشاطئ من الظَّبَيات .

وخلاصة القصة أنى ذهبتُ فى ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلى ، ونزلت بثوب البحر إلى مَلْعَب الغِزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت ، فجلست بجانبهما جِلسة الباحث المتعقب ، لا جِلسة اللاهى اللاعب ، وما هى إلا لحظات حتى قلتُ بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رِسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدًى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش المجهول !

فانزعج الرجلِ انزعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان .

ونظرت الفتاة فى استغراب وقالت : وحضرتك تعرف علم الكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت فى باريس !

فانعطفت الفتاة فى تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لى كفى !

فأخذتُ يدها ونظرت إلى صدرها مرة وإلى عينيها مرتين ، ثم شرعتُ أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين .

وما هى إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطئ .

فهل تعود أيامى ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى !

وتخاذل الساحرُ الهندىُّ وتضعضع وأقبل يُسِرُّ فى أذنى : تتفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم . وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال : أعرف أنه لا يفلُّ الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أنى أعلم منك بقراءة الكف ولكنى واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث

أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لهندىٍّ مثلي بلغة العيون .

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبيعنى هذا الميدان .

« وعندئذ تذكرت أنى موظف فى الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبنى مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روز اليوسف) أو مندوب (الصباح) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان » .

ـــ وماذا تقدِّم يا شيخ ؟

ـــ أقدم عشرة دنانير .

ـــ أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات !

ـــ يا سيد ، أنت فى وطنك وأنا غريب .

ـــ ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب .

ـــ أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية .

ـــ إنك رجل لَبِق يا شيخ ، ولكنى لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير .

ـــ أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً .

ـــ أنت إذاً جهول ، ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار فى شهرين .

ـــ هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدى ان عمل السحر صار قليل المكسب بفضل المقالات التى تُكتب ضده كل يوم ، وأنت يا زميلى تعرف ما جنتْ علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات .

ـــ إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين .

فقبل الرجل وقدَّم المبلغ ، فأخذته وانصرفت .

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطئ شككن فى قدرته على فهم أسرار الكف فبارَتْ سوقه وضاع .

أما أنا فمضيت فى دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب .

***

أليس من الغريب أن يكون هذا حالى فى العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبى ؟ إن هذا لدليلٌ على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك مما يرتاب فيه الزنادقة

والملحدون .

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى .

— يابا ، يابا .

— نعم يا عمى .

— لك أعداء فى الشام ، وسينصرك الله عليهم .

— طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لى أعداء فى الشام أو لبنان ؟) .

— ولك أعداء فى مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين .

— آمين ، آمين !

— ولك فى العراق فَرْد عَدُوّ (يعنى عدواً واحدًا) .

— طيب .

— ويجيىء إليك فَرْد مكتوب .

— من وين يا عمى ؟

— من بغداد .

— خير ، خير .

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأُكُو(١) ناس يحسدونك .

— أُكو خوف يا عمى ؟

— ماكو خوف ، ولكن احترس .

فنفحت الرجل درهما(٢) ومضيت .

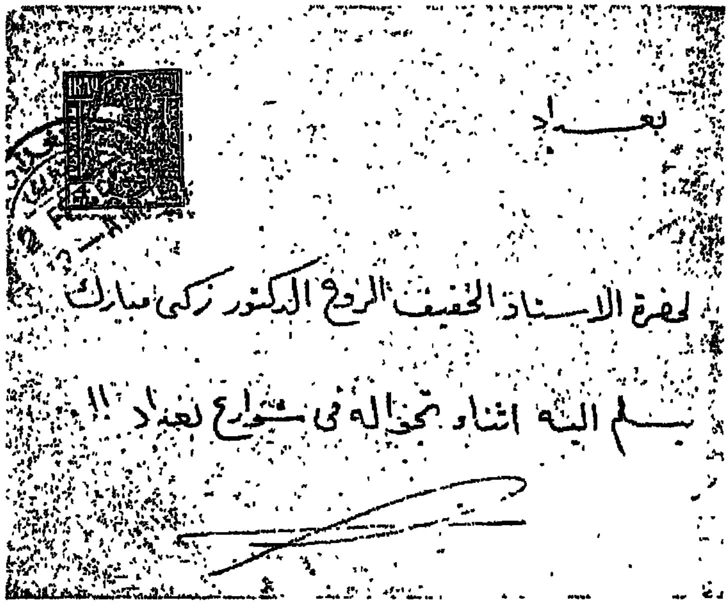
وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً ينادينى فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إلىّ خطاباً فعجبت من أن تفضحنى ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

شىء ظريف حقاً ! وأى ظَرْف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتى موزَّعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عنى فى شوارع بغداد ؟

---

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ماكو) أى لا يوجد فى اللهجة العراقية .

(٢) كلمة (درهم) لا تزال حية فى العراق وهى قطعة تساوى (الربع ريال) فى العملة المصرية .



إن مرسل هذا الخطاب لا بدّ أن يكون أظرف الناس ، وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات فى خِفّة الظل ولطف النسيم .

ولكنى ما كدت أَفُضُّ الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهانى عن عيادة ليلى ، ويهددنى بالقتل ...

أمرى إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسى فذهبت أستشير صديقا بالمفوضية المصرية سبقنى إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلّغ الخطاب إلى الشرطة وأكد لى أن العراقيين لا يعرفون المزاح فى هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أُهدَّد من أجلها بالقتل !

وقدّمتُ إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

ـــ ولكنه صَفَحَ عنك !

ـــ صفح عنى ؟ وكيف ؟

ـــ ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا فى نهاية الخطاب « ولكنى عدلت عن هذا الخاطر لأنى إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً فى الطب ، ودوقاً دقيقاً فى الأدب » فعجبت من أن تفوتنى هذه الجملة ، ولكن يظهر أن انزعاجى صرفنى عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء !

ولما اطمأننت إلى صفح غريمى فى هوى ليلى تشجعت وقلت : ومع هذا فأنا لا أبالى أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالًا فيكِ قد نذَرُوا دمى ... وهمُّـوا بقـتلى يا بُثَيـنَ لقـــونى
إذا ما رأونى طالعاً من ثَنِيَّــــةٍ ... يقولـون مَن هذا وقـد عرفـونى

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم : يجب أن تثق يا دكتور بأن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك .

* * *

٢ ـــ تفضل سكرتير محطة الإذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الْحِكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن السيد فؤاد جميل أنى أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله ، ولعل حياتى فى بغداد هى التى هدته إلى ذلك ، فقد رآنى أحفظ آداب الصيام ، وأؤدى الفرائض والنوافل ، فظننى رجلا تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق ، وهل يستطيع رجل مثلى أن ينحرف عن الصراط المستقيم فى بغداد ؟ إن استقامتى فى هذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لها قيمة إلا إذا عاملنى الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يُؤْجَر المؤمن رغم أنفه ».

وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسى قبل أن يحاسبنى الناس ، وأدوِّن عيوبى قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذى يُخفى حسناته ـــ إن كانت له حسنات ـــ حتى لا تزِلَّ قدمه فى مزالق الرياء .

أقول إنى ألقيت محاضرة فى محطة الإذاعة عن حِكم ابن عطاء الله ، ولكنى ما كدت أُودِّع

جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل :

يقولون ليلى فى العراق مريضةٌ فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ما حييت ، فاسم ليلى يَشُوقُنى ، وبفضل ليلى رأيت العراق ، وبدا لى أن أسأل عن صاحب الفضل فى إمتاعى بهذا الصوت ، فعرفت أنه السيد يونس بحرى صاحب جريدة العُقاب . ويونس بحرى أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسمار فى القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات فى مصر الجديدة والزمالك والمعادى وحُلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الإسكندرية وبورسعيد ودمياط وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسنى بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنى طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادى الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبى عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رُسِمَتْ وبجانبها قلبٌ خَفّاق .

وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتى فى الإذاعة ينتظرها الناس فى جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتى شاهداً على حلاوة الدعابة العراقية التى خلدها أبو الفرج الأصفهانى على وجه الزمان .

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضجُّون من حولى بالضحك ، وفاتهم أنى صرت كالذى قال :

بكتْ عينىَ اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

فقد كنتُ أعرف أن ليلى تسمع ، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذى حبسه البغداديون عن أذنيها خمس سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأتنى لقبّلتنى . ولكن هل تقبّلنى ليلى ؟ ليت ثم ليت !

وخرجتُ من دار الإذاعة فعَبَرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا فى ذهول ، فحدثتنى النفس بحلاوة الغرق فى ذلك النهر الذى وعَى ما وعَى ، وضيَّع ما ضيَّع ، من أسرار القلوب . ثم تذكرت ديونى فى القاهرة ، ديونى للوجوه الصِّباح التى تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك ، وديونى لعرائس دمياط اللائى تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

ربــــاهُ صُغْتَ فؤادى من الأَسَى والحنيــــنِ
ولم تشأْ لضلوعـــــى غير الجوى والشجــونِ
فكيـف تصفـو حيــاتى من الهوى والفُتُــــونِ
أم كيـف تُرجَــىَ نجاتى من ساجيات الجفـــونِ

وهل من الإثم فى هوى ليلى أن أَحِنّ إلى هوايَ فى القاهرة عروس الشرق ؟

هل من الإثم فى هوى ليلى أن أتذكر غَبُوقى بمصر الجديدة وصَبُوحى بالزمالك ؟

هل من الإثم فى هوى ليلى أن أقول إنى أبذل دمى إن استطعت لأقضى ليلة واحدة فى ضيافة ليلى الصحيحة فى حُلوان ؟

متى تعود أيامى وأستأنف اختطاف القُبُلات فى القطار بين المعادى وحلوان ؟!

وما كنت أنتظر أن يخطّ قلمى أمثال هذه الاعترافات ، ولكنى أحب أن تغار الإنسانة التى سيخلّد اسمها شارع العباس بن الأحنف فى بغداد ، فإن غارت فهى ليلى بنت ليل وإلا فهى صخرة تغمرها الثلوج فى أقاصى الشمال .

وأقسم لئن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثنّها عن ليالىّ وأيامى فى فندق ميناهاوس بسفح الأهرام ؛ ولئن فعلتُ لأصوِّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجَى منه شفاء .

ليلى ، يا بنت الفرات !

أمرى وأمرك إلى الهوى ، فإليه ترجع القلوب !

* * *

ألم يأن لى أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟

إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من فى الوجود .

وهل أمْكَنَ يوماً أن يكون لى فيمن أُحبُّ شريك ؟ فلنقصّ حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق .

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

ـــ وأفاض الشيخ دعاس فى شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذى يدّعى علم الشرق ، والمستغرب هو الذى يدّعى علم الغرب . ثم تشعّب الحديث من فن إلى فن ، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلَى لم تشاطرنا الحديث ، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذى رافقناه فى قطار المعرض . وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شابٌّ أخضر العينين ، وكان هو يا مولاى ، هو نفس الفتى الذى دارت معه ليلى فى قطار المعرض دورتين .

ـــ وكيف كان التلاقى ؟

ـــ فرّتْ ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم ، فانزوتْ فى أحد أركان البيت . وألحت السيدة نجلاء فى أن تتفضل ليلى بالسلام عليه ، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهى ليست من محارمه أدبٌ تنكره حرائر العراق .

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبى فى صباح اليوم . فليكنْ من هواى أن أتسمَّع أحاديث الأندية فى المساء .

* * *

لم يصل إلى فندق تايْجرس غير طبيب واحد . وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالى الذهن من الغرض الصحيح لعقد المؤتمر الطبى فى بغداد ، وليس هذا بمستغرَب من مثله ، لأنه بولونىّ لا يعرف ما يساور شعراء العرب من المُعْضِلات الوجدانية . وقد حاولتُ أن أُفهمه أن المؤتمر إنما يعُقد فى بغداد لمعاونتى على مداواة ليلى فلم يفهم إلا أن اسم ليلى قد يكون اسماً لمرض من الأمراض . وما علينا إذا لم يفهم البولونيون !

* * *

لم يعرفنى أحد من أطباء فلسطين وسورية ولُبنان ، فالذين قرأوا (مدامع العشاق) يحسبوننى فتىً لا يجاوز الثلاثين ، والذين قرأوا (الأخلاق عند الغزالى) يحسبوننى شيخاً يصافح الثمانين ؛ وهم جميعاً يعتقدون أنى مُطَرْبش لا مُسَدَّر ، فدخولى بينهم بالسدارة يوهمهم حتما أنى من فتيان العراق .

وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم فى فُنْدُق استوريا من حيث لا يشعرون .

تحدث طبيب منهم قال : ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون ، وما كنت أظن أن الجمعية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبّى يختبر حال ليلى المريضة فى العراق . ولولا لجاجةُ زوجتى ما حضرت ، فهى ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدِّياً للجنس اللطيف .

واعترضه آخر فقال : هى فرصة طيبة لمشاهدة ليلى ، وهى أيضا مواساة للطبيب المصرى الشهير زكى مبارك الذى هجر وطنه وأهله فى سبيل الوجدان ، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون فى طب القلوب .

وقال ثالث : الذى يهمنى هو مشاهدة ليلى ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين فى فندق الفرات .

وقد ضجّ الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف .

* * *

كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس ، ولكنى حزنت على نفسى ، حزنت حتى غلبنى الدمع .

فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تُطلَب لليلى إلا لِتَصلُح لمعاقرة الكأس ، هؤلاء تقدموا وتأخرتُ ؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردتُ بالخيبة . وهل كنت أقل سفهاً منهم حتى يفوزوا وأخيب ؟

إن خراب عيادتى فى شارع المدابغ ، وتدهور عيادتى فى شارع فؤاد ، وحياتى المشرَّدة بين القاهرة وباريس وبغداد ، كل أولئك النكبات ستهدُّ من عزيمتى ، أنا الطبيب المسكين الذى أضاعه الأدب فلم يَعُدْ يصلح لغير طب القلوب ، فى زمن خَلَا من القلوب .

* * *

لن أسمح بخروج ليلى ، ولن يراها أحدٌ من أعضاء المؤتمر الطبى بعد الذى سمعت .

ولكن هل كان ما سمعت هو كل السبب فى حماية ليلَى من أهل الفضول ؟

الحق أنى مريض بالغيرة ، مريض ، مريض لا يُرجَى له شفاء .

وكان مرض الغيرة خفّ بعض الخفة فى سنة ١٩٢٧ ثم عاد فأضرعنى وتفصيل ذلك أنى جلست أصطبح فى قهوة الدُّوم فى باريس ، فرأيت فتاةً فصيحة العينين تجالس رجلًا فانياً ، فأخذت أداعبها بنظراتى ؛ وكنت فتًى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ؛ وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبّس تارة وتبسِم تارة وَفقاً لسياق الحديث . ورآها ذلك الشيخ موزَّعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلىّ أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟

وقد أزعجنى السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت فى كل أدوار شبابى أُبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ؛ وتلطف الله عزتْ قدرته فستر عيوبى ، وأعفانى من ذل الاستجواب فى مراكز البوليس . تباركت يا إلٰهى وتعاليت ! فلولا لطفك لأذلتنى شماتة الأعداء .

وكنت فى تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربتُ وتلعثمتُ .

وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرنى ماذا تريد ؟

فجمعتُ قُوایَ وقلت : سيدى ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال : ومَن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت : هو الذى يقول :

أتأذنُــون لصبٍّ فى زيارتكـــم فعنـدكم شهـوات السمـع والـبصر
لا يُضْمِرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به عفّ الضمير ولكـن فـاسق النظـر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هده الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدى ! فقال :

Mais vous ètes mal placè .

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتيَّ ركبة الفتاة .

رباه ! متى تعود أيامى !

وأفهمنى الشيخ أنه شاعر سويسرىّ ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مَصْدَر الوَحْى . وتلطف فقال إنه يسمح لى بمصاحبتها حين أشاء .

فقلت : عفواً ، يا سيدى ، فجيبى يعجز عن تكاليف الحب .

فقال : لك الحب ، وعلىّ التكاليف .

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف .

وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود .

ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل ، فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالى ؟ فكنت أقول مثلا : رأينا بارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك .

فيقول : ثم ماذا ؟

فأجيب : ثم رجعنا .

فيقول فى ألم وسُخْرية : وهذا كا ما صنعتم ؟!

وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول : أؤكد لك يا مولاى أن المسيو مبارك ليس من العقلاء ، .

وكان يدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات .

رباه ! متى تعود أيامى !

ـــ ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر ، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف وعاد مرض الغيرة يساورنى من جديد . وسأكون بالتأكيد من أشرف صرعاه .

ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من الغباوة والحمق ؟

لا ، لا ، وإنما هى فيضٌ من المروءة والشرف ، فقد قضيت دهرى وأنا أحقد على من يهينون الجمال . ولهذا سبب معقول : فالمرأة التى تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ

معها الأدب فى السر والعلانية . والمرأة تعطى كثيراً جداً حين تجود بابتسامة . والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحيةً من المعشوق ، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح ، والفرق بين الحالين بعيد . ولكن أين من يفهم المعانى ؟

وقد أهلكنى مرض الغيرة وأفسد جميع شؤونى وكاد يرزأنى بالخراب . ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن ينبذهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون .

كان لى صديق من كبار الموظفين : صديق فيه شيء من الظَّرف وأشياء من السُّخف وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بى على رفيقاته من حين إلى حين ؛ وكنت أعرف ماذا يريد ؟ كان يريد أن أتعلم التسامح لأطوف به على رفيقاتى حين يشاء . وكنت أعرف ما يضمر وأسكت ، لأنى كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأحاربها عن علم لا عن جهل .

وفى ذات يوم ابتدرنى بهذه العبارة فى لهجة جدّية :

ـــ يا دكتور زكى ، يا حضرة الفيلسوف ، أما تحب أن تعرف رأى إخوانك فيك ؟

ـــ رأى إخوانى ؟ وماذا يرى إخوانى ؟ فما كنت إلاّ خير صاحب وأكرم رفيق .

ـــ إنهم يتهمونك بالبخل .

ـــ أنا ؟ أنا بخيل ؟ وكيف وكان إخوانى يغامرون ما طاب لهم الهوى ، إعتماداً على الجيب الملآن ، جيب الرجل الذى يجوع ليشبع الرفاق ؟

ـــ هم لا يتهمونك بالبخل من الناحية المادية ، وإنما يتهمونك بالبخل من الناحية الغرامية .

وعندئذ شعرت بأنى مُقبِلٌ على خطر فقلت :

ـــ وماذا يريد إخوانى ؟

ـــ يريدون أن تطوف بهم على رفيقاتك .

فقلت : ليس لى رفيقات .

فقال : يا سيدى ، يا سيدى ، على منطق الدكاترة !

فقلت : أؤكد لك ولسائر الإخوان أنى لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس .

فقال : تعجبُنى حين تتخذ من حياتك العلمية سِتاراً لحياتك الغرامية !

فقلت : أتحداك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامى .

فقال : هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (...) .

ونطَق السفيهُ المجرمُ باسم امرأة مصونة أفديها بروحى . فلطمته لطمةً أطارت ما كان وقع على صدره من أغربة الأحرم والأمانى .

فنظر إلىّ فى تخاذل وقال : وَحْش !

فقلت : ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش ، ولطمته لطمةً ثانية كان وقعها على حده الصفيق أوجع وأبشع .

وأراد أن يجمع ما تناثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان ، فنظرتُ إليه نظرةً ساختْ بها روحه ، فانصرف وهو يقول : طوّل بالك !

وقد طوَّلت بالى ، وكنت أتوقع أن يعود النذل بعد ساعة أو ساعتين وفى يده مسدّس ، ولكنه لم يعد أبداً .

ثم عرفتُ بعد حين أنه انتقم منى على طريقة أمثاله من الأنذال ، فكان يرسل الخطابات المجهولة إلى الدوائر التى يؤذينى أن أذكر عندها بالقبيح ، فتلطختْ سُمعتى بالمنكرات فى أقل من أسبوعين .

رباه ! ماذا نعانى فى سبيل المروءة والشرف ؟

ومشيت يوماً فى شارع فؤاد أروِّح عن نفسى قليلا برؤية اللؤلؤ المنثور ، اللؤلؤ الذى يتوهج بذلك الشارع فى الأصائل والعشيات ، فلقينى صاحبٌ قديم فقلت : من أين قدمت ؟

فقال : كنت فى منزل (... باشا) .

فقلت : وكيف حاله ؟ فقد طال شوقى إليه .

فقال : لم أجده فى المنزل ، وإنما جلست مع زوجته لحظة ، جلسة بريئة بالطبع .

فنظرتُ إليه نظرةً ساخرةً وقلت : أتريد أن توهمنى أنك كنُت تملك الفجور وعففتَ مع أنك أضعف من الخِصيان ؟

* * *

وخلاصة القول أنى أتهم المجتمع وأرى من النذالة أن نُعرِّض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا للناس . ولا يضايقنى أن يغضب صديقى الدكتور إبراهيم ناجى وهو يكرر كلمة المرحوم أحمد زكى باشا إذ قال : إن زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس .

نعم ، فلاّح ، فإن شاء أبنائى أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع . أما أنا فقد نجوت ولله الحمد ، فكانت زوجتى ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا غائب ، ويسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وجداتها فحفظت قلبى سليماً من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال .

وإذاً فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبى .

كذلك صممتُ ولن أرجع عما صممت .

* * *

ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوى وعلى غلافه :

« وزارة المعارف العمومية » .

« مكتب الوكيل » .

وزارة المعارف ؟

ومكتب الوكيل ؟

وبالبريد الجوىّ ؟

يا فتاح يا عليم !

أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعنى إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله ؟

أتكون وزارة المعارف فكرتْ فى إلغاء انتدابى لمدواة ليلى المريضة فى العرّاق ؟

* * *

ومرّت بالبال خواطر كثيرة ، إلا خاطراً واحداً ، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت فى تسديد ما عليها من الديون .

وهل فى الدنيا إنسانٌ يبادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح ؟

إن ديونى على وزارة المعارف ديونٌ ثقيلة ؛ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالى الوزير أو سعادة الوكيل بأننى رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال .

ثم تشجعت وفضضت الخطاب فإذا فيه :

* * *

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوكيل

القاهرة فى ٢٩/١ سنة ١٩٣٨

عزيزى المحترم الدكتور زكى مبارك

أهديك أطيب تحية . وبعد فقد عزمنا بمشيئة الله على حضور المؤتمر الطبى ببغداد مع بعض الاصدقاء . وسيكون وصولنا الى بغداد فى صباح يوم الاحد ٦ فبراير .

وانى أرجو أن تتيح لنا هذه الفرصة الاحتفال باخواننا المصريين والاطمئنان على حالتهم وزيارة بعض المشاهد الشهيرة ببغداد وما حولها .

وتقبلوا فائق تحياتى !!

المخلص

ولكن لماذا اختصنى سعادة العشماوى بك بهذا الخطاب ؟

أغلب الظن أن يكون بعض الدساسين كتب إليه أنى لا أؤدى الواجب فى خدمة ليلى ، فهو يريد أن يرى بعينيه ما صنعتُ فى خدمة ليلاى .

وإذاً فسيكون من الحتم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح ، فما هذه المشكلات التى تثور فى وجهى من حين إلى حين ؟

من حق العشماوى بك أن يرى ليلَى ، ومن حقى أن أحجُب عنه ليلاى ..

وأشهد أنى قضيت يومين فى درس هذا الموضوع الخطير ، وكنت لا أعرف بالضبط : هل أغار على ليلى ؟ أم أخاف على العشماوى بك ؟ والحق أنى أغار على ليلى وأخاف عليه ، أما غيرتى على ليلى فهى مفهومة لا تحتاج إلى شرح ؛ وأما خوفى عليه فيرجع إلى اعتقادى أنه من أرباب القلوب . وربما جاز لى أن أصرح بأنه كان من عبيد الجمال فى صباه ؛ وإلا فكيف اتفق أن يكون دائماً من أنصار الآداب والفنون ؟

وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب ؟

* * *

ثم مرَّ بالبال خاطر سخيف ؛ ولكن لا بدّ من تدوينه فى هذه المذكرات . ألم أقل إنى أدوِّن عيوبى قبل أن يدونّها الكرام الكاتبون ؟

أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية ، ومن واجبى نحو نفسى أن أحسِّن علاقاتى بوكيل الوزارة أستغفر الله ! فما أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل ، ولا تؤاخذنى يا عشماوى بك فما أقصدك بالذات . وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكى مبارك أعلا من مستوى التفتيش ، وإنه لا بد من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية .

وهنا وجه الخطر ، فمناصب الجامعة لا تنفعنى ، لأنى لا أستطيع أن أشفى بها ما فى نفسى من مرض السيطرة ، لأن السيطرة فى الجامعة مقصورة على العُمَداء ، والظروف الحاضرة لا تمنحنى العمادة ولو فى كلية الآداب ، لأن العمادة تتوقف على شرطين : أصوات الأساتذة وموافقة الوزير ، والأساتذة لن يعطونى أصواتهم أبداً ، لأنى جرّحتهم جميعاً فى جريدة البلاغ ، والوزير الحاضر وهو معالى بهىّ الدين بركات باشا لن ينسى أنى هجمت عليه فى مقال نشرته بجريدة المصرى ، ومن المحقق أنه لن ينتقم منى ولكن من المحقق أيضاً أنه لن يتحمس لإنصافى فيرانى أصلح الناس لمنصب العميد .

لا بد لى على أى حال من أن أبقى مفتشاً بوزارة المعارف . وهل فى الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش ؟ إن لى فى هذا المنصب ذكريات تقضى بأن أخاطر فى سبيله بكل شىء ، إلا ليلَى ، إلا ليلَى ، إلا ليلَى .

منصب المفتش منصب عظيم جداً ، فمن كان فى ريب من ذلك فليسمع .

دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم ، فهالنى أن أرى مظاهر القلق فى جميع الصفوف ، فقلت للناظر : ما هذه الْجَلَبة ؟ فقال : إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا أنظارهم بطلعة سعادة المفتش . فقلت فى تعجرف : هذا أدب ما بعد الحرب ، وكان الواجب أن يقهرهم الخشوع ، فقال الناظر : الرأى لك يا سعادة المفتش !

وقد عزّ علىّ أن يجاملنى الناظر إلى هذا الحد ، مع أنه أكبر منى سناً وعلماً ، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم ، ومن حقى أن أستفيد من فساد المجتمع ؟

ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائى ، وكان فيما أذكر

أبصر منى بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية ، فأبيت إلا أن أتعجرف عليه وأستطيل : وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما ، فقلت : لماذا لا تقول الخيَالة ؟ ورأيته يمرّ على كلمة « تطور » فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشد الحساب فقال : إن الله يقول فى كتابه العزيز : « وخلقناكم أطواراً » فقلت : نعم إن الله خلقنا « أطواراً » ومن أجل ذلك لا يصح أن « نتطور » يا أستاذ[1] !

(وقد هدانى اللؤم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إلىّ التفتيش على المدارس الأهلية والأجنبية ، لأن التفتيش على مدارس الحكومة يضايقنى قليلا ، إذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ، وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة . أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين ؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء) .

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميذ أشعارى بفضل « لباقة » المدرسين . وأذكر أنى دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة فى المحفوظات : فرأيت تلميذاً قيل إنه لبن وزير سابق ، فقلت : أسمعنى يا شاطر بعض ما تحفظ ، فابتدأ يصيح :

قال سعادة الدكتور زكى بك مبارك :

يا جيرةَ السّينِ يحيا فى مرابعكمْ فتًى إلى النيل يشكو غرُبة الدار
جَـنَتْ عليـه لياليـه وأسلَمَـهُ إلى الحوادث صَحْبٌ غير أبـرارِ

فخشيتُ التورط فى سماع شعرى فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا ، فصاح : وقال سعادته أيضاً :

نسيتم العهــد واسترحتـــمْ مــن لوعـة الحافـظ الأميــنِ

فأسكتّ الطالب وقلتُ للأستاذ : أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكى مبارك ؟

فقال : لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكى مبارك وثلاث قطع من أشعار على الجارم ، فحفظوا شعرك وصعُب عليهم حفظ شعر الجارم .

فقلت : هذا عجيب ، مع أن شعر الجارم لا بأس به !

وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذى يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع ؟

* * *

(١) لم يفطن الأستاذ إسعاف النشاشيبى إلى هذه السخرية.فكتب كلمة فى مجلة الرسالة يبين فيها قدم كلمة « تطور » ومثله يتخيل فيخال .

والتفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوى . ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفتُ كيف أستفيد . وأنا قد عرفت ، ولله الحمد . وهل من الصعب أن أجلس فى مكتب تفتيش اللغة العربية ثم أنقد تقارير المدرسين ؟ جاءنى يوماً تقرير من الأستاذ الأول فى مدرسة أسيوط الثانوية فأخذت التقرير إلى البيت ، وكتبت تقريراً بما فى التقرير من اغلاط لغوية ، ورجعت فى اليوم التالى فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة ، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عُمدة المحققين ، وجهبْذ المدققين .

وكنت نسيت الموضوع الأصيل الذى كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألنى أحد ماذا فيه .

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأى الوزارة فى موضوع ذلك التقرير إلى اليوم . والصبر طيِّب !

وكان لى أسلوب فى مضايقة المدرسين ، أسلوب بديع ؛ ولكنى لم أبتكره مع الأسف ، وإنما ابتكره شيوخٌ لنا من قبل . كنت آخذ كراريس التلاميذ إلى البيت ، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس .

أدرسه بدقة وأمامى المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من أغلاط ، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستشير المعاجم فى كل كراس . ولكن ماذا يهمنى ؟ المهم أن يشيع فى بقاع الأرض أنى محقق مدقق لأكون خليفة الشيخ حمزة فتح الله ، أو حفنى بك ناصف أو أحمد بك العوامرى ، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون .

ومن عادتى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » با نتظارى فى المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغذيت وأخذت نصيبى من القيلولة ، ويكونون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت فى التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدَم عليهم بعافية ، وأن يتلقونى وقد نال منهم الإعياء ، فأرغى وأزبدُ ما شاء التعسف ، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون .

* * *

قلت إنى أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء . ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله وأنى لا أملك إيذاء مخلوق ، وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضر أحداً غيرى ، فقد ذهبت للتفتيش على المدرسة المرقسية بالإسكندرية ، ذهبت إليها فى يوم مطيرٍ يحبس موظفى البنوك فى البيوت . وكان أهم ما صنعته

فى ذلك اليوم أن أعُدّ الغائبين ، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه : إن المواظبة منعدمة فى المدرسة المرقسية ، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش .

وما كان الغائبون (ستة أسباع) ، ولكنى رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل . وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟

وقد أرسلت الوزارةُ تستجوب المدرسة ، فكتبتْ إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذى غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً ، وأن الزوابع هدَّمت بعض مبانى الشاطئ وأغرقت ثلاث سفن ، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ، ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات فى الطريق ، وأن منظره فى ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق فى أقسى القلوب .

ودعانى وزير المعارف يسألنى ، فقلت : يا معالى الوزير ، أنت تعلمت فى فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية ، فهل رأيتهم يرون المطر من الأعذار ؟ والإسكندرية كلها مرصوفة الشوارع ، ومن الواجب أن نشدد فى المواظبة لنخلق فى الجوّ المدرسىّ طوائف جديدة من التقاليد .

ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب فى فرنسا واستظرف كلمة التقاليد فقال : أحسنت أحسنت !

ويشهد الله أنى لم أكن يومئذ من المحسنين .

أما التفتيش فى المدارس الأجنبية فلى فيه نوادر تضحك الثواكل ، وربما جاءت مناسبة لسردها فى هذه المذكرات .

والحاصل — كما يقول أهل بغداد وكما كان يقول الأزهريون — الحاصل أننى أريد التلطف مع سعادة العشماوى بك لأبقَى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهمُّون بنقد مؤلفاتى وأشعارى فى الجرائد والمجلات .

وهو سيسأل عن ليلى ، فلا بأس من أن يرى ليلى ، وما أظنه سيخطفها من يدى ، ولكن مرض الغيرة تعاودنى أعراضه من حين إلى حين .

* * *

وشاع فى أروقة وزارة المعارف أن العشماوى بك حضر قبل الموعد ، فمضيت للبحث عنه فى فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر . فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه .

وفى مساء اليوم التالى سألت فعرفت أنه فى المفوضية المصرية ، فذهبت للسلام عليه

فاستقبلني بالعناق ، فعرفت أن الشر الذى ساورنى كان من أوهام الظنون .

وبعد لحظة دعانى إلى حديث خاصّ فقلت : لعله خير . فقال : كيف حال ليلى ؟ لا تكتم عنى شيئاً ، فليس لك فى وزارة المعارف صديق أخلص منى . إنهم يشيعون فى مصر وفى العراق أنك لا تخدم ليلى بإخلاص ، فهل هذا صحيح ؟

فقلت : إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أنى لا أملك غير ذخيرة الاخلاص وقد بذلت فى سبيل ليلى ما بذلت ، وعند الله جزائى .

فقال : هذه مسألة هينة ، وسيحكم فيها المؤتمر الطبى .

فقلت : أى مؤتمر يا مولاى ؟

فقال : المؤتمر الذى نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة فى العراق .

فقلت : وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحداً غيرى من الأطباء ؟

فقال ، ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك ، فقد تكونان عاشقين يطيب لكما الاستشهاد فى الحب . ويجب أن تفهم أن الحكومة المصرية لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح .

وارتفع صوت العشماوى بك ، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف فلخصتُ القضية فقال : وما الذى يخيفك من أعضاء المؤتمر الطبى ؟

فقصصت عليهما ما سمعت فى فندق استوريا . فتأثر العشماوى بك وقال : الحق معك يا دكتور زكى ، ولكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس معى وثيقة رسمية عن صحة ليلى ؟

وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض فى العراق فقال : تحضر ليلى حفلة الافتتاح وهى متنكرة فى زىّ امرأة حَضَرية عرفتْ أزياء باريس ، ويسلّم عليها سعادة العشماوى بك نائباً عن وزارة المعارف ، وفضيلة الشيخ السكندرى نائباً عن المجمع اللغوى ، وسعادة الدكتور على باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية ، وبذلك ينفضّ الإشكال .

* * *

ومررت على فُندُق مُودْ فرأيتُ جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم فى مشاهدة ليلى فقلت : موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين !

وتلفتُّ فرأيت بَهْوَ الفندق يموج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوى بك ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوى وساطع الحصرى وتحسين إبراهيم وإبراهيم حلمى العمر

فحدثتهم بما وقع بيني وبين سعادة العشماوي بك فقالوا : الرأى رأيك فى هذه القضية ، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة فى العراق ، ونحن لا نشير أبداً بتعريض ليلى لأعين الناس ، ولو كانوا أطباء .

إلى هنا سارت الخطوات بسلام .

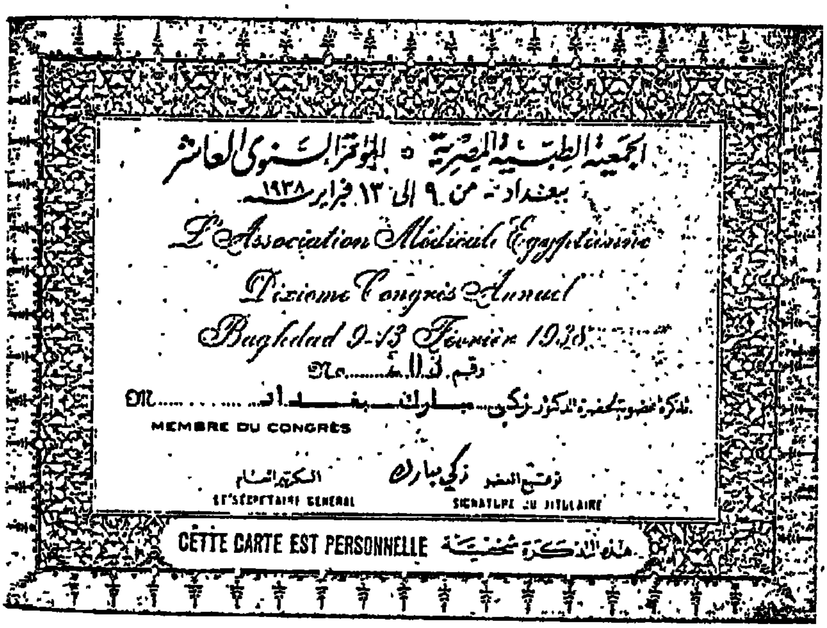
فما الذى سيجِدُّ فى أيام المؤتمر ؟ ما الذى سيجدّ ؟

لُطفك اللهم ورحمتك ، فإن قلبى يحدثنى بأنْ ستقع غرائب يشيب لها مَفْرَق الوليد . قلبى يحدثنى بأنى مُقْبِلٌ على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب وما كان قلبى من الكاذبين .

* * *

بغداد ، بغداد !

خُذِى بزمامى ، فأنا فى يمناك طيِّعٌ ذلول ، وليكن ما يكون ، فإنى واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين طبيب ليلى المريضة فى العراق .


الجمعية الطبية المصرية ـ المؤتمر السنوى العاشر
ببغداد ـ من ٩ إلى ١٣ فبراير ١٩٣٨
L'Association Médicale Egyptienne
Dixième Congrès Annuel
Baghdad 9-13 Février 1938
رقم ٤١١ Nº
تذكرة عضو لحضرة الدكتور زكى مبارك ـ بغداد M.
MEMBRE DU CONGRÈS
توقيع العضو زكى مبارك
السكرتير العام
LE SECRÉTAIRE GÉNÉRAL
SIGNATURE DU TITULAIRE
CETTE CARTE EST PERSONNELLE هذه التذكرة شخصية

١٢

... وبكرتُ إلى منزل ليلى بُكُور النَّدَى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح : فوجدت الشقية فى الفُستان المصرىّ الفضّاح الذى زارتْ به معرض القاهرة فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، وكان يجب على ذلك الفستان أن (يذوب) بعد أن (ذابت) به أكبادٌ وقلوب ، ولكنها حفظته تذكِرةً لحبها الأول ، الحب المشئوم الذى أورثها الضَّنَى والذبول ، الحب الذى عجز عنه الأطباء والذى أجاهد فى خلاصها منه بحبٍ أقوى وأعنف ، إن كانت الصبابات القديمة أبقتْ فى عزيمتى ذخيرةً للجهاد ... وقد اهتاجت الغيرة فى صدرى حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطُم ليلَى على خدِّها الأسيل . ثم تراجعتُ حين تذكرت أن بلواها من بلواى . وهل كان حبى فى بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبنى ليلى أول حب ؟ إن المسكينة تعرف أن طبيبها من قدماء المحاربين ، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبتْ عيناه من نِضال العيون . فليكن أنسها بحبى أنس الجريح بالجريح ، ولتفهم أنى أشفيها من جواها لتشفينى من جواى .

وقديماً قال الشاعر :

يا خليلىَّ والرفيقُ مُعينٌ ... أسعفانى ببعض ما تملكانِ
أبتغى آسياً فقد عِيلَ صبرى ... من توالى الوجيب والخَفَقانِ
أبتغى صاحباً تولَّه قبلى ... وشجاهُ من الجوى ما شجانى
فلقد يُسعف الجريح أخاه ... ويواسى الضَّرِيبُ فى الأحزانِ

* * *

وبعد تناوُل ما تيسر من الصبُّوح خرجنا فى سيارة إلى بَهْو أمانة العاصمة ، فترجَّلتُ عند باب المعظَّم لتدخل وحدها ، ومضيت أحمل آمالى وآلامى ، فلما وصلت إلى مدخل البهو اعترضنى أحد الضباط قائلاً : سيدى ، هذه الحفلة خاصة بالأطباء . فقلت : وأنا طبيب ليلى . فابْتسم وقال : تفضل ، تفضل .

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذى أفسح الطريق لطبيب ليلى فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمروز ، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق .

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون ، فنظرتُ فى أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التى تنطق أسارير وجهها بأصدق معانى الكرم والنُّبل ، عقيلة الرجل الشهم الذى يمثل المروءة المصرية فى العراق .

أما أنا فأخذت مكانى بين الدكتور عُسَيران والدكتور عَلاّوى .

وكنت — مع الأسف — ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم ، فقد كُتِب فى منهاج الاحتفال أنه « شاعر مصر » وأنا أبغض الألقاب الأدبية . فلما وقف ليُلقى قصيدته لم أصفّق ، وأعديت مَن حولى بروح السخرية فلم يصفقوا ، ولكن الجارم قهرنى وقهر الحاضرين جميعاً على أن يُدْموا أكفهم بالتصفيق .

وغاظنى أن تصفق ليلَى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى ، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية . ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرءوس ، ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال ؟

وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام ، فما أذكر أبداً أنى حقدت على إنسان . وما أذكر أبداً أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذى يتسفل فيرفع الأدعياء . وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات ، وحاربته فى وزارة المعارف يوم رأى الأستاذ أبو بكر إبراهيم أن يكتب فى نشرة رسمية أنه أمير الشعراء . وقد عرف الجارم خطر ما أصنع ، فكان هو أيضاً يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ؛ ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق .

فيا أيها العدوُّ المحبوب الذى اسمه على الجارم ، تذكر أنك كنت حقاً وصدقاً شاعر مصر فى المؤتمر الطبى العربى ، وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق .

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنك كنت خليفة شوقى فى المعانى وخليفة حافظ فى الإلقاء ؟

إننى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك . وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك ؟ هل أنصفتنى مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاى ؟

يرحمنى الله ويرحمكَ ، فعنده وحده جزاء المجاهدين .

* * *

وعند نهاية الاحتفال دعوت ليلى للتسليم على سعادة العشماوى بك ، وسعادة على باشا إبراهيم ، وفضيلة الشيخ السكندرى .

أما العشماوى بك فسلّم تسليماً خفيفاً ، سلّم تسليم « المتباهين » ليُظهر أنه أكبر من أن يفتنه الجمال ، والعمشاوى بك « يتباهُ » فى جميع الأحوال ؛ وقد درسته حق الدرس ، فعرفت أنه يحمل كبداً أرق من أكباد المحبين ، ولكن له قدرة عظيمة على « التباهُ » فمن الذى علّمه هذا الأسلوب ؟

وقد حقدتْ عليه ليلَى ، فليعرف سعادته أن غضب ليلى سيحل عليه ، وسيرى عواقب ذلك فى الأيام المقبلات !

أمَا يَخِفُّ وقارُك مرة يا عشماوى بك ؟ إتَّق الذوق إن لم تتَّقِ الجمال !

وقد قهقه الشيخ السكندرى حين رأى ليلى وقال : كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكى ، وما كنت أظن أنك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة فى العراق .

والشيخ السكندرى معذور ، فهو يظن أن العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه ، وأن الناس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء !

أما الدكتور على باشا إبراهيم فنظر إلى ليلى نظرة الأرقم وقال : ما أستطيع الحكم بشفاء ليلى إلا بعد أن أفحصها بنفسى .

ورأت ليلى أنى غضبت فقالت : إنى أحترم رأى سعادة رئيس المؤتمر الطبى ، ولكنى أفضل الموت على الحياة فى سبيل الأدب مع طبيبى الخاصّ .

و لم أرد أن تطول اللجاجة بينى وبين رجل كان رئيس اللجنة التى أديت أمامها الامتحان النهائىَّ فى كلية الطب ، فأخذتُ بذراع ليلى وانصرفت .

وأراد سعادة العشماوى بك أن يترضانى فرفضت ، لأنى كنت أعرف ما يريد . وهل كان يريد غير إيناس عينيه بوجه ليلَى ؟ اطّلَع من « دُولْ » يا سعادة الوكيل !

وفى الطريق سألتنى ليلَى عن العشماوى بك ، وقد ساءها أن يتلقاها بوجهٍ صامتِ التقاسيم ، فشهدتُ عند ليلى بأنه رجلٌ مِفضَال ، وأن جموده فى حضرتها لم يكن جمود استهانة ، وإنما كان جمود تعقُّل ، والرجال الرسميون يغلب عليهم التعقل فى أكثر الأحيان !

فهل يعرف سعادة العشماوى بك أننى ذكرته بالخير فى حضرة ليلى ؟

لا أمُنُّ عليه ، فهو يستحق ذلك ، وأكثر من ذلك .

وفى مساء ذلك اليوم أرادت ليلى أن تحضر معى فى الحفلة التى أقامها فخامة رئيس الوزراء ، فقاومتها مقاومة شديدة ، وكانت حجتى أنها ستكون من الحفلات التى يختلط فيها الحابل بالنابل ، وأنه ليس من العقل أن تتعرض ليلى لأنظار المئات من الناس ، وفيهم العاقل والمجنون

وكنتُ على حق فى منع ليلَى من حضور حفلة المساء ، فهى امرأة محجوبةٌ عن المجتمع منذ سنين ؛ وسيكون مَثلها حين ترى اختلاط الرجال بالنساء مَثل العين الرمداء التى تواجه الشمس بعد أن حجبها الطبيب عدة أسابيع فى الظلام ، ولكنها ألحتْ ، ثم انتقلت من الإلحاح إلى التوسل ، ومن التوسل إلى البكاء ، والمرأة أقوى ما تكون حين تَنتِحب ، فتخاذلتُ وقلت فى نفسى : لعلّ هذه اللجاجة تعود عليها بالنفع ، ولعلها حين ترى تسامح المجتمَع لا ترى غضاضة فى أن أغازلها حين أشاء .

ولكن هذا الخاطر تبدّد فى مثل لمحة الطرف ، فأنا أعرف أن وزير المعارف من علماء النجف ، وهو بالتأكيد يكره سفور المرأة ، وإن ساير العصر فأباح اختلاط الجنسين فى المعاهد العالية . ومن المحتمَل أن يكره ظهور ليلى فى المجتمع بلباس السَّهرة ؛ وما لى لا أقول الحق كله فأقرر أن أهل العراق فى النجف وغير النجف ينظرون إلى سفور المرأة بعين الارتياب ؟ ما لى لا أذكر بصراحة أن أكثر وزراء العراق يكرهون حضور زوجاتهم فى الحفلات الساهرات ؟ مالى لا أنص — للحقيقة والتاريخ — على أن وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش ، والجيش يطبع أبناءه على الخشونة والصرامة والعنف ، وأنهم لأجل ذلك من أغير الناس على كرامة ربات الحِجَال ؟

وأخيراً أعلنتُ ليلى بالرفض المطلق ، فأغربت فى البكاء والشهيق .

غضبة الله عليك يا ليلَى وعلى جميع بنات حواء !

ورأيتُنى مع الأسف طِفلاً فى حضرة هذه المرأة ، فقد استبكتنى فبكيت .

ومع ذلك جمعت أشلاء عزيمتى وأصررت على الرفض .

وعندئذ تدخلتْ ظمياء وهى تقول : هل لك أن تسمح بأن تخرج ليلى معك فى ثياب فتًى من الأعراب ؟

فكدتُ أطير من الفرح لهذا الاقتراح الطريف ، ومضتْ ظمياء فأحضرت ملابس ابن عمها عبد المجيد ، فلبستْ ليلى بسرعة البرق ، وخرجت معى .

ولكنا ما كدنا نخطو بضع خطوات حتى تنبهت إلى الخطر المخوف ، فقد تذكرتُ أن ليلى وهى فى ثياب الفتى البدوى لن تقضى السهرة كلها فى صمت ، وهل يمكن لامرأة أن تسكت ؟ وليلى تملك صوتاً هو فى ذاته من كبريات الفضائح ، وقد نصصت فيما سلف على أن لصوتها رنيناً مبحوحاً لم تسمع مثله أذنا على كثرة ما تذوقتُ من بُغام الملاح .

فالتفتُّ إليها وقلت : ليلى ، ليلاى ، اسمعى واعقلى ، فإن صوتك سيفضحنا فى الحفلة

قالت : أتعهد بالصمت المطلق .

فقلت : وكيف أضمن السلامة من واغلٍ سخيف يسلم علىّ عمداً ليظفر منك بتحية ، فتكون نبْرةٌ واحدةٌ من صوتك المقتول نذيراً بعواصف الفضائح ؟

ولنفرض أنك تلزمين الصمت ويلزم الناس الأدب فكيف تخفين هذه المِشية ؟

إن مِشيتك يا ليلى فضيحة ولو لبست ثياب الجاحظ ، والسامرون ينظر بعضهم إلى بعض ، وأنت ستخطرين حتماً بين السامرين ، وما أضمن أن يتأدب الجميع فلا تطرق سمعك كلمة نابية أقع بسببها فى معركة تطنطن بها الجرائد فى مصر والشام والعراق .

اعقلى يا ليلى ، اعقلى ...

ولكن اللئيمة لم تسمع ، ومضت تخطِر فى الطريق ، فلطمتها لطمتين ورجعتها صاغرة إلى البيت ، فودّعتنى وهى تقول :

— سلمتْ يداك ، فإنى أحب الرجل البطّاش !

* * *

دخلتُ الاحتفال فوجدته يموج بالطرابيش فتهيبتُ وتخوفتُ وانتظرت حتى يأخذ المدعوُّون أمكنتهم من السّماطين ، لأتخيّر مكاناً ليس فيه طرابيش . ولا أدرى ولا المنجم يدرى كيف أخاف الطرابيش ! وربما كان السبب فى ذلك أنى أريد أن أحيا فى الحفلة حياة سعيدة ، وهى لا تكون كذلك إلا إن خلت من التوقر ، وما يمكننى أن أخرج على التوقر فى حضور المطربشين . وهل لبستُ السّدارة إلا لأنجوَ من عُنْجُهِيَّة المطربشين ؟

عفا الله عن مصر ! فقد قتلتْ ما فى صدرى من شاعرية بفضل ما درجتْ عليه من التزمُّت والجمود .

لكن أين أجلس على المائدة ؟

أين ؟ أين ؟

الحمد لله ! هذا مكان يزدان بعمامتين من وطن سيدنا عمر بن أبى ربيعة رضى الله عنه ، وكان عمر بن أبى ربيعة من المجاهدين الذين قال فيهم جميل :

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأىّ جهاد غيرهن أريدُ
لكل حديث عندهن بشاشةٌ وكل قتيل بينهنّ شهيدُ

ومن مزايا سيدنا عمر بن أبى ربيعة أنه وُلِدَ فى الليلة التى مات فيها سيدنا عمر بن الخطاب . وقد اشترك هذان القرُشيّان فى الجهاد ، فكان ابن الخطاب يغزو الممالك والشعوب ، وكان ابن

أبى ربيعة يغزو الأفئدة والقلوب .

وأريد أن أقول إن عمر بن أبى ربيعة لا بدّ أن يكون ترك فى الحجاز بعض التقاليد الصالحات ، وقد أجاز له القرشيون أن يقول :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى ولى نظرٌ لولا التحرُّج عارِمُ

ولا يمكن أن يكون النظر إلى امرأة فى المؤتمر أخطر من النظر إلى امرأة فى المحصَّب ، وما جاز فى مكة وهى بلدٌ حرام لا يُمنع فى بغداد وهى بلدٌ حلال .

وكذلك اطمأننت على المائدة كل الاطمئنان .

* * *

ولكن ما هذه المفاجآت ؟ أرانى لا أخرج من مأزق إلا وقعت فى مأزق .

هذه عمامة ثالثة ، وهى من نوع خَطِر ، لأنها عمامة وزير المعارف .

ونظرت فرأيتنى فرغتُ من التهام الحِساء ، وتغييرُ المكان بعد ذلك بابٌ من السُّخف .

وما الذى يُخيفنى من وزير المعارف وهو من كبار الشعراء ، ولا يخلو شاعر من صَبَوَات ؟

ما الذى يُخيفنى من جيرة شاعر سليمِ الذَّوق مثل معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ؟

يُخيفنى أنه أديبٌ صار وزيراً ، وحياتى امتلأتْ بالأكدار والأوحال بفضل صحبتى لرجلٍ أديبٍ صار من الوزراء . وأنا فى هذه المذكرات لا أتجنَّى على أحد ، وإنما أسجِّل صُوَر المجتمع . وكان فى مصر أديبٌ يعطف على أدبى أشد العطف ، فلما صار وزيراً فسد حالى عنده أشد الفساد . كان فى حاله الأول يقول : زكى مبارك شابٌ يجىء منه ؛ وكان فى حاله الثانى يقول : مذهب زكى مبارك فى الأدب سيُفسِد عشرة أجيال .

وقد تعبت فى تعليل هذه الظاهرة النفسية ، ثم اهتديتُ إلى أن الأدباء الوزراء يهمهم أن يصححوا مراكزهم فى المجتمع ، ذلك بأن المجتمع يتوهم وهو خاطئ أن الأدباء يستبيحون من ألوان الحياة ما لا يستبيح ، فالأديب حين يصير وزيراً يضيِّع وقته فى تصحيح مركزه الذى جرّحته أوهام المجتمع ، فينقلب إلى رجل متحرِّج متكلف لا يُعوِزه غير عمامة عَجرَاء ليُصبح شيخ الأزهر أو نقيب الأشراف .

* * *

وكنت خليقاً بأن أعلل النفس بأن ما أخافه فى مصر قد لا أخافه فى العراق .

ولكنى تذكرت حكاية الثعلب الذى هَم بالرحيل عن مصر فى سنة ١٩١٦ فقد سألوه :

لماذا تهاجر يا أبا الحُصَين ؟ فقال : « ألم تعلموا أن السلطة العسكرية قررت جمع ما فى مصر من جِمال ؟ » . فاعترض عمدة الباجور وقال : وهل أنت جَمَلٌ ؟ إنما أنت ثعلبٌ ؛ فقال الثعلب وهو يحاور حضرة العمدة : إلى أن يَثْبُتَ أنى ثعلبٌ لا جملٌ أكون ضِعْتُ !

وكذلك أخشى أن أضيع قبل أن يثبت أن العقلية العراقية تباين العقلية المصرية . وعلى أساس هذا المنطق جلستُ على المائدة فى غاية من الأدب والاحتشام . وأنا رجل يزدان بالأدب فى قليل من الأحيان .

* * *

ولكن معالى وزير المعارف ستشغله ألوان الطعام عن مراقبة ما يصنع الفاتك زكى مبارك !!

وهل كنت مغفلاً حتى تفوتنى هذه الحقيقة الأولية ؟

انتظرتُ حتى عَلَتْ قعقعةُ الشوكات والملاعق والسكاكين وأرسلت بصرى فرأيت امرأة تحادثنى عن بُعد بعينين ترسلان أشعة العُذُوبة والحلاوة والرفق .

ورأيت الفرصةَ سانحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً فى كتاب (سحْر العُيُون) الذى شرعتُ فى تأليفه منذ أعوام ؛ وحضور هاتين العينين زاد اقتناعى بفوائد المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الطبية ؛ وسأكون بإذن الله عضواً فى جميع المؤتمرات لأجِدَ الموادَّ الشائقة لكتاب (سحْر العيون) .

ورأت المرأة أنى أسأت الأدب فصوَّبت سهام عينيها لتقتلنى ، ولكنها لم تفْلح ، فقد حاربتْنى قبل ذلك عُيُونٌ وَعُيُون ثم نجوت ، ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس !

فإن سأل قارئ هذه المذكرات عن جوهر هاتين العينين فإنى أجيب بأنهما توحيان الحب ، ولا توحيان الإثم ، وسأعيش ما أعيش وأنا أتشوف إلى تقبيل قَدَمَىْ هذه المرأة التى سحرت المجتمع وهى فى سذاجة الأطفال ، وربما كنت أول من نظر إليها بعين الطُّهر والعفاف ، ولو كنت مَثَّالاً لاشتريت الساعة بألف دينار لأصنع منها تمثالا يفضح تمثال أفروديت، وليتها تعرف ذلك فيستهويها حب المال ، لأنى لن أفرغ من صب تمثالها فى أقل من عامين . وعلىّ عهد الله أن أقنعَ منها بما يقنع السارى من بدر السماء !

* * *

قلت فيما سلف إنى رجلٌ مفضوح النظرات ، وكذلك وقعتُ ، فلم تمض لحظات حتى تنبه زوجها إلىّ ، فما كان يسير بها إلا وحوله جيش من المعارف والأصدقاء ليصد غارة الإثم

والفتون .

وماذا يهمني ؟ إنه يتوهم أني سأحاول مع زوجته ما حاوله عمر بن أبي ربيعة من زوجة أبي الأسود الدؤلي في الطواف ، ولكنه مخطئ ، فأنا بالتأكيد أحسن أخلاقاً من أستاذي عمر بن أبي ربيعة ، وأنا قد تفوقت على أساتذتي في أشياء كثيرة ، منها هذا الشيء . أنا أجِدُّ وعمر كان يمزح ، وهل ترك ابن أبي ربيعة غير أشعار مُلَوَّنة بالمجون ؟ أما أنا فسأترك بعون الله ورعاية الهوى ثروة فلسفية تشرح ما استبهم من أسرار الجمال .

سيعاديني هذا الزوج وسأعاديه ، ولكني سأعرف كيف أتقي شره فأدرس عينَيْ زوجته من بعيد بحيث لا يجرؤ على اتهامي بالفضول .

وأسارع فأقرر أني اشتركت في جميع الحفلات والرحلات لأستطيع التمكن من دراسة هاتين العينين ، واستعنتُ بالدكتور محمد صبحي بك في تحديد ما خفي عليّ من الدقائق البَصَرية ، ولم يبق إلا شيء واحد هو الوطن الذي تسرح فيه هذه العيون .

وكيف أصل إلى ذلك وزوجها بالمرصاد ؟

انتظرتُ وانتظرتُ ، ثم انتظرتُ ، إلى أن جمع بيننا زِحَام المرقص بعد ثلاث ليالٍ ، فدنوت منها في خِفية وقلت :

Tu m'oublieras un jour !

فقالت في عبارة تجمع بين العَتْب والرِّفق : « دَخِيلَكْ دَخِيلْ الله ، اتركني لحالي ! » .

فعرفت أنها من بنات عمنا القديم دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد ابن سام بن نوح عليه السلام .

رباه ! أنت تعلم ما نعاني في سبيل الحقائق الأدبية والذوقية والفلسفية ، وتعلم أن الناس لا يَجزوننا بغير العُقُوق ، فاغمرني بلطفك واكتبني عندك من الصادقين .

* * *

وأعود إلى حفلة رئيس الوزراء فأقول إنها كانت في غاية من الجفاف فلم يشرب فيها المدعوون غير أقداح الماء القَراح . وقد تَشاكى السامرون بعضهم إلى بعض ، وعرف أحد الأطباء ما في نفسي فقال : هل سمعتَ تصريح معالي أمين العاصمة ؟ فقلت : لا . فقال : إنه يقول إن هذه الليلة من ليالي مكة ، وإنه سيُرينا في مساء الغد ليلة من ليالي بغداد .

وطاش صوابي فمضيت أبحث عن أمين العاصمة لأسجّل عليه الوعد ! فرأيته يحادث رجلاً عرفت فيما بعد أنه وزير المالية ، فما كاد يراني حتى قال : أنا أفتش عليك يا دكتور مبارك .

فقلت : وأنا أفتش عليك يا معالى الأمين . ولكن قبل أن أخبرك لماذا أبحث عنك ، أسألك لماذا تبحث عنى ؟

فقال : كنت أحب أن أوجّه نظرك إلى وجوب خَلْع السدارة فى السهرة .

فقلت : وأنا لا أخلع السدارة لأنى أكره أن أعطيها أدب القُبَّعَة .

فقال : ولكن نحن اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات .

فقلت : هذا غير صحيح ، فقد رأيت عشرات من النواب يحملون السدائر فى حضرة جلالة الملك وهو يلقى بنفسه خطاب العرش ، ورأيت ثلاثة من النواب يخطبون و هم مُسَدَّرون ، وزرت معالى رئيس مجلس النواب فى بيته فكان يحمل السدارة وهو فى غرفة الاستقبال ، والصحف تنشر صورة جلالة الملك مسدَّراً وهو يقرأ الفاتحة على قبر أبيه .

فقال : قلت لك إننا اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات .

فقلت : وأنا أرى الشواهد التى قدمتُها كافية لإقناعك بوجوب التسامح فى هذا الاصطلاح .

فقال : أنت أستاذ وأعمالك قُدْوَة ، وأخشى أن أقول إنك تعطل ما نسعى إليه من جرّ الشعب إلى المدنية .

فقلت : وأنا أخشى أن تجروه إلى الحيوانية .

فظهر الغضب على وجهه وقال : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

وعرفتُ أن الموقف سيسوء فأسرعت إلى تحديد ما أريد وقلت : أقول يا معالى الأمين إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يغطى رأسه ، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس . وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرِّب الإنسان من الحيوانية .

فأخذنى من يدى وانتحى ناحية وقال : كيف تقول أمام معالى وزير المالية إننا حيوانات ؟

فقلت : معاذ الأدب أن أقول ذلك ، وإنما شرحتُ المسألة من وجهة علمية ، فقررت أن الإنسان هو الذى يغطى رأسه من بين سائر الحيوان .

فقال : ولكنك على كل حال جرحتنى ، فإن كنت جادًّا فلتعلم أنه لا يستطيع أحد فى العراق ولا فى مصر أن يخاطبنى بمثل هذا الكلام ، وإن كنت مازحًا فاسمح لى أن أصارحك بأن للرجل أن يمزح ، ولكن ليس له أن يخرج على الذوق .

فقلت : ما كنت جادًّا ولا كنت مازحًا ، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية .

فقال : يظهر أن ما سمعت عنك صحيح .

فقلت : وماذا سمعت ؟

فقال : سمعتُ وقرأت أنك رجلٌ مشاغب ، ومن واجبى أن أنبهك إلى أنى سحبت منك الدعوة لحضور السهرة المقبلة .

فقلت : ذلك ما لا تملك .

فقال : ستعرف أن ذلك مما أملك .

وانصرف وانصرفت .

* * *

رجعتُ إلى منزلى مُبَلْبَل الخواطر وأنا أقول : هذا ذنب ليلى ، هذا جزاء من يخالف ليلى ، فلو كانت ليلى معى فى السهرة لغُفِرَتْ جميع ذنوبى فقد علّمتنى التجارب أن الرجال الذين لهم زوجات سَوَافِر تُقضَى لهم مصالح لا تقضَى لأمثالنا أبداً ، نحن المحافظين المغفلين الذين يجهلون خُلقَ الزمان .

أيستطيع أمين العاصمة أن يحجبنى عن ليلة بغداد بعد أن أضعت من العمر ما أضعتُ فى التغنّى بتاريخ بغداد ؟ أفى الحق أنه أعرق منى لأنه من مواليد العراق ؟

سترى يا أمين العاصمة أينا أقرب إلى قلب بغداد ، وسترى فى الليلة القادمة كيف تلقانى وألقاك .

يتشرف أمين العاصمة بدعوة سعادة الدكتور السيد زكي مبارك

الى حفلة القبول التى ستقام فى بهو العاصمة فى الساعة العاشرة زوالية من مساء يوم الخميس المصادف ١٠ شباط سنة ١٩٣٨ وذلك على شرف اعضاء المؤتمر الطبى العربى الذى تعقده ببغداد الجمعية الطبية المصرية .

اللباس : فراك

والبزة الرسمية للعسكريين والشرطة

يرجى ارسال الجواب باسرع وقت

لقد آذانى معالى السيد أرشد العمرى ، وكظمت غيظى فلم أسمعه ما يكره ، وقلت فى نفسى : إن الرجل تصور أننى أهنته فسحب منى الدعوة والجروح قصاص .

وقلت : هم سيقضون السهرة فى الرقص وسأقضيها فى التأليف ، وأنا أجد لذة ممتعة حين أرانى أجِدُّ فى وقت يلعب فيه الناس .

وتذكرت أنى أشغل مطبعتين فى بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف فى المنزل فأحضّر بعض الوقود لجحيم المطابع .

وكذلك اطمأننت إلى الزهد فى ليلة بغداد التى وعُدَ بها المؤتمرون !

* * *

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هى دعوة لسياحة طريفة فى ضواحى الكرخ وبغداد ، نتفرج بها على إسالة الماء ، وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر فى بغداد غير الجادّة والدّربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسّر من سواد العيون .

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثانى كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج .

فهل روّحتُ عن نفسى وأعددت موادّ البحث المنشود ؟

ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمىّ حين رأيت صاحبة العينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية فى تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمّير ، وكنتُ أنظّم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين . ومن العجيب أن أمرى لم ينكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أننى كنت المستمع الواعى ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تُسقيان من دِجلة لا من الفرات .

ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

* * *

ومضينا فتناولنا الشاى والفاكهة فوق العُشب الأخضر وبين الأشجار التى أذوتها أرواح

الشتاء ، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلـد المحبوب ودّينــي زاد وجدى والبعد كاوينــي

فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ولكن أين من « يُودّينى » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بينى وبينها غير ثلاث خطوات !

ثم قال الصوت :

يــا مسافــر على بحر النيــل أنــا لــىّ فى مصر خليــل

فرمقتنى صاحبة العينين بنظرة حَنَان . فمن الذى أعلمها أنى نشأت فى ديار النيل ؟ مَنْ أعلمها ذلك وعلى رأسى سِدارة ، والمصريون كلهم مطربشون !

وهممتُ بالتسليم عليها ، ولكن صدَّتنى العصابة التى كانت تحرسها منى ، وصدنى أن مكانى كان قريباً من مكان رئيس الوزراء .

ثم تقوض المجلس وانفض الناس . والدنيا اجتماع وافتراق .

* * *

كيف السبيل إلى رؤية هذه الطبية فى المساء ؟

إنها ستكون بالسهرة البغدادية التى وعد بها المؤتمرون .

وأنا ممنوع من سهرة بغداد .

ولكن من الذى يمنعنى ؟

هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالى أرشد العمرى .

أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !

أأنت الذى يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتبْ مثلَه كاتبٌ فى قديم ولا حديث ؟

أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

* * *

وأخذتُ أفكر فيما سأصنع ، فهذه الظبية ستكون فى المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب فى رياضة العصابة التى تحرسها منى !

وأنا قد تعلمت الرقص فى باريس وأخشى أن أنساه ، وحياةُ العلم مذاكرته ، كما قال القدماء .

وهل من الإثم أن أهتم بمذاكرة ما تعلمت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمال فى سبيل الرقص

ما أنفقت لتضيع مني فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟

لا بُدّ من حضور هذه السهرة .

لا بُدّ مما ليس منه بُدٌّ .

* * *

ولكن كيف ألقى معالى أرشد العمرى وهو غضبان ؟

أنقف فنتناوش ونتضارب ؟ وهل أرسلتنى مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟

لو كانت المسألة بينى وبين هذا الرجل مسألةً شخصيةً لضاربته وقاتلته بلا تهيب ، وما أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دمى فى خلق الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى فى بغداد أقنعتنى بأن مصر لا بد لها من مودة العراق ، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس ، وهذه العواطف ليست جديدة عندى ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحلف الشريف بين المصريين والبابليين وما جاز فى عهد الجاهلية لا يستحيل فى عهد الإسلام ، إلا أن تكون من الأغبياء .

وتذكرت أن بغداد تحوطنى بأشرف معانى العطف ، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سناً ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضربٌ من العقوق .

وتذكرتُ شِعار مصر وشِعار العراق .

أما شعار مصر فهو : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا » .

وأما شعار العراق فهو :

سيوفُنا قاطعة لِلّى يقابحنا ورقابنا قنطرة لِلّى يسامحنا

وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس فى السهرة وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجر إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس المزكوم منظره سخيف ، فما الذى يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه فى السهرات .

هذا حلٌّ موفَّق ، ولكن لا بدّ من الاحتياط ، والاحتياط هو أن أذهب قبل المَوعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، ومذهبهم هو أن تحتل أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

* * *

كان طريقى من باب المعظَّم إلى بَهْوِ أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال فقد كانت ليلة عيد، وكان القمر ينظر إلىّ فى ترفق كأننا فى سَنْتِرِيس، ولكن صدرى كان مكروبًا بعض الكرب: فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهى موعد غرام، وهى فى هذه المرة قد تكون حَوْمة قتال.

مشيتُ مِشية المتمهل لأجتلى طلعة القمر، أو لأؤخر الشر لحظات.

فلما دخلت البهو وجدته خالياً، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقتُ الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلىّ الذى تفكر المقادير فى شغله بالحب، وجدته كالغادة التى تنتظر العاشق الصوال، وجدته كالكأس التى تنتظر ضريم الصهباء.

دخلت وحدى وتلفتُّ فلم أجد أحداً، وبعد لحظة لمحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيج!

وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إلىّ عَدْوًا فقلت: هذه طليعة الشر، وتأهبتُ للصِّيال.

ولكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف، فقد حيانى أجمل تحية، وأخذ يدى برفق فدلنى على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستْنيه الأيام، فقلت:

سيدى، هل لك أن تُذَكِّرنى متى تلاقينا أول مرة؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس، ذكرنى فقد نسيت!

فأجاب فى لطف:

ما أذكر يا مولاى أننا تلاقينا قبل اليوم، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العريزة، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق.

فرفعت الكأس وقلت: تعيش بغداد، ويحيا العراق!

وسألت بعد ذلك عن اسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور؛ وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقانى بغير الابتسام.

* * *

نحن الآن فى بغداد، فى ليلة رأى مثلها الرشيد، وإن تَعِبَ الواصفون فى التذكير بليالى الرشيد. هى ليلة بغدادية لا قاهرية، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب، ويختلف حولها الفقهاء؛ أما بغداد فتعرف الليالى الساهرة عن الآباء والجدود. هى ليلة سيذكرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التى يعانى فيها سكرات الموت؛ هى

لبلة تمثل الفتوة العراقية وتذكِّر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت .

كان الناس كلهم فى سماحة الملوك ، وكنت وحدى أبخل الحاضرين ، فقد سألنى رجل عظيم متى أرقُص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أنى ذهبت إلى ناحية قَصيّة وراقصت ثلاث فتيات وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب .

لا أدرى والله ماذا صنعت فى تلك الليلة ، وإنما أذكر حادثتين : الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص ، فقد ارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكى مبارك ! وكان الأستاذ على الجارم بك بين الحاضرين فانتظرتُ أن يهتف باسمى فلم يتردد كما كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ شق الصفوف إلىّ فعانقنى وهو يقول : أنا فرحان لك يا دكتور زكى ! فرحان لك يا أخوى ، فرحان لك يا حبيبى ، فرحان لك يا نور العيون ، يا زهرة مصر فى العراق .

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا فى قليل من الأحيان .

ولا مؤاخذة يا جارم بك ، يا حبيبى يا نور عيونى ، يا أحلا من ملح رشيد !

أما الحادثة الثانية فهى طُرفة لا تقع من رجل سواى .

فقد عثرت فى الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة فى مرقص ، فقلت فى نفسى : ما الذى يمنع من التصدق على تلك الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا فى الحقيقة « رجلٌ إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجلٌ آدمىّ » كما يعبِّر أهل دمشق وأهل بغداد . وما أذكر أبداً أن سائلاً سألنى وخيبتُه ، وأنا لا أستحى من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء .

طافت هذه الخواطر بنفسى وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت : إن ليلتى هذه لن تخلو من سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمتُ .

سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفنى وقبلتُ يدها فابتسمت .

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرفتُ .

ولكنى لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك ! يا دكتور مبارك !

فالتفتّ مذعوراً فإذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقَّت الفضيحة ،

وجمعتُ أشتات قواى وقلت : نعم يا سيد !

فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقى .

فقلت : وماذا قال شوقى ؟

فأجاب إنه قال :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ   فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

فهو قد فرض أن تُسبَق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قبّلتَ بدون مقدمات .

فقلت : يا سعادة الأستاذ ، لقد عرفتَ شيئاً وغابت عنك أشياء إن شوقى قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ما عرف الناس ، ونحن اليوم فى عصر اللاسلكى والطيران ، فلا تلمنى إن قبّلتُ بدون مقدمات ، فمن العقل أن نتخلق بأخلاق الزمان .

طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقنى عن طريق مؤلفاتى ، وسيكون من الذين أقبّل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد ، وصداقة الأرواح شىء نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال .

كانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضتْ والقلب يتبعها   فى حيثما وقعت من الدهرِ

فأين ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلوم !

* * *

كنت أول من دخل البهو فى تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت المبيت هناك لأستنشق ما بقى من أنفاس الظباء .

رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قبيل الشروق ، فرأيت مصابيح البيت كلها مضاءة ، ورأيتنى فى ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أننى دخلت البيت بلا وَعْى ولا إحساس .

ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالى بغداد .

وإلى معالى أرشد العمرى تحيتى وثنائى !

* * *

هذا صباح العيد ، وهذا طوافى برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضى حين قال :

نُحاسِنُ أقمارَ الدجى بوجوههم   فنبهَرُها نوراً ونغلبها سعداً

تخالهمُ غِيداً إذا بذلوا النـدَى   وتحسبهم جناً إذا ركبوا الجُرْدا

هذا هو الرجل العذب الروح ، النبيل الشمائل ، جميل المدفعي رئيس الوزراء الذى لا يصدّق من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال . والليث لا يكون شتيماً فى كل حين .

وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذى أحببته منذ رأيته فى سهرات رمضان .

وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يرانى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس .

* * *

ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، وكنت أتمثل نورى باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون فأراه فتىً خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ، ويقبل علىّ فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنى قرأت جميع مؤلفاتك .

ويروعنى هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس » .

ويقبل علىّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى ، فيبتسم نورى باشا ويقول :

« إن ليلى المريضة فى العراق هى شبكة ينصبها الدكتور زكى مبارك لتقع فيها إحدى الليليات » .

وأتألم من ذلك فأقول : « إن مولاى نسى أنه تلطف فأعان الضابط عبد الحسيب على الانخراط فى سلك الجيش العراقى سنة ١٩٢٦ » .

ويمسح نورى باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفى الله ليلى على يديك » .

* * *

ثم نمضى فنزور معالى مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذى أفهم العالم أن من واجب الجيش الإنجليزى أن يحسب ألف حساب للجيش العراقى ، ونسمع الفصاحة العربية التى كانت تعذُب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين .

وفى مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالا فخماً يشاركنا فيه أقطاب العراق .

وفى اليوم التالى أمضى لإلقاء محاضرتى فى المؤتمر الطبى فيقبل علىّ عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك » .

ويجيىء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد صارت طلعتك بهجة لأطفال بغداد

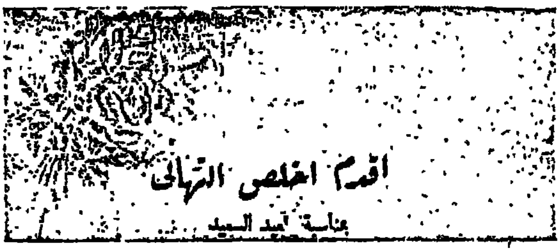
يا دكتور مبارك ! فينهمل دمعي وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وذاك يشبه عبد المجيد وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان » .

أبنائىَ الأعزاء ، لقد نهبتني منكم بغداد ، فاغفروا لى ذنبى فما ذقت حلاوة العيش إلا فى بغداد .

* * *

تحدثت عن الليلة السعيدة التي أقامها أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالى الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهى ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع فى تلك الليلة من ضروب الفُنُون فقد تمرُّ أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب .

ومن الواجب علىّ وقد أجاب الأطباء دعوتى فعقدوا المؤتمر العاشر فى بغداد ليعاونونى على مداواة ليلى ، من الواجب أن أسجل بقلمى ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالى الرشيد . ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .



الى الدكتور زكى مبارك

من ليلى المريضة بالعراق

١٠ ذا الحجة ١٣٥٦

إلى الأستاذ المبارك المحترم

يسرني وأيم الله أن أحييك باسم العراقيين عامة والكاظميين منهم خاصة مقدماً أملي
أن تهاني مشفوعة بالدعاء لك ولشقيقتنا مصر بمناسبة عيد الأضحى السعيد.
وبعد فإننا نطالع بكل أشتياق ما تخطه يداك ولكننا لم نر يوماً أن شمل عطفك
الكاظمية تلك المدينة المقدسة القريبة من وكرك في بغداد
ولا يخفى عليك أن هذه المدينة أنجبت عشرات الرجال الكبار
الذين خدموا ولا يزالون يخدمون وطنهم بكل إخلاص وأذكر
لك هنا أسماء البعض على سبيل المثال :- السيد محمد الصدر رئيس مجلس
الأعيان والشيخ مهدي الخالصي من زعماء الثورة العراقية وعبد المحسن
الچلبي عضو مجلس الأعيان والسيد باقر أحد كبار موظفي البلاط الملكي
العامر وحسن السهيل زعيم قبائل بني تميم والشاعر عبد ال
الكاظمي والدكتور فاضل الجمالي ومحمد صادق رئيس محكمة التمييز
في بغداد وغيرهم وغيرهم من خطباء وكتاب وعلماء وأساتذة وقادة جيش،
فاعطف أيها الأستاذ على الكاظمية ليلى العراق الصحيحة بعد أن انتهيت
من ليلى العراق المريضة والسلام..

أحد محبيك من الشباب

١٤

نحن فى اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبى العربى الذى بث الابتهاج والانشراح فى أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرّج كلية الطب لألقى بمحاضرتى عن المصطلحات الطبية فأجد اسمى فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتى فأحقد على منظِّم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تَضْجَر فتنصرف قبل أن تسمع صوتى ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل فى مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين !

رباه ! متى يُعْقَد المؤتمر الطبى مرة ثانية ولو فى الصين ؟!

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلقى محاضرته فى صوت مَطْلول كأنداء الصباح .

ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندرى فيلقى محاضرة نفيسة جداً تضج لها الأرض وتطرب السماء ، ويصيح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر !

وأقبل عليه أشكره على التحية التى وجَّهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون ، واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمتْ فى ذهنى بسبب الجموح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين فى باريس .

وأعتذر عن جموح شبابنا فأقول : لا تلُم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروِّح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى فى مخاطبة أم كلثوم :

يا أمّ كلثوم إنَّا أمةٌ رزحتْ تحت المصائب أحقاباً فسلِّينا

ويجىء دورى فى الخطابة فأعتلى المنبر فى زَهْو وخُيَلاء . ثم يروعنى أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء فى مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق فى المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متأ لم متوجع فيهمس أن المدرَّج لم تبق فيه فتاة واحدة . فأسأل : وكيف ؟ فيجيب بأن وغورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندرى

أملّتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى أن لا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ، يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل فى تفاصيل ما سأراه ، أذكر أنى زرت ليلى شفاها الله فى مساء ذلك اليوم فحدثتنى أن خطبة الشيخ السكندرى ملأت مسامع بغداد ولكنها أنكرتْ أن يتحذلق الشيخ السكندرى فيقول :

« إن الأوكسيجين مثنًى أوكسيج ، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجرّ بالياء » .

فأصرخ فى وجه ليلى : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصريٌّ خبيث يقيم فى بغداد .

و لم أنجح فى إقناع ليلى بأن هذا إفتراء على الشيخ السكندرى إلا بعد أن هددتها بالغرق فى دجلة ، وليلى تحبنى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد .

* * *

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بنى تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ، فأتردد ، لأنى لم أدخر درهماً واحداً فى بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله جزائى .

وأهم بالزهد فى الوليمة التميمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى فى خدمتك يا دكتور زكى . فأنظر فإذا الطبيب الذى تشرفت بمعرفته بالأمس وهو الدكتور صائب شوكت ، فأقول ولكنى معى صديقان فضيلة الشيخ السكندرى والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى فى خدمتكم جميعاً يا مولاى .

وقبل أن أدخل فى التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقىّ يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحى : الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات فى كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقىُّ قبل أن يعرف مصدر الوحى . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا كيف استطاع الدكتور زكى مبارك أن يكون أصدق من استرقّتْ بغداد .

ونمضى فى السيارة على غير هدى فى صحبة الطبيب النبيل الذى ينقلنا إلى مضارب بنى تميم ؛ ثم نتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا فى رحاب عقرقوف الذى خلّد اسمه أبو نواس فى رحلته إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك ومصر

الجديدة وحلوان ، والتى تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التى تشعثتْ بعد رحيلى إلى العراق .

رباه ! إنك تعلم أن الظلام فى مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعنى إليه !

ونصل إلى مضارب بنى تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان . وفى زحمة الاحتفال يجىء طبيب نبيل فيدعونى للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدباً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية فى بغداد . فإليهما أقدم تحيتى وثنائى ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . ويمدّ السماط ، أو السماطان ، أو الأسمطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل .

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق فى المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذى اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكى مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض فى العراق : اطمئن يا بُنّى ، فإن الدكتور مبارك من كبار السابحين !

ويقف عميد بنى تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندرى ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهورى : الدكتور زكى مبارك يلقى كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلاً : ماذا ؟ ماذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكى مبارك يخطب باسم العراق ، فيقول معالى الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكى مبارك أن يخطب باسم العراق .

وألقى خطبة رنانة أشكر فيها إخوانى المصريين وأقول إن حياتى طابت فى العراق وإننى لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندرى تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت سنتريس .؟!

فأقول بصوت صاخب : ونسيت سنتريس !

ومن واجبى أن أسجل فى هذه المذكرات أنى لم أر فى حياتى أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقى من حياتى . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

* * *

أما بعد ، فنحن فى منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة فى بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور

شوكة الزهاوى . وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذى سيقبِّل من أجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتى وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربى وقسم أفرنجى ، فأقول : النبى عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى .

وأمضى إلى القسم العربى فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس . وأخرج عن وقارى فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدى ، أتسمح بأن أسجل فى مذكراتى أن إيثارك الجلوس فى المرقص العربى هو فى ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية فى حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول .

وأعود إلى مكانى وأجعل قلبى كله للمرقص ، وما هو فى الحقيقة بمرقص ، ولكنه مَغْنًى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحةٌ جدًّا تجلس بين القيان وعليها سيما الذُّل ، فيزعجنى أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفينى ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقارة فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جداً من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك .

فقلت فى عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذى يليق بمقامى .

فتلعثم الرجل وقال : لطفاً ، يا سيدى ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك فى هذه القضية ؟

فقلت وأنا أَجِدُّ كل الجدّ : لستُ يا سيدى بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتوجَّع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاستها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل مَن يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يُرضى الناس ؛ والناس يا سيدى يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب رضاهم بغير الجحود ، فهل يسوؤك وأنت عراقىّ كريم أن أكون من الكرماء ؟ هل يسوؤك أن أدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاىَ ورضاك ؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال : وما رأيك فى هذا ؟

فقلت : وما هذا ؟

فقال : أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها فى وقاحة وسفاهة ؟

فقلت : نعم رأيت ، ثم رأيت ؛ ولكن من الملوم ؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغويّ والسفيه والمجرم ، فهن يتقربن إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفحش . ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق .

ويقوم المغنى المطرب محمد القومبانجى فينشد :

أأحبابنا قد فرّق الدهر بيننا فأصيح : قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال .

وأنتقل من مكانى لأرى كيف تموج الدنيا فى المرقص الأفرنجى فأعثر على الراقصة التى كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات ، وأحييها فلا تردّ التحية ، كأنها ظنت أننى كنت فى مداعبتها من الماجنين .

إننى أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة ، ويسرنى أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش ، ولا أستثنى نفسى ، فلتحذرى وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس .

طوّفت بالمرقص الأفرنجى لحظات لأرى صاحبة العينين ، و لم أجدها فأين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟ دلونى فقد عِيلَ صبرى . وفوق أى مخدّة نام ذلك الخد الأسيل ؟ يرحمك الحبُّ يا قلبى !

***

تحيا إنجلترا !!

كذلك قلتُ ، فدهش السامرون .

تحيا بريطانيا !!

كذلك قلتُ ، فدهش السامرون .

تحيا بريطانيا العظمى !!

كذلك قلتُ ، فضجّ السامرون .

وما لى من ذنبٍ إليهم علمتُهُ سوى أننى قد قلتُ يا سَرْحَةُ اسلمى
نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمتَ اسلمى ثلاثَ تحياتٍ وإن لم تَكلَّمى

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطنى ، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش . وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطنى بلباقة فى الجرائد الوفدية ، وكان الوفديون يعرفون صدق وإخلاصى ونزاهتى فيتسامحون ويدعوننى أذيع فى جرائدهم ما أشاء . ولما أمضيتْ معاهدة التحالف بين إنجلترا وبين مصر قررتُ أن أؤلف كتاباً أدعو فيه

المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن إنجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال .

فما الذى جَدَّ فى أفق السياسة حتى أهتف بحياة إنجلترا فى بغداد ؟

ما الذى جَدَّ حتى يتغير زكى مبارك الذى أضاع نفسه فى مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التى تملك مصاير الأمور فى أكثر الشؤون ؟

كنتُ ألمح من بُعد فتاة تسارقنى النظر بعينين زرقاوين ، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إلىّ ؛ وكان جاري رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين ، فترك المكان عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جوارى . ولم تنتظر الفتاة الدعوة ، فما هى إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهى ، وكلمتنى بالإنجليزية فلم أفهم ، فاستوضحتُها بالفرنسية فلم تفهم ، فقالت بلسان عربى ملحون ما معناه : أرجوك أن تطلب من سليمة باشا أن تغنّى :

على بلد المحبوب ودِّينى

ودار الصوت على الحاضرين ويدها فى يدى وعينها فى عينى ؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجّلوا غير الجميل .

وبعد لحظات همَّت الفتاة بالانصراف ، فجذبتُ يدها أقبّلها فسمحتْ بعد تمنُّع واستحياء :

ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ   بكل قبيلةٍ منا نَواهــا
فواهًا كيف تجمعنا الليالى   وآهًا من تفرقنا وآهــا

* * *

ثم يجيء اليوم الخامس فألقى محاضرتى فى كلية الطب ، وأعربد على الدكتور عبد الواحد الوكيل وعلى الأطباء المصريين ، وأزعم أن أساتذة الطب فى مصر من أكسل الناس ، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية ، ويصفق الحاضرون ، ويقبل الجارم لتهنئتى فأقول : أنا تلميذك . فيقول : لقد بذذت أساتذتك .

ويجيء المساء فأذهب إلى الحفلة التى تقيمها الجمعية الطبية المصرية ، فأراها وأسفاه حفلة مصرية حقًّا وصدقًا ، فلا شراب ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى : فضحتمونا يا ناس !

لكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها : إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررتْ أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنّى فيها البيان .

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات فى سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها فى كرب ، لولا الخطبة الظريفة التى ألقاها سعادة العشماوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعزّى بالنظر إليه .

* * *

ويجيىء اليوم السادس وهو رحلة إلى سدَّة الهندية وأطلال بابل .

وأصل إلى القطار فى آخر ثانية ، فقد كنت فى شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصِّباح . ويمرّ القطار على قرية اسمها الإسكندرية فأقول : لعل هذه هى البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الإسكندرى الذى يروى عنه عيسى بن هشام فى مقامات بديع الزمان ؛ وأملأ عينى من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة فى الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفنى) .

ثم يقذفنا القطار إلى سَدَّة الهندية : وليتنا غرقنا هناك !

وسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذّاب يذكّر بهدير النيل على الريّاح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على سدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطنى ، إن كان لى إلى أرض الوطن مَعاد .

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنتَ غريبًا فى كل أرض حتى فى سنتريس !

لا تحزن يا قلبى ، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً فى كل لحظة ، وتدرسه الأعين فى كل مكان ، ويؤدّى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يُفسد المفترون .

لا تحزن يا قلبى ، فكلُّ غيم يتلوه صَحْو وكل ليل يعقبه صباح .

لا تحزن يا قلبى ، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب .

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبى !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع ؟

وإلى أين؟ حدثنى إلى أين؟ إلى أين يا جاهل؟ فأنت تجمح إلى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو ، وكيف تُقرع الكأس بالكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . إلى أين ؟ حدثنى

إلى أين ؟

وهل لك وطنٌ أيها القلب ؟

حدثنى أين وطنك فقد نسيتُ ! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الودّ لأنى دعوتها لزيارتك متنكرةً فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبى ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك إليه . أهو مصر ؟ كذبتَ ، ثم كذبتَ ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك فى مصر منبوذٌ مجهول .

قلبى ! قلبى ! رحمةُ الله عليك ، فقد سعد ناس بالرفق المزيَّف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح .

وقد وصل ناسٌ لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

ونَعِمَ ناسٌ لأنهم خانوا ، وشقيتَ أنت لأنك وفيت .

وتقدم ناسٌ لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جَدَدْت .

وانتفع ناسٌ لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت .

قلبى ! قلبى ، أحسن الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء فى رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبى ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنحِّى زوجها بعنف لتظهر فى الصورة بجانبك ؟ اعترفْ يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر فى صورة عالمية فى رحاب أسد بابل وفى جوار صاحبة العينين . اعترفْ بأنك كنت فى إحدى لحظاتك أسعد القلوب .

مولاتى صاحبة العينين :

أعترفُ بأنى آذيتك بعضَ الإيذاء ، أو كلَّ الإيذاء ؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ الناس مذكراتى فى مجلة الرسالة فعرفوا من أنت . فهل أطمع يومًا فى أن تعرفى من أنا ؟ وهل يعرف زوجك المفضال أننى شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندى يا مولاتى أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبت لندن وباريس وبرلين ، وأن فى بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والمقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحًا فيها جمال وصفاء .

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنما أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبّب العرب فى بلادهم بالإشارة إلى ما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق .

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل فى طريقى إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد الهراوى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصابة التى حرستْك منى ، فاسمحى لى بتقبيل قدميك قبل أن أموت .

* * *

ولكن ... ولكن ...

ولكن أينسينى حديث العينين وصاحبة العينين ، ما شهدتُ يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يحلّق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبى ، وكان المظنون أن لا تظهر هذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء .

ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا أن لا يمر ذلك اليوم بسلام .

وما كان يهمنى أن أشترك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب (ذكريات باريس) ، ولكنى رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى أن لا أرى غير جماعة من « الخناشير » كلهم شُعثٌ غُبرٌ كأنهم قدموا من البيداء .

ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع .

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولكنى لم أفلح ، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش .

ورجعت أتعثر فى أذيال الخيبة ، فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلاً يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم يا سيدى ، أحب أن أطير !

فدعانى إلى سيارته فركبت ومضينا إلى ناحية قصيَّة فطلب طيارة وقال : « هذه فى خدمتك فادعُ إلى مصاحبتك من تشاء » فنظرت فإذا سيدة « تائهة » فأخذتها معى وطرتُ .

وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها فى انتظارى فركبت معه إلى المقصف وأجلسنى مع جماعة من الضباط . ثم قال بعد تناول الشاى والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوِّف حيث شئت » .

فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزى باشا رئيس أركان الجيش .

ومع ذلك يعجب ناس حين يروننى أطيل القول فى الثناء على العراق وأهل العراق .

***

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولكن جدّ ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هى المدينة التى وُلدت فيها ليلى المريضة فى العراق . وكنت خليقًا بأن أعرف ذلك من قبل ، ولكن ليلى لم تحدثنى عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندَّى بالعطر والريحان ، الثرى الطاهر الذى عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القدُّ الرشيق .

إلى وطنك يا ليلاى ، إلى البصرة ، إلى النخيل ، إلى شط العرب الذى تحترب فى سبيله أمم وشعوب ، إلى وطن الجاحظ ، إلى وطن المبرد ، إلى وطن مولاى الحسن البصرى أمتطى القطار فى ظلام الليل .

محمد بهجة الأثرى

رئيس تحرير (العالم الاسلامي)

لعل « ليلى » — عجل الله شفاءها — ستحول بين الدكتور .. والأخصائى بمرض الأرواح ..! ومن مازينة من وصفات الأسقام مزمنة ...؟

[illegible]

ماذا سمعت ليلى المريضة بالعراق عنه ؟! ..
لقد مرضت [illegible] سمعت بعد [illegible] سنوات ؟؟
أنا لا أخشى عليه من ليالى بغداد ولكننى
أخشى عليه من ليلى !

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى المدينة التى تجرى من تحتها الأنهار . إلى مهد ليلَى يطيب الإسراء .

ولكن لا بدّ من السلام على ليلَى قبل الرحيل ، فقد صبرتُ النفس عن لقائها ثلاثة أيام ، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها فى هذه المذكرات ، وهى حادثة ضجَّت لها أرجاء العراق ؛ ولكن لا موجب لتدوينها ، لأنى أحب أن تموت وهى فى المهد ، فقد تطوينى طياً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير فى بغداد ؛ وفى مصر رجل عظيم يعرف ما أعنى ، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال[١]

وأشهد أنى كنت أملك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن وقع ما لم يكن فى الحسبان .

وتفصيل ذلك أنى رجل محزون ، محزون ، محزون ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ، ولكنى من أقدر الناس على الفرار من أحزانى . ولعلى أشبه الرجال بالشاعر الذى يقول :

جنَتْ علىَّ الليالى غير ظالمةٍ ... إنى لأهلٌ لما ألقاه من زمنى
فما رأيتُ من الأخطار عاديةً ... إلا بنيت على أجوازها سكنى
ولا لمحتُ من الآمال بارقةً ... إلا تقحَّمتُ ما تجتاز من قُنن
أحلْتُ دنياى معنًى لا قرار لهُ ... فى ذمة المجد ما شرّدتُ من وسن

ولكن أحزانى تحقد على تجلُّدى أبشع الحقد فتجمع جيوشها وتهجم علىَّ من حين إلى حين ، وقد انتصرتْ فى هذا اليوم مع الأسف الموجع ، فلم أجد مفراً من السلام على ليلى ، علّها تجفف دموعى وتبرّد أحزانى .

إليك يا ليلى المرجع ، وإليك يا ليلى المآب .

* * *

دخلت على ليلى فى العصرية لأقضى فى رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار

---

(١) تجد شرح هذه الإشارة فى كتاب (وحى بغداد) .

البصرة ، فماذا رأيت ؟ ماذا رأيت من ليلى ربة العطف والحنان ؟

تلقتنى غاضبةً بعينين تقذفان بالجمر المتوقِّد ، وتحت قدميها ظمياء .

ــ من أتى بك إلى هذه الدار ؟

ــ من أتى بى إلى هذه الدار ؟ هذه دار ليلاى !

ــ ليلاك ؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع فى أن أكون ليلاه ؟

ــ سيدتى ، وماذا حدث ؟ خبرينى فقد طار صوابى .

ــ وهل تجهل ما حدث ؟ اسأل قلبك إن كان لمثلك قلب !

ــ إن قلبى يشهد بأننى وفىٌّ أمين .

ــ وفى مثل ما صنعتَ تكون الأمانة ، ويكون الوفاء !!

ــ سيدتى ، ماذا حدث ؟ خبّرينى فقد طار صوابى .

ــ هل تنكر ما شاع عنك ؟

ــ وما الذى شاع عنى ؟

ــ يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السُّخف فى سهرات المؤتمر الطبى . ويقولون إنك لم تترك سيدة إلا قبَّلت يديها ، وربما أوغلت فى السخف فقبَّلت جبينها وخديها .

كذبوا ، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة .

ــ ما هذا التظرف السخيف .؟

ــ ليلى ، إسمعى ، أنت حمقاء .

ــ أنت وحدك الأحمق .

ــ أنا وحدى الأحمق؟ صدقتِ يا ليلى، فلو كنتُ أعقِلُ لرأيت لنفسى ألف مذهب فى الحياة غير مداواة الملاح !

ــ قلت لك إنى أبغض هذا التظرف السخيف .

ــ وهو كذلك ، تركت التظرف السخيف ، تركت التظرف السخيف ، ولكن اسمعى يا ليلى ، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة ، وستبكين أيامى .

ــ أبكى أيامك ؟ وهل كانت لك معى أيام يطول عليها البكاء ؟

ــ ليلى ، اسمعى واعقلى ؛ أنا لا أنكر ما وقع منى فى سهرات المؤتمر الطبى ، ولكنى رجل حزين يداوى جراح قلبه بالعبث والمجون .

ــ أعرف أنك حزين ، لأنى أعرف المرأة التى كوتْ قلبك .

ـــ ما كوى قلبى أحد ، وإنما همومى هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء .

ـــ أنت وحدك الأحمق .

ـــ شيء غريب ! أهذا أدب النساء فى بغداد ؟

ـــ هذا هو أدب النساء فى بغداد ، وستعرف عواقبه بعد حين .

ـــ ليلى ، يظهر أنك امرأة كسائر النساء .

ـــ النساء أشرف من الرجال .

ـــ المرأة أجمل من الرجل ، ولكن الرجل أشرف من المرأة ، لأنه يحتمل مصاعبَ وأرزاءً لا تحتملها المرأة ، ولو كنت فى مكانى يااللئيمة ...

ـــ أنت وحدك اللئيم .

ـــ من أين تعلمتِ هذه الألفاظ الغلاظ ؟

ـــ تعلمتها منك !

ـــ هل يسرّك أن نفترق ؟

ـــ فى أمان الله !

* * *

خرجت من غرفة ليلى والدمع فى عينى ، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التى آنستْ وحشتى فى بغداد . نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التى عرفتُ بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئاتٍ من السنين . هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التى جعلت قلمى أطوع قلم ، وجعلت بيانى أعظم بيان . هذه آخر مرة أشرب فيها صُبابة الكأس ، وألقى سيفى وأطوى لوائى ، إلى آخر الحياة ، إن كان لمثلى بعد ليلى حياة .

وفى تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكى لبكائى ، أنا العاشق المسكين الذى لم يُحفَظ له جميل .

وقد سقطتُ على السُّلم مرتين ، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة فى الحجزة التى تقارب الباب إلى أن تجف دموعى وترجع قواى .

وما كدت أجلس حتى أدركتنى ظمياء وهى تقول فى تلهف :

عيونى ! دكتور زكى ! عيونى ، تعال ، تعال .

ومدَّت يدها لترجعنى إلى ليلى ، فدفعتُها بعنف ، وخرجت .

* * *

وفى أثناء الطريق عاد صوابى ، وقد عجبتُ من أن يعود بهذه السرعة ، ولكن قلب المحب له أحوال ... وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرَب من النساء ، فإن من هوى المرأة أن تجحد الجميل . تذكرتُ أن المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء ، وهى تجد لذة فى الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعى بسواد الليل .

وتذكرتُ أخطائى فى معاملة النساء ، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية ، لأننى عشت دهرى مدلَّلاً بين الملاح ، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود ، فقد أضاع علىّ فرصة سأندبها ما حييت : أضاع على المرأة الجميلة التى اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية ، المرأة التى قسّم الله جسمها أجمل تقسيم ، وصاغها على أفضل نظام ؛ المرأة التى كانت تقول فى كل لحظة : إيش سوّيت لى ؟ إيش صنعت لى ؟ وكنت يومئذ جاهلاً . وأى جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل ؟ وقد حملنى هذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف ... ثم تطلَّع إليها القلب بعد ذلك ، ولكنى واحرَّ قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط .

وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف ؛ ولكنى لا أزال أسأل : كيف كان يجوز فى شريعتها أن تتمدد أمامى على السرير فى غير رِيبة ؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض علىّ محاسن جسمها فى غير سوء ؟

أحب أن أعرف ما اختلف وما ائتلف من سرائر النساء ، فمتى أعرف ؟

أخشى أن يكون مصيرى مصير الفرّاء الذى مات وفى نفسه شيء من حَتَّى !

والعشاق كالنحويين يموتون وفى أنفسهم أشياء .

وحالى أغرب الأحوال ، لأنى نحوىٌّ وعاشق .

وتذكرتُ أن ليلى كانت قد رقّتْ ولطُفَتْ فى الأيام الأخيرة ، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون . وتذكرت أنى سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعانى الوجدانية التى كنت أتلقاها من عينَىْ ليلى فى كل لقاء ، وتذكرت أنها عراقية ، وأهل العراق كأهل بَدْرٍ تُغْفَر لهم جميع الذنوب .

أرجع إلى ليلى ؟ أرجع ؟

لا . لن أرجع .

ولكن ليلى مريضة ، وهجر المريض لا يستبيحه طبيبٌ أمين .

أعود إلى ليلى أعود .

أعود إلى ليلى ، أعود .

أعود إلى المرأة التى قالت إنها تشتهى أن تموت ورأسها إلى صدرى . أعود إلى المرأة التى ملأت رأسي بالنور ، وغمرت قلبى بالحنان . أعود إلى المرأة التى أعزتنى أكرم إعزاز ، ورعتنى أشرف رعاية .

أعود إلى ليلى ، أعود إلى ليلاى .

وفى أى قلب غير قلبى تحيا معانى الوفاء ؟

سيموت الرفق يوم تموت ليلى ، وسيموت الشعر يوم أموت أعود إلى ليلى ، أعود .

ولكن ليلى أهانتنى وجرّحتنى .

لا بأس ، فليس يعيب الرجل أن تُهينه الملاح ، وأى هوان أقبح مما استبحت لنفسى فى حىّ الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتى أن تسمح لى بتقبيل نعليها .

وكانت قبلة شهية جدًّا .

أعود إلى ليلى ، أعود .

أعود إلى الغرفة التى تزدان بمؤلفاتى وهى صوان خاص ، وقد وشّيت بالذهب وأسدلت عليها ستائر الحرير الشفاف ، ثم أرى ما تصنع ليلى ، فعهدى بها تنظر إلى الصوان الذى يضم مؤلفاتى وتقول : هذا زكى مبارك العالم وهو رجل محترم ؛ ثم تشير إلىّ وتقول : وهذا زكى مبارك العاشق وهو رجل سخيف !

عفا الله عن ليلَى الغداةَ فإنها إذا وُلِّيَتْ حُكماً علىّ تجورُ

وما هى إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت المسكينة فى حالة تثير الدمع فى أقسى الجفون .

ونظرتْ إلىّ ظمياء فى حنان وهى تقول : لقد صح أملِي فيك فقد أكدتُ لليلى أنك سترجع وما كانت تصدِّق أنك سترجع .

وتسكت ليلى فلا تتكلم ، كأنها تُقاسى نوبة إغماء ثم تفتح عينيها بتكلف وتقول :

ـــ انتم يا رجال ليس لكمْ أمان !

وأكاد أصعَق ، لأنى سمعت هذه العبارة مليون مرة ، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حوّاء .

ـــ ليلى !

ـــ مولاى ؟

ـــ مولاكِ ؟ وكنتِ من لحظاتِ ترفضين أن تكونى ليلاى ؟

ـــ إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل ، وقد صدق خصومك فى لبنان حين سموك

« قيس المريض فى العراق » .

— سنفترق فى حُزيران .

— ومن يضمن أن تحفظ العهد إلى حزيران ؟

— تأدبى يا ليلى ، فستبكين أيامى بالدمع .

— تأدب أنت ، فستبكى أيامى بالدم .

— الرجل أوفى من المرأة .

— لم يخلق الله أغدر من الرجال .

— المرأة سخيفة .

— الرجل أسخف .

وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهى تقول : أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد ؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث ، اسكتى يا ليلى اسكت يا زكى .

وقد عجبتُ من أن تكون لظمياء هذه السيطرة ، وأن ترفع الكُلفة فى مخاطبتى مع أنى أستاذ عظيم . فقلت : وما شأنك أنت يا بِنت ؟

فأجابت : إحفظ أدبك ، فأنا حارسة هذا البيت ، وأنا ستُّ الكُلّ .

— ست الكل ؟

— نعم ست الكل ! ألا تفهم ؟

ثم رفعت يدها ولطمتنى لطمة غارت منها ليلى ، فنظرتُ إليها بغضب وقالت : الغزَل ممنوع فى هذا البيت !

وكانت ظمياء كالعصفورة التى يزعجها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب ، فتدخلتُ لإنصافها وقلت : ما هذا غَزَلاً ، إنّ هذا إلا تأديب .

— ولن أسمح ليد أن تؤدبك غير يدى .

— شرع الله ولا شرعك يا ليلى .

فلطمتنى الشقية لطمةً أحرَّ وأعنف .

ولم أفكر فى الدفاع عن نفسى ، وإنما أخذ قلبى يسأل : أى الكفين أندَى وأرق ؟ كفّ ليلى أم كف ظمياء ؟

إن عينى تعودتْ كحل هندٍ   جمعتْ كفُّها مع الرفق لينًا

ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام .

وفى لحظة واحدة تحولت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والانشراح .

* * *

— ليلاى !

— مولاى !

— أنا أحبكِ !

— وأنا أبغضكَ .

— سمعت أنك بصرية .

— أبى بصرىٌّ أما أمى فموصلية .

— وأنا أستأذنك فى زيارة البصرة .

— لا تفعل .

— ولماذا ؟

— البصرة لا تزار فى هذه الأيام ، وإنما تزار فى الموسم .

— أى موسم ؟

— موسم التمر ، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح ، موسم العيون والقلوب ، موسم الصيد يا جهول .

— جهول ؟ وأنا أستاذ عظيم ؟

— الأساتذة أجهل الناس ، لأنهم يكتفون بما فى الكتب من وصف الأشياء ، ويجهلون حقائق الأشياء .

ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء .

— وإذاً فلن تصلح للأستاذية .

— وكيف ؟

— ألا تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج ؟ الأستاذ الحق فى بلاد الشرق هو الرجل الذى يحفظ .

— ولا يعقل ؟

— ليس من الضرورى أن يعقل ، لأنه لا يشترط فى الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون . الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذى يضيع نصف الوقت أو كل الوقت فى التبرم بالمجتمع ، ويقول فى كل حين :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره في قول كعب وفى قول ابن مسعودِ
إن دام هذا ولم يحدث له غِيَرٌ لم يُبك مَيْتٌ ولم يُفرَح بمولودِ

— يهمنى أن أعرف شيئاً فى هذا الموضوع يا ليلى ، فأنا طبيبٌ أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير احتراف التدريس .

— زين ، زين ! وأنا أعلمك ، ولكن ادفع الثمن .

— وما هو الثمن ؟

— قبِّل يدى .

— أقبِّل يديك ورجليك يا ليلى .

— اسمع يا زكى .

— أنا الدكتور زكى .

— لن تكون دكتورًا إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل

— وهو كذلك . هاتى ما عندك يا داهية !

— اسمع ، أيها الطفل الكبير ! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد ، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهان ، والكهان كانوا قومًا منافقين ، وإليهم كان الأمر فى التعليم والتثقيف ؛ وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين . ومن واجبى أن أحذِّرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق ، فهم يتطرفون ليقال إنهم متمدنون . والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء . فاحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فإنى أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين .

— سيدتى ! إن مصر تحضَّرتْ وهى تقود الشرق .

— لن أصدِّق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص فى ميدان الأزهر كما يقام المرقص فى ميدان السوربون .

— أنت سخيفة يا ليلى !

— وأنت أسخف !

— أنت لئيمة .

— أنا أعرف ما تريد ، أعرف أنك تريد أن أعْرُكَ أذنك ، ولكنى لن أفعل

— ولماذا يا شقية ؟

— لأنك جهول .

ـــ أنا عالم علامة .

ـــ لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب فى الجرائد والمجلات .

ـــ إذاً ماذا أصنع ؟

ـــ اكتم غرامك ونافِق ، كما يصنع فلان الذى يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف :

ـــ ولكن أنا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف .

ـــ غلَبتَنى أيها المؤمن ، فإن الذى يُصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسُد ما بينه وبين الناس .

ـــ وآية ذلك يا مولاتى أن تلاميذى لم يَفسُدْ رأيُهم فىَّ أبداً ، فما اشتغلتُ بالتدريس فى معهد إلا شهدت أحجاره بأنى أصدق مَن عرف من المدرسين .

ـــ أنت إذاً موفَّق .

ـــ تحبيننى يا ليلى ؟

ـــ أنا أبغضكَ !

ـــ ولكن أنا أحبكِ !

ـــ أمامك دجلة ، فاكرع منها كيف شئت !

ـــ أستأذنك فى السفر إلى البصرة .

ـــ فى رعاية الله وأمان الهوى .

ـــ ألا تغارين من سفرى إلى البصرة ؟

ـــ أنا لا أغار عليك !

ـــ أنت إذًا لا تحبيننى !

ـــ ما أنكر أنى أحبك بعض الحب ، ولكن لا موجب للغيرة ، فقد ضمنت أن تكون لى طول عمرك . ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد . أما سمعت ما قال أحد فضلاء المحاضرين بمحطة الإذاعة الفلسطينية ؟

ـــ وماذا قال ؟

ـــ قال إنك تحبنى ، وإننى وهبتك الخلود ، وما يقال فى فلسطين تسجله السماء .

ـــ وأقول فى البصرة إنى أحب ليلى ؟

ـــ قل فى البصرة إنك تعبد ليلى ليكرموك .

ـــ وأنت تحبيننى ؟

ـــ أنا أبغضك .

ـــ إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى وطن ليلى التى تبغضنى أمتطى قطار المساء ، وأنا على موعد مع صاحبة العينين .

فما الذى سيحدث فى القطار وفى البصرة ؟

أمرى إلى الله وإلى الحب !

١٦

خرجتُ من منزل ليلى نَشْوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء فى العراق لا يكون إلا فى حالين اثنين : حال تُحدِّثه فيه النفس بالغرق فى دِجلة من الفرح ، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الغيظ . فالمرء فى العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقيًا كل الشقاء .

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطُف فأدخل دارها بعُيَدْ الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق ؛ وقد تقسو وتَعْنُف فتطردنى من دارها بلا ترفق ولا إشفاق .

خرجت من منزل ليلى نشوان ، فقد رضيتُ عنها ورضيتْ عنى ، ولكن الحادث الأخير ترك فى القلب عقابيل ، فأخذتُ أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟

نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالمحب المحترس يثق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... وليلى بدأت تَعُدُّ ذنوبى ، ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذى اطمأنتْ فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا فى دنياى ! من أنا فى دنياى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمَى ليلى عن عيوبى ، ولكن هكذا كنتُ فى حياتى ، فما أذكر أبداً أنى عانيت الظلم إلا على أيدى ناس أحببتهم واستقتلتُ فى الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يَفُلّه القتال . كنت كالغصن المثْمِر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات .

كنت وكنت ، فما أشقانى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدرى كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعقلى لا يغفو أبداً ، وهو دائبٌ على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورنى من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حَلِّه فى أحلامى ، والمسيو ماسّيبون يذكر ذلك ، فقد كانت لى معه مواقف يوم كنت تلميذه فى باريس .

أمسيت أحقد على ليلى ، ولكن لا بأس ، فقد وثقتْ بى ، واطمأنتْ إلىّ ، فأخذتْ تصادق من أصادق ، وتعادى من أعادى ؛ وليس ذلك بالقليل ، فما الذى يمنع من أن أحتمل

ما يثور فى صدرها أحياناً من براكين ؟

أليست عراقية ؟

بلى ، هى عراقية .

وأنا رأيت الأعاجيب فى العراق .

فمنذ ليال أويت إلى فراشي فى منتصف الليل والسماء صاحية ، ثم انتبهت على الروع والفزع ، فقد كان المنزل تُرَجُّ سقوفه وحيطانه بعنف ، فأوقدت المصباح وأنا خائفٌ أترقب ، ثم عرفتُ بعد التأمل أن الصحو أعقبه غيمٌ ومطرٌ وصواعق .

ولما خرجتُ فى الصباح رأيت الشمس آستْ ما جرح الليل ، وكأنْ لم يكن شيء !

ذلك هو العراق .

وكذلك تكون ليلاى فى العراق .

فما الذى يمنع من الصبر على دلالها وأذاها شهراً أو شهرين حتى تَمَلّ هى من النضال ؟

إن بعض المرضى يريحهم أن يثوروا على الأطباء . ومن واجب الطبيب أن يرحّب بمثل هذه الثورة ، لأنها بشير العافية . وستذكر ليلى أنى كنت من الصابرين ، وأنى منحتها عطف المحب ورفق الطبيب ! ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل فى سبيلى غاليات المدامع ، إن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء .

لن أنساك يا ليلى فقد عاديتُ فيك وعُوديت .

وأحمِلُ فى ليلى لقوم صغينةً ... وتُحمَل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

ولكن هل تفهمين أو تعقلين ؟

أما والله لو تجدين وَجْدِى ... جمحتِ إلىَّ خالعةَ العذارِ

* * *

كانت هذه الخواطر تنتاش قلبى وأنا فى طريقى إلى المحطة ، ثم تفجّر الحنان فى قلبى على غير انتظار ، فقد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب :

« ليه تلاوعينى ، وانت نور عينى »

وهى من تغاريد أم كلثوم ، وكأنى أسمعها أول مرة ، فرجعتُ على نفسى باللوم وقلت : كذلك يكون العتاب ! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول :

« ليه تلاوعينى ، وانت نور عينى »

ولكنى تذكرت أن الوقت لا يتسع للقيام بواجبين فى وقت واحد : عتاب ليلى وملاقاة

صاحبة العينين التى أرجو أن أدفع بوجهها المشرق وحشة الطريق وظلام الليل .

ودار ذهنى يحاور ويجادل :

ــ كيف تُشْرك بليلى هذا الإشراك ؟

ــ أنا أشرِك بليلى ؟ معاذ الحب !

والحق أنى أشْرك بهوى ليلى ، ولكن هذا الشرك هو طريقى إلى التوحيد . أنا أحب جميع الملاح لأهيِّئ قلبى لحب ليلى . أحب من أجلها كل ما فى الوجود ، وأصفح من أجلها عن جميع الذنوب .

وصاحبة العينين ستسألنى عن ليلى ؛ والسؤال عن ليلى من ذلك اللسان الألثغ الملجلج هو فى ذاته زُلْفَى إلى ليلى . وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه ، والضلال فى هوى العيون قد ينسينى كروبى ؛ وليلى يسرها أن أعيش أطيب العيش ، وهى تعرف أنى لا أحيا بغير الحب والنسيم ، شفاها الله وشفانى .

طوّفتُ بجميع أرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين ، وما رأيت صاحبة العينين .

فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين ، وما رأيتُ صاحبة العينين .

ورأى ناظر المحطة حيرتى فقال فى تلطف : ضاع منك شىء ؟

فقلت : لا ، ما ضاع منى شىء ، وإنما أخاف وحشة الطريق وظلام الليل .

فتعجب الرجل من هذا الجواب المضحك وانصرف .

فهل رأى الناس حالاً مثل حالى ؟ هل رأوا من قبلى رجلاً يرحِّب بالشِّرك فيعز عليه الشرك ؟

إن الحب يريد أن أذهب إلى البصرة وليس فى قلبى غير ليلاى .

* * *

وكان لى فى القطار رفيقان : أولهما الدكتور عبد المجيد القصاب ، وهو طبيب يمثل عذوبة الروح ، وصفاء القلب ، وهو من خيرة الذين عرفتهم فى العراق ، وثانيهما السيد ظالم وهو صحفى أديب لا تعرف فى صحبته ضجر السفر ولا طول الطريق ، وليس فيه غير عيب واحد هو التجنى على الموسيقار محمد عبد الوهاب والفناء المطلق فى أغانى أم كلثوم .

جلس السيد ظالم يدندن ، ولكن كيف ؟ بعد أن لبس عباءة فضفاضة جعلته نسخة من سلطان زنجبار .

وأمسى ديواننا فى القطار قريب الشبه بالغرفة التى يجلس فيها أحمد رامى بدار الكتب المصرية ، الغرفة التى ترقّ فيها الدندنة وتشتبك حتى لتحسبها خيوط العنكبوت ، الغرفة الجذابة التى يحرم دخولها على أحمد الزين ثم يحلّ ويباح لمن يسألون عن رباعيات الخيام أو تأملات لا مرتين .

وظالم ورامى يشتركان فى صفات كثيرة أهمها تشويه الوجه ورخامة الصوت .

ـــ يا سيد ظالم !

ـــ نعم ، يا سيدنا البيه !

ـــ هلم بنا إلى العشاء .

ـــ عشاء إيه ، انت عاوز تخرب جيبك ؟

ـــ أخرب جيبى ؟ وكيف ؟

ـــ العشاء فى القطار غال جداً .

واعترض الدكتور القصاب فقال : أما يسرك أن تصنع مثل الذى كنت تصنع فى قطار ليون ؟

ـــ لا بأس .

ـــ إذاً تنتظر إلى أن يقف القطار فى المحطة المقبلة .

وفى المحطة تقدمتْ فلاحةٌ فى خمار أسود ومعها ماعونٌ هائل من اللبن الرائب ، فاشتريناه بعشرة فلوس ، وتقدم طفل وفى يده رغيفان ؛ فساومناه ، فاشتط فى الثمن ، فقاومناه ، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار يمشى ، فرميناه بعشرة فلوس ونزعنا من أسنانه الرغيفين !

ما أظرف العبث فى قطار البصرة وما أحلاه ؟

وفهم الرفيقان أنى ميتٌ من الجوع فلم يأخذا من الطعام غير لقمتين .

وما كاد الطعام يستقرُّ فى جوفى حتى هجم النوم هجوماً لم أشهد مثله منذ أعوام طوال ، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابى ، وهى أعصاب أرهفها النضالُ وسَهَرُ الليالى .

اتكأتُ على المرفقة ونمتُ وأنا جالس ، نومًا شهيًا جداً ، ولم يعكّر نومى غير الجدل السياسى الذى أثاره الدكتور القصاب مع رفيق غاب عنى اسمه ، وكانا يتحدثان عن المعارك الحزبية فى دمشق .

ـــ دكتور ، دكتور ، أنظُر ، أنظُر .

فنظرت من نافذة القطار فإذا صاحبة العينين فى سيارة مغروزة فى الوحل .

وهممت بالنزول من القطار لأرِىَ هذه المرأة كيف أنفع فى الشدائد !

ثم تذكرت أننى أيضاً فى سيارة مغروزة فى الشوك ، هى سيارة الحب .

ونظرتْ إلى المرأة نظرة الملهوف .

ونظرتُ إليها نظرة الغريق .

نظرتْ ونظرتُ ، ثم نظرتْ ونظرتُ .

وأنقذَ القطارُ الموقفَ فسار لا يُلوى على شىء .

* * *

ـــ دكتور ، دكتور .

ـــ نعم ، نعم .

ـــ انظُر ، انظُر .

ففتحت عينىّ فإذا الشمس أشرقتْ وإذا سِربٌ من الظباء الوحشية يجول فى البيداء ، وهى أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون .

أتكون هذه الظباء الوحشية هى البشير بالاقتراب من الظباء الإنسية ؟

هو ذلك ، فلم يبق بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين .

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هى البصرة ، هذه هى البصرة ، وما تخوننى عيناى .

هذا هو البلد الطيب ، بلد المبرد ، المبرد صاحب الكامل فى اللغة والأدب والنحو والتصريف .

وبفضل الكامل للمبرد وصلتُ إلى منصب الأستاذية فى الأدب العربى ؛ وبفضل الكامل للمبرد صحبتُ الشيخ سيد المرصفى سبع سنين ؛ وبفضل الكامل للمبرد استطاعت القاهرة أن تزاحم البصرة ، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جلس على حصيره الممزّق رجلٌ أعلمُ من المبرد ، هو الشيخ سيد المرصفى أستاذى وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد حسن الزيات ، وأول أستاذ تصدر لتدريس الأدب بالأزهر فى العصر الحديث .

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هى البصرة ذات النخيل .

هذه هي المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار .

هذه شقيقة الفيوم ، على أزهاره وأشواكه أزكى التحيات .

هذه هي البصرة وما تخونني عيناى .

فإذا قيل إن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثانى له فى الوجود ؛

وإذا قيل إن شواطئ الإسكندرية فى الصيف لا ثانى لها فى الوجود ؛

وإذا قيل إن حيّ الشانزليزيه فى باريس لا ثانى له فى الوجود ؛

وإذا قيل إن السهل الذى تصادفه بعد الانحدار من جبل لُبنان منظرٌ لا ثانى له فى الوجود ؛

وإذا قيل إن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وشارع فؤاد شيء يفوق الظنون ؛

وإذا قيل إن الغَبُوق بمصر الجديدة والصَّبوح بالزمالك نعيمٌ يذكِّر بنعيم الفراديس ؛

وإذا قيل إن صبايا المنصورة لهنّ مَذاقٌ لا ثانى له فى عالم الجمال ؛

وإذا قيل إن مناظر الكروم فى « بوردو » لا شبيه لها ولا مثيل ؛

وإذا قيل إن بَغْىَ المصريين بعضهم على بعض معنًى فريدٌ فى الوجود ؛

وإذا قيل إن قبة الجامعة المصرية أعظم قباب الشرق ؛

وإذا قيل إن زكى مبارك أسعد من استصبح بظلام الليل فى بغداد ؛

وإذا قيل ذلك أو بعض ذلك فاعرف أن مدينة البصرة هى شيء فريد فى دنيا الشرق ، ودنيا الغرب . هى غريبة الغرائب ، وأعجوبة الأعاجيب ، هى فوق الأوهام والظنون ، وإن جهلها فريقٌ من أهل العراق .

ما هذه المدينة ؟ ما هِيَهْ ؟

لقد استأنستُ كل الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل .

لقد كبَّرتُ وهللت حين رأيت وطن المبرد والجاحظ والحسن البصرى وإخوان الصفاء .

لقد كبرت وهللت حين عرفت أن للعروبة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية .

ثم غلبنى الحزن حين تذكرت أن مناظر شط العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية فى الحظ :

فعن شط العرب تغافل الشعراء ، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء .

فليس على شط العرب قصور ، وليس على القناطر الخيرية قصور .

* * *

الله أكبر ولله الحمد .

هذا طريق النخيل ، وهو فى بعض صوره أروع من غابة بولونيا ، ولكن أين الظباء ؟
وهؤلاء البصريون وفى عيونهم السّحر الحرام أو الحلال ، ولكن أين الشعراء ؟

* * *

عرفت فى البصرة رجلين :

الأول هو السيد تحسين علىّ ، حاكم البصرة ، أو متصرف البصرة(١) .

والسيد تحسين علىّ هو مَلَك فى صورة إنسان .

هو تحفة من الأريحية العربية جاد بها الله على الوجود . السيد تحسين علىّ هو الشاهد على أن شعراء العرب لم يكونوا فى مدائحهم من الكاذبين .

وبفضل السيد تحسين على عرفت من البصرة فى يومين ما لا يعرفه غيرى فى سنتين .

أكتب هذا والدمع فى عينىَّ ، فالدنيا ألأم وأغدر من أن تسمح لى بملاقاة هذا الرجل مرة ثانية . فإن كان هذا آخر العهد فحسبى من الوفاء أن أسجل ثنائى عليه فى هذه المذكرات ، ولها قُراءٌ يعدّون بالألوف .

يا سيد تحسين .

سلام عليك ، سلام رجل مصرىّ يحفظ عهد العراق .

أما الصديق الثانى فهو الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وما أدرى إلى أى بلد أضيف هذا الطبيب ، فقد عرف المنصورة وشبين الكوم والقاهرة وبغداد والبصرة والموصل ، فهو بالاختصار رجل مُخَضْرَم : فيه رقة المنصورة وأدب شبين الكوم وعقل القاهرة وذكاء بغداد وظرف الموصل وكرم البصرة ، هو شخصيةٌ دوليةٌ يحسب لها المنصف ألف حساب .

وبفضل هذا الطبيب قضيت يومين فى ابتسام ، فقد ترك سيارته تحت تصرفى يومين ، وكانت فرصة تذكرت فيها الزميل الغالى على الجارم بك ، فعهدى به يهرب منى ، لأنى كنت أرجو أن ينقلنى بسيارته من وزراة المعارف إلى محطة المترو ، وكان ذكاؤه يسعفه بالهرب منى ، فكان يقول : يا دكتور زكى ، أنا رائح عند العشماوى بك ، ثم يروح ولا يعود . ولما قدم الجارم بك بغداد كنت أنتظر أن ينتفع بخبرتى فيسألنى عن الحياة العلمية والأدبية والفلسفية ، ولكنه لم يسألنى إلا عن شىء واحد : لم يسألنى والله العظيم إلا عن أسعار البنزين فى بغداد !!

* * *

(١) الحاكم غير المتصرف فى اصطلاح أهل العراق ، ومعناهما فى مصر واحد وهو المحافظ .

نحن فى البصرة .

إى والله ، نحن فى البصرة .

وفى تلك المدينة تسأل سيدةٌ نبيلةٌ عن طبيب ليلى المريضة فى العراق .

وتطلب أن ترانى وحدى ، فأذهب إليها وحدى ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم النبيل .

ويدوم المجلس ساعات وساعات فى جَدَل هو أنضرُ وأشرفُ ما عرفت العقول .

وتجرى على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيها روحها الشفاف فيبتسم زوجها وهو جذلان .

وفى غمرة تلك النشوة أنظر ساعتى فأرى الموعد اقترب للمحاضرة التى دعانى إليها سعادة الأستاذ عبد الرزاق إبراهيم مدير المعارف بالبصرة . وتمدُّ تلك السيدة يدها لتوديعى فأبكى لأنى لا أضمن الرجوع إلى البصرة ، أنا الطائر الغريب الذى لم ينعم فى البصرة بغير سواد العيون فى غفوة الزمان ، وهو لا يغفو فى العمر كله غير دقائق .

وبعد لحظات أكون فى نادى البصرة فأرى الناس فى انتظارى بالمئات ، إن لم أقل بالألوف . وهناك أرى فتاة جميلة هى بنت عمة ليلى ، فتسرع إلى لقائى بعد انتهاء المحاضرة وهى تقول :

حافِظْ على شبابك يا دكتور ، فإنى أخشى أن يودى التأليف بشبابك .

فأتلطف وأقول : لا تخافى على شبابى يا بنيَّتى ، فهو باق ما بقيتْ عيون الظباء .

وتَشْجُع الفتاة فتقول : أخشَى أن يقتلك التأليف !

فأتشجع وأقول : لا تخافى علىّ يا بنيتى فأنا لا أخاف الموت ، وإنما يخافنى الموت .

ويروعها ذلك فتقول : وكيف ؟

فأجيب : لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده فى الجرائد والمجلات !

* * *

أفى الحق أننى زرت البصرة ورأيت شط العرب ، ونعمت بكرم السيد تحسين على ، ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وأدب السيد عبد الرزاق إبراهيم ، ورأيت بنت عمة ليلى ، وشربت الشاى فى منزل السيدة التى تغار من ليلى ؟

لا تصدق ذلك يا قارىء هذه المذكرات ، فتلك أحلام رأيتها فى نومى ولن تعود .

إن سمعت أيها القارىء أن جرائد البصرة اعتركت فى سبيلى أسابيع وأسابيع فلا تصدق .

إن سمعت أيها القارىء أننى كحلت عينىّ بتراب البصرة فلا تصدق .

إن سمعت أيها القارىء أنني عرفت السيد تحسين على فلا تصدق .

إن سمعت أنني زرت قريبات ليلى فى البصرة فلا تصدق .

إن سمعت أنني ألقيت فى البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدق .

إن سمعت أنني عانقت عشرين نخلة فى البصرة فلا تصدّق .

إن سمعت أن أنهار البصرة داعبتنى بالمدّ والجزر فلا تصدّق .

إن سمعت بأن أسماك شط العرب قبلت يدى وخدى فلا تصدّق .

إن سمعت بأنى لم أنفق درهماً واحداً فى البصرة فلا تصدّق .

إن سمعت أن البصرة هدتنى بعد ضلال فلا تصدّق .

إن سمعت أنني ودعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدق .

* * *

أيها القارىء !

أنا ما رأيت البصرة ، ولا رآنى أهل البصرة .

وشاهد ذلك أنني لا أزال فى عقلى ؛ ولو أنني رأيت البصرة لخبّلنى حسنُها فأصبحت من المجانين .

أيها القارىء !

أما سمعت أنني أخترع الأقاصيص ؟ فلتعرف أن زيارة البصرة من تلك الأقاصيص .

متى أعود إليك أيتها البصرة مرة ثانية ؟

متى أعود ؟ متى أعود ؟

١٧

أمرى إلى الحب !

أمرى إلى الهوى !

بل أمرى إلى الله الذى يقلّب القلوب .

* * *

كانت ليلتى فى قطار البصرة ليلةً شاتية ، وما كنت أخذت أهبتى لمكافحة البرد فى قطار البصرة ، وهل كنت أعلم أن البرد فى قطار البصرة له تواريخ ؟

لقد عشت دهرى مفتوناً بشبابى ، لأنى نشأت فى أسرةٍ كان أكثر رجالها من العماليق .

وكذلك يزيّن لى الفتون أن أمتطى قطار البصرة فى ليلة شاتية بلا غطاء .

دخلت البصرة محموماً ، دخلتها أهذى هذيان المحمومين .

ولكنى تذكرت فجأة أن سعادة السيد عبد الجبار الراوى متصرف الحِلة كان كلفنى تبليغ التحية إلى سعادة الدكتور عبد الحميد الطوخى رئيس الصحة بالبصرة ، وتذكرت أن هذا الطبيب مصرىٌّ صقله العراق ، وأنا على كل حال أحب المصريين ، فقد شاع فى بقاع الأرض أنى مصرىّ ، ومن واجبى أن أحب مصر وفاءً أورياءً ...

ذهبت محمومًا للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح بلقائى . فقلت : هوِّن عليك ، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم الحلة ، الحلة الجميلة التى تشبه شبين الكوم حاضرة المنوفية .

وما هى إلا لحظة حتى نقلنى هذا الطبيب إلى متصرف البصرة ، وإلى مدير المعارف بالبصرة ، وكان اليوم كله طوافاً بما فى البصرة من غرائب وأعاجيب ...

وعند الغروب لقينى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال : ارجع بنا إلى بغداد . فقلت : لا أستطيع . فقال : إنك ستُلقِي كلمة مصر فى تأبين المغفور له يا سين باشا الهاشمى ، واسمك فى منهج الاحتفال .

فقلت : أعرف ذلك ، وأفهم قيمة الشرف الذى أظفر به فى حفلة يخطب فيها فخامة رئيس الوزراء وفخامة نورى باشا السعيد ، ولكنى محموم وما أستطيع أن أعاقر البرد فى قطار البصرة

ليلتين متواليتين .

وأرسلت برقية اعتذار ، وأويت إلى فراشي بالفندق أعانى الغربة والمرض والحب . وشاع فى البصرة أنى مريض ، فتفضل متصرف البصرة ومرّ بالفندق فترك لى كلمة عطف ، وتفضل مدير الصحة بعادتى فأزعجه حالى .

وفى الصباح أفقتُ ، فكان أكبر همى أن أزور قبر أستاذى فى التصوف ، مولاى الحسن البصرى ، ولكن كيف ؟ لقد قضيت ليلتى محمومًا وقضت السماء ليلها فى بكاء .

وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهابى لزيارة قبر الحسن البصرى غرضاً عزيز المنال .

وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت فى جريدة « الناس » وجريدة « الثغر » أنى سألقى محاضرة بنادى البصرة وبعد أداء هذا الواجب مضيت إلى الفندق فأخذت أمتعتى لأعاقر البرد من جديد فى طريقى إلى بغداد .

هل يعرف قارىء هذه المذكرات كيف يشقَى من يقضى ثلاث عشرة ساعة فى القطار وهو محموم ؟

عِلم ذلك عند الأستاذ النبيل الذى يدير إحدى المدارس فى بغداد ، فقد أخرج ما فى حقائبه من أغطية وملابس وألقاها فوق جسمى لأنجو من البرد الذى قتل أخانا أبا الدرداء .

صرعنى البرد فى الذهاب والإياب ، وأضرعتنى الحُمَّى فلم أدخل بغداد إلا وشفتى يزينها عُقْبُول ، والعقبول هو التشقق الذى يصيب الشفاه من وهَج الحمى ، ومنه جاءت عقابيل الحب ، وكذلك اجتمعت العقابيل فى قلبى وشفتى ، وهو أول حادث يقع فى التاريخ .

كان هذا العقبول مزعجاً ، فقد كان كل من يرانى يحسب أنى أصبت بأخت بغداد ؛ ولو صح ما حسبوا لكانت نكبة ، فأخت بغداد إذا أصابت الشفة كانت نذيرًا بالحرمان من جميع أخوات بغداد .

ومن أجل هذا العُقْبول حبست نفسى فى المنزل أسبوعين قضيتهما فى إنجاز كتاب « عبقرية الشريف الرضى » .

ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل ، فقد اشتغلتُ بالسياسة العراقية مع أنى طلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال .

وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستعد لدرس معاهدة الحدود بين العراق وإيران ، وكان شط العرب محور النزاع ، شط العرب الذى تغنَّيتُ به فى البصرة ونشرتُ ثنائى عليه

جريدة البلاد .

كان العراق فى فَوْرة ، وكنت فى فورة ، وما أشقَى من يضطرم صدره تحت سماء العراق !

ومضيت إلى رئيس الكتّاب بالمجلس النيابى ، وهو صديق عزيز ، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية . وكنت أول من دخل شرفة المجلس فى ذلك اليوم ، فهالنى أن أرى خريطة شط العرب مرقومة بالطباشير على لوحة سوداء .

كان الجو كله دُخانًا فى دخان ، وكنت أكاد أختنق .

ثم وقف وزير الخارجية يخطب ، وما كان أروعه فى ذلك اليوم ، فقد بدَّد ما ران على صدرى من ظلمات .

وتدفق الخطباء بين معارض وموافق ، وكانت جلسة برلمانية حقاً وصدقًا ، كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء .

خطب وزير الخارجية خطبتين فى ذلك اليوم وكان بالتأكيد أشجع الخطباء . ولن أنسى أنه قال : كان فى نيتى أن أقترح جعل هذه الجلسة سرية ، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور بعينيه أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص .

وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل ، فقال : أما تعرفه ؟ هذا زميلك .

فقلت : وكيف كان زميلى ؟

فقال : هو سوربونىٌّ مثلك ، هذا توفيق باشا السويدى خريج السُّوربون .

السوربون ! السوربون !

رعى الله عهدى يوم كنت أجول فيها وأصول !

* * *

خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر . ولقينى أحد النواب فقال : كيف رأيت ؟ فأجبت : رأيت وجه الحق . ولكن آذانى أن تكون حجةُ الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة . فما الذى كان يضيركم لو قلتم إن إيران أمة إسلامية ، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض ؟ نحن مسئولون عن الأخوَّة الإسلامية أمام الله وأمام التاريخ ، مسئولون أمام الله الذى يكره أن يبغى المسلمون بعضهم على بعض ، ومسئولون أمام الماضى الجميل الذى تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة من ذخائر الأدب والتشريع . إن العداوة بين العرب والفرُس أجّج جَذْوتها ناسٌ من الأدباء ، فما الذى يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين إيران والعراق ؟

إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية فى إيران .

فما الذى يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية فى إيران ؟

حدّق النائب فى وجهى طويلاً وقال : هذا رأىٌ وجيه ، ولكن الظروف ...

فقلت : أىُّ ظروف ؟ إن أوربا يسرها أن نتمزق . وهى قد استطاعت بالفعل أن تؤلّب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب العرب بعضهم ببعض . وإذا استمر الحال كذلك رُبْع قرن فلن تجد من يردّ عليك السلام فى مصر ، ولن أجد من يردّ علىّ السلام فى العراق .

* * *

الحمد لله . تم الصفاء بين إيران والعراق ، ومرت معاهدة الحدود بسلام ، والله المسئول عن هداية العرب والمسلمين .

ولكن شط العرب الذى عجز عن تكدير السلام بين العراق وإيران استطاع أن يكدر السلام بينى وبين ليلاى .

كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب العُقْبُول الذى شوّه شفتى ، فاستوحشتْ ليلى لغيابى ، وأرسلت ظمياء للسؤال عنى ، فطار بى إليها الشوق ، فلما وقع بصرها على شفتى قالت : ما هذا الذى بشفتك ؟

فأجبت : هذا عُقْبُول .

فقالت : أما آن لك أن تتوب ؟

فقلت : ماذا تعنين ؟

فأجابت : ما هذا عُقبولاً يا حضرة الدكتور .

فقلت : وما هو ؟

فأجابت فى سخرية : هذه عضة سَمكة من أسماك شط العرب !

فأقسمت بالله والحب أننى ما حاولت الصيد فى شط العرب حتى تعضنى السمكات .

وطالت اللجاجة بينى وبين ليلى ، وحملنى الغضب على أن أقول : اسمعى ، أنا مستعدٌ لما هو أخطر من ذلك .

فقالت : إيش لون ؟

فقلت : أنا مستعد لتقبيل ثغر الحية .

فقالت وعيناها تقذفان بالشّرر المتوقّد : لن تقبّل ثغر الحية !

فانزعجتُ وعرفتُ أنه وعيد .

وانقضت السهرة فى كلام تافه ، وعند الانصراف لم تسألنى ليلى متى أرجع ؟

آه ، ثم آه !

كانت ظمياء خدعتنى حين قالت إنها وصلت مع ليلى إلى القاهرة فى آذار شهر الأزهار والرياحين ، فقد عرفتُ أن آزار القاهرة غير آزار بغداد . عرفت بالتجربة أن العراقيين على حق حين يحكمون بأن « آزار ، شهر الزوابع والأمطار » فقد قضيت هذا الشهر فى كروب وأحزان .

ولكن أى كروب وأىّ أحزان ؟

كنت أذهب لتأدية الدروس فى الصباح ، وكنت أذهب بعد العصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابى ، ثم أرجع قُبَيْل المغرب إلى البيت لأعانى وحشة الليل ، الليل الهائل ، ليل بغداد .

وزاد الكرب أنى انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين والعراقيين .

انقطعتُ عن المصريين للسبب الذى شرحته فى كتاب « ذكريات باريس » وهو سببٌ يؤذينى أن أسجِّله مرة ثانية فى هذه المذكرات ، وأنا فى الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر ، لأنى أفهم أن مصر حين ترسلنى إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا أن أفهم باريس أو بغداد . ومصر لا تلعب ، فهى تحبّ لأبنائها أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق ، وأنا فيما أزعم مصرىٌّ تحبه مصر ، وإن كانت لا تلقانى بغير العبوس .

وانقطعتُ عن العراقيين لأن حسابى عندهم أثقل من الجبال . ولن أنسى السهرة التى قضيتها فى منزل السيد محمد حسين الشبيبى فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أتدفق كالسيل دفاعًا عن الآراء التى أذعتها فى مؤلفاتى ، وآذانى ذلك الجهد فمرضت يومين .

* * *

أين أذهب ؟ لا أدرى أين أذهب !

كنت أدَّخر ليلَى لأيام الشقاء ، وهى الآن فى تغضُّب وتعتُّب .

كانت ليلى تقول حين أهم بالخروج : « فراقك صعب سيدى » .

وهى اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع .

كانت ليلى تقول : « ليش ما جيت عندنا من زمان يا دكتور ؟ »

وهى اليوم تسأل فيما أظن — وبعضُ الظن إثم — متى أرحل عن بغداد .

عافاك الله ياليلَى وأسبغ عليك نعمة العافية !

* * *

تباركتَ يا ربى وتعاليت !

فما عانيتُ فى حياتى بلاءً إلا رأيت ما يصحبه من محمود العواقب .

فبفضل تغضُّب ليلى وتعتُّبها عرفت سراً من أغرب الأسرار ، عرفت كيف ظل العراقيون أكثر من ثلثمائة سنة يغنُّون هذين البيتين :

ولى كَبِدٌ مقروحةٌ من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قُروحِ
أباها علىّ الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علةٍ بصحيحِ

لقد هدَّنى غضب ليلى فلم أعد أعرف للحياة أىَّ مَذاق ، وجزعتُ على ما صرت إليه أشدّ الجزع ، فهذا الربيع يُفيض على أرجاء العراق أرواح الابتهاج والانشراح ، وقلبى وحده يعيش بلا ربيع .

وجاء (نيسان ، شهر الزيادة والنقصان) فلم يهشّ له قلبى ، وبقيت أعانى ألم الوحشة والانفراد .

كنت أستطيع غشيان بعض الملاهى لأنسى همومى ، وما فى ذلك ما يضيرنى ، فقد كان السيد جمال الدين الأفغانى يجلس فى قهوة متاتيا بالقاهرة يوم كان الجلوس فى مثل تلك القهوة شيئاً غير لائق ، وكان يقول : من حق الفيلسوف أن يجلس فى قهوة متاتيا ، وأنا دكتور فى الفلسفة فمن حقى أن أجلس فى قهوة متاتيون !

ولكن ملاهى بغداد فيها أغانٍ وألحان ، وقد صرت بعد غضب ليلى مرهف الحس إلى حَدٍّ مُفْزِع ، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحنى عندهم دموعى .

وكان يتفق أن أسمع المذياع من حين إلى حين فأتوهمه يدمدم :

ولى كبدٌ مقروحةٌ من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروحِ

ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قُوبِل بعِوَضٍ مزعج هو كرم أهل العراق .

كنت أدخل المطاعم للغداء أو للعشاء فأجد من يدفع عنى من حيث لا أعرف ، وكثر ذلك حتى أضجرنى ، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم ، ولكن قلبى كان يهتف بقول الزميل القديم :

آل ليلَى إن ضيفكُم واجدٌ بالحىِّ مُذ نزلا
أمكِنوهُ من ثَنِيَّتِها · لم يُرِدْ خمراً ولا عسلا

وفى حومة هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكوننى إلى الجمعية الطبية المصرية ، وهم يزعمون أننى حنثت فى اليمين ، فقد أقسمتُ كما أقسموا ألاَّ أفشى سراً

لمريض ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح مُعْضِلَةً دولية ، ولكن هل يعقل من فى قلوبهم مرض ؟

آه ثم آه من حقد الزملاء .

* * *

لم تسألنى ليلى متى أرجع ، ولكن لا بدّ أن أرجع .

وهل هُنت على نفسى إلى هذا الحد ؟

ما هنت على نفسى . فقد رعانى الله فعشت طول حياتى عزيزاً ، ولكن هذه فرصة أختبر فيها أخلاق ، هذه فرصة ثمينة قد لا تعود . إن ليلى تحقد على ، وتتهمنى بخيانة الحب ، ومن واجبى نحو الأخلاق أن أرحم من يرتاب فى أخلاق ، فما ارتاب فى أخلاق غير الضعفاء والمساكين .

ولكن ليلى لها تاريخ ، وأشقى الناس من يعشق امرأة لها تاريخ .

وتاريخ ليلى ابتدأ فى القاهرة واستفحل فى بغداد ، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ ، وعلمُ ذلك عند ظمياء .

* * *

ـــ إيش لونك يا دكتور !

ـــ أعانى ظلام الحب وظلام الليل . وإيش لون ليلى ؟

ـــ استراحتْ لمكايدتك فدبَّتْ فى روحها العافية .

ـــ وكذلك أبنى الأصدقاء ليهدمونى يا ظمياء .

ـــ لا تندم على ما صنعت من جميل .

ـــ سمعتُ وأطعت يا بنيتى الغالية ، ولكنى أحب أن نرجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب .

فانشرح صدر ظمياء وأخذت تقول ...

١٨

ـــ كان فضيلة الشيخ دعاس العيسوى والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك ، أعنى بولاق .

ـــ ما هذا الخلط يا ظمياء ؟

ـــ كنا نفهم أنه يقيم بالزمالك ، ثم عرفنا أنه يقيم فى بولاق ، وقد فهمنا أن سكان بولاق يحبون أن يسموا محلتهم زمالك .

ـــ شىء غريب !

ـــ وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك .

ـــ ولكن بولاق فى الضفة الشرقية ، والزمالك فى الضفة الغربية ، فبولاق شرق ، والزمالك غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان .

ـــ إيش لون ؟

ـــ هذه معان لا يفهمها غير الفلاسفة يا ظمياء .

ـــ وكنت أذهب فى صحبة ليلى إلى منزل الشيخ دعاس العيسوى ، وكان شيخاً يقارب الستين ، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب فى مغازلة النساء . كان يصوِّب بصره إلى ليلى ويقول : « يا بنت يا كهرباء » وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف . ولعلها كانت تود لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب ، وكانت السيدة نجلاء ...

ـــ هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء ؟

ـــ أعرف كل شىء : كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعاس وهو يصطاف فى لبنان قبل الحرب بأعوام طوال فتزوجها ونسى من أجلها زوجته وأبناءه فى (أشمون) .

ـــ وهى أم عبد الحسيب ؟

ـــ بالتأكيد ، وعنها ورث خضرة العينين .

ـــ فهمت . هاتى بقية الحديث .

ـــ وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعاس وابنه عبد الحسيب ، ثم استأنست بعد حين ، فقد اطمأنت إلى شرف القلوب فى ذلك البيت . وكان فضيلة الشيخ دعاس يتناول على المائدة دواءً كُمَيْت اللون يُصلح الأمعاء . وكان هذا الدواء يُحفَظ فى صيوان

خاص ويقدِّم إليه فى الغداء والعشاء . وفى ظُهر يوم طُرِق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلونى فأسرعتْ ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء . ودخل الشيخ الزنكلونى فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يبخل عليه الشيخ دعاس بقطرة من الدواء الذى يُصلِح الأمعاء .

— عمن تلقيت دروس اللؤم يا ظمياء ؟

— تلقيتها عن طبيب مصرى يقيم فى بغداد .

— وأين عيادة هذا الطبيب ؟

— هو طبيب بلا عيادة ، على وزن وزير بلا وزارة .

— فهمتُ . ويسرنى أن يكون تلاميذى جميعاً أذكياء . وماذا صنع الشيخ الزنكلونى حين رأى ليلى ؟

قبّل جبينها وقال : أنتِ درية ؟ فلما عرف أنها فتاة من العراق قبّل جبينها مرة ثانية وقال : أنا أحب العراق ، ونسائم العراق ، وجميع ما يرد من وطن أبى حنيفة النعمان . اسمعى يا بنيتى ، أنا من الشافعية ، ولكنى أستظرف الحنفية .

وهنا تدخل دعاس فقال : ولكن أبو حنيفة كان يبيح النبيذ .

فثار الشيخ الزنكلونى وقال : هذه دسيسةٌ مذهبية ، فما أباح أبو حنيفة النبيذ ، وإنما أباح العرقسوس .

وتشجعتْ ليلى فقالت : رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء .

وكانت أول مرة فهم فيها الشيخ دعاس أن ليلى لم تكن من الغافلات !

ثم دعانا الشيخ الزنكلونى لزيارة منزله فى حارة أم الغلام .

— وزارته ليلى هناك ؟

— وعدتْ ثم أخلفتْ ، فقد رابها تظرُّف المشايخ .

— ضيعتم فرصة ثمينة يا ظمياء . فما الشيخ الزنكلونى متظرفاً ، وإنما هو ظريف .

— سنزوره حين نرجع إلى مصر ، يا مولاى .

— ومتى ترجعون إلى مصر ، يا ظمياء ؟

— حين تَسمَن الأسماك .

— ومتى تسمَن الأسماك ؟

— حين ينضَج التُوت .

— ومتى ينضَج التوت ؟

ــ حين تَعْقِل ليلى وترجع إلى التلطُّف مع طبيبها النبيل .

ــ إذاً لن ينضَج التوت ولن تسمَن الأسماك .

ــ صبراً يا دكتور ، فإن الله مع الصابرين .

ــ سأصبر يا طفلتى الغالية ... ولكن كيف كانت ليلى مع عبد الحسيب ؟

ــ كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك ، فتتجاهل ما تُملى عليه الصبابة من نظرات وأحاديث . والمحبون يتغطرسون لأنهم أذلاء ، ولو كانوا على شيء من العزة لا حتقروا الكبرياء . وهذا هو السبب فى أن الأحباب يحْرَمُ بعضُهم عطفَ بعض . فالحبيب يريد أن يَذِلّ له المحب ، والمحب يريد أن يَذِل له الحبيب ؛ وفى ظلمات هذا العناد السخيف تنفصم الأواصر والصلات . وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلى كل سبيل ، كان يحتال ليظفر منها بابتسامة ، فكان يُغرب فى سرد أخبار الشيخ كراوية .

ــ ومن الشيخ كراوية يا ظمياء ؟

ــ أستاذ كان يدرِّس اللغة العربية بمدرسة المساعى المشكورة بالزقازيق .

ــ أنت جاهلة يا ظمياء ، فمدرسةُ المساعى المشكورة فى شبين الكوم لا فى الزقازيق .

ــ أؤكد لك أنها فى الزقازيق ، ولك أن تسأل ليلى فعندها الخبر اليقين .

ــ إذا أخذتُ العلم عن ليلَى فعلى العلم العفاء !

ــ وكان عبد الحسيب يقف فيقلّد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ ... قتلننــــا ثم لم يحيين قتلانــــا

يصْرَعْنَ ذا اللب حتى لا حَرَاكَ به ... وهنّ أضعـف خلـق الله إنسانـا

وكان يصوّب بصره إلى ليلى حين يصل إلى عبارة « وهن أضعف خلق الله إنساناً » ، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ فى التغطرس والازدهاء .

وفى إحدى العصريات دخل عبد الحسيب غضبان فانزعج الشيخ دعاس وانزعجت السيدة نجلاء ، فنظرتُ إلى وجه ليلى فرأيته يشبه دجلة فى أيام نيسان .

ــ إيش لون ؟

ــ وأنت يا مصرى تقول « إيش لون ؟ » .

ــ إيش لون ؟ إيش لون ؟

ــ دجلة فى نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تَلْطَمُ وجه بغداد .

ــ وكانت ليلى تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب ؟

ــ كانت تهمُّ بافتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهى فى دنياه .

ــ كانت تحبه ؟

ــ وأى حب ؟ وهل فى الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق ؟

ــ وما هى أسباب ذلك الغضب الذى سيطر على عبد الحسيب ؟

ــ قال إنه تلّقى محاضرة فى مدرسة البوليس ألقاها الصاغ على حلمى عن « القوة المعنوية » فثار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلح بالقوة المعنوية ، وجلس على المائدة وهو فى غاية من العقل ، فلا نوادر ولا فكاهات ، ولا الشيخ كراوية ولا عبد الله شعيب . فعرفتْ ليلى أن الشاب ابتدأ يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق . آه ، ثم آه !

ــ لا تتأوهى يا ظمياء فقد مزقت قلبى .

ــ تحبنى يا مولاى ؟

ــ استحى يا ظمياء فأنت فى حضرة طبيب .

ــ وبعد ليال دعتنا السيدة نجلاء لسماع المغنى عبد اللطيف البنَّا فى ملاهى المعرض فسمعناه يقول :

« سلامة القلب من حبك يا قاسى »

فتحدرتْ مدامع ليلى وأصابها إغماء . وكانت ليلة قضيناها فى كروب وأشجان . وفى الليلة التالية صممت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهى المعرض ، فسمعنا أم كلثوم تغنى :

يااللى شغلت البال ياليتْ أكون على بالك

الوجد له أحوال يا ليتنى أعرف حالك

فأخذّت ليلى تبكى بكاءً لا تجود بمثله عيون الأطفال ، فخشيتُ أن نفتضح وأخذتها فى سيارة إلى المنزل الذى كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل ، وانحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع .

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم تفضل الشيخ دعاس والسيدة نجلاء والآنسة درية بالسؤال عنا فتشجعتْ ليلى وسألت عن عبد الحسيب ، فابتسم الشيخ دعاس وقال : تحبينه يا ليلى ؟ فقالت : ما أحبه ، وإنما أشتهى أن يحدثنى مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها محابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعى المشكورة الثانوية .

وقهقه الشيخ دعاس وهو يقول : وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط أصبحوا يرحِّبون بوضع الزيت فى محابرهم على أيدى التلامذة المسلمين ؟

ولم تفهم ليلى ما يريد ، فاستطرد الشيخ دعاس قائلاً : نحن ائتلفنا على يد الشيخ الصالح سعد زغلول ، وأنا وضعت قواعد الائتلاف قبل سعد زغلول ، فزوجتى نجلاء كانت مسيحية وأسلمتْ لتربط بين مصر ولبنان . فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب ؟

فاستأنست ليلى وقالت : هل قرأتَ يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبى ربيعة ؟

فقال : ما قرأتها ، لأن أخبار عمر بن أبى ربيعة لا تدرس فى الأزهر الشريف .

فقالت ليلى : كان ابن أبى ربيعة يستهوى جميع النساء اللائى يشهدن موسم الحج ، إلى أن فتنته امرأة عراقية ، فراودها عن نفسها فاستعصمتْ ، فخطبها لنفسه فأبت وقالت : تعال إلى العراق واخطُبنى من أهلى . وكان ابن أبى ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق ، وحرمه المُجون من التشرف بمصاهرة أهل العراق . فإن كان عبد الحسيب صادقاً فى حبى فليمض إلى العراق وليخطبنى من أهلى هناك .

وعرف الشيخ دعاس أن هَزْلَ الحب جِدٌّ ، فانصرف وهو مكروب !

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم انتظرنا أسابيع فلم يسأل عنا الشيخ دعاس ولا ابنه عبد الحسيبْ فرجعنا إلى العراق ونحن نبكى سلامة الأخلاق فى بلاد الفراعين .

— شىء مزعج ، شىء مزعج !

— لا تحزن يا مولاى ولا تبتئس ، فقد وقعت أعاجيب .

— أفصحى يا ظمياء .

— فى اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٦ طرق الباب زائرٌ غريب ، فنظرنا فإذا هو الضابط عبد الحسيب بعينيه الخضراوين وقوامه الرشيق ؛ وهجمتْ ليلى عليه فقبلت جبينه وخديه بلا تهيب ولا استحياء ، ودعوناه للنزول فى ضيافتنا فرفض ، وقال إنه جاء لخِطبة ليلى ، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس ، وإنه مرشح لرياسة نقطة النعناعية ، فنظرتْ ليلى بعينى اللبوْة العادِيَة وقالت : لن أقْبل يدك أو أختبر أخلاقك !

— ثم ماذا ؟

— استيأس الشاب المسكين وقال : وبأى صورة أعيش فى بغداد ؟ فقالت ليلى : ذلك إلىّ .

— ثم ماذا ؟

— ثم تحمّلتْ ليلى بأهلها ومعارفها إلى نورى باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القائد العام ،

وكان برتبة زعيم ، فألحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراق بحجة التقريب بين مصر والعراق .

— شيء جميل !

— انتظر يا دكتور ، فقد أفسدتْ ليلى كل شيء .

— وماذا صنعت الحمقاء ؟

— بثّتْ من حوله العيون لترى كيف يفكّر وكيف يصنع ، فصحّ عندها أنه كافر بالحب وبالعروبة فأصلته نار الصدود .

— ثم ، ماذا يا ظمياء ؟

— ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نورى باشا السعيد .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم خلَتْ حياةُ ليلى من حبيبها الغالى فلم تَعُدْ تعرف طعم الحياة وحالفها الضّنَى والنحول .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الغالية فلاذ بأمه الرءوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه ، فكان من رأيه أن ينتقَم من ليلى بطريقة دولية تضجّ لها المشارق والمغارب ، وصحّ عنده أن تغنّى السيدة نادرة هذا البيت :

يقولون ليلى فى العراق مريضةٌ فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أشار بوضع هذا الصوت فى شريط « أنشودة الفؤاد » .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم تنكر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرةً على ليلى فلم يُعْرَض فى بغداد غير مرات معدودات .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

ثم لطف الله بليلى فجاء الدكتور زكى مبارك لمداواتها منتدباً من الحكومة المصرية ، أيدها الله .

— وما الرأى يا ظمياء إذا عُوفيتْ ليلى ومرض الطبيب ؟

— الأمر يومئذ لله .

* * *

ليلى ، ليلاى .

أنت تعلمين أنى تركت فى سبيلك وطنى وأهلى . أنت تعلمين أن صحتى اعتلت وأننى أعيش على منقوع الفواكه منذ أسابيع وأسابيع . أنت تعلمين ما أنا صائر إليه إن دام هذا الصدود . أنت تعلمين أنى ضحية الواجب والعقيدة والوجدان . فما هذا التجنى يا ليلى وأنا ما خُنتُ العروبة ولا كفرت بالحب ؟

أحبك يا ليلى ، أحبك ، فاصنعى بقلبى ومصيرى ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال .

أحبك يا ليلى فى غضبك ورضاك . أحبك حبًّا ما سبقنى إليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق . أحبك يا ليلى وأحب من أجلك جميع ما فى الوجود حتى قيظ بغداد . أحبك ياليلى وأرى وجهك مسطورَ الملامح والتقاسيم فى كل ما تقع عليه عيناى . أحبك وأحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة ؛ وما أحب الحياة لنفسى يا ليلى فقد شبعتُ منها ورَوِيتُ ، وإنما أحب الحياة ليبقى لك فى الدنيا محب صادق يرى الضلال فى هواك أشرف من الهدى ، ويرى الظلام فى هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح .

أحبك ياليلى وأتمنّى أن لا تحبينى : فما يرضينى أن تعانِى فى الهوى بعض ما أعانِى .

أنا أكره لك يا معبودتى أن تذوقِى ملوحة الدمع ، وأن تهيمى بعدّ نجوم الليل ، وأن تقفِى موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يبتسم الوجود .

* * *

— ظمياء !

— عيونى !

— ظمياء !

— عيونى ، دكتور زكى ، عيونى !

— خذى بزمامى إلى الجحيم .

— وأين الجحيم يا مولاى ؟ حماك الله ونجّاك !

— أين الجحيم ؟ أما تعرفين ؟ خذى بزمامى إلى دار ليلى علّنى أعرف مصيرى فى هَوَى تلك الظلوم .

— فى هذا المساء ؟

— فى هذه اللحظة .

— انتظر حتى أراها وأرجع إليك ، فإن اصطدام العاشقين فى فورة الغضب قد يحملك على أن تمنَّ عليها أو تجرها إلى أن تمنَّ عليك ، والمنُّ يصنع بالحب ما تصنع النار بالحلفاء .

١٩

طال انتظارى و لم ترجع ظمياء .

وانقضى مساءٌ وصباح ، ومساءٌ وصباح ، و لم ترجع ظمياء ، ومضت ثوانٍ ودقائقُ وساعاتٌ وأيامٌ وليالٍ و لم ترجع ظمياء ، وتقلبتْ دجلة من حالٍ إلى أحوال و لم ترجع ظمياء .

وطافت بالأشجار والأزهار والرياحين أطيافُ البؤس والنعيم و لم ترجع ظمياء .

وطوَّفتُ بجميع المعانى ، وتذوَّقتُ صنُوف اللواعج وتشوفتُ إلى جميع المطالع ، و لم ترجع ظمياء .

وتلقيت مئات الرسائل فلم تكن من بينها رسالة عطف أو اعتذار من ليلى أو ظمياء .

أيكون هذا آخر العهد بليلى وظمياء ؟

إنى إذاً لَمن الهالكين . كتب الله لوطنى وأهلى جميل العزاء !

* * *

ولكن ما السبب فى هذه القطيعة الباغية ، وما أذكر أنى أسأتُ أو جنيتُ ؟

أيكون السبب تلك الكلمة الفكاهية التى داعبتُ بها ليلى بعد رجوعى من البصرة ؟

ربما كان ذلك ، فالمزاح كان ولا يزال من أشنع البليات ، وما استطاع إنسان أن يجرح قلبى إلا عن طريق المزاح . والأحباب ينسون واجب الأدب فيتطاول بعضهم على بعض باسم المزاح ؛ وذنبى فى هذه القضية غير مغفور ، لأنى انقطعت لدراسة الفلسفة عدداً من السنين وكان الظن أن أفهم أن المزاح على لطفه لا يخلو من أشواك ، وقلب ليلى رقيق تؤذيه خطرات النسيم ، فكيف لا يؤذيه المزاح ؟

لو رجعتُ إلى ليلى لأحسنت الاستغفار من ذنبى ، ولكن متى أرجع ؟

لقد داعبتْنى ليلى ألف مرة فتقبلتُ دعاباتها بأحسن القبول ، وكنتُ لجهلى أتوهم أن قلب ليلى سيرحِّب لمثل ما رحب به قلبى .

فكيف أخلفتِ ظنونى يا مُنية النفس ويا روح الفؤاد ؟

ما هذا ؟ أنا داعبتُ ليلى قبل ذلك فلم تغضب ، فكيف تكون الدعابة الأخيرة بداية البؤس ونهاية النعيم ؟

إن من واجبى نحو هواى أن أدرس هذه القضية حق الدرس .

وقد بدأتُ أفهم أن كلام الجرائد والمجلات أفسد ما بينى وبين ليلى كل الإفساد ، فقد مضت الشهور الطوال والجرائد تهتف باسمى فى الصباح والمساء ، وظن الأدباء العراقيون أن الفرصة سنحت لتصفيَة ما بينى وبينهم من حساب ، وكنت أقرأ ما أقرأ وأنا أبتسم ، كنت أقول : هذه يقظة أدبية واجتماعية أُردّ بها ديونى إلى العراق . كنت أقول : هذه أقلام صدئتْ وقد حان لها حِين الصّقال ، فليكن أدبى هو ذلك الصقال .

كنت أقول وأقول ، ولكن التفكير فى جوهره غير سليم .

ما الذى كان يمنع من دفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ؟

ما الذى كان يمنع ؟ كنت مشغولاً بواجبات ثقال تكاد تقصم ظهرى ولكن هل تفهم ليلى أنى مشغول وأن لى منهجاً يفرض أن لا أخرج من بغداد إلا وفى حقائبى خمسة مجلدات ؟

ينبغى أن أعترف بأن مركزى بين الأطباء لم يتزعزع بسبب الأدب وحده ، وإن كانت حرفة الأدب قادرة على زعزعة العروش ، وإنما وقعت النكبة وتقوضت عيادتى بشارع المدابغ وعيادتى بشارع فؤاد لعدم اكتراثى بما يُكتب فى الجرائد ، وعدم اهتمامى بما يتقول الناس .

وأصل البلية أنى كنت أحسن الظن بعقول بنى آدم — وهذا أعظم خطأ ارتكبته فى حياتى — فقد كنت أظن أن الناس يميزون بين الحق والباطل فيما يقرأون ؛ وكنت أتوهم أن أكاذيب المفترين لا تضرنى ، فكنت أقرأ ما يكتب عنى بلا اكتراث ، وأقول : هذه مفتريات ليس لها أساس ، وما قام على غير أساس فمصيره التهدم والزوال .

وظل الحال على ذلك بضع سنين وأنا أصمّ أذنىّ عن الأقاويل والأراجيف إلى أن دخل عيادتى مساء يوم مريض له شأن فى المجتمع ، ويكفى أنه أستاذ فى أحد المعاهد العالية ، فلما فحصته وشخصت له المرض اطمأن واستراح ، فدعوته لتناول فنجان قهوة بالمكتب فتفضل بالقبول ، وفى الناس من يتفضلون بالقبول وأنت المتفضل عليهم بالمعروف .

وفى أثناء الحديث فهمت أن زوجته عليلة وأنه كان يودّ أن أمضى لعيادتها لولا خوفه من كلام الناس ، وبعد مراجعته فهمت أن مركزه العلمى لم يعصمه من تصديق كل ما يكتب فى الجرائد وعرفت بعد فوات الوقت أن الاعتماد على عقول بنى آدم ضرب من الخبال .

إن من الجريمة أن نسكت عما يكتب عنا فى أمة لا تنقد ما تقرأ ، ولا تمحّص ما تسمع ، ومن الجريمة أن نسعى إلى الشهرة فإن الشهرة أصل كل بلاء ، والرجل المشهور يصدّق الناس فيه كل بهتان ، ولا سيما فى الأمم التى تضعف فيها الثقة بالأخلاق ، ومصر التى نحبها راضين أو

كارهين مبتلاة بهذه البلية ، فأهلها لا يصدقون أن العبقريين والنوابغ أصحاب أخلاق ، وما أزعم أنى نابغ أو عبقرىّ حتى أصبح أهلاً لتلك الظنون ، ولكنى بالحق أو بالباطل صرت من أشهر الرجال ، وللشهرة عقابيل.

* * *

كنت أستطيع مع كثرة الشواغل أن أدفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ، ولكن صرفنى عن ذلك إيمانى بأن ليلى صديقة غالية ، وأنها خليقة بأن لا تفتح أذنيها لما يصوّبه الحاقدون من دسائس وأضاليل . ثم كتب الله أن أتلقى عن ليلى درساً لم أظفر بمثله وقد قضيت عشرين عاماً فى الحياة الجامعية . تلقيت عن ليلى درساً عظيما جداً ، وأنا أقدمه إلى قراء هذه المذكرات بالمجان وإن كنت دفعت ثمنه من دمعى ومن دمى أنا العاشق الذى يعانى ظلام الحب وظلام الليل .

استمع هذا الدرس يا قارىء هذه المذكرات ، استمع فما أرجو منك جزاءً ولا شكوراً ، وإن كنت أتشهى أن تسكب على قبرى دمعة يوم أموت ، وسأموت ، فلكل أجل كتاب .

تعلمتُ عن ليلى أن الصديق فى حاجة إلى حراسة ، وأستطيع أن أقول إن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء ، ولا يغفل عن حراسة صديقه إلاّ غافل أو جهول . وقد خلق الله لكل صديق أذنين طويلتين ، وهاتان الأذنان لهما سمع دقيق ، والصديق يحسبك من بعض ما يملك ، فهو يسمع فيك كل قيل ، كما يسمع فى داره أوهام المهندسين ، وكما يجتلب لأملاكه صغار المسّاحين ، وهو يفرح لما يساق إليك من زور وبهتان ، لأنه من بنى آدم ، وابن آدم حيوان ضعيف لم يعش بفضل القوة كما عاشت الأسود ، ولم يعش بفضل الجمال كما عاشت الغزلان ، وإنما عاش هذا الحيوان الضعيف بفضل المكر والدهاء .

استمع هذا الدرس يا قارىء هذه المذكرات من الفيلسوف المودِّع ، فما فى دنياكم ما يشوقنى يا بنى آدم حتى أستطيب فيها العيش .

استمع يا غافل يا جهول .

ليس فى أصدقائك من يسره أن تكون أعظم منه علماً أو جاهاً .

ليس فيهم والله من يسره أن يكون إخلاصك فى هواه أعظم وأروع .

فالصديق — وأسفاه — يتشهّى أن يثبت لديك أنه أعظم منك فى كل شىء ليتصدق عليك بالعطف والحنان .

الصديق يرضيه أن يقول « أعطيتُ » ويؤذيه أن يقول « أخذتُ » .

والأصدقاء يملكون فى إيذائك ما لا يملك الأعداء .

العدوّ متهَمٌ — بفتح الهاء — وتجريحه إياك يتلقاه الناس ساخرين .

أما الصديق فمؤتمن — بفتح الميم — وتجريحه إياك يتلقاه الناس بالقبول وللأصدقاء أساليب فى تجريح من يصادقون ، ويا ويل من ابتلته المقادير بلئام الأصدقاء ! يترفق الصديق فيقول : أنتم تعلمون أنى شديد العطف على فلان لما بيننا من متين الصلات ، وهو والله رجل مفضال لولا كيت وكيت !

ويتلطف الصديق فيقول : لا تثوروا على فلان فهو عبقرىٌّ ، وللعبقريين بَدَوات !

وتزداد البلية بالأصدقاء حين تصبح ولك نصيب من المجد ، فالصداقة توهمهم فكرة المساواة فى الحظوظ والدرجات ، فإن تقدمت وتخلفوا لم يكن معنى ذلك عندهم أنك أخذت ما تستحق ، وإنما كان معناه أنك خدعت زمانك فانخدع ، وأن لك وسائل يعفُّون عنها لأنهم على تخلفهم شرفاء !

والصديق لا يصدِّق أنك تصل إلى منازل المجد بالجهاد وسهر الليل وإقذاء العينين تحت ضوء المصباح ، وإنما يتخيَّل أنك اغتصبت المجد بالتهويل والتضليل ، ولا يرى لك رأيًا طريفًا أو فكرة عبقرية إلا حدثته النفس بأن يغض منها بالتصغير والتزييف .

وأخطر أعدائنا هم الأصدقاء الأعزاء الذين جاريناهم فى ميادين المجد ، فهؤلاء لا يتصورون أبدًا أن ميادين الجهاد فيها سابق ومتخلف . ولعلهم كانوا يظنون أن من حقهم علينا أن نتخلف ليتقدموا . ولو أننا فعلنا طائعين لما ظفرنا منهم بكلمة تفصح عن حفظ الجميل ، ويكون فيها معنى العزاء ، وإنما نلقى منهم الصلف والاستطالة والكبرياء والعدوان .

والأصدقاء يصنعون بمصايرنا ما تصنع جراثيم المرض المدفون ، فهم يقتلوننا عن طريق الاغتيال ، وما نجد فى إدانتهم شاهداً واحداً حتى نقدمهم إلى ساحة الجزاء .

وفى الدنيا السخيفة تقاليد تحمى الصديق المخادع من انتصاف الصديق الصدوق ، والتفكير فى محاسبة الصديق هو فى ذاته بلية ، لأنه يفتح الباب لأهل اللغو والفضول ، ويعرِّضك لمآثم الشبهات ومنكرات الأراجيف .

والعدو اللئيم هو فى الأصل صديق حميم ... ولكن كيف ؟ كان صديقاً يحب أن تكون فى خدمته كيف شاء ، وحين يشاء ؛ فلما التويت عليه بفضل مالَك من وجود خاصّ تنكّر وتغيّر ومضى يضع فى طريقك الأشواك بلا رحمة ولا إشفاق .

الصديق الحق هو الذى يعتقد أنك أفضل منه وإنْ كان فى الواقع أفضل منك .

هذا هو الصديق ، ولكن أين من يعرف هذا المعنى النبيل ؟

أين الصديق الذى يعرف قيمة التضحية بأهواء النفس ؟

أين الصديق الذى لا يريد أن يتخذ من شهرتك لوحة إعلانات ؟

أين الصديق الذى يفهم أن من حقك أن تناضل لتسود ؟

أين الصديق الذى يدرك أن المودة كالصلاة يفسدها الرياء ؟

أين الصديق الذى يرى عيوبه ويعمى عن عيوبك ؟

بل أين الصديق الذى لا تخاف من أن يتزيد عليك ؟

واأسفاه لقد انقضت أحلامى وأوهامى . كنت أرى الجمال فى وجوه الناس ، فأصبحت لا أراهم إلا وأنا متفرع متخوف كالذى يمسُّ الحية فى غسق الليل . كنت كالطفل يأنس بجميع الوجوه ، ويتسمع لجميع الأصوات ، ويتشوف إلى كل ما فى الوجود ، ثم أمسيت وأشهى مُناى أن لا يطرق بابى طارق ، وأن لا تقع عينى على مخلوق .

كذلك ابتدأت ، وكذلك انتهيت ، وعند الله جزائى .

* * *

آه ، ثم آه !

ما هذه الخطوط التى أسوِّد بها وجه القرطاس ؟

هذه الخطوط هى نصيبى من حب ليلى ومن عبث ظمياء .

وتلك نهاية من يحسب أن نهار الحب لا يعقبه ليل .

تلك نهاية العاشق الغافل الذى قضى الأعوام الطوال فى عبادة الجمال .

ولكن ما هذا اللؤم الذى ينحدر إليه قلمى ؟

أمن أجل أيام فى معاناة الصدود أكفر بالصداقة وبالحب ؟

أحبك يا ليلى ، أحبك يا ليلاى .

أحبك يا مسكينة لأنى من المساكين .

أحبك يا شقية لأنى من الأشقياء .

أحبك يا ليلى وسأنحت لك صنماً من ضلوعى .

أحبك يا ليلى وسأنزف دمى قطرةً قطرةً ثم أتخذ من حديده خاتماً أقدمه إليك يوم يحين الفراق ، وما أصعب الفراق !

أحبك يا ليلى وسأرقم اسمك الجميل على خد القمر وجبين الشمس .

أحبك يا ليلى وسأستعذب فى سبيلك محنتى وعذابى .

أحبك يا لئيمة يا غادرة يا ظلوم ، وأصفح من أجلك عن أهل اللؤم والغدر والظلم والجحود .

أحبك يا ليلى ، أحبك ، وما أتصدق عليك بالحب . فأنا أهفو إليك بلا وعى ولا إحساس . وقد حاولت مليون مرة أن أتوب من هواك فما صحّت لى توبة ولا نفعتنى عظة ، ولا عصمنى عقل ، ولا هدانى وجدان .

أحبك يا روحى ويا ضناى ، أحبك أصدق الحب ، وأبغضك أعنف البغض ، ولو رأيتك فى هذه اللحظة لروّيت روحى بدمك الغالى ، ولكن متى أراك ؟ تلك أوهام وأضاليل .

لقد نجوتِ من يدى يا شقية ، فعليك غضبة الله ولعنة الحب !

* * *

أتريد ليلى أن أنتحر ؟

هيهات ثم هيهات ! فأنا طبيب ، ومن الحمق أن أداوىَ الناس وأنسى نفسى .

قرأت « شريعة الحب » فقرة فقرة ، وهى مسطورة على قبر الحلاج ، وقد فهمت من أسرار الحروف أن الحب له دواء . ودواء الحب أن تخلق لنفسك شواغل جديدة تصرف قلبك عن إطالة التفكير فيمن تحب .

وكذلك فعلتُ فأقبلت على شهود موسم الحفلات فى بغداد وهو موسم لا يعرف قيمته إلا من يراه .

شهدت بعض الحفلات التمثيلية التى أقيمت فى المدارس الثانوية ، فعرفت أن التمثيل سيكون له مستقبل فى بغداد . ورأيت أهل العراق يخشون ما يخشاه أهل مصر من اختلاط الجنسين ، ولكن أهل مصر احترسوا بعض الاحتراس ، فهم يألفون للمدارس روايات تمثيلية تخلو من المرأة ، وليت أهل العراق يصنعون مثل هذا الصنيع إلى أن يفصل الزمن فى قضية اختلاط الجنسين ، فقد رأيتهم يمثلون فى المدارس روايات فيها المرأة . والمرأة فى هذه الحال شاب يلبس ملابس النساء . وأنا أرجو زملائى من نظار المدارس فى العراق أن يفكروا فى هذه القضية : فظهور الشبان فى ملابس النساء لا يقل قبحاً عن ظهور النساء فى ملابس الرجال . وما أقول إن الرجل أشرف من المرأة من حيث الجنس : فلكل جنس خصائص ، وإنما أريد أن أقرر أن شرف الرجل فى الرجوله وشرف المرأة فى الأنوثة ، فالمرأة تجرم حين تلبس ثوب الرجل ، والرجل يجرم حين يلبس ثوب المرأة . والإشارة فى هذا الموضع الدقيق تكفى للبيان .

وشهدت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق . وكانت حفلة رائعة خطب فيها الدكتور

محمود عزمى خطبة جيدة ، ولكنه لم يراع براعة المقطَع ، فقد ختم الخطبة بإعلان الوفاة ، وفاة أحد المتخرجين . وصح للأستاذ محمود درويش أن يقول : « ما هو خوش مقطع هذا » وعند تلاوة القسم أقسم المتخرجون دفعة واحدة بلا خشوع ، وكان الرأى أن يُقسموا واحداً واحداً . وقد تذكرتُ القسم الذى أقسمته على يد الأستاذ الدكتور طه حسين يوم ظفرت بالدكتوراه الأخيرة من كلية الآداب ، فقد ترددتُ وتهيّبت ، لأنى كنت أخشى أن يربطنى القسم وحدى فلتذكر ذلك أحجار كلية الآداب بالجامعة المصرية ، إن كان للأحجار وجدان .

وألقى الطالب حازم المفتى خطبة فصيحة نوّه فيها بالأواصر العلمية بين مصر والعراق . وهنا أذكر أن العراق شرّف مصر حين ائتمنها على كلية الحقوق ، وهو شرف عظيم جدًّا ، ومن واجب الأساتذة المصريين أن يتذكروا فى كل لحظة قيمة هذه الثقة الغالية ، ومن واجبهم أن يفهموا أن من الشرف أن يموتوا فى سبيل تلاميذهم فى العراق .

ومن حسن الحظ أن ذلك الطالب نص على أن مصر تفقّهت على يد الشافعى وقد رحل إليها بعد أن تفقّه فى العراق .

ولو كان لى مجال بين الخطباء فى ذلك اليوم لأضفت إلى هذا أن علماء مصر ظلوا مئات السنين وهم يهتفون : « قال البصريون وقال الكوفيون » وحصير الأزهر يشهد ، وهو فى هذا الباب من أصدق الشاهدين .

أعتقد أن العراق أدى حق الأخوّة حين وثق بمصر ، ولم يبق إلا أن يؤدى المصريون واجبهم فى حمل الأمانة وحفظ العهد .

وخطب معالى وزير المعارف خطبة وجيزة جدًّا أعلن فيها ارتياحه إلى تبادل العطف بين الأساتذة والطلاب . وهو معنى شريف .

وبعد توزيع الجوائز وتناول الشاى غنى الأستاذ محمود توفيق مع فرقة الإذاعة أغنية طريفة . ثم غنت المطربة زكية جورج أغنية فيها اسم « ليلى » فاشرأبتْ أعناق الحاضرين للبحث عن مكانى ، وصاح سعادة الأستاذ تحسين إبراهيم : « أين الدكتور زكى مبارك ؟ » فتقدمتُ على استحياء والدمع فى عينى ، وشكرت المطربة ورجوتها أن تغنى :

« على بلد المحبوب ودينى »

فلما وصلتْ إلى عبارة « وعينىّ تبقى فى عينيك » نظرتْ إلىّ وحدّقتْ بعطف وحنان ، وفهم الحاضرون الإشارة فضجّت أكفهم بالتصفيق ، ورأيت موقفى صار فى غاية من

الحرج ، فانسحبتُ وحرمت نفسى بقية الأطايب التى وعد بها منهج الاحتفال .

وبعد أسبوع حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الطب فرأيت الطلاب فى صف والطالبات فى صف ، وراعنى أن يكون الطالبات جميعاً من البيض ، فيا رباه كيف جعلت ليلاى بالعراق سمراء ...؟! أحبك يا ليلى وأحب شعاع السُّمرة وهو يتموّج فى أسارير وجهك الجميل !

وأقسم المتخرجون اليمين واحداً واحداً . وليتهم أقسموا دفعة واحدة ، كالذى وقع فى كلية الحقوق ، فقد قضيت نحو ألفى ثانية وأنا أسمع « أقسم أن لا أفشى سرًّا لمريض » وأدرك الأستاذ مهدى كبة حيرتى وذهولى فقال : « تلك عاقبة من يفشى أسرار مرضاه من الملاح » .

فضحتِنى يا ليلى ، شفاك الله وعفا عنى !

ولما خرجت من الحفلة مضيت إلى محطة الإذاعة ، مضيت أستجدى الصوت المأثور :

يقولون ليلى فى العراق مـريضةٌ فيا ليتنى كنت الطبيب المداويـا

ولكن الأستاذ الصفوانى اعتذر عن إذاعة ذلك الصوت لأنه لا يريد أن يحوِّل أهل العراق إلى مجانين . ولو تأمل لعرف أن العقل ضرب من الجنون ، وأن الجنون فنٌ من العقـل الحصيف .

وخرجت مع الأستاذ إبراهيم حلمى راجياً أن يكون فى سمره الطريف ما يخفف حزنى ، فما خفّ حزنى ولا تزحزح ، ورجعت إلى البيت وأنا مكروب .

وقمتُ قُبيل الفجر مرتاعاً لطرق الباب ، فتدثرْتُ وخرجتُ فإذا الجار العزيز يسأل عن حالى وفى ذراعه زوجته المصرية النبيلة التى رعت غربتى أكرم رعاية . فقلت : خير ! ما عندك يا سيد داود ؟ فأجاب : لقد استيقظت السيدة وهى مرعوبة ، لأنها سمعتك تصرخ : آه ، آه ! يا ليل يا ليل ! وقد حسبناك مريضاً فحضرنا للاطمئنان عليك .

فقلت : أنا بخير كما ترون ، وصوبتُ بصرى إلى الزوج وقلت : الرفق لا يُستغرَب من عراقىّ مثلك . ونظرت إلى الزوجة وقلت : الأزهار المصرية رقيقة الأوراق .

أنا كنت أقول : آه ، آه ؟ هذا صحيح ، ولكنى ما كنت أقول : « يا ليل يا ليل » ؛ وإنما كنت أقول : « يا ليلى ، يا ليلى » .

فضحتنى يا ليلى عند جيرانى ، وقد شفاك الله ، فمتى يمنّ علىّ بالشفاء ؟

وفى ظهر ذلك اليوم العنيف مضيت لشهود حفلة الطيران ، وهى حفلة سنوية يستبق إليها أهل بغداد من رجال ونساء ، أقيمت الحفلة فى المطار المدنى ، ودامت ثلاث ساعات شهدت فيها الأعاجيب وعرفت أن فتيان العراق يعرفون معنى السيطرة على الهواء ، وكان فى المنهج

صورة طريفة من التقاط الرسائل ، فألقيت بنفسى فى ساحة المطار وقدمت رسالة إلى الله عز شأنه أدعوه أن يزيح الكرب عن أهل فلسطين ، فإن شكاياتهم من الظلم كدرت جميع الناس ، وآذت المنصفين من أحرار اليهود . وأشهد صادقاً أنى رأيت ناساً من بنى إسرائيل يتوجعون لمصير العرب فى فلسطين . وفلسطين الشهيدة لا تدافع اليهود من العزب ، وإنما تدافع اليهود الأجانب الذين يدخلون عليها بلا تسليم ولا استئذان فيغرسون الحقد على سائر اليهود فى الأقطار العربية . وشهدت الطيران القاصف ، طيران الهجومْ ، فتمنيت لو ساد السلام وتحوّل الطيران فى جميع بقاع الأرض إلى وسائل اقتصادية .

وشهدت تشكيلات الأسراب فرأيت كيف تقام الخطوط الهندسية فى أجواز الفضاء ، وفى الناس من يعجز عن إقامة الحدود الهندسية فوق القرطاس !

ورأيت الطيران الأهوج فتمنيت لو سموه طيران القلوب : فليس لأحوال القلوب ميزان !

كانت حفلة الطيران ممتعة من كل جانب . وقد خبلت عقلى فلم أتنبه إلى أن مكانى كان قريباً جداً من مكان جلالة الملك . ولو كنت تنبهت لتشرفت بمصافحته وهنأته بما وصلت إليه القوة الجوية فى العراق .

وبعد أيام شهدت حفلة الكشافة ، وهى تجلّ عن الوصف ، وهى الشاهد على أن شبان العراق نقلوا إلى بلادهم أقوى مظاهر التمدن الحديث .

وبفضل هذه الحفلة عرفت كيف أنشىء فى دار المعلمين العالية فرعٌ للألعاب الرياضية .

كان فى الحفلة كشافون وكشافات ، وكان من تقاليد الكشافين أن يحيُّوا المقصورة الملكية ، فيردّ عليهم جلالة الملك بتحية أرقّ وألطف ، أما الكشافات فكنّ يمررن على المقصورة الملكية بلا تسليم .

آه ثم آه من دلال الملاح !

* * *

داويت قلبى بهذه الشواغل التى أتاحها موسم الحفلات فى بغداد ، وحسبت أنى نجوت من عقابيل الصبابة العاتية .

ولكن هيهات .

ثم لطف الله فحضرت ظمياء .

ـــ إيش لونك يا دكتور ؟

ـــ بخير وعافية يا ظمياء ، لولا الذى تعلمين . وإيش لون ليلى ؟

— فى عافية الفرس الجموح .

— ومتى أراها يا ظمياء ؟

— لن تراها إلا إذا استغفرتَ من ذنوبك ؟

— وهل للأطفال ذنوب ، يا ظمياء ؟

— اسمع يا دكتور ، إن الدسائس حولك كثيرة جداً ، وليلى توجه إليك تهمات تهدّ الجبال .

— أنا متهم يا ظمياء ؟ متهم فى بغداد ؟ وعند ليلاى ؟ آمنت بالله ، وكفرتُ بالحب !

— تشجع واحتمل الصدمات ، فقد عشت دهرك من الشجعان ومن الصابرين .

— وكيف تتهمنى ليلى يا ظمياء ؟

— هى تتهمك ، ولك أن تدافع عن نفسك إن استطعت !

— أفصحى يا ظمياء ، فقد طار صوابى .

— اسمع يا دكتور ، إن ليلى توجه إليك التهم الآتية ، وكلها مزعجٌ مخيف .
أما التهمة الأولى فهى :

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

زكي مبارك

ليلى المريضة في العراق

الجزء الثانى

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

« تاريخ يفصّل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ويشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر القلوب » .

« ... فَتَنَتْنى رسائل ليلى المريضة فى العراق ... »

محمد العشماوى بك

« لقد ابتكر زكى مبارك فنًّا جديداً حين نقل الغَزَل والتشبيب من الشعر إلى النثر »

على الجارم بك

« لو شرب الصخرُ من رحيق الوجود بعضَ ما شربتُ لتحوَّل إلى أوتارٍ وقلوب . فكيف أصمُت والدنيا كلها تتأرج من حولى بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولى قلبٌ يتشوّف إلى أفنان الجمال تشوُّفَ الشمس إلى أنداء الصباح » .

زكى مبارك

٢٠

تأهبتْ « ظمياء » للكلام فاستوقفتُها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التى يعرضها الشقاء أمام خيالى ، فهالنى أن أشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، وضجَّت فى أذنى تلك الكلمة الباغية التى قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بينى وبين ليلى من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو يلتهم حِساء البقلة الحمقاء :

« كان رأيى من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت فى اختيار زكى مبارك لمداواة ليلى المريضة فى العراق وهى تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة فى الزمالك » .

أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة فى الزمالك ؟

أنا ما عجزت ، وإنما رأيتها لئيمة لا تحفظ الجميل فضننْتُ عليها بالطب والدواء .

وأخذت أدرس ما صرت إليه فى هوى ليلى ، فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت فى حياتى من ظلام وضلال .

وإنما كان كذلك لأنه ابتدأ بالعطف : عطف الصحيح على العليل ، والعطف يؤصِّل جذور الحب ويهيِّئ القلب للهيام العَصُوف .

كانت ليلى تصحّ على يدى من يوم إلى يوم ، وكان حالى معها حال الجَنَّان الذى يتعهد إحدى الشجرات بالسقى والرعاية فتنمو عواطفه بنموِّها من حيث لا يعرف ، ثم تصبح الشجرة وهى معبودته من دون البستان .

ورأت ليلى شغفى فلم تفطن إليه ، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء ، فمضت تناضلنى نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر ما نقل المِشرط إلى دمى ، وآه ثم آه مما ينقل المشرط ، فالناس لا يفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومةٌ واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافيةً لقتل الطبيب .

الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهى عندهم من الغرائب .

ولكن تعليلها سهل ، وهى أول درس تلقيته بكلية الطب فى باريس .

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه ينفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض .

وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع فى عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضى سائر عمره فى استغفار ، وقد يقتله تأنيب الضمير ، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ، فالأول يعانى العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثانى يُجرم نحو نفسه ونحو الإنسانية ثم يعيش وهو مستور الحال ، لأنه يجهل خطر ما يصنع .

ومن أجل هذه المعانى عشت شقيًا فى حياتى ، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالى ، وكل شيء يجوز عندى إلا إيذاء الناس ، وقد يتفق فى أحيان كثيرة أن أهجم على خصومى بعنف ، ولكنه عنف مصطنع لأنى أحشو المسدس بغير البارود ، فيثور من حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص .

ويصنع خصومى غير ما أصنع ، لأنى غبىّ وهم أذكياء !

هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون ، وكم يبقى الرمىُّ على النبال ؟!

أولئك أعدائى ، والعداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح .

ولكن ما ذنبى عند ليلى حتى تفضحنى بين قومى وتضيِّع مستقبلى فى مداواة الملاح ؟

ما ذنبى عند ليلى التى هجرتُ فى سبيلها وطنى وأهلى ؟

ما ذنبى عند ليلى ؟ ما ذنبى عند عيونها السود وخدها الأسيل ؟

ما ذنبى عند ثناياها العِذاب وصوتها الرخيم ؟

أحبك يا ليلى وأستعذب فى هواك كل عذاب .

* * *

ــ ظمياء ، ظمياء .

ــ عيونى ، عيونى .

ــ هاتى التهم الثقال التى تفضلتْ بها ليلاى ، انقليها بترفق فما أحب أن أموت فى بغداد ، فمقابرها مهجورةٌ منسيَّة ، كأنها مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن تصلَّى علىّ فيه يوم أموت ، فمساجدها تغرف الجمال فى القباب ، وتجهل الجمال فى المحاريب .

ــ أعرنى أذنيك ، يا دكتور .

ــ أعرتك قلبى ، يا ظمياء .

ــ أنت متهم عند ليلى بالشيوعية .

ــ بالشيوعية ؟ وكيف سكتت عنى إذًا حكومة العراق ، وبصرها أحدّ من بصر ليلى ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟

ـــ حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلى تعاقب على ذلك .

ـــ وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟

ـــ ما ظلمتْك ليلى ؛ وإنما ظلمتَ نفسك ، فأنت الذى تقول :

أصباك ما خلفَ الستار وإنما ... خَلْفَ الستائر لؤلُؤ مكنونُ

والناس فى غَفَلاتهم لم يعلموا ... أنى بكل حسانهم مفتون

ـــ ما قلت هذا الشعر يا ظمياء .

ـــ هو فى ديوانك المطبوع .

ـــ هذا شعر دسه السفهاء .

ـــ وكيف سمحت بنشره فى ديوانك ؟

ـــ ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضوًا فى جمعية أبوللون وأرادت تلك الجمعية أن تصحح انتسابى إلى الشعراء فلفقت باسمى طائفة من الأشعار وأخرجتها فى ديوان .

ـــ ولكن ليلى تقول إن فى نثرك ما يؤيد هذا المعنى .

ـــ وكيف ؟

ـــ فى بعض ما نشرت فى جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعانى لأنها تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الظباء .

ـــ هذا أيضاً مدسوس .

ـــ وكيف ؟

ـــ كان لى بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبى ، هو الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتى من المعانى الوجدانية ، فكان يضع اسمى على بعض ما يبدع من صور الوجدان .

ـــ أنت تسىء الدفاع عن نفسك ، يا دكتور .

ـــ دلينى كيف أدافع عن نفسى ، يا ظمياء ؟

ـــ أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ! أنا ألقنك الدفاع عن نفسك : قل إنك تعشق جميع الصور وتهيم بجميع المعانى .

هاتى يدك أقبلها يا ظمياء .

ـــ أعجبك كلامى ؟

ـــ ما هذا كلاماً ، إن هذا إلا سحرٌ مبين ، فأنا حقًا أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعانى ؛ وظواهر الوجود هى عندى صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات ، فما فيها من حسُن فهو صُنع فنان ، وما فيها من قبح فهو صنُعْ فنَّان ، فأنا أدرس المحاسن والمساوئ بذوق واحد . وقد أتفلسف يا ظمياء فأزعم أن خَلْق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سوَّاهم بعناية ، ثم تلطف فأباحهم التقلب فى بقاع الأرض ، وجعل لهم فى دولة القبح سلطاناً . فإن لم يشكر هؤلاء القِباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأتصدق عليهم بالعطف والحنان .

ـــ دكتور ، أنا أحبك !

ـــ وأنا أبغضك ، يا ظمياء !

ـــ أقول لليلى إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية فى الحب ؟

ـــ ما تهمنى ليلى وإنما يهمنى أن أحاسب خالق ليلى .

ـــ احترس يا دكتور ، فهذا كفران .

ـــ سأحاسب ربى قبل أن يحاسبنى ، فما قضيت شبابى فى دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أناقشه الحساب ، وسوف تنظرين .

ـــ كفرت ، يا دكتور ، كفرت .

ـــ الكفر الحق هو أجمل صورة للإيمان الحق .

ـــ وكيف ؟

ـــ ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلى وخدينة الدكتور مبارك ؟

ـــ لست خدينتك .

ـــ العفو ! العفو ! يا ظمياء .

ـــ تشتمنى ، يا دكتور ؟

ـــ إنما أداعبك ، يا ظمياء ، فاغفرى ذنبى .

ـــ يغفر الله لك .

ـــ ويغفر الحب ؟

ـــ اسألْ ليلاك .

ـــ غضبة الله ولعنة الحب على ليلاى !

* * *

ــ ظمياء !

ــ عيونى !

ــ تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟

ــ ليلى تتهمك بما اتهمتْ به الضابط عبد الحسيب .

ــ وكيف اتهمتْ ذلك المسكين الذى سارت أخبار شقائه مسير الأمثال ؟

ــ اتهمته بخيانة العروبة .

ــ وهى تتهمنى بخيانة العروبة وقد أذْوَيت شبابى فى خدمة لغة القرآن ؟؟

ــ إن ليلى قرأت خطبتك فى نادى المثنَّى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد .

ــ وما الذى عابته ليلى على تلك الخطبة ؟

ــ العيب فى ذلك أنكم فى مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام .

ــ هذا صحيح ، يا ظمياء .

ــ وهذه جريمة عربية ، يا دكتور .

ــ اسمعى ، يا ظمياء ، ثم بلغى ليلى ما أقول : العروبة يا طفلتى الغالية فى حاجة إلى أسناد قوية من الصداقة والعطف ، وأسناد العروبة لن تكون فى الممالك الأوربية ، وإنما ننشدها فى الممالك الإسلامية ؛ والسياسى الحكيم هو الذى يتعب فى خلق الأصدقاء ، والإمبراطورية البريطانية لم تغنها جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير فى خلق الأصدقاء . والإسلامُ قوة يتودد إليها هتلر وموسولينى ، وتشتقى روما ولندن وباريس وبرلين فى التعرف إلى مدارج هواه ، وليس فى بلاد الله قوة سياسية إلا وهى تحسب ألف حساب لغضب المصحف ، فما ذنبى عند ليلى إذا أعلنتُ إسلامى ؟ ما ذنبى عند ليلى وأنا أخلق لقومى وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب ؟

ــ ولكن الإسلام غير العروبة .

ــ تلك يا ظمياء دسيسة استعمارية ، وهى دسيسة حيكتْ شباكها لتقويض الإمبراطورية العثمانية ، وقد تقوضتْ : لأن الأتراك عجزت حيلتهم عن قرض خيوط تلك الدسيسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ، وكانوا بفضل الإسلام سادة المشرقين .

ــ احترس يا دكتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على الموظف .

ــ أعترف بأنى موظف فى حكومة العراق ، ولكن لا خوف ، فأنا أتهيب الشر فى كل أرض ، إلا فى العراق ؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصادر حرية الرأى إلا إذا صدرت عن

المنافقين ، وقد حمانى الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عنى حكومة العراق على كثرة ما قلّبت من وجوه الآراء فى الصحف والمجلات . فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون .

— إن العراق يثق بك ، ويعطف عليك ، يا دكتور .

— وفى حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوربا اللئيمة خلقت فكرة العروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ، وقد أحسستُ هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية فى باريس سنة ١٩٢٧ فقد رأيت معجما فارسيًا فرنسيًا نُشر منذ أكثر من أربعين سنة وفى مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفُرس ؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هى السبب فى ثورة الأتراك والإيرانيين على الحروف العربية .

— أخطأ الأتراك وسيخطئ الإيرانيون .

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ يا ظمياء ؟ لقد تجشمتْ مشيخة الأزهر ما تجشمتْ وأنفقت ما أنفقتْ ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة فى إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر فى إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفُرس بماضيهم فى خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرتْ فى إرسال وفد إلى الغازى مصطفى كمال يذكّره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا فى الحرب لا يصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الإيمان بالله والرسول ؟

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هَبُوا سيئاتِ الحاضر لحسنات الماضى ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم فى الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدى فأقنعت وزير إيران فى العراق ، وفكرتُ فى الهجرة إلى إيران لأُصلح ذات البين بين العرب والفُرس . ولكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفىٌّ إيرانى ، ودعانى الأستاذ إبراهيم حلمى للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ فى وطن كان أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفى جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية .

— يظهر أنك مؤمن ، يا دكتور .

ـــ أنا ملحد ، يا ظمياء ، فما يسرنى أبدًا أن أُحشَر نفسى فى زمرة المسلمين الغافلين الذين يفكرون فى إصلاح الوثنية الهندية ويغفُلون عن هداية الثائرين على الإسلام فى بلاد كانت من الدرر اللوامع فى تاج الإسلام .

ـــ أنت مؤمن ، يا دكتور .

ـــ أنا كافر ، يا ظمياء .

ـــ أعوذ بالله !

ـــ وأنا أعوذ بالشيطان !

ـــ تعوذ بالشيطان ؟ يظهر أنك ملحدٌ حقًا وصدقًا .

ـــ اسمعى ، يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ، فهو يعلن فى كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشَف كل إنسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين .

ـــ أنت إذًا تعبد الشيطان ؟

ـــ أنا أعبد الله ، وأحب الشيطان .

ـــ قف عند هذا الحد ، يا دكتور .

* * *

ـــ ظمياء !

ـــ عيونى !

ـــ أترينني أحسنت الدفاع عن نفسى ؟

ـــ بعض الإحسان !

ـــ وأنا مكتف بذلك ، فما هى التهمة الثالثة .

ـــ ليلى تتهمك بالخداع .

ـــ وكيف ؟

ـــ لا تدرى كيف ، وأنت أعظم مخادع ؟

ـــ آمنت بالله ، وكفرت بالحب ؛ أفصحى يا بلهاء !

ـــ اسمى ظمياء .

ـــ أفصحى يا ظمياء .

ـــ رأتك ليلى تقول فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) إن الدمع فى عين العاشق كالسم فى

ناب الثعبان ؛ ثم شرحت رأيك فقلت إن العاشق يخدِّر محبوبته بالدمع كما يخدِّر الثعبان فريسته بالسم . وتقول ليلى إن هذا هو السبب فى أن لا تخلو قصيدة من قصائدك أو رسالة من رسائلك أو كلمة من كلماتك من ذكر الدموع . ولك كتاب اسمه « مدامع العشاق » وأنت فى كل يوم تقول : « أكتب والدمعُ فى عينى » أو تقول : « ودَّعتُ أحبابى بقلب خافق ، ودمعٍ دافق » أو تقول : « غسِّلونى بدموعى يوم أموت » أو تقول : « إن مُلوحة الدمع أشهَى مذاقًا من الشهد » ولك من أمثال هذه التعابير عشرات أو مئات أو ألوف ، فأنت بشهادتك على نفسك مخادعٌ عظيم .

ـــ ظمياء ، هذا دمعى ، فكيف ترَين ؟

ـــ هو السم فى ناب الثعبان ، وسنخلع أنيابك فلا تقول إنك ثقبت لؤلؤةً فى بغداد .

ـــ أنت جاهلة ، يا ظمياء ، وليلى أجهلُ ، فما تعرف ولا تعرفين أن عِرض بغداد هو عِرضِى ، وأن عرائس بغداد هنَّ أخواتى وبناتى . لا تعرف ليلى ولا تعرفين أن كل مكان فى بغداد هو عندى محراب ، وحيثما توجهتُ فثَمَّ وجه التاريخ ، وأهل العراق هم فى أنفسنا حُماة الأدب فى العصر القديم وأنصار الأدب فى العصر الحديث .

والمصرى فى العراق يرى وجه مصر فى كل مكان : يراه فى المدارس والمعاهد والمكاتب والملاهى والملاعب والأغانى والأناشيد ، وجرائد مصر ومجلات مصر تُقرأ فى بلادكم وكأنها عراقية لا مصرية ، فثقى يا ظمياء بوفائى وثقى بأدبى ، فسأحفظ ما طوقتم به عنقى من جميل .

وقد نظرتُ فرأيت صحبة العراق كانت خيراً لكل من تشرَّف بها من أهل مصر ؛ وما عاش مصرىٌّ سنة واحدة فى العراق إلا أصبح وفى دمه ذخيرةٌ من النار والحديد ، وما رآكم مصرىٌّ واستطاع أن يذكركم بسوء فى سر أو علانية .

فماذا تريد ليلى أن تصنع معى يا ظمياء ؟

ماذا تريد ليلى ؟ ماذا تريد ؟

إذا كان دمعى شاهدا على خداعى ، فأين أجد الشاهد على وفائى ؟

إن النُّسَّاك يتقربون إلى أربابهم بالمدامع ، فكيف لا يتقرب العشاق إلى أحبابهم بالمدامع ؟

أوَّاه من مصيرى فى هوى ليلاى !

سأرجع إلى وطنى وأهلى مصدوع القلب ، مفطور الفؤاد وستعيش ليلى بعافية ، وستنسى طبيبها الوفىَّ الأمين .

وكذلك كان حالى فى كل أرض . كنت أغرس العافية فى الأرواح والقلوب ، وما عرفنى

إنسان إلا تحوّل من غيّ إلى رشد ، أو من هدًى إلى ضلال . كنت أذيع الشرْك فى قلوب الموحّدين ، وأذيع التوحيد فى صدور المشركين ، كنت ملَكًا ، وكنت شيطانًا ، ثم أصبحت وأنا مجردٌ من سماحة الملائكة ، وسفاهة الشياطين .

أدبتنى ليلى ، وبلائى فى ذلك التأديب . أحبك يا ليلى وأهواك .

ــ وتحبنى أيضًا ، يا دكتور ؟

ــ وأحبك أيضًا ، يا ظمياء ، وأحب كل مخلوق فى العراق حتى القيظ والزوابع والأعاصير ، أحب البلد الطيب الذى أرهف قلمى ، وصقل وجدانى ، واستطعت بفضل الله وبفضله أن أقنع أهلى فى مصر بأن لى قلبًا يعرف معانى الشوق والوفاء .

ــ دكتور !

ــ ظمياء !

ــ لقد أحسنت الدفاع عن نفسك فى هذه التهم الثلاث ؛ ولكن هناك تهمة رابعة لن تستطيع لها دفعًا ، لأنها فى خلقتك ، والخلقة لا تغيير لها ولا تبديل .

ــ فهمتُ ، فهمت . إن الجرائد المصرية تصورنى دميم الوجه ولا ينبغى يا ظمياء تصديق كل ما تنشر الجرائد .

ــ لا ، لا ، إن ليلى تراك أجمل مخلوق ، ولكنها تقول إنك أخضر العينين ، وهنا وجه الخطر ، فالعيون الخُضر تهتاج الثعابين ، وما رأى ثعبان إنسانًا أخضر العينين إلا اغتاظ واهتاج واستعد للقتال .

ــ ومن أجل هذا تثور علىَّ هذه الحية الرقطاء ؟؟ اسمعى أيتها الطفلة . اسمعى . إنى ورثتُ خضرة العينين عن أمى ، سقى قبرها الغيث ، وأمى ورثتْ خضرة العينين عن جدتى ، وكانت تركية الأصل ، فعمن ورثت ليلى سواد عينيها ؟

اسمعى يا ظمياء ، لقد أطلتُ التودد إلى أهل العراق ، وسأصارحهم اليوم بحقيقة لم يتنبه إليها أحد سواى . ليس فى العراق كله طَرْفٌ كحيلٌ إلا وهو مسروقٌ من عيون الظباء وجيرتكم للصحراء هى التى أمكنتكم من هذا الانتهاب الفظيع ، ولكن هذه السرقة لن تطول ، فسيأتى يوم قريب أو بعيد يشتد فيه ساعد « عصبة الأمم » المقيمة فى جنيف ثم تحول بينكم وبين انتهاب السواد من عيون الظباء .

اخرجى يا ظمياء ، ولا ترجعى إلىَّ بعد اليوم ، فهذا آخر العهد .

* * *

خرجتْ ظمياء محزونة وهى تعتقد أن ليلى جانية وأن العراق كله قد وقع فى سرقة دولية حين انتهب السواد من عيون الظباء .

وبقيتُ أنا فى كروبى وأشجانى ، فأنا فى سريرة نفسى أعتقد أن الظباء هى التى سرقت سواد العيون من أهل العراق ، وقد عاش العراق كريماً فى جميع عهود التاريخ ، فمن حنين غوانيه عرف الحمام كيف يَسجَع ، ومن صِيال أبطاله عرف الدهر كيف يصول .

ولكن كيف أصحح خطأى فأستردّ ليلى وأسترجع ظمياء ؟

كيف ؟ كيف ؟

إن ليلى لن ترجع بسهولة لأنها عراقية ، والعراقُ مفطورٌ على العناد .

أحبك يا ليلى ، أحبك يا روحى ، وأشتهى أن أحاصرك مرة ثانية تحت ضوء القمر وفى سكون الليل . أحب أن أسامرك مرة ثانية تحت النجوم فى مطلع حُزَيران قبل أن أرجع إلى مصر وطن الجفاء والعقوق .

أحبك يا ليلى وأحب ذلك الطبع المتقلب الذى لا يستقر على حال .

أحب أن أنشدك مرة ثانية قول الشاعر أحمد رامى :

يا من أخذتِ فؤادى   أخذ العدوُّ الحبيبِ
قلبى لديك فقولى   ما حالُه فى القلوبِ

أحب أن أصرخ مرة ثانية ، أحب أن أصرخ صرخة الوجد فى رحاب الكاظمية .

أحب أن أفتق بصراخى قلبك الأغلف وأذنك الصماء .

أحب وأحب ، ولكن أين السبيل إلى قلبك الظلوم !

* * *

طال شقائى بهجر ليلى ، فماذا أصنع ؟

إن بغداد تحقد علىّ ويسرها أن يطول فى حب ليلى عذابى .

فأين شفعائى إلى ليلاى ؟ أين لا أين ؟!

الحمد لله والحبّ ! هذا خاطرٌ لطيف قد ينفع بعض النفع ، إن ليلى لها فى الموصل بنات خالات ، وبنات الخالات يقدرن على ما يعجز عنه أبناء الأعمام والأخوال ؛ فلأمض إلى الموصل لأشكو إلى ظبياته جروحى وآلامى .

إلى الموصل ، إلى الموصل .

إلى الموصل الجميل أمتطى قطار الصباح بين اليأس والرجاء .

٢١

طال بلائى بغضب ليلاى ؛ وتهدَّم ما كنا رفعنا من صروح الأمانى ، وأمسى الحزن يصهر قلبى كلما تمثلتُ أطياف تلك الصروح .

وطال حنينى إلى كلمة كانت تقولها ليلى فى لحظات الصفاء ، وهى كلمة « تعال » فكنت أهوى إلى صدرها كما يهوى الطفل إلى صدر أمه الرءوم ، وما كان أدبى يسمح بأن أقترح شيئًا على ليلاى ؛ وإنما كنت أنتظر عطفها فى صمت كما ينتظر العشب جُود السحاب .

وكنتُ خدعتُها فزعمت أن تقاليد الأدب فى فرنسا تقضى بأن يقبِّل الرجل يد المرأة ؛ وقد انخدعتُ فكنت أقبل يديها فى كل لقاء ولكنى مع ذلك حفظت وقارى فلم أكن أقبل يديها فى السهرة الطويلة أكثر من سبعين مرة .

وقد حملنى الطيش فى إحدى الليالى على أن أقترح تقبيل خديها فرفضت .

وعند ذلك أنشدتُ :

يا غزالاً لى إليه ... شافعٌ من مقلتيهِ
والذى أجللتُ خديـ ... ـه فقبلتُ يديهِ
أنا ضيفٌ وجزاء الضيـ ... ـف إحسانٌ إليهِ

فقالت بعد تمنُّع : أقبلك أنا .

فقلت : وما الفرق يا روحى ؟

فقالت : القُبلة منك حبٌّ ، والقبلة منى عطفٌ .

فقلت : أقبِّلك قبلة عطف .

فقالت: ابحثْ عمن يصدق دعواك يا فاجر !

ورضيتُ بالقليل فقبَّلتنى ليلى قبلة كادت تشوى جبنى .

تلك قُبلة العطف ؛ فكيف تكون قبلة الحب ؟

أشهد أن الله قدَّر ولطف !

ذلك نعيمٌ ضاع ، وما أدرى كيف ضاع ؛ فما كانت هفوتى خليقة بأن تصيرنى إلى ما صرت إليه من الحرمان ؛ ولكن متى طاب زمانى حتى تطيب ليلاى ؟

آه من كيد الزمان ! وآه من غدر الملاح !

* * *

شاع فى بغداد أنى ذاهب إلى الموصل لأستشفع بالحور العين من قريبات ليلى : فللشقية هناك بنات خالات ، وسمع بذلك أخٌ صادق فقال : خير لك أن تسافر إلى النجف ، فهو أقرب من الموصل ؛ وملاح النجف أرقُّ وأظرف ؛ وهن بعطفن على بلواك ؛ وهذا اليوم أصلح الأيام .

وسألت عن السبب ، فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول فى السابع عشر من ربيع الأول ؛ وفى المولد النبوى تزدحم ساحات الحرم الحيدرى بالعرائس فأختار من الشفيعات ما أشاء ....

وما هى إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ ، الكرخ الذى كان فيه قمر ابن زريق ، والذى سامرتُ فى رحابه قمرًا غادرًا لا يحفظ العهد ، وستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يرانى ، وهل كنت إلا طيفًا زار فى السَّحَر بساتين الكرخ وبغداد ؟

ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء .

وفى الطريق مررت على الإسكندرية وكنت مررت عليها فى طريقى إلى الحِلة منذ أشهر ، ورجَّحت أنها البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الإسكندرى فى مقامات بديع الزمان ؛ ولكنى فى هذه المرة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جعلها من الثغور الأموية ، فاهتديت إلى أصلها بعض الاهتداء ، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين(١) .

لم أقض فى كربلاء غير لحظات ، وهى مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحى ، وفيها قُتِل الحسين كما هو معروف ، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكنى شهدت قبته العالية ، وهى مكسوَّة بالذهب الوهاج ، وفى كربَلاء ضريح آخر للعباس أخى الحسين ، وهذان الضريحان يُفيضان النور على كربلاء ، وقَتْلُ الحسين كان نعمة على هذه المدينة : فقد أصبحتْ بفضل مرقده من مواسم القلوب .

ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتنى إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرة ، فتذكرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع والشعوبية كانوا جماعة من الأدباء لا يعرفون العواقب ، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات ،

---

(١) صح عندى بعد التأمل أن المراد بالثغور الأموية النص على أنها سنية لا شيعية ، وقد اهتديت إلى هذا المعنى بعد التعمق فى درس أحوال العراق .

وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب .

وأخذتْ تلك الصحراء تصنع بخيالى ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب . وبعد ساعة رأيت فى الأفق ذهبًا يتوهج ، فحدقت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيته يزداد إشراقًا إلى إشراق ، فصح عندى أنه ذهب القبة العالية ، قبة ضريح أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعطر مثواه .

ثم عبرتُ إلى النجف وادى السلام وهو مقابر طوال عراض عرفتْ ملايين الناس من سائر الأجناس .

وأهل النجف يعتقدون أن من يُدفن فى وادى السلام لا يُسأل فى البرزخ ، وهو اعتقاد لطيف ، فمن عزاء الإنسانية أن تعتقد أن لها معتصَمًا من الحساب ولو إلى حين .

وفى وادى السلام يقول الأستاذ على الشرقى :

ثلاثون جيلاً قد ثوتْ فى قرارةٍ ... تزاحم فى عُرْبٍ وفُرسٍ وأكرادِ
ففى الخمسة الأشبار دكَّتْ مدائن ... وقد طُويتْ فى حُفرةٍ ألف بغداد
عبرتُ على الوادى وسفَّتْ عجاجةٌ ... فكم من بلاد فى الغبار وكم ناد !
وأبقيتُ لم أنفض عن الرأس تربةً ... لأرفع تكريمًا على الرأس أجدادى

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ، أى الموت :

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمتُ ، ثم أسلمت نفسى إليه ، لعلمى بأنى صائرٌ لا محالة إلى السلام ، أى إلى الموت !

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهًا بأخيه فندق السلام فى حىِّ سيدنا الحسين بالقاهرة : رأيت الناس ينامون زُرافات فى حُجرة واحدة ، فأخذت أمتعتى وانصرفتُ ، وذهبتُ إلى فندق ثان فرأيته أعجب من الأول ، فمضيت إلى ثالث فرأيته أغرب من أخويه ، وانتهى بى المطاف إلى غرفة حقيرة فى فندق حقير ، هو أعظم الفنادق بالنجف .

ولعل تلك الفنادق كانت كذلك لقربها من وادى السلام ، فهى تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ، وتقرِّب إلى ذهنه صورة المساواة فى دنيا الأموات .

* * *

كان غبار السفر الذى دام أكثر من أربع ساعات آذانى ، وكنت أحب أن أصلح من شأنى فى الفندق لأستعد لمقابلة البهاليل من آل ليلى ، فلم أجد فى الفندق ما يسعف ، ولكن لا بأس فسيعلم النجفيون بعد ساعات أنى نزلت فى فندق فيغضبون ويقولون (هذه فضيحة)

وينقلون أمتعتى إلى منزل أحد الأصدقاء .

وعندئذ أتذكر أن النزول فى الفندق كان عند أهل العراق علامة من علائم المسكنة ، يشهد بذلك قول الشاعر القديم :

يـا أيها السائـل عـن منـزلى ... نـزلت فى الخان على نـفسى
آكل مـن خبـزى ومـن كسرتى ... حتـى لقـد أوجعنـى ضِرسى

ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافى :

سكـنْتُ الخان فى بلـدى كـأنى ... أخـو سفـر تَقَاذَفُـهُ الـدروبُ

وأصرخ فى وجه النجفيين قائلاً : إن المدينة التى تخلو من فندق نظيف لا تسمَّى مدينة ، والذين عاشوا فى أوربا كما عشتُ لا يستطيعون النزول فى منازل الأصدقاء والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تُنزِل ضيوفها فى غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها فى بغداد .

فيا أهل النجف : تذكروا أن مدينتكم فى حاجة إلى فندق نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال .

* * *

خرجت من الفندق أتَلَفَّتُ ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبيهات ليلى ، شفا الله ليلى وشفانى ، ومنحنى وإياها العزاء يوم الفراق ، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاق قبل الفراق .

وساقتنى قدماى ، بل هدانى قلبى إلى الحرم الحيدرى .

وقفتُ بصحن الحرم كالأرقم ، والحمد لله على نعمة العافية ، وليته يتفضل بحفظ هذه العافية ولو عشر سنين لأداوِى جميع المرضَى من المِلاح .

وقلت فى نفسى : أنا تلميذ الشريفْ الرضى الذى يقول :

لـو أنها بِفِنـاء البـيت سانحةٌ ... لصِدتُها وابتدعتُ الصيد فى الحَرَمِ

فإذا كان الشريف استباح الصيد فى الحرم النبوى فأنّا أستبيحه فى الحرم الحيدرى .

ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطَّرف مشرقة الجبين فخفق القلب .

ثم وقفتُ .

أصاوِل عيـنيها بعينـىَّ والهوَى ... يُشيع الحُميّا فى فـؤادى وأعضائى

وظنت الفتاة أنها أقدر منى على الفُتُون ، فحاولت قتلى ، ثم لطف الهوى فصرعتُها ،

فجمعتْ ما تبدد من قُواها ، وفرّتْ فرار الغزال المطعون .

وَعدَوتُ لاقتناصها فلم أفلح ، وكيف يعدو النشوان وهو كالمقيد فى الشوك !

من أى سحر صيغتْ تلك العيون ؟

وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟

ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟

لقد أفلح الدساس الظريف الذى نقلنى إلى النجف ، وهو على ظرفه لئيمٌ خبيث .

وبالنجف الحارىِّ[1] إن زرتَ أهلهُ ... مَهًا مهمَلاتٌ ما عليهنّ سائسُ

خرجن بحب اللهو فى غير رِيبةٍ ... عفائف ، باغى اللهو منهن آيسُ

ثم طفتُ بالحرم مرة ثانية ، فوجدت ناسًا يقرأون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يبكين ورجال يبكون ، فوقفت أسمع وأبكى ، وهل فى الدنيا بلاءٌ مثل بلائى ؟ أنا العاشق المهجور الذى غدرتْ به ليلاه ؛ ولو كانت ليلى واحدة لصبرتُ ، ولكنهن ليليات !

فيا بديع الملاحات ، ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالى !

ويا خالق النخيل والأعناب ، كيف سكبتَ الصهباء فى روُحِى ؟

ويا مُجرىَ الدمع فى الشؤون ، كيف علمتنى وعلمت الحمائم النُّواح ؟

وما الذى أعددت لتكريمى يوم ألقاك وقد سبَّحتُ بحمدك فوق أفنان الجمال !

وما عندك لسلامتى من الناس ، وقد خاصمتُ فيك جميع الناس !

***

وطفتُ بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحُبُوبى الذى يقول :

اسقنى كأسًا وخذ كأسًا إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا

وإذا جُدتَ بها من شفتيك ... فاسقنيها وخذ الأولى لكا

أو فحسبى خمرةٌ من ناظريك ... أذهبتْ نسكى وأضحت منسكا

وانهب الوقت ودَعْ ما سلفا ... واغتنم صفوك قبل الرَّنَق

إن صفا العيش فما كان صفا ... أو تلاقينا فقد لا نلتقى

وعند ذلك الضريح طال بكائى ، فهذا شاعر قضى حياته فى التغنى بالجمال ، ثم رآه النجفيون صوفيًا فدفنوه بجوار أمير المؤمنين ، وأنا أفنيت شبابى فى التغنى بالجمال و لم أجد غير

---

(١) الحارى نسبة إلى الحيرة على غير قياس ، وفى معجم يا قوت (الحارى) وهو تحريف .

العقوق !

فمتى يعرف قومى أنى أصدق تلاميذ ابن الفارض فى هذا الزمان ؟

اللهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائى بالناس !

* * *

يئستُ من الصيد فى الحرم الحيدرى بعد فرار تلك الغزالة ، وبدأتُ أعتب على سيدنا على ابن أبى طالب ، فمثلى لا يُكرَم فى رحابه بالماش والجُلاَّش ، وإنما يكرَم مثلى بالهُيَام فى أودية الفُتُون ، وما كنت فى حياتى من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمنًا يتقرب إلى ربه بعبادة الجمال .

وفى حومة هذا العَتْب تذكرت أن لى فى النجف صديقًا من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقى آل الشيخ راضى ، فقلت ، أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى الظبية التى نفرت منى ، ولكنى ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته فى ارتياع ، فقد علم أن الشُّرطة فى النجف تبحث عنى ، لأنى فى ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفى الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكى مبارك !

وما هى إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغُرّ البهاليل من أقطاب النجف .

وجلستُ بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب علىَّ أن أمثِّل هذا الدور الفظيع ، فانتقدتُ صاحب مجلة « الحضارة » لأنه يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة فى التعليم ، وقلت إن مذاهب التعليم فى النجف كمذاهب التعليم فى الأزهر لا ينبغى أن تزول .

وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج فى السوربون .

ولكنى فى الواقع لم أكن مرائيًا ؛ فقد صح عندى أن الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع فى رياضة العقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهد المماليك ، وأن النجف هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهد الأتراك ، ورعاية العهد توجب الإبقاء على تلك الأساليب التى استطاعت أن ترسل النور الوهاج فى دياجير الظلمات .

وبعد طول الحِوار فهمتُ أن فى النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التى وقعت فى الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفتُ أن طلبة العلم فى النجف يريدون أن يغيِّروا حالهم ليسايروا مناهج التعليم فى العصر الحديث .

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصُّورى : ما رأيك يا دكتور فى أن أخلع عمامتى ؟ فقلت : أنا أبغض المعممين الذين يخلعون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلتُ فى

العمامة ؟ لقد قلتُ : إنها منعتْ رزقى وفِسقِى !

فابتسمتُ وقلتُ : وكيف تعيش يا مسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟!

وتقدم الأستاذ البلاغى صاحب مجلة « الاعتدال » فقصَّ أحاديث يشيب لها الولدان ، ومنها عَرفتُ أن طلبة العلم فى النجف يعيشون فى بؤس . وقد طفر الدمع من عينى حين سمعت أن عالمًا نجفيًا أشرت إليه فى كتاب « عبقرية الشريف الرضى » جلس فى صحن الحرم الحيدرى يبيع كتبه ليسدَّ ما عليه من ديون ، ديون لم يجنها لهوٌ ولا مُجون ، وإنما جناها الخبز والماء .

وكان هذا العالم المحقق لقينى فى الكاظمية منذ أشهر ، لقينى لقاء المساكين ؛ ولما لقينى فى النجف تبسم وقال : كنتُ فى الكاظمية غريبًا وأنا اليوم فى بلدى ، وأنا حاضر لخدمتك .

وكنتُ أحبُّ أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكنى واأسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ لحظات ففررت من كرمه بترفق وتلطف .

لا تحزنْ أيها الزميل ؛ فسيكون لى ولك مكانٌ بين الصابرين .

لا تحزن ، فالدنيا أحقر من أن يبكى على نعيمها أحرار الرجال .

لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسدد ديونك.فهل علمتَ أن لك عُقبى الدار يوم يجزى الله الصابرين ؟

* * *

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولى جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفى أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى ، فمددت يدى أمسح خدّها الأسيل فصرختْ ، وتضاحك الرفاق . ولكنى سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائى . وبيت أهلها يقع فى دَربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصِّل إلى الرابطة الأدبية ، والثانية توصِّل إلى الحرم الحيدرى ، ولذلك البيت رَوْشَنٌ عليه برَّادة ، وبداخله بئر وسرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجعان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع العشاق .

يا شبيهة ليلى فى حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها ! ترفقى بقلبى فقد تركتُه فى الدَّربونة لتدوسه فى كل صباح أقدامك الرقاق .

يا شبيهة « كريمة » الغالية التى تداعب أباها فى الأحلام ، تذكَّرى أن طيفًا زارك فى النجف ولن يعود .

يا أخت « زينب » تذكرى أن الرجل الذى مدَّ يمينه ليمسح خدك الأسيل لم يكن فاجرًا ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله فى سبيل العقيدة والوجدان .

إليك دمعى يا حلوة يا جميلة ، وهو دمعٌ تمرَّد على الخطوب ، ثم أذلَّته عيون الملاح .

أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهى أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فما كان وحق الحب إلاّ صُرَاخَ الدلال .

* * *

واستيقظتُ فى اليوم التالى مبكرًا لأرى الكوفة ، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذى ماسينيون ، وكان أكبر همى أن أرى مسجد الكوفة الذى طُعن فيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والذى فار فى زاويته التنُّور لعهد نوح عليه السلام ، والذى صلَّى فيه ألف نبى وألف وصى ، والذى فيه عصا موسى ، والذى هلك فيه يغوث ويعوق ، والذى يحشَر منه يوم القيامة سبعون ألفًا ليس عليهم حساب ، وفى وسطه روضةٌ من رياض الجنة .

كذلك تقول الأساطير .

وما كانت فى عينى وقلبى أساطير ، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمى وطه حسين .

لقد شهدتُ بعينى كيف طُعِنَ على بن أبى طالب ورأيت دمه رأى العيان .

ورأيت المكان الذى خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذى أصلح العراق ، وأفسد العراق .

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ؛ ورأيت كيف يبكى الناس على قبره وكأنما قُتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق يحوى ثروة عظيمة جدًّا من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل المصلح بلا ترفق ، ثم يجعل البكاء عليه شريعةً من الشرائع .

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التى تحيى وتميت ، وهو ينتظر رجلاً فى طغيان الفرات وسماحة النيل .

إن العراق من قُوى العروبة والإسلام ؛ ولكن أين من يعرف ؟

لقد هدانى العراق وأضلِنى ، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال .

* * *

ثم مضيت أتلمس آثار الحيرة البيضاء ، مضيت أتلمس آثار الخورنق ، فلم أعرف و لم يعرف رفاقِى أين الخورنق .

وكان هُيامى بأطلال الحِيرة موسمًا من مواسم الشعر والخيال ، وفى ذلك الهيام عرفت شيئًا من مدنية العرب فى الجاهلية .

ولو كان لى شيء من الأمر فى حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش فى وجه الزمن ذكريات النعمان .

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جَهول فقادنا إلى مكان موحش ، فقال الرفاق : ليس هذا مكان الخورنق . فقال السائق : أنتم تبحثون عن أحجار ، وههنا أحجار !

صدقتَ أيها الجهول ، فنحن نبحث عن أحجار ، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق !

عندئذ تذكرتُ فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيمٌ غدَّار ، وأن التاريخ كلامٌ فى كلام ، فبنَوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان .

وقد تقوضت آثار الملوك فى المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين .

ما أشقاك فى دنياك وأخراك أيها النعمان ! أنت قتلت سِنِمَّار ليبقى سر الخورنق ، فهل بقىَ الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندى المجهول فى وادى النيل ! ليتك بنيت هرمًا يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية !

أيها النعمان ، سلام عليك من شاعر مصرى يبكى لمصيرك فى التاريخ !

أيها النعمان ، أيها الملك العربى العظيم ، أين الخورنق وأين السَّدير ...؟

اعترفْ أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين حفظنا مكانك فى التاريخ ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك فى التاريخ .

وفدتُ على أطلال قصرك وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأنين .

وفدتُ على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب .

وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ، وعرفها شاعرٌ مصرىٌّ مظلوم ينكره أهله ، كما أنكرك أهلك .

فيازميلى فى البؤس والشقاء ، سلام عليك .

* * *

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات ، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبى !

هذه الكوفة الإسلامية ، وتلك الحِيرة الجاهلية ، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين .

فيارب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق .

* * *

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن كيف ؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذى ضيع مستقبله فى سبيل هواه .

ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكى مبارك فأرفض لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسى فى دار المعلمين العالية ، وتخلفى عن دروسى أمر مستحيل ، وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطى السيارة إلى بغداد .

* * *

رجعتُ فى زىّ المساكين لأنى لم أجد الشفيع إلى ليلاى .

رجعت ذليلاً مقهورًا ، فماذا أصنع ؟

آه من حبى وغرامى وبلواى !

لقد هجرتنى ليلى وصدفتْ عنى ظمياء .

فلأذهبْ إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك .

إلى الموصل الذى رقدت فى ثراه عظام أبى تمام أمتطى قطار المساء ...

٢٢

ليت ليلى تعرف بعض ما ألاقى فى ليالى الصد من أهوال !

ليت ليلى تعرف كيف ندمتُ على التعرف إلى وجهها الجميل !

ليت ليلى تعرف كيف هدَّتْ عزمى وقوضتْ بُنيانى !

ليتها تعرف أن هواها أورث جسمى وقلبى أسقامًا وعقابيل ستكدر ما بقى من حياتى !

وليتنى أعتبر بما صرت إليه فأتقى الله فى نفسى وأتصوَّن عن الهوى والفتون !

ما أشد حزنى على ما ضيعت من شبابى فى التغزل بالعيون الزُّرق والعيون السود !

ما أشد ندمى على الغفلة التى خُضت أوحالها يوم وثقتُ بعهود المِلاح !

سيطول بكائى على العافية التى بددتها تبديد المسرفين على أنفسهم وأنا أتنقل من أرض إلى أرض فى سبيل الجَمال .

سأكتوى بنار الحقد على الدنيا وعلى الناس كلما تفكرت فيما ردنى الحب إليه من ظلمات .

لم يبق لى رجاء فى غير الله .

ومن سوء البخت أن لا أعرف الإيمان إلا فى أيام الضر والبؤس !

إليك أرجع يا ربى ، أرجع مقهورًا مدحورًا بعد طول الهُيام بأودية الضلال .

إليك أرجع ، ولا فضل لى فى هذا الرجوع ، فقد انهدَّ كيانى ، وانشقَّت مرارتى ، وصار من الموجع أن أحمل إلى فمى كوبًا من الماء .

إليك أرجع ، فامنحنى من العافية ما أنقل به صُوَر ذنوبى إلى ألواح خيالى ، عسانى أعرف كيف أستغفر وأنيب .

* * *

لم أجد فى النجف شفيعًا إلى ليلاى ، فقلت أذهب إلى الموصل ، وتلك نهاية المطاف فى البحث عن الشفعاء .

وعقدت العزم على السفر بالقطار الذى يقوم من بغداد فى الساعة التاسعة مساء .

ولكنَّ صديقًا موصليًا طرق بابى فى الساعة السادسة وعرف نيتى فى الذهاب إلى الموصل ، فنهانى ، ولما استوضحتُ السبب قال : إن أهل الموصل يحقدون عليك ، فانزعجت وقلت : كيف ؟ فأجاب : أنت أطلتَ التشبيب بالعيون السود فغنِمتَ عطف أهل البصرة وأهل

بغداد ، وخسِرتَ مودَّة أهل الموصل ، لأن عيونهم شُهْل لا سُود ...

فقلت : أتغزل بالعيون الشُّهل وأتناسى العيون السود .

فقال : كان ذلك قبل اليوم !

وتركني وانصرف .

وكذلك قضيت نحو ثلاث ساعات فى كرب وبلاء .

* * *

أشهد أن ذلك الصديق طيب القلب ، فما تعمد يومًا إيذائى ، ولكنه سيئ التصرف ، فهو يزورنى من حين إلى حين ليكدر صفائى ، وهو يجد لذةً فى تنغيص من يعرف ، ويشعر بارتياح حين يستطيع إلقاء صديقه فى أتُّون العذاب .

وقد وصل فى إيذائى إلى ما يريد وخرج وهو جَذْلان .

وفى غمرة هذا الحزن المظلم دخل موصلىٌّ آخر ، موصلىٌّ كريم كاد أهله يُنسوننى أهلى ؛ موصلىٌّ صِيغ قلبه من العطف والحنان ، فشاع الأنسُ فى روحى حين اغتبقتُ بروحه الرفيق .

وما هى إلا لحظات حتى كنت فى القطار وهو يحمّلنى التحية إلى أقربائه بالموصل الجميل .

* * *

وفى القطار رأيت رجلاً بيده مجلة تسمى « الأندلس الجديدة » وهى فيما أتذكر تصدر فى البرازيل ، وفيها رأيت مقالة فى تجريح صديقى العزيز الدكتور زكى مبارك ؛ فابتسمت وقلت : جرِّحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه !

وكان رأسى قد أثقله النعاس ، فلم أعرف شيئًا من معالم الطريق .

وصلْت إلى كركوك بعد عشر ساعات فى القطار ، وكركوك هى (شهر زُور) فى كلام القدماء ، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب ، لهب النِّفط ، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذى يجذب الفَرَاش ، الفَرَاش البغيض الذى يَفِد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض . وبعض البلاد تؤذى أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز . والجمال يجنى على أهله فى أكثر الأحيان .

ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالبانى فعرَّفنى بأقربائه ودعانى للتنزه فى حديقته الغناء ، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلمون العربية .

وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم علىّ ، فوقفوا صفًّا فى أدب واستحياء ، فسألتهم أن ينشدوا شيئًا مما يحفظون ، فأسمعونى نشيدًا عربيًا بديعًا دلّنى على أن

أطفال تلك الناحية سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين .

وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق ، وأن تجعل منه شعبًا مُوحَّد اللغة والتقاليد فى زمن قليل . ويؤيد ذلك أن العروبة هى فى الواقع فِكرةٌ لا جِنس ، والكردى يتحول بعواطفه إلى العروبة بلا عناء .

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلة المياه ، وفيها اليوم نحو أربعين ألفًا من السكان ، ودورها تبلغ ثمانية آلاف ، وبها حديقة للشعب وفيها مكتبة ، ولها ضواح صالحة لأن تكون من مرابع الابتهاج ، لو وجدتْ من يصلها بأصول التمدن الحديث .

وفى شهر زُور — وهى كركوك — يقول أحد الشعراء :

وعدتِ بأن تزورى بعد شهر ... فزُورى قد تقضَّى الشهر زورى
وموعدُ بيننا نهر المعلَّى ... إلى البلد المسمَّى شهر زُور
فأشهُرُ صدِّك المحتوم حقٌّ ... ولكنْ شهر وصلك شهر زُور

خطرتْ ببالى هذه الأبيات وأنا أطوف بكركوك فحزنتُ فذلك شاعر كان يشكّ فى صدق ليلاه ، كما أشكّ فى صدق ليلاى . ورأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هناك ، ولكنى خشيتُ أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى إربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذى يقول :

تُذكرنيك الريحُ مرّتْ عليلةً ... على الروض مطلولاً وقد وضح الفجرُ
وما بَعُدتْ دارٌ ولا شطَّ منزلٌ ... إذا نحن أدنتنا الأمانىُّ والذِّكْرُ

وصلت إلى إربيل فى وقت القَيْظ فلم أجد من النشاط ما أصعد به لرؤية القلعة التى تحدثتْ عنها كتب التواريخ ؛ وإنما اكتفيت بزيارة المسجد وشهود بعض الأسواق ، وراعنى أن تقوم أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال .

وفكرتُ فى تلقُّف بعض المعلومات عن إربيل فلم أجد من يسعفنى بما أريد ، حتى الشرطى حارس الميدان لم يعرف شيئًا عن عدد السكان فى إربيل ، ولم يستطع أن يرشدنى إلى بعض المدارس . وهذا لا يمنع أن يكون فى إربيل أدباء نرى آثار أقلامهم فى بعض المجلات المصرية من حين إلى حين .

* * *

ثم اتجهتُ نحو الموصل فراعنى أن أرى حقول الحِنطة على جانبى الطريق ، وهى تشهد بما فى تلك البقاع من خيرات ، وراعنى أن أرى السيارة تنتقل من نِجاد إلى وهاد ، ومن وِهاد إلى نجاد ، كأننا فى جبل لُبنان .

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذا مسجد النبى يونس ، وهو فوق هضبة عالية ، وكأنه (نوتْردام دى لا جارد) التى تروع من يدخل مرسيليا أول مرة .

وعند الجسر يستوقفنى الشرطى ليسأل عن اسمى فأقول : زكى مبارك ، فيسأل : الدكتور ؟ فأقول : نعم ! فيبتسم ويقول : عرفت أخبارك ، ولكن حدثني عند من تنزل ؟ فأقول : عند آل ليلي ! فيقول : وهذا وجه الإشكال !

وسأعرف بعد أيام لماذا تهتم الشّرطة بمعرفة أسماء من يدخلون كركوك وإربيل والموصل .

***

ألقيتُ أمتعتى فى الفندق وخرجت أدبِّر الوسائل للبحث عن قريبات ليلى ، واتفق أن جلست لأشرب كوبًا من الشاى فى إحدى القهوات ففاجأنى الأستاذ محمد بهجت الأثرى وهو يقول : أتراك تفلت من يدى يا دكتور ؟ من جاء بك إلى الموصل ؟ أذو نسب أم أنت بالحى عارف ؟

ونقلنى إلى المدرسة الثانوية للتسليم على الأستاذ بهجت النقيب ، وهنالك طالعتْنا مجلة الرسالة فقرأنا فقرات من حديث ليلى المريضة فى العراق ، وحددنا موعدًا للتلاقى بنادى الجزيرة فى المساء .

ولم تمض ساعات حتى تسامع أهل الموصل بقُدومى على غير ميعاد ، فأقبلوا متفضلين للتسليم على الرجل الذى أحب العراق وأحبه العراق .

تحدث أحدهم فقال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟

فقلت : لا ، فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها وبعد أن صعد خمسين درجة دار رأسه فنزل .

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وانتقلت إلى مجلس آخر فابتدرنى أحد الأدباء بهذا السؤال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد هَّم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد أربعين درجة داخ فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وفى مجلس ثالث تحدث رجل فقال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ؛ وبعد أن صعد ثلاثين درجة اضطربتْ مفاصِلهُ فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

ثم صممتُ على صعود هذه المنارة ولو كان فى ذلك حتفى ، لأنقذ سمعة الجامعة المصرية ،

على حجُراتها وغُرُفاتها ومُدَرّجاتها أزكى التحيات !

* * *

سميتْ هذه المنارة حدباء لغلطة هندسية أورثتها الاحديداب ومن أجلها سميت مدينة الموصل « الحدباء » على طريق المجاز المرسل ؛ وباسم الحدباء سمّى نوع من الخمر يستقطره الموصليون ، وكذلك انتقل الاسم من المنارة إلى المدينة إلى الشراب !

والمنارة الحدباء هى أعظم منارة فى أقطار العراق ، ودرجاتها فيما سمعت مائة وثلاث وتسعون درجة ، وهى منارة الجامع الكبير .

ابتدأتُ فزرت الجامع ، وهو قديم يرجع تاريخه فيما قيل إلى ثمانمائة سنة ، ولمحرابه قبةٌ عالية . وإقامة القباب فوق المحاريب طراز معروف فى العراق .

وبذلك الجامع مقصورةٌ خاصة بالنساء ، ولا تقام فيه الصلوات لهذا العهد إلا فى الجمع والأعياد .

وفى أثناء الطواف سمعت هَدِيلاً يسجع بحنين فاجع يذيب لفائف القلوب ، وسَجْعُ الحمام مألوفٌ فى العراق وقد تحدَّث عنه مئات الشعراء ، ولكنه فى هذه المرة كان حمامًا موصليًا يعيش فى البلد الذى نُسِب إليه أبو إسحاق .

وقد نظرتُ فرأيت الهديل يسجع وبجانبه ليلاه ، فما الذى كان يصنع لو غابت عنه ليلاه !

ليتنى فى مثل حالك ، أيها الهديل البَكّاء !

ثم توكلت على الله وصعدتُ المنارة بصحبة جماعة من الرفاق يحملون المصابيح ، وآذانى أن أجد درجات المنارة مهشّمة ، وأن أعرف أن الصعود فوق تلك الدرجات أمرٌ صعب . ولو أننى حاولت ذلك وأنا فى سن أصغر أبنائى لكان الخطب سهلاً ، ولكننى اليوم عالم علامة ، والعلماء العلاّمون يصعب عليهم السير فى الطريق ، فكيف يصعدون المنارة الحدباء ؟!

وبعد أن صعدت نحو سبعين درجة شعرت بالتعب ، فقلت : أنزل !

وهل يعيبنى أن أعجز عن صعود منارة عجز عن صعودها الدكتور عزام ؟

وشجعنى على النزول أن الدكتور عزام صديق عزيز ، والمتعالى عليه ينافى الأدب والذوق ، وهو بالتأكيد سينشرح صدره حين يعرف أننى عجزت عن صعود المنارة الحدباء . والضعفاء يعطف بعضهم على بعض !

وبعد أن نزلت درجتين مرّ بالبال خاطرٌ مزعج : وهو أنّ ليلى قد تسمع بهذه القصة فتعرف أن طبيبها أصبح من الأشياخ !

وكذلك انطلقت إلى صعود المنارة بعزائم الشياطين .

وقفت فوق المنارة ونظرت إلى الأرض فعرفت خطر ما أصيبت به من احديداب : فالذى

ينظر إلى الأرض من فوق تلك المنارة يتوهم أنها ستسقط به ، ولكن هذا الوهم لا يجوز على رجل مثلى !

ذلك ما كان من أمر الصعود ، ولكن كيف النزول ؟

إن النزول بدا لى أمرًا خطيرًا جدًا ، ومن كان فى ريب من ذلك فليجرِّب ، وقد خشيت أن تزل قدمى فأسقط ، لأن دَرَج تلك المنارة أصبح خيالاً فى خيال .

واقترح السيد محسن جوُمِرْد أن أضع يدى على كتفه فرفضتُ : لأن الاعتماد على الغير عند الشدائد هو بداية الانخذال .

* * *

نزلتُ من المنارة بلا مساعد ولا معين فصحَّ عندى أن عافيتى لا تزال باقية . وتطلعت إلى الهيام بأرجاء الموصل لأرى ما فيها من بقايا السحر والفتون ، ولأبحث عن الشفيعات إلى ليلاى .

وبدأت فزرتُ قبر أبى تمام ؛ وكنتُ كتبت كلمة عن إصلاح قبره فى جريدة الأفكار منذ ثمانية عشرِ عامًا ، وكان من رأيى أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبى تمام أفضل من العناية بإصلاح قبره ، فمتى أشرع فى تأليف هذا الكتاب ؟

كنت مبلبَل الخواطر فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبى تمام ، وإنما قرأت على قبر أبى تمام قول أبى تمام :

أحبَابَـهُ لـمَ تفعلـون بقلبــهِ ما لـيس يفعلـهُ بـهِ أعــداؤُهُ

وهاج حقدى على ليلاى فوقفت شارد اللب لا أعرف ما أصنع .

ثم تلفتُّ فرأيت جِنِّيات الشط ، شط دجلة ، فسألت رفيق :

ـــ ما بال هؤلاء الملاح يَلْقَيْنَ الشط بلا احتشام ؟

فأجاب :

٢٣

ـــ تلك تقاليد هذا الشط ، شط دِجلة ، يا سيدى الدكتور .

ـــ من تقاليد هذا الشط أن يقف الحسان بلا احتشام ؟

ـــ ومن تقاليده أيضًا أن يتطلع الفتّيان إلى اللؤلؤ المنثور فوق حبات الرمال .

ـــ إذنْ نقف لحظة !

ـــ أو لحظات !

ـــ تكفى لحظة .

ـــ خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقى .

ـــ سمعت وأطعت ، وليصنع الحب بقلبى ما يشاء .

* * *

لم تكن هذه المناظر غريبة كل الغرابة أمام عينىّ ، فلى مع جنّيات الشواطئ تواريخ ، وقد يثبت يومًا أن فينوس وُلِدت على شاطئ النيل بجانب سِنتريس .

وقد عشت دهرى أنظر إلى شواطئ النيل فى الريف نظرة شعرية ؛ فأين من يشاطرنى أحزان القلب وأشجان الفؤاد ؟

نشأتُ فى حداثتى فلاّحًا ، ولا تزال فى يدىّ آثار الفأس والمحراث ، و لم أعرف السعادة فى ظلال العواطف إلا بفضل ذلك العهد ، وقد أنشأتُ ما أنشأتُ من الرسائل والقصائد والمؤلفات ، فكان أشرف ما خط قلمى سطور قلائل ، إذ قلت فى مطلع الديوان :

« إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة . إلى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سِنتريس ، إلى بقاياك فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال . إليك ـــ يا كلَّ ما كنتُ أملك فى مطلع الصبًا وفجر الشباب ـــ أقدّم هذا الديوان .

وأقسِمُ ما قدَّمتُ إلا أضالعى　　　يمزّقها حزنى وينثرها وجدى

فلا تحسبينى بعد أن خانك البِلَى　　　تخونتُ ما بينى وبينك من عهد »

فى أيام حداثتى كانت سنتريس لا تعرف « الطُّلُمبات » فكان الماء يُحمَل إلى المنازل من النيل ، أو من السواقى ، فكنت ترى فى الصباح أسرابًا من « الصبايا » يحملنَ جرّات الماء وحولهنَّ ظِلال من الهوى المَرِح والشباب النشوان .

فى تلك الأيام كان الشابُّ يخرج لصلاة الصبح ، ثم ينفتل مسرعًا إلى داره فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل ويخرج إلى الغيط وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسراب الصبايا فى طريقهن إلى السواقى أو النيل . فى تلك الأيام كان أبى رحمه الله يعجب كيف أسبقه إلى صلاة الصبح ، وكيف أسرع إلى أداء أعمال الصباح ، فكان يصفنى بالتقوى والنشاط ، وما كان يعلم طَيَّب الله ثراه أنى لا أبكِّر إلا لأشهد السِّرب الأول من أسراب الملاح .

وكانت تلك المشاهد تتكرر فى الصباح وفى الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشُون بقلوبٍ مَشبُوبة فى الغدوات والأصائل ، وكان الشاب لا يغدو ولا يروح إلا بقلب مفتون .

وكان لأبى صديق اسمه حسين قابل ، وكنت أحب ذلك الرجل حبًا شديدًا ، وكان مفهومًا أنى أحبه لأنه صديق أبى ، فهل أستطيع أن أقول اليوم إنى كنت أحب ذلك الرجل لأنه كان يملك ساقية فى ضاحية البلد ، ولأن حوض تلك الساقية كان مَلعبًا لأقدام الملاح ؟

ربَّاه ! متى تعود أيامى !

وهل تصدقون أنى ما سافرتُ إلى البلد إلا مررت بأطلال تلك الساقية وسلَّمتُ تسليم المحبين ؟

رحمة الله على تلك الساقية فلم تبق منها غيرُ أطلال ، وكيف تعيش وقد أغنت الطُّلُمْبات عن مائها الممزوج بحبات الرمال ! كيف تعيش تلك الساقية وقد جَنَتْ عليها المدنية ! كيف تعيش بعد أن حُرِمتْ من وثبات الأفئدة وخفقات القلوب !

وكان فى بلدنا طريق إلى النيل ، طريق ضيق ، ولكن دمَّثته أقدام الظباء فصار ترابه أذكى من المسك الفتيت ، وكان لذلك الطريق فى قلبى أخيلةٌ أتمثل بها أرواح الفراديس ، ولم يكن لنا فى ذلك الطريق مَغْدًى ولا مَراح ، ولكنى كنت أختلق الأسباب لأمرّ به مرّ العشاق فى الضُّحى والأصيل ، وفى ذلك الطريق كنتُ أرسل التحية المخطوفة إلى تلك الفتاة ، حاملة الجرة ، الفتاة الغيداء التى لم يفهم جمالها أحدٌ سواى ، والتى ظلتْ وهى ميتة تَشُوقُ قلبى وأنا أعيش نائيًا فى باريس .

وما زال ذلك الطريق موجودًا إلى اليوم ، ولكن من ذا الذى يفهم سِحره من أهل سنتريس ؟ أنا الذى أعود إلى بلدى فى الأتوبيس فأستوقف السائق وأنزل قبل المحطة لأصل إلى بيتى من ذلك الطريق ، وما هو والله بأقرب الطرق ، ولكنه يذكرنى بتلك المحبوبة الغالية التى كنتُ أحسب الجرّة فوق رأسها هالةً من النور الوهاج .

ماذا صنعَت المدنية بالريف الجميل ؟

ماذا صنعَتْ ؟

أنتم لا تعرفون الخطر ، فدعونى أحدِّثكم عما جنَت المدنية .

كانت تلك المشاهد الجذابة فرصة يعرف فيها الشاب مَن تصلح لإيناسه فى الحياة الزوجية : فكان يرجع إلى أمه وفى صدره أحاديث وأحاديث ، وكانت الأمُّ تخلو بابنها فى ناحية من الدار فيحدِّثها ابنها العزيز ، وهو أشعر من جميل وأخطب من سَحبان ، وتمضى الأحاديث بين الأم وابنها فى درس ما فى الصبايا من محاسن وأخلاق .

فما ترونه اليوم فى حياة المدنية من تعرُّف الفتى إلى الفتاة فى الملاهى والملاعب كنا نعرفه نحن بالنظرات الثواقب ، وكنا ندركه بأحاسيس القلوب .

قد تقولون : ألم تكن هناك مآثم فى شهود أسراب المِلاح وهنَّ يغدون ويُرحْنَ إلى السواقى وإلى النيل كما يُرحْنَ إلى شواطئ دجلة وشواطئ الفرات ؟ ألم يكن هناك من تندُّ منه كلمة نابية أو يشْرُدُ منه لحظٌ مريب ؟

وأجيب بأن فتيان الريف كانوا فى غاية من الأدب والذوق ، وما أذكر أبدًا أن فتاة شكت إلى أبيها أو أخيها من فضول الشبان . وما أذكر أن من الفتيان من استطاع أن يوجه كلمةً نابية إلى إحدى الفتيات ، أو يرمقها بنظر أثيم .

الأدب كله فى الريف ، ولكن أبناء المدينة لا يعلمون .

على أن هناك ناحية من الأدب جنتْ عليها المدنية يوم دخلت الريف ، هناك الأدب العذب الذى كان يتمثل فى مثل هذا الموَّال :

بالله يا بحْر حِبىِّ جاشْ مَلاَ بدرى

وفى هذا الموال :

يا ساقية الحُب دورى وانْزِحِى سكَّر

ولهذين الموَّالين نظائر وأشباه كانت نعيم السامرين فى سهرات الريف . وهناك أيضًا الصُّور الفنِّية ، صور الفَلاحات المليحات وهنّ يملأن الجِرار من ماء النيل .

ألم تروا صور السيدات الأوربيات فى أزياء الفَلّاحات ؟

ألم تعرفوا أنه كان من الطريف حين يقترنُ مصرىٌّ بفتاة أوربية أن يأخذ لها صورة وهى فى ثياب فلاحة تملأ جَرَّتها من النيل !

ألم تسمعوا أن أفضل تماثيل « مختار » كان صورة للحياة الفطرية على شواطئ النيل ؟

إن المدنية جنت على الريف أبشع جناية منذ اليوم الذى مكَّنَتْ فيه كلَّ فلاحة من أن تستغنى عن السواقى وعن النيل . وأفكارُ المدنية جَنَتْ أيضًا على حياة الريف : فقد فهمت الفتاة الريفية أن من حقها أن تمكث فى البيت فحُرِمنا من المنظَر الجميل الذى مثَّله الأستاذ رمزى نظيم وهو يقول فى فتاة يُشرق نورها فى الحقول :

شاغله الّلى سارح فى غيطه والّلى مروّح

جاشت هذه الخواطر فى قلبى وأنا أنهبُ بعينّى شوارد الحسن الذى سَكَن إلى شاطىء دجلة كما تسكن الحمائم إلى العابثين فى حدائق باريس ، وتذكرت أن الشواطئ العراقية لا تزال تعرف هذا اللون الجذاب من ألوان الحياة ، وتذكرتُ الفتاة التى غازلتُها على شاطئ الفرات يوم زرت الفَلُّوجة ، وهى فتاةٌ طَهُور لا يؤذيها اللهو المباح ، والجمال كلُّ الجمال فى ظَرْفِ عقائل العراق .

ولو لم يكن قلبُ ليلى قُدَّ من الصخر الجُلمود لقضيتُ ما بقَى من حياتى فى صيد السمَّك بالعراقِ .

تَمنّى أن يَرى ليلَى بِجَمْــعٍ ليسكُــنَ قلبــه مما يُعانـــى
فلمـــا أن رآهـــا خوَّلتـــهُ بِعــادًا فَتَّ فى عَضُد الأمـــانى
إذا سمح الزمـــان بها وضنَّتْ علـــىّ فـــأىُّ ذنبٍ للزمـــانِ

* * *

ــ خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقى !

كذلك هتف رفيقى ونحن نواجه طلائع الحُسن على شاطئ دجلة ، فتذكرتُ ما بين مصر والعراق من الفروق فى دقائق الأذواق : فالعراقىّ لا يسوءُه ولا يؤذيه أن يسمع منك حديث الوجدان ، أما المصرىّ فيتحرَّج ويتلوَّم حين يسمع ذلك ، ولن أنسى كيف انتاشتنى جرائد الفيوم حين كتبت كلمة فى جريدة (بحر يوسف) أذكر فيها كيف كنت أَنْعَمُ فى طفولتى بترنيم هذه التغريدة :

« يا بحر يوسف ياما فيك كل بُلْطِيَّه »

وكيف كنت أفهم أن « البلطية » هى رمزٌ للغادة الحسناء .

انتاشتنى جرائد الفيوم فى صيف سنة ١٩٣٦ حين قلت ذلك ، مع أن الفيوم يعرف حلاوة العنب وحلاوة التين ، ولم يرقّ طبعه مع هذا الغذاء الرقيق !

وقد قلتُ مرة إن مدينة الحِلّة تشبه مدينة الفيوم أو مدينة شبين الكوم ، فليكنْ مفهومًا أن هذا تشبيهٌ مع الفارق ، فجرائد الحلة لا تتحدث عنى إلا تحت عنوان « طبيب ليلى » وأهلها مع ذلك يعرفون أنهم يتحدثون عن رجل يتشرف بخدمة العلم والأدب فى العراق .

عفا الله عنك يا ليلى !

كيف تردِّيننى إلى مصر ، لأصوم عن أحاديث الصبابة والحب !

كيف تردِّيننى إلى البلد الذى لا يتقدم خُطوةً إلا ليتأخر قلبى خُطوات !

كيف تردينني إلى البلد الذى يرى أهله أن النعيم كل النعيم فى الماء المرشَّح ، وهم مع ذلك يعرفون أن أجدادهم الذين جهلوا تقطير الماء لم يعجزوا عن بناء الأهرام ، و لم تعوزهم نعمةُ العافية ، و لم ينقصهم صفاء الأرواح .

ردُّونا إلى العهد الأول ، وأمكنونا من ذوات الجدائل وهنَّ يتخطرن فى الضحى والأُصيل .

لقد ماتت حبيبتى الأولى فى الريف ، ولكن ابنتها اليوم ترسل السهام المسمومة إلى غافيات القلوب ، فدعونى أصوِّب صدرى لسهام تلك الغيداء ، دعونى أمتْ وأنا ساجى الجفنين إلى صدر تلك الطفلة التى شربت من كف أمها أكواب الصفاء .

أتريدون أن تصلحوا الريف ؟

أصلحوا قلبى أولاً ، ثم افعلوا بالريف ما شئتم ، أصلحوا قلبى فأنا الشاعر الذى تعرفون ، وأنا والله أبقى لكم من كل ما أبدع التمدن الحديث .

* * *

طافت هذه الخواطر برأسى وأنا أنظر جِنِّيَّات الشاطئ ثم خفتُ أن أفتضح فتكلفت الرغبة فى أن أعرف تاريخ القنطرة التى تواجه الجسر المصنوع من الحديد ، فقال رفيقى إن الذى بناها مهندس مصرى وقد غلبه التيار فانحرفت القنطرة بعض الانحراف ، فقلت فى نفسى : ولعل جنية من جنيات الشاطئ جنت عليه فأورثته الخبال !

أنا أبحث عن قريبات ليلى ، فأين قريبات ليلى ؟

أَكُتِبَ علىّ أن أخيب فى كل ميدان ؟

إن حالى فى العراق حالُ الملَك الذى نزل من السماء ليلهو أسبوعًا أو أسبوعين فى باريس ، وقد حدثنا أناطول فرانس أن ذلك الملَك حين تفقّد أجنحته ليرجع إلى السماء وجد ريشها قد عُطب فَعَسُرَ عليه الصعود .

وكذلك دَخلتُ العراق وأنا فى أنفُس أهله من كبار العلماء ، فما هى إلا أيام قلائل حتى فضحتنى ليلى وصيرتنى كما قال رامى فى أغاريد أم كلثوم .

« قلبك غدر بى ورمانى وفرّج الناس علّى » .

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

لا بدّ من التخلُّق بأخلاق العلماء لأستر فضيحتى وأدارى بلائى

— يابا .

— مولاى .

— أنت تعرف أنى أتأذَّى من أن يمرّ وقتى بلا نفع .

— أوقاتك كلها نفع ، يا دكتور .

ـــ لا ، لا ، أنا أعرف قيمة أيامى بالموصل ، ولا يكفى عندى أن يقيم لى الدكتور عبد الأحد عبد النور وليمة غداء ، وأن يقيم لى الدكتور لويس لبيب وليمة عشاء ، وأن يحتفل بقدومى أعضاء نادى الجزيرة ، فهذه كلها شواهد من اللطف ، ولكنها لا تملأ الفراغ الذى أحسه فى قلبى وعقلى .

ـــ وماذا تقترح ؟

ـــ أقترح التعرف إلى الموصل .

ـــ إيش لون ؟

ـــ أحب أن أعرف كل شيء فى هذه المدينة .

ـــ ذلك مطلَبٌ عزيز المنال .

ـــ تعال ننظر إلى الظواهر فهى بابٌ إلى الحقائق .

* * *

دخلتُ المكتبة العامة وهى تسمَّى « مكتبة غازى » فرأيت فيها أفواجًا من المطالعين هم جميعًا من الطلاب ، ورأيت فريقًا منهم يتخذها مكانًا لمراجعة الواجبات المدرسية فدلَّنى ذلك على أن فى شبان الموصل من لا يجد النور والهواء إلا فى مثل ذلك المكان .

والمكتبةُ فقيرةٌ فقرًا مُدْقعًا ، فليس فيها من الكتب غير ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعين ، ومعنى ذلك أن مكتبتى الخصوصية بمصر الجديدة أكبر منها ثلاث مرات !

ونظرتُ فى عدد المطالعين فى هذه السنة فوجدتُ من طلبوا الجرائد والمجلات وصلوا إلى ثلاثة آلاف ، ورأيت كتب الأدب طلبها ١٨١٢ والروايات طلبها ١٩١١ وكتب الحقوق طلبها أربعة فقط ، والمعاجم والموسوعات طلبها ١٨٨ .

أما الكتب الاقتصادية والنحوية فلم يطلبها أحد .

وحرصت على أن أعرف ما بأيدى المطالعين حين دخلتُ فوجدتُ من المجلات (الدنيا) و (الفكاهة) ورأيت من الكتب (الأجنحة المتكسرة) و (النظرات) و (مرجريت) و (حب ابن أبى ربيعة) .

ومن واجبى أن أسجِّل أن هذه المكتبة لا تناسب ماضى الموصل ولا حاضر الموصل ، وما قلت إن مكتبتى الخصوصية أكبر منها ثلاث مرات إلا لأحرِّض أهل الموصل على إغناء هذه المكتبة بألوف المجلدات ، وسيظهر أثر هذا التحريض بعد قليل .

* * *

خرجتُ من المكتبة فوقفتُ لحظة على شاطئ دجلة ، وما زلتُ فى رحاب المكتبة ،

فوجدتُ الشاطئ الآخر يزدان بحديقة جميلة توحى الشعر والخيال .

فوثبتُ إليها فى لحظتين .

هل أقول إن هذه الحديقة أنشئت سنة ٤٥٠ هـ وهو التاريخ الذى أسِّس فيه الجامع الكبير ؟

هل أقول إنها أنشئت سنة ١١٥١ هـ وهو تاريخ المنبر بذلك الجامع ؟

لا هذا ولا ذاك : هى حديقة أنشئت بعد استقلال العراق ، ويقال إن الذى فكر فى إنشائها رجل من الإنجليز ، وكانت تسمّى باسمه ، ولكنها اليوم تسمّى حديقة الشعب ، وفيها مَشابه من حديقة النباتات فى باريس .

وفى طرف من أطراف تلك الحديقة رأيت نبات « الهُعْخُع » الذى يُذكَر فى مقدمات كتب البلاغة ، وقد بلّغتُه تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف !

وعرفت أن الحديقة تنقسم إلى قسمين : قسم لنزهة الرجال ، وقسم لنزهة النساء .

وقد اعترضتُ على هذا التفريق لأول وهلة ، ثم رأيت ما أقنعنى بعقل أهل الموصل .

رأيت امرأة ملفوفة فى عباءة فطار صوابى ، هى دنيا من الحسن يتموَّج فى ثنايا ذلك الجلباب ، هى فتنة تنقلها المقادير من شطّ إلى شطّ ، ومن جادّة إلى جادّة ، ومن دَرْبُونة إلى دربونة ، إلى أن تكفّ أذاها عن الناس بوضعها فى بيت مسدود .

وتقدم رفيقى فقال لها فى همس : هل تعلمين أن طبيب ليلى فى الموصل ؟

فقالت فى تلهف : وَدُّونى عليه !

وما كدت أسمع هذا الجواب حتى هربتُ .

وكيف أصْمُد لهذه الفتنة المتحركة وأنا رجلٌ خفّاق القلب ، مفضوح النظرات ؟

لا أدرى كيف يسكت شعراء الموصل فى هذه السنين .

انطِقُوا يا عنادل فإن الحسن فى وطنكم يُنطق الجلاميد .

انطقوا ، يا عنادل ، انطقوا .

انطقوا لتسكت الضفادع التى تطيل النقيق فى حديث الحرام والحلال !

* * *

ومضيت فزرت طوائف من مدارس البنين والبنات ، زرتها باسم الدكتور زكى مبارك المفتش فى وزارة المعارف المصرية ، والعَجَب كل العجب أن أصلُح للجد الرزين مع الذى اشتهرتُ به من الهُيام بعيون الظباء .

لم أدخل مدرسة إلا ألقيتُ فيها بذورًا من المبادئ الصِّحاح ، وستذكرنى مدارس الموصل بالخير الجزيل ، إن شاء الله ، فهو عزَّ شأنه لا يحبط أعمال القلوب .

حضرتُ حفلة ختامية فى إحدى المدارس ، فرأيت الخطب تنقسم إلى قسمين : قسم باللغة

العربية ، وقسم باللغة الإنجليزية .

فعلوتُ منصة الخطابة وأعلنتُ أنه لا يجوز أن تكون الخطب المدرسية بغير اللغة القومية ، وفطن الحاضرون لقيمة هذا النصح فألغوا الخطب الإنجليزية من منهج الاحتفال .

وما كان من همى أن أحارب إنجلترا فى كل بلد أحلّ فيه ، ولكن كان من همى أن أدل العرب فى كل أرض على قيمة العصبية القومية ، وهل يسمح الإنجليز فى بلادهم أن يكون للغات الأجنبية صوت فى الحفلات المدرسية ؟

لقد كافحتُ بمعاهد الليسيه فى مصر كفاحًا عنيفًا لأجعل للغة العربية مكانًا فى الحفلات المدرسية ، ولولا تلطُّف المسيو دى كومنين لكان الوصول إلى ذلك من المستحيل .

فكيف تُزاحِمُنا لغة أجنبية فى مدارسنا العربية ؟ كيف ؟ كيف ؟

وقد أزعجنى أن يقع هذا من مدرس مصرى هو من تلاميذى القدماء ، ولكن سرَّنى أن يعرف الأستاذ مينا عوض قيمة الصدق فى صدر أستاذه القديم فيعترف بالحق .

وأذكر بهذه المناسبة أن المصريين يَحْيَوْن فى الموصل حياة سعيدة ، وهم موضع التكريم هناك .

* * *

وقد وقعتْ نادرة تستحق التدوين .

دخلتُ إحدى مدارس البنات فوجدتُ المدرسة فى هرج ومرج ، ثم سألتُ عن السبب فعرفت أن التلميذات تسامعن بقدوم الدكتور زكى مبارك فانزعجن أشد الانزعاج لأنهن ظنَنَّ أنه جاء ليقوم بعملية التطعيم ضد التيفود .

و لم تهدأ الخواطر إلا حين أعلنتْ مديرة المدرسة أن الدكتور زكى مبارك طبيب أرواح لا طبيب أبدان .

أنا طبيب أرواح ؟

ليتنى داويت روحى !

أنا طبيب أرواح ؟

أنا ؟ أنا ؟

ومن هو العليل الذى يبذر جراثيم الفُتُون فى كل بلد يحُلُّ فيه ؟

إنى لأعجب كيف تتسع رحمة الله لرجل فى مثل حالى .

كم تألمتُ ، وكم بكيتُ ، كلما تذكرت إساءتى إلى نفسى وإلى الناس .

لقد جعلتُ الحديث فى الحب شريعةً من الشرائع .

هل أحسنتُ ! هل أسأتُ ؟ لا أعرف بالضبط ، ولكن قلبى يحدِّثنى بأنى كنتُ من

المسرفين .

تمرُّ بى لحظات أنس ، ولحظات بؤس .

أتوهم حينًا أنى أخدم لغتى بهذه الأحاديث .

وأعتقد أحيانًا أنى أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث .

فأين مكان الخطأ ، وأين مظنّة الصواب ؟

ومن العجيب مع هذا كله أن أكون أصدق من شُغِل فى هذا العصر بدراسة الأخلاق .

أحب أن أعرف نفسى ، فهل أستطيع أن أعرف نفسى ؟ هيهات ، هيهات !!

ليلى هى السبب فى محنتى وشقائى .

تركت ليلى المريضة فى الزمالك ، فوجدت ليلى المريضة فى العراق ، وكنت وجدت لهما أختًا قبل ذلك فى باريس .

فأين المفرُّ من العيون العسليَّة والعيون الزرق والعيون الشُّهل والعيون السود ؟

أين المفرُّ وبينى وبين الجمال أسلاكٌ جواذبُ من الكهرباء ؟

ولو كنتُ رجلا فاسقًا لعرفتُ الحدود وانتهيت .

ولكنى رجلٌ عفيف ، وهنا تظهر دِقّة الإشكال .

ومن الذى يصدِّق أنى رجلٌ عفيف وقد ملأتُ الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات ؟

إن ليلى هى التى تستطيع أن تشهد بعفافى .

ولكن هل فى مقدور امرأة أن تقول كلمة الحق ؟

ما رفعتُ بصرى إلى امرأة إلا مضت تقول فى كل مكان إن بينى وبينها أشياء .

وينهانى الأدب عن تكذيب الملاح فتسوء سمعتى بلا حساب .

أشهد أنى سأكون أضعف الناس حُجةً يوم ألقى ربى ، وما أظننى سألقاه إلا بدمع دافق ، فهل يتفضل عزَّ شأنه فيغفر ذنوبى ، كما ستر عيوبى ؟

إنى لأعجب ثم أعجب كيف سكت الله عنى عشرين سنة أو تزيد فلم يفضحنى ، مع أنى رجلٌ مسكين لن يجد فى حسابه حسنةً واحدةً يوم تُنصَب الموازين .

وهل رأت العيون أغرب وأعجب من أن يكون لمثلى تلاميذ يقبِّلون يُمناه بحرارة وقوة ؟

عفا الله عنكم يا تلاميذى ، فأنتم لا تعرفون أن أستاذكم خرَّب ما بينه وبين الله أشنع تخريب .

ثقوا يا تلاميذى بأننى خدعتكم أقبح خداع ، وما سكت الله عنى إلا لأنه رآنى أصغر من أن أستحق التأديب ، أو لأنه رأى من حق الأطفال أن يرسموا ما يشاءون من الخطوط فوق الرمال .

لَى عذرٌ واحدٌ يا تلاميذى ، فقد عزّ علىّ أن أترك عواطفى تتبدد فلا يسجلّها غناءٌ ولا أنين ، مع أنها أكرم من الذهب وأثمن من الماس .

لو شرب الصخرُ من رحيق الوجود بعض ما شربتُ لتحوّل إلى أوتار وقلوب ، فكيف أصمُت والدنيا كلها تتأرج من حولى بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولى قلبٌ يتشوف إلى أفنان الجمال تشوُّف الشمس إلى أنداء الصباح .

لا تغتروا بعفو الله يا تلاميذى كما اغتررتُ إلا إذا كان فيكم رجالٌ يعرفون عيوبهم كما أعرف عيوبى .

وأنا أدعوكم إلى سحب الثقة من أستاذكم المجهول .

أدعوكم إلى اليقين بأنكم عرفتم رجلا لا يستأهل رحمة الله ، ولو حاسبنى الله بميزان العدل لمحا اسمى محوًا من قائمة الوجود .

اسمعوا ، يا تلاميذى ، اسمعوا .

إن ناسًا يعتذرون عنى فيضيفوننى إلى الصوفية .

وهذا حقٌّ من جانب ، فأنا متصوف بالقول لا بالفعل .

ولولا الأدب مع الله الذى ستر عيوبى لفضحتُ نفسى بلا ترفق ، وأريتكم مبلغ الزور والبهتان فى سُلوكى ، السلوك الذى لا يليق برجل يؤمن بفاطر الأرض والسموات .

اسمعوا ، يا تلاميذى ، اسمعوا .

لقد فتحت أمام أعينكم وقلوبكم آفاقًا من الضلال يوم أقنعتكم بالقلم واللسان أنكم مأمورون بالنظر فى كل شىء .

فهل تستطيع أعينكم وقلوبكم أن تُدرك المجهول من حقائق الوجود ؟

إن أستاذكم ضاع ثم ضاع ، لأنه خاطَب الناس بما لا يفهمون ، فاحذروا أن تخاطبوا الناس بما لا يفهمون .

وهل تصدّقون أننى خاطبت نفسى بما لا تفهم نفسى ؟

هل تصدقون أننى رأيت ربى رأى العين ، وأننى حاسبته أشد الحساب ؟

أنا أتهم الله أمامكم يا تلاميذى : فهو الذى هدانى إلى الضلال ، وهو الذى دعانى إلى التغريد فوق أفنان الجمال .

هو الذى صاغ قلبى من الرفق والعطف والحنان .

هو الذى قضى بأن أعيش شقيًا لأموت شقيًا .

هو الذى اختصّنى بهذا الروح الشفّاف لأكون أضحوكة الجاهلين والسفهاء .

هو الذى خلق لى لسانًا لا يتحبّس ، وقلمًا لا يتوقّف ، لأعلن عن سفاهتى فى كل أرض ،

ولتسير غوايتى سَيْر المَثل الشَّرود .

اسمعوا ، يا تلاميذى ، واعقلوا .

سيموت أستاذكم مقتولاً بسحر العيون .

وهو يرجوكم أن تخصوه بالدعوات الصالحات ، فى أعقاب الصَّلَوات .

وثِقُوا يا تلاميذى بأن عطفكم علىّ هو أثمن ما اقتنيت من الذخائر فى حياتى .

ثقوا بأننى ما ادخرتُ لنفسى غير حبكم وكرمكم وعطفكم وما أحسبنى من الخاسرين .

سيترك لكم أستاذكم تركة مُثْقَلةً بالديون ، فدافعوا عنى واقْضُوا ديونى .

وأنت يارب ، ماذا ادَّخرت لعبدك الأوَّاب ؟

أَكْتُبنى من المشردين فى حبك ، واجعلنى من المضللين فى هواك .

* * *

ــ دكتور ، دكتور .

ــ نعم ، يا سيِّدى .

ــ بقيتْ فى الموصل أعاجيب ، فهل تحب أن ترى تلك الأعاجيب ؟

ــ وما هى تلك الأعاجيب ؟

٢٤

ــ نحن ذاهبون إلى دير مار جيوارجيس .

ــ وأين ؟

ــ فى ضواحى نينوَى .

* * *

. كنت أحب من زمن بعيد أن أشهد نظام الديارات التى صنعتْ ما صنعتْ بألباب الشعراء ، ولكنى بلا أسف لن ألهو بها كما لها الشعراء ، فما تركتْ لى الدنيا مجالا ألهو فيه وألعب ، وإنما أذهب اليوم إلى الدير لأحقق الفروق بين الدير عند الرهبان والزاوية عند الصوفية ، وهو موضوعٌ شغلتُ نفسى بتحقيقه فى كتاب (التصوف الإسلامى) .

والواقع أن نظام الأديرة نشأ فى أقدم عهوده بمصر ، ورهبان الموصل على بعد الدار يعرفون ذلك ، ويقولون إن القديس أنطوْنيوس المصرى هو أبو الرهبان ، وقد نشأ فى قرية تسمَّى كُوما بالصعيد .

وكذلك يقول الرهبان الذين عرفتهم فى باريس وهم يرجعون الفضل فى وضع نظام الرهبنة إلى آباء الصحراء ، الصحراء المصرية ، ولهم فى تأكيد هذا المعنى أبحاث طوال .

وفى اللغة الكلدانية كتاب عن رهبان مصر يسمى (فردوس الآباء) وهو مترجم عن اليونانية .

وسَبْقُ مصر إلى نظام الرهبنة له سببٌ معقول ، فمصرُ ــ عفا الله عن مصر ــ تقهر المرءَ قهرًا على الإيمان بالله وتفرض عليه أن يفرَّ من الناس إلى المفازات والمغارات .

والمرءُ لا يعرف ربه إلا عند البأساء ، وما عاش إنسانٌ فى مصر بلا بأساء .

فى مصر جَمالٌ وهَّاج ، ولكنه أحمق وعِربيد .

وفى مصر أوديةٌ خُضْر ، ولكنها لا تُضمَن إلا لمن يملك السلاح .

فى مصر كلُّ شىء ، وليس فيها شىء !

* * *

دخلت الدير أستلهمه وأستوحيه فاستأنس رهبانه كل الاستئناس ، وتقدم رئيسهم فقال : من السيد ؟

فقال الدكتور لويس لبيب : هذا طبيب ليلى شفاها الله !

فابتسم رئيس الرهبان وقال : وشفاه الله !

ومرّ بالخاطر أن هؤلاء الرهبان كانوا يستقبلون أبناء الدنيا من حين إلى حين ولسانُ حالهم يقول : إلى فردوس الصفاء لحظة أو لحظتين يا أبناء الدنيا الغادرة التى تأكل بنيها قبل أن يفتحوا أعينهم على نور الوجود !

— إيش لون ليلى ؟

— بخير وعافية .

— ألا تزال فى حبها الغاضب عليك ؟

— ما تزال غَضْبَى ، يا مولاى ، وأنا أطير من أرض إلى أرض لأبحث عن الشفعاء .

— هاتها مرة واشرب معها هنا كأسا أو كأسين !

— لو كانت ليلى تشرب الصهباء لوصلتُ إلى قلبها منذ أزمان ، ولكنها لا تشرب الخمر أبدًا ، ولا تعفو عن الشاربين ، وأخشى أن أهمّ بتقبيلها فتشم رائحة الكأس التى كنتُ هممت بشربها منذ أعوام طوال .

— وأنت تشرب ؟

— أفكر فى الكأس من حين إلى حين .

— وتحبُّ ما تبغض ليلاك ؟

— أنا أداعب خيال الشراب ، لأقترب منها بعض الاقتراب ، لأن روُحها صيغ من حَبَب الصهباء .

— وأين تقيم ليلاك ؟

— فى بغداد .

— فى أى محلة ؟

— فى شارع العباس بن الأحنف .

— وكانت بينك وبينها أشياء ؟

— نعم ، أشياء ، وأشياء ، توهمتُها مرةً تَثِبُ إلى صدرى وتقبّلنى ، وتوهمتُها مرةً ثانيةً تمسح جبينى بترفق ، وتوهمتُها مرةً تسأل عن مكانها من قلبى ، وتوهمتُها مرةً رابعة تترحمّ على مصيرى فى هواها ، وتوهمتها مرة خامسة تتوجع لشقائى وسهادى . وأؤكد لك أيها الراهب الجليل أنها سمحتْ لخيالى بأن يطوف بقلبها الخفاق من حين إلى حين ، أؤكد لك وأنا واثق من صحة ما أقول أنها رضيتْ بأن أكون فى هواها من الشهداء .

أيها الراهب ، اسمعْ ثم اسمع ، فما كنت من الكاذبين ، إن ليلى سمحت بأن أرى وجهها فى القمر حين يَطلُع ، وأن أشمَّ شذاها فى الزهر حين يتأرَّج ، وأن أرى طغيانها فى الفرات حين

يَهْدِر ، ولم تكتف بذلك ، أعزَّها الحب ، بل رضيتْ بأن أراها فى حفيف النسائم ، وهديل الحمائم ، واصطخاب الأمواج .

إن ليلى — وما أكذب عليك — تسمح بأن أتوهم أنها ستزورنى فى مصر لتقيم بين ذراعىَّ أسبوعًا أو أسبوعين .

إن ليلى ، أيها الراهب ، وعدَتْ بأن تمنحنى نعمة الجنون ، وهى لا تَعِدُ لِتُخْلِف .

إن ليلى هى غاية الغايات ونهاية النهايات فى السخاء .

فإن كنت فى ريب من ذلك فاعلم أنها أباحتنى منذ شهرين أن أعتقد أنها طوقت عنقى بأطواق من الحديد ، وأنها سترقُم اسمى فى صفحات الخلود .

إن ليلى ، أيها الراهب ، ساجية الجفنين ، أسيلة الخدين ، مُشرقة الجبين .

إن ليلى تحبنى ، ولكنها تكتم ، لأن لها هوًى فى الكتمان .

أحبك يا ليلى ، فاصنعى بقلبى ما تشائين .

— يا دكتور مبارك .

— نعم ، أيها الراهب .

— هل لك أن تحدثنى كيف صفح عنك العراق ؟

— وماذا جنيتُ حتى يمنّ العراق بالصفح عنى ؟

— إن مذهبك فى حب ليلى سيقتلها أشنع القتل .

— وكيف ؟ أنا أقتل ليلى ؟ أنا ؟ إن كل همى أن تذكرنى ليلى بالشِّعر يوم أموت .

— اسمعْ يا دكتور مبارك ، ما هكذا يكون الهُيام بالمِلاح .

— وكيف يكون الهيام بالملاح ؟

— يكون مزاجًا من الطُّهر والدنَس .

— وهو كذلك ، وهل خلتْ حياتى فى حب ليلى من دَنَس ؟ لقد مررتُ بدارها مرةً فقبَّلتُ الجدران ، وعفَّرتُ جبينى بالتراب ، وسألت الله أن يحفظ عليها نعمة التأبِّى والتمنُّع فلا أعانقها إلا فى رحاب الخيال ، اسمعْ أيها الراهب ، لقد شفيتُ نفسى من ليلى فتمثلتها فى الأحلام وهى تَصْدِف عنى .

— وكيف عجزتَ مع هذه الفصاحة أن تسيطر على قلب ليلاك ؟

— قلبُ ليلى طوعُ يمينى أسيطر عليه كيف أشاء .

— وما وجه شكواك ؟

— ما وجهُ شكواى ؟ وجهُ شكواى أننا لا نجتمع ولا نفترق إلا متخاصمين ، واللئيمة تتوهم أن الشقاء فى الحب باب النبوغ والعبقرية ، فهى تريد أن تدفعنى دفعًا إلى الخلود ،

والفناء بين ذراعيها أحبُّ إلىّ من الخلود .

ــ هل وقع بينك وبينها مرةً ما يذكّر بأحوال العشاق الآثمين ؟

ــ نعم ، نعم .

ــ فصِّل ذلك بعض التفصيل .

ــ دخلتُ عليها ذات ليلة فوجدتها ...

ــ امض فى حديثك .

ــ وجدتها ...

ــ هِيهْ .

ــ وجدتها ...

ــ حدثنى ماذا وجدت ؟

ــ وجدتها فى انتظارى .

ــ ثم ماذا ؟

ــ أتظن أيها الراهب أنى أحدثك بما لو سألنى الله عنه لكتمتُ وأنكرت ؟

ــ دخلتما معًا فردوس الوجود ؟

ــ دخلنا معًا فردوس الخلود .

ــ خبَّلتنى ، خبَّلتنى .

ــ أغرقْ نفسك إن شئت فى يَمِّ الخبال .

ــ أنت مزعج ، يا دكتور مبارك .

ــ إن ليلاى ، أيها الراهب ، فوق الأوهام والظنون

ــ أليست امرأة كسائر النساء ؟

ــ هى امرأة ، ولكنها ليست كسائر النساء ، فقد وقعتْ بيننا فنونٌ من الوصل حار فى فهمها الملائكة فما يدرون أيضعونها فى سِجلّ الحسنات أم فى سجل السيئات وأنا بحيرة أولئك الملائكة فرِحٌ جذلان .

ــ امرأة خيالية ؟

ــ امرأة حقيقية ، امرأة من لحم ودم وأعصاب ، تأكل القلوب ، وتذرع بغداد وضواحى بغداد من الأعظمية إلى الكرادة الشرقية ، ولكن البلاء كل البلاء ، والخطر كل الخطر ، أن تسقينى تلك الكأس .

ــ أى كأس ؟

ــ كأس الحب ، هل تصدّق أيها الراهب الجليل أنى لم أعرف بلايا الحب إلا فى العراق ؟

هل تصدِّق أنى عشتُ دهرى ألهو وألعب بألباب الملاح إلى أن وقعتُ فى هوَى تلك السمراء ؟

— ليلاك سمراء ؟

— أقول إنها سمراء .

— هى إذنْ بيضاء .

— ولكن عيونها سود .

— عرفتُ أن ليلاك بيضاء .

— هى سمراء .

— كنت فهمتُ من كلامك أنها بيضاء .

— ولكن عيونها سود .

— أهى موصلية ؟

— أبوها بَصرىٌّ وأمها مَوْصِلِيَّة ، ولعلها من الجنّ ، والله أعلم بالصواب .

— يا دكتور مبارك .

— نعم ، أيها الراهب .

— يجب أن تخرج من العراق .

— ولماذا أخرج من العراق ؟

— لأنك من الشياطين .

— وهل كنتُ من الرهبان ؟!

— الرهبنة فى صدرك وإن لم تدخل الدير ، وهل صحّ لرجل قبل اليوم أن يُلبس المرأة ملابس سماوية ؟

— ليتك رأيت ليلاى ، أيها الراهب ، ليتك رأيتها لتعرف كيف يكون الرفق وكيف يكون الحنان .

— وما شكواك ؟ حدثنى ما شكواك ؟

— شكوایَ أنى غريقٌ فى كوثر الوصال .

— تلك شكاية المجانين .

— وأنا مجنون ، مجنون ، مجنون . اسمعْ أيها الراهب ، إنك لا تحب كما أحب ليلاى ، ولو أحببت ربك كما أحبّ ليلاى لمشيتَ فوق الماء . تعال معى إلى بغداد لأُريك ليلى فقد يفتح الله عليك .

— أتريد أن تفتننى ؟

— أنت أيها الراهب أضعف من أن تصلُح للفتون .

ـــ أتريد أن تقول إنك أقوى منى .

ـــ نعم ، أنا أقوى منك ومن جميع زملائك ، فقد عانيتُ من سِحر ليلى ما يهدُّ الجبال ، ومع ذلك ظللتُ رجلاً محترمًا يتولى تثقيف الشبان فى بغداد ، وسأفارق بلادكم وأنا برعاية الله مستور الهفوات .

ـــ أنت مغرور !

ـــ المغرور هو من يتوهم أنه نجا لأنه اعتصم بالعزلة فى هضبات نينوَى .

ـــ أنت جاهل .

ـــ وأنت أجهل منى .

ـــ أنت مصريٌّ مخدوع .

ـــ وأنت موصليٌّ أحمق ، تعال معى إلى ليلى وانظر كيف يطيش لبك ، وينهدم وقارك .

ـــ لا تنتظر أن يدوم ستر الله عليك .

ـــ إن الفضيحة فى حب ليلى هى نعمة من الله الوهاب .

ـــ أنت مُضَيِّع .

ـــ أنت وحدك المضيِّع .

ـــ رأسى شاب فى العبادة فأنا أفضل منك .

ـــ وقلبى ذاب فى العشق فأنا أفضل منك .

ـــ أنا نصرانيٌّ وأنت مسلمٌ .

ـــ وأنا مسلمٌ وأنت نصرانيٌّ .

ـــ أنا متبتِّل وأنت فاجر .

ـــ وأنا فاجر وأنت متبتل ، وستعرف مصيرى ومصيرك .

ـــ اخرج من الدير .

ـــ وإلى أين أخرج ودنياى كلُّها ديرٌ يا قِسيِّسُ !

***

وهنا تدَخَّل الدكتور لويس لبيب فقال :

ـــ أمن أجل هذا حضرنا يا دكتور مبارك ؟

ـــ معذرةً يا صديقى ، فالرهبان أصدقائى ، والمرء لا يطول لسانه إلا حين يظفر بصديق ، وهل يصل إليك الأذى إلا عن طريق الإخوان والأصدقاء ؟

ـــ كان الظن يا دكتور مبارك أن تضع القواعد لدستور جديد .

ـــ من الغدر أن أخرج على طبيعة الأرض التى منها خُلِقنا وإليها نعود .

— وهذه الأرض توجب السفاهة والحمق ؟

— وتوجب الطيش والجنون .

— أما استطاع حبُّ ليلى أن يرفعك ؟

— بلَى ، إنه رفعنى فوقكم درجات .

— وأين الدليل ؟

— الدليل هو أن أستغفر شيخ الرهبان ، وأن أشرب معه كأساً من الخمر التى عصرها بيديه الكريمتين .

* * *

ورجعتُ إلى نفسى لحظة فتوهمت ليلى تعانقنى بحضرة الرهبان فطربتُ وانتشيت وطلبتُ كأسًا مما عصر الرهبان بأيديهم فوجدتها حُلوة المذاق ، وما كان يهمنى أن أشرب كأسًا من يد راهب ، ولكنى تذكرت أن الدكتور منصور فهمى كان حدثنى بحضرة الدكتور طه حسين أنه شرب كأسًا من يد راهب فى أحد ديارات اليونان . ونحن أشقى من سَدنة الهياكل وأحوج منهم إلى وَأد الهموم فى مهاوى الكؤوس .

نحن أشقى الناس لأننا عرفنا بعض ما لا يعرفون ، وساءت أحوالنا منذ اليوم الذى تأكدنا فيه أن الرياء سيد الأخلاق . فمن يبيعنى مثقالاً واحدًا من الرياء ويأخذ من أموالى ما يشاء ؟ من يهبُنى ربُع مثقال من النفاق لأصلُح لأعظم منصب دينىّ فى مصر أو فى العراق ؟

أنا فى أزْمة عقلية لو سُلِّطت على جَبلٍ راسخ لحوّلته إلى رماد تذروه الرياح ، وأكاد أصعَق من الخوف كلما توهمت أنى قد أنهزم فى محاربة الرياء والنفاق .

ولا أكاد أعرف الطمأنينة إلا حين أتذكر أننى أعلنت آرائى بالتفصيل فى كتاب (التصوف الإسلامى) ثم استطعت أن أظفر بقبول تلك الآراء من لجنة علمية بالجامعة المصرية .

ولكن هل ينفعنى ذلك فى حياتى ؟

إن رجال الجامعة المصرية لا يرتبطون بالآراء التى يبديها طلبة الدرجات العالية ، وإنما يجيزونها لأنها محاولات عقلية تعدُّ خطوات فى تاريخ الدراسات الأدبية والفلسفية .

وهل أستطيع إن قامت ثورة ضد كتاب (التصوف الإسلامى) أن أقول إنى أخذت به إجازة عليه أمضاها طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل ؟

هل يستطيع هؤلاء الرجال أنفسهم أن يتقدموا لحمايتى ممن يجهلون قيمة المحاولات العقلية ؟

إن الجامعة المصرية تربِّى أبناءها بضع سنين ثم ترمى بهم فى بحر الظلمات الذى يسمَّى

المجتمع ، وتفرض عليهم أن يضطلعوا وحدهم بمقاومة الأمواج .

وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أكافح الأمواج فى بحر الظلمات فما رحمنى راحم ولا أغاثنى مغيث .

ويزيد فى النكبة أن رجال الجامعة المصرية يعرفون من سياسة الجمهور ما لا أعرف .

هم جميعًا فى نظر الجمهور أطهار أشراف ، وأنا وحدى الفاجر الملحد فيما يزعم الجاهلون .

رباه ، لم يبق أملٌ فى غير الالتجاء إلى حماك ، فنجِّنى من شر الناس لأستطيع تربية أطفالى .

* * *

جلست مع شيخ الرهبان أساجله الحديث ، وهو رجل فاضل يسمى يوسف داد يشوع ، وكلمة (دَاد) كلمة كلدانية معناها (حبيب) ويشوع هو يسوع يعنى عيسى عليه السلام .

وقد عجبتُ حين رأيت هذا « الدَّاد » يتلقى هجومى عليه بالاحتمال ، ويظهر أنه ظننى أمزح ، وما كنت من المارحين .

وأردت أن أستخبره عن ماضى نينوَى فقال إن سكانها كانوا يبلغون المليون ، فاستكثرتُ ذلك ، فقال إن فى التوراة نصًا يشهد بأنهم كانوا يقربون من المليون ، ثم قرأ فى التوراة بالكلدانية ما ترجمته :

« كان فى نينوى مئةٌ وعشرون ألفًا لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم » .

ثم قال إن هؤلاء هم الأطفال الرُّضَّع ، والمدينة التى يكون فيها مئة وعشرون ألفًا من الأطفال الرُّضع يقرب عدد سكانها من المليون .

فقلت : أخطأت فى التأويل ، أيها القسيس !

فقال : وكيف ؟

فقلت : إن نص التوراة التى بيدك يشهد بأن سكان نينوى كانوا مئة وعشرين ألفًا فقط .

فقال : هذا عدد الأطفال الرضع الذين لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم .

فقلت : إن التوراة لا تريد بعبارة « لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم » أنهم أطفال ، وإنما تريد أنهم من أهل الجهل والضلال .

وقد اقتنع الرهبان بصحة هذا التأويل .

* * *

وحين رجعتُ إلى الفندق عرفتُ أن مغنِّية مصرية اسمها بُثينة سألتْ عنى فقلت لرفيقى : وأين تغنى هذه المصرية ؟ فقال : أنا أعرف أين تغنى ولكنى لا أوافق على ذهابك إلى هناك ، لأن أهل الموصل لا يرون حضور الملاهى مما يليق برجال التربية والتعليم .

فقلت : ومن واجب أهل الموصل أن يعرفوا أن لى عدَّة شخصيات ، منها شخصية الباحث الذى يؤمن بوجوب النظر فى كل شىء ، وأنا أزعم أنى أديب ، والصلة وثيقة بين الأدب والغناء .

مضيت لأسمع صوت بُثينة فراعنى أن أراه من كرائم الأصوات ، وسرَّنى أن أعلم أن هذه الفتاة استطاعت أن تظفر بإعجاب المستمعين فى حلب والموصل وبغداد ، وحدثنى رفيقى أن لها سمعة حسنة وأن الجمهور يتحدَّث بأنها تحرص على أداء الفرائض والنوافل وأنها نموذج فى الأدب والأخلاق .

فمن الذى علَّم هذه الفتاة أن حُسن السمعة هو أثمن ما يتحلى به المغتربون من أهل الفنون !

أشهد أن هذه الفتاة خلبتْ لُبى وهى تغنى ، وأشهد أن الجمهور المصرى يجهل ذخائره الفنية فى أكثر الأحيان .

ولاحظتُ أن الغناء فى ذلك الملهى أفانين مختلفات : ففيه أغانٍ عربية ، وأغان كردية ، وأغان تركية ، وهذا التنوع يمثِّل ما فى الموصل من اختلاف الأجناس .

ولن يمرّ إلا قليل من الزمن حتى تصبح الأغانى كلها عربية ، فالأكراد أنفسهم عرب ، وجدّهم الأكبر كانت له قرابة من بعض ملوك العرب فى الجاهلية .

* * *

رجعتُ من الملهى غضبان ، فقد تذكرتُ أن أيامى فى الموصل قد تنتهى قبل أن أصل إلى قربيات ليلى ، وهل قدِمتُ الموصل لأشغل نفسى بدرس ما فى الموصل من الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية ؟

إن اهتمامى بهذه الشؤون لم يكن إلا وسيلة لصرف الأنظار عن تعقُّب غرامياتى ، وقد اقتنع أهل الموصل بأنى لا أعرف غير الجد الرصين ، وتفضل فقهاؤهم فزارونى فى الفُندُق ودعونى لزيارة المدارس الدينية ، وأطلعونى على ما عندهم من غرائب المخطوطات ، وصحبونى إلى زيارة المساجد والمعابد والمزارات ، وتفضل فريق من أعيان الموصل فأرونى نظام المحاكم وأرونى عين الكبريت ، وتلطف رئيس نادى الجزيرة السيد نجم الدين جيلميران وهو من تلاميذى القدماء فدعا أهل الموصل لسماع محاضرة ألقيها عن صلة الأدب بالحياة ، وأعلن أن الدكتور زكى مبارك هو أجمل هدية قدمتها مصر إلى العراق .

كلُّ هذا جميل .

ولكن أين أنا من الغرض الذى زُرْت من أجله هذه المدينة الحدباء ؟

كنت أستطيع أن أكون من جهابذة العلماء لو خلتْ حياتى من الغرام والفُتُون .

وأين الذى يملك مثل ما أملك من الألقاب العلمية ؟

وأين العالم الذى يستطيع أن يجارينى فى ميدان التأليف ؟

ولكن ما قيمة المجد فى حياةٍ تمرُّ بلا حبّ ؟

لو أن قلبى كان خَلا من الحب لخلقْتُه خلقًا لأستطيع فهم الحقائق فى العوالم الوجدانية والنفسانية ، فكيف أطرد الحب وهو رفيق لم يفارقنى من عهد الحداثة إلى اليوم ؟

كيف أطرد هذا المَلَك المحبوب وبه عرفت دقائق الوجود؟

كيف أرضَى بأن تخلو حياتى من الصبَّوات وفى بعض الآثار أن الله يعجبُ من شاب تخلو حياته من صبوات ؟

وهل يسرُّنى أن يعجب الله منى ؟

أنا أعرف فضل الحب علّى ، فبفضل الحب تفوقتُ فى اللغة الفرنسية التى كانت الحجر الأول فى بناء حياتى الأدبية ، وهل تفوقتُ فى لغة لامرتين إلا بفضل الصحبة الطويلة لظبيات باريس ؟

إن كلّ كلمة فى اللغة الفرنسية لها فى قلبى تاريخ ، لأنها موصولة بمئات وألوف من عِذاب الذكريات .

ربَّاه ! متى تعود أيامى !

ولكن ما الذى سأجنيه من حب ليلى المريضة فى العراق ؟

إن عندى من التجارب النفسانية والوجدانية ما يملأ عشرات المجلدات ، فما قيمة الغرام بهذه الحمقاء ؟

ليلى حمقاء ؟

معاذ الأدب والذوق .

أنا أعرف أن ليلى قليلة المحصول الأدبى والعقلى ، ولكن فِطرتها سليمةٌ جدًّا ، وبفضل تلك الفطرة السليمة صنعتْ بقلبى ما لم تصنع حسان باريس .

وما كان يعُوزنى العلم بعد أن قضيتُ عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وإنما كان يعوزنى أن أتصل بروح سماوية تجلو الصدأ عن قلبى وجنَانى ، وقد ردَّتنى ليلى إلى حياة الطهر والنُّبل ، فأنا اليوم من أصحاب المعانى وأرباب الأذواق ، أنا اليوم روحٌ لطيف صِيغَ جوهره من عَبَق الرحيق .

ومن الذى يصدِّق أن زكى مباركٌ المشاغب صار بفضل ليلى مثلا عاليًا فى اللطف والرفق ؟

من الذى يصدِّق أن زكى مبارك راضه الحبُّ بعد الجموح فصار من نماذج الذوق ؟

كانت ليلى قرأتْ فى بعض ما كتبتُ أنى ما رميتُ سهمًا فطاش .

فقالت ذات ليلة وهى غاضبة : هل تعرف أن سهمك طاش فى هذه المرة ؟

فابتسمتُ وقلت : أسَدِّد السهم مرة ثانية عساه يصيب .

وعندئذ شاع الأنس فى أسارير وجهها الحزين ، ومدّت يُمناها فقبلتُها بلهفة وشوق .

ليلَى نبيلةُ الطبع ، ولكنى أحمق .

ما الذى كان يوجب أن نختصم فنفترق ؟

كانت كلمة واحدة تكفى لتبديد ما فى صدرها من الوساوس ، ولكنى لسوء البخت أوغلتُ فى غيابات العناد .

واليوم ماذا أصنع ؟

إن ليلى غاضبة ، ما فى ذلك شكٌّ ولا ريب .

وقد طوّفتُ بأرجاء العراق للبحث عن الشفعاء ، وآخر بلد هو الموصل ، فأين أذهب ؟

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

إن خبتُ فى الموصل فلن أفلح بعد ذلك .

هذه خريطة العراق بين يدىّ ، وقد زرتُ من الحواضر والدساكر ما لم يزره الشريف الرضىّ الذى كان يهدّد خلفاء بنى العباس بأن له فى مصر أصدقاء ، وفى الخريطة قُطرٌ يسمَّى العمارة وهو مشهور بالشعْر والجَمال ، ومن المؤكد أن فيه ليليات يستطعن نقْع غليل الفؤاد بإصلاح ما بينى وبين ليلاى ، ولكن يصدنى عن زيارة العمارة شىء ، تصدُّنى الخطابات التى تلقيتُها من الصابئين هناك ، وهم يؤكدون أن فى مقدورهم أن يكتبوا لى تميمة تشفينى من حب ليلى فى مثل لمح البصر حين أشاء ، وقد علمتُ أنهم أقدر على السِّحر من صابئة بغداد ، وأنا أخشى أن أزور العمارة وأنا فى هذه الحال من اليأس فأستكتب التميمة وينتهى الحب .

أنا أعرف السبيل إلى الشفاء ، ولكنى لا أريد .

وكيف أرضى أن تخرج ليلى من حياتى ؟

كيف أحرم نفسى من نعيم الشقاء ؟

كيف أقضِى ليالىَّ محرومًا من الهُيام بليلَى بنت ليل ؟

إيش لون يصير ؟

أحبك يا ليلى ، وأحب فيك عذابى وشقائى وبلائى .

أحبك ، وأدعوك إلى الاحتراس منى .

أنتِ استطعتِ أن تقهرينى على الطواف بأرجاء العراق لأبحث عن الشفعاء ، فاعلمى أنى سأقهرك على الطواف بجميع بقاع الأرض للبحث عن الشفعاء .

سنفترق يا ليلى بعد أسابيع ، وسوف تعلمين .

سأترك قلبك فى فضاءٍ مُوحِش تعجز عن إيناسه ملايين الأرواح .
أتحدَّاك يا ليلى ، أتحداك أن تفلتى من يدى وأن تسلمى من هواى .
يخدعك الوهم يا لئيمة حين تظنين أنك تملكين من زمامك ما لا أملك .
وسوف تعلمين عواقب هذا الخداع .

* * *

أضاليـلُ يُـزجيها خيـالى وأنثنـى إلى غابةٍ مطموسة الأنس جرداءِ

أفى الحق أنى أملك من زمام ليلى ما لا تملك ؟
وهل استطاع كبار المهندسين المصريين أن يملكوا زمام دجلة أو الفرات ؟
ليلى لطيفةٌ جدًا ، ولكنها تنفر منى ، لأن عيونى خُضر وعيونها سود .
فمن هو اللئيمُ السفيهُ الذى حدَّثها بأن العيون الخضر تهيج الحيات والثعابين ؟
وهل كانت ليلى حية رقطاء حتى تخاف من عيونى ؟
أنا رجل لطيف وأعدائى فى مصر لا يزيدون عن عشرة آلاف ، فكيف تتخوف ليلى من عُدْوانِى ؟
سأترك الموصل وأنا محزون .
ومن سوء الطالع أن أزور الموصل بعد جفاف الأعشاب .
وأخشى أن لا يسمح الدهر بزيارة الموصل بعد اليوم .
ومن الذى يضمن أن ترضى ليلى عنى فأرجع لزيارة العراق فى الأعوام المقبلات ؟
ولكن يعزِّينى أن أعرف أن ليلى لن تنسانى ولن ترى وجه الصدق بعد فراق .

* * *

ما هذا ؟ ما هذا ؟
دعوةٌ من نرجس ، ودعوةٌ من تُماضر .
أتكون هذه الدعوات تباشير للوصول إلى الشفعاء ؟
لم يبق بينى وبين الصبح غير لحظات ، وسأنتظر ما تجود به نسمات الصباح .

٢٥

هجع السامرون فى الموصل وبقيتُ سهران أعدُّ النجوم وأحصى ذنوب الحب .

فماذا صنعتُ فى اليوم الذى ذهب إلى غير مَعاد ؟

هذا اليوم الخامس من أيامى فى الموصل ، وهى أطول مدة قضيتها فى البعد عن بغداد ، وأعتقد أنى أخطأت التقدير ، فلو كنت قضيت مثل هذه المدة فى البصرة أو فى الحِلة أو فى النجف لكان من المؤكد أن أنجح فى اجتذاب الشفعاء ، ولكن الحظ رمانى بمدينة فيها مَشابه من بيروت ودمنهور ودمياط وأسيوط .

الموصل مدينةٌ جميلةٌ ، ولكن الغريب لا يصل منها إلى شىء ، وهى البلد الوحيد فى العراق الذى يعيش فيه اليهود فقراء !

وجسرُ الموصل نفسه يوصى بالبخل ، فهو يكاد يحبس ماء دجلة : فلا يخلُص منه الماء إلا فى خرير يشبه الصوت المبحوح .

وشوارع الموصل تقفر من السابلة فى مَطلَع الليل ؛ كأن المدينة تهجع عمدًا لتستعدّ لاستئناف الكفاح فى الصباح .

فما عسى أن أصيب من كرم هذه المدينة ؟

إن الشح من شمائل الرجال فى الموصل ، فكيف يكون النساء ؟

كيف يكون النساء وأدب العرب يوجب الشح فى النساء ؟

لو كنت من رجال الاقتصاد لأثنيت على أهل الموصل فالاقتصاد هو الخُلُق الوحيد الذى ينقص العرب ، ولو كان المسلمون اختصموا فى سبيل المذاهب الاقتصادية كما اختصموا فى سبيل المذاهب الدينية لانغرست فيهم عواطف الحرص على الثروة فعاشوا سعداء وأقوياء .

لو كنتُ رجلاً عاقلاً لأثنيت على أهل الموصل ، ولكن الحب أضافنى إلى المجانين .

لقد عرفتُ بعد فوات الوقت أنى لم أعدّ العُدّة للحب فأنا أتوسل إلى قلوب الملاح بوسائل لا تُغنى ولا تنفع ، أتوسل بالعواطف والمدامع ، وهى شىءٌ رخيصٌ فى القرن العشرين ، ولو كنت أنفقتُ شبابى فى جمع المال و لم أضيّعه فى التعليم والتأليف لكانت إشارةٌ واحدة تكفى لتسخير من أشاء من الليليات .

ويزعجنى أن أعرف أنى لن أستطيع إصلاح ما أفسدتُ من حياتى .

وهل يصلح الرجل لتغيير مذاهبه فى العيش بعد الأربعين ؟

لم يبق إلا أن أكتفى بالسلاح المفلول فى ميدان الحب : سلاح الغزَل والاستبكاء .

ولكن ما الموجب لهذا التحسُّر ؟

إن أصدق الناس جميعًا هو الشاعر الذى قال :

إنى امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقْتَلِ

فأنا لن أخلَّد إلا فى عالم الفِكر ، إن كان فى الدنيا خُلود ، وقد صاننى الله تباركتْ أسماؤه عن الفِسق والفجور والدَّنس ، وليس لى من أهل الجمال إلا مأربٌ واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول ، لأخرج من ذلك بمحصول فلسفىّ قد ينفع بعض النفع فى إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية .

وخيبتى فى الحب تضر من جانب وتنفع من جوانب ، فلتصنع الأقدار ما تشاء .

أكتب هذا الكلام لأوهم نفسى أنى لم أضَيَّع فى الموصل ، والمهزوم هو الذى يتفلسف ليوهم نفسه ويوهم الناس أنه من المنتصرين !

على أنى واثق بأنى لم أُضَيَّع تمام التضييع ، أليست التجارب من جملة المغانم ؟

بلَى ، هى من جملة المغانم ، وربما كانت أعظم المغانم .

وما قيمة ذلك وقد عجزتُ عن اجتذاب الشفعاء ؟

إن ليلى ستفرُّ من يدى ، إن لم تكن فرتْ بالفعل ، ولعلها تقضى هذه الليالى فى السمر الممتع مع جاراتها الرفيقات ، ولن يطيب لها السمر إلا على حسابى ، وأنا مع ذلك :

أحبُّ التى صدَّتْ وقالت لِتربها دعيه الثريا منه أقرب من وصلى

أحب المرأة التى تشمت فى حيرتى وعذابى ، وتحدَّث من تعرف ومن لا تعرف بأنها حكمت على شاعر سنتريس بأن يهيم على وجهه فى مجاهل العراق .

إن كان عذابى يسرّك يا ليلى فأنا ذاهب بفضل الحب إلى الجحيم .

ولكن يؤذينى خاطرٌ واحد ، فأنا أخشى أن ينتهى التجنى إلى القطيعة ، وهل كان الحب إلا شجرةً مدلَّلة لا تحتمل العواصف ولا الأعاصير ؟

لقد صبر زميلى قيس بن الملوح على ليلاه ، لأنه كان يعيش فى البادية ، والبادية تقلُّ فيها المفاتن والمغريات ، والشِّرك بالحب فى البادية يمقته المجتمع البدوى ويعاقب عليه .

أما أنا فَحَضرىٌّ له أحوالٌ وأحوال ، والغدر من أهل الحضر خُلُق مقبول ، والأحمق فى شريعة اليوم هو من يقف قلبه على هوًى واحد .

فاحرسينى يا ليلى قبل أن أضيع من يديك ، احرسينى يا محبوبتى الغالية ، احرسينى ولا تكونى حمقاء فإن السيطرة على قلب مثل قلبى غرضٌ عزيزُ المنال .

احرسينى يا ليلى وأدِّبينى بأدبك العالى .

احرسينى لتخلقى منى شاعرًا يتحدَّث عن عواطف وأهواء لا يعرفها أهل مصر ولا أهل العراق .

احرسينى لأحقق فكرة الجنون فى الحب ، فالجنون فى الحب هو المصدر الأصيل لعقيدة التوحيد .

احرسينى لأنظم فى العام قصيدة أو قصيدتين .

احرسينى فأنا شاعرٌ هجر الشعر لأن قلبه لم يَعد يصدِّق أن فى الدنيا معانى تستحق سهر الليل فى صَوْغ القصيد . أنا يا ليلى ، مِسكين ، مِسكين ، مِسكين .

وأىُّ مسكنة أبشع وأفظع من خراب القلب ؟

لقد حملتُ قلبى من أرض إلى أرض عسانى أجد المواسين ، وضاعت آمالى فى القاهرة والإسكندرية وليون وباريس ، لأن تلك المدائن يباع فيها الحب كما تباع الملابس ، وكان الظن وقد وصلتُ إلى العراق أن أجد حبًّا لا يشترى ولا يباع .

وحبك يا ليلى لا يشترى ولا يباع ، وهو ما أتمناه وأتشهاه .

ولكن أين أنا مما أريد ؟

كنتُ أنشد :

إذا كان هذا الدمع يجرى صبابةً ... على غير ليلى فهو دمعٌ مضَيَّـعُ

ودمعى لا يجرى على غير ليلى فهو غير مضَيَّعُ .

ولكنى أشعر بأنى فى هوى ليلى مضيَّع .

ما الذى كان يوجب أن أشهد ما شهدت اليوم فى الموصل ؟

وما قيمة الحبيب الذى يحتاج إلى شفيع ؟

ما قيمة الحبيب الذى لا يكون أحنَّ عليك من قلبك ؟

ما قيمة الحبيب الذى لا يكون أساك أوجع عليه من أساه ؟

ما قيمة الحبيب الذى يعذبك ليعلن عن جماله الفانى ؟

إن المحب فى جميع أحواله أنفَس من المحبوب ، لأن المحب يقدِّم عواطف صيغت من الرفق والحنان ، أما المحبوب فلا يقدم غير أزهار سريعة الذبول .

وما كان يهمنى أن أظفر من ليلى بالمتاع التافه الذى يظفر به من يقضى ليله فى مخاصرة الملاح .

وإنما كان يهمنى أن يكون لها قلبٌ .

وهل شقيتُ إلا فى البحث عن محبوب له قلب ؟

إن التقينا يا ليلى — والأحياء قد يتلاقَوْن — فسأحدثك بالتفصيل عما عانيت فى هذا اليوم .

وإليك يا معبودتى جُملة الحديث .

خرجتُ فى الصباح لزيارة نرجس وتُماضر ، فماذا رأيت ؟

قادنى رفيقى إلى بيت نرجس .

فكيف رأيت نرجس ؟

دخلتْ علىَّ طفلةٌ وهى تقول :

— إيش لون ليلى ؟

— بخير وعافية ، يا طفلتى الغالية ، وما اسمك يا حُلوة ؟

— اسمى نرجس .

آلمتنى هذه الألعوبة الموصلية ، وهل تستطيع طفلة فى سن السابعة أن تصلح ما بينى وبين امرأة فى سن الأربعين ؟

إن الرجل قد يتفق مع امرأة فى غير سنه ، وربما كان الأوفق أن يكون الرجل والمرأة فى سنين مختلفتين ، وهل يتفق الرجل مع المرأة إلا فى حال الاختلاف فى الجسم والعقل ؟

ذلك درس تعلمته فى باريس يوم كنتُ أدرس أحوال العشاق ، فقد كنت أرى الصفاء لا يتمّ إلا بين امرأة قصيرة ورجل طويل ، أو بالعكس ، وكنت أرى العاشقَين من جنسين مختلفين يأتلفان أكثر مما يأتلف العاشقان من جنس واحد ، وكذلك أحب ليلى المريضة فى العراق أكثر مما أحب ليلى المريضة فى الزمالك أو ليلى الصحيحة فى حُلوان ، وإن لم يكن الاختلاف إلا فى بُعد الدارَين .

الرجل والمرأة يتفقان مع اختلاف الأسنان .

ولكن المرأة لا تتفق مع المرأة إلا إذا اقتربت الأسنان .

فكيف تصلُح طفلةٌ فى سن السابعة لإصلاح امرأة فى سن الأربعين ؟

ولكن لا بأس بما وقع ، فنرجس تشبه كريمة ، تشبهها فى السذاجة ، وحلاوة الطبع ، وتشبهها فى الحنان .

كانت ابنتى كريمة — بارك الله فى حياتها الغالية — تلقانى حين أدخل البيت بأرق مظاهر العطف والرفق ، وكذلك فعلتْ نرجس فهجمت علىَّ بالعناق والتقبيل ، وسألتنى أن أنقلها إلى أبيها فى بغداد .

سأنقلك يا حُلوة إلى بغداد .

وقُدِّمت المائدة فلم أنل منها غير قليل ، لأنى استيأست من و جود الشفعاء .

والطعام لا يسوغ فى حَلْق الموجَع الحزين .

— ما هذه الألعوبة يا رفيقى ؟

ـــ ليست ألعوبة ، وإنما أردت أن أريك عُذُوبة الأطفال فى الموصل ، وسينشرح صدرك حين ترى تُماضر ، وبفضل براعتها فى الحديث ستصل إلى قلب ليلاك .

* * *

لأهل تماضر مكان فى ظاهر المدينة يستقبلون فيه الضيفان على الطريقة البدوية ، وإليه قصدنا بعد الغُروب .

دخلنا فى مكان تحيط به مرابط الخيل ، مكان جذّاب يواجه السماء فى ليالى الصيف .

وجاءت تماضر وهى تقول :

كيف حال ليلاك ، يا مولاى ؟

فالتفتُّ فإذا صبيَّةٌ عَذْبَةٌ فى الثانية عشرة ، مشرِقة الوجه مصقولةُ الجبين .

وجلستْ تماضر تطارحنى الأشعار والأحاديث .

ومُدَّ السماط فأكلنا جميعًا بشهيَّة .

وعند انصرام الهزيع الأول من الليل التفتُّ إلى أبيها وقلتُ : هل فى بيتك أن تصحبنا إلى بغداد ؟ أم ترى أن تترك تماضر فى رعايتى ؟

فابتسم وقال : إن تماضر أصغر من أن تسوس امرأةً تقيم فى بغداد !!

* * *

أنا أعرف مصيرى فى الحب .

ولكن المهم أن أرجع سليما إلى بغداد .

وأهمُّ من ذلك أن أرجع سليماً إلى القاهرة ، فقد يخيَّل إلىّ أنى سأموت فى العراق .

وهل أنسى كيف قطعت الطريق من بغداد إلى كركوك ؟

قضيت مدة طويلة فى القطار وأنا أهتف بهذا البيت .

إذا شاب الغـــرابُ رأيت أهلى وصار القـارُ كاللبـن الحلــيبِ

وإنما كان ذلك لأنى ظلمت نفسى فى العراق ، فقد قضيت الشهور الطوال وأنا مُرْهف الأعصاب والحواسّ ، وما مرّ نهارٌ ولا ليل بدون محاولات ومصاولات ، ولا انقضى أسبوع بدونْ متاعب أسجلها فى الجرائد والمجلات ، وما كان يجب علىَّ شىءٌ من ذلك ، ولكنى توهمتُ أنى مسئول عن إيقاظ الحياة الأدبية فى العراق .

وهل أنسى المسافة بين كركوك والموصل ؟

إن الطريق مقيَّر بين هاتين المدينتين ، ولكنه مزعجٌ بسبب ما فيه من الوِهاد والنِّجاد ، والسياراتُ التىْ تنقل الركاب فى ذلك الطريق محطَّمةٌ بالية ، فهى تعلو وتسقط ثم تعلو وتسقط ، حتى لتكاد تمزِّق الأحشاء .

والله يعلم كيف أرجع بعافية إلى بغداد !

أيتها الموصل !

صدق من سمّاك حدباء !

سأفارق الموصل فى الصباح ، ولكنى لن أفارقها إلا بالدمع .

سأفارق فيها روحًا شفّافًا يعرف كيف يكون أنس الروح بالروح .

سأفارق فيها روحًا لو أطعتهُ لدخلتُ قبل الميعاد إلىٰ فردوس الصفاء .

فهل يعرف ذلك الروح أنى سأشتاق إليه ؟

هل يعرف ذلك الروح أنى ظلمت نفسى بالكتمان ليجهل أنى أهواه ؟

وأين ذلك الروح ؟

ستُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات قبل أن تعرف الملائكة مقرَّ ذلك الروح .

فإن لم يكن بدٌّ من التعريف بملامحه السامية فأنا أصرّح بأنه روحانيةٌ عُلْويّة تفيض على أزهار الموصل بالعِطر والأريج .

أيها الروح النبيل .

أغلب الظن أنى سأرحل عن الموصل قبل أن أراك .

فإن فاتنى أن أسأل عنك فلا تعتِبْ ولا تَغضَبْ ، فما لى قدرةٌ على مواجهتك يوم الرحيل .

أيها الروح النبيل .

تذكَّر أنى كُلِّفت تبليغ التحية إلى سجن الموصل ، لأنه كان آوَى روحًا أنِستُ به فى بغداد ، ثم فاتنى أن أزور ذلك السجن المحبوب ، فأرجوك بالله أن تزور ذلك السجن غير مسئول يوم تفكر فى المحب الذى زار الموصل ليرى الأزهار فى خديك قبل أن يراها فى الرياض .

أيها الروح النبيل .

تذكَّر أن فى عنقك أمانةً غالية هى أن تحب مصر كما أحبُّ العراق .

وسلام الله والحب على مصر والعراق .

ربَّاه !

لِمَ وهبتنى هذا القلب الحنّان ؟!

٢٦

اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .
اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .
اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .

رجعتُ من الموصل حيران ، و لم يخفَّف كربى برؤية الصديق الذى انتظرنى على محطة الباب الشرقى والذى ألحّ وألحّ فى أن أمرَّ على الأسرة البابلية بحجة أنها تنتظر أن أتناول عندها العشاء ، وكان يهمنى أن أمرَّ على ذلك البيت لأرى الغادة السمراء التى عَنَاها من يقول :

يـا امّ العبايـهْ زينَـه عَبَـاتِكْ   يا سَمْـرا هوايَـهْ زِينَـه صِفـاتِكْ

الغادة الُحلوة العَذبة الملثوغة الراء التى تغار من ليلى ومن ظمياء

وكيف أمرّ على ذلك البيت والغُبارُ فوق ثيابى والسوادُ فوق فؤادى !

ما أشد شوقى إلى ذلك البيت !

كنت أزوره على غفلة فأرى الأطفال قد ناموا قبل غياب الشَّفَق .

وكنت حين أزوره على موعد أرى الأطفال ينتظرون قُدومى إلى نِصف الليل .

فهل يعرف عبد السلام أن له أخًا فى بغداد ؟

هل يعرف عبد السلام أن فى بغداد طفلا يقع على صدرى ويقبِّلنى بحرارة وشوق ، كما كان يقع على صدرى ويقبِّلنى بحرارة وشوق ؟

متى أُراك يا عبد السلام ؟ متى أراك ؟

ولماذا ينتظر الأطفال قدومى إلى نصف الليل وكانوا ينامون قبل غياب الشَّفَق ؟

تلك عاطفة تلقَّوها عن السيدة النبيلة التى كانت تقدِّم إلىّ العَشاء مهما تأخرت ، فإذا حلفتُ لها أنى تعشيَّتُ لم يقنعها ذلك وهتفتْ تقول :

« ما أقدِر ، أغاتى »

كنت أصل إلى تلك الدار بعد اجتياز دُرُوب وعطفات يأنس بجفوتها قلبى ، فأنا أعرف أن سكان تلك المحلات الجافية قاوموا الحوادث والخطوب ، واستطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم وجودًا ملحوظًا بالرغم من تصاريف الزمان .

وأنا أحب تلك الدار الجافية ، ففى أمثالها من دور بغداد والبصرة والنجف والموصل خُلِقتْ

عواطف وأحاسيس وأهواء ، وفى أمثالها من دور الحِلة وكربلاء نبغ شعراء وصفوا الحب والليل .

كل شيء فى العراق رقيق إلا قلب ليلى .

غَضبةُ الله عليك يا ليلى وعلى الحب !

* * *

ركبتُ عربة ومضيتُ إلى منزلى بالرغم من اللطف الذى كان ينتظرنى فى تلك الدار ، وما كدت آوى إلى سريرى حتى غلبنى النوم ؛ وليته كان نوم الموت فقد كدّرت ليلى حياتى !

* * *

استيقظتُ مع الشروق ، استيقظت مهمومًا تعبان .

وخطوتُ إلى الحمَّام عسانى أجدِّد نشاطى فرأيت خلفَ النافذة حمامتين تشتجران شِجارًا كلُّه رِفْقٌ وعطف : كانتا تقتتلان بالأجنحة والمناقير قتالاً طريفًا لم أشهد مثله من قبل .

ليت حظى مع ليلى كان شبيهًا بحظ هذين الأليفَيْنِ المتخاصمَيْن !

* * *

وقضيتُ ساعات الصباح فى تصحيح ما تأخر تصحيحه من فروض الطلبة بدار المعلمين العالية ، وفى الساعة العاشرة خرجتُ لأروِّح عن نفسى بشهود الغادين والرائحين فى جادَّة الرشيد ، فوقع بصرى على جماعة مطربشين جاءوا حديثًا من القاهرة ليقوموا ببعض الخدمات لشركة مصر للطيران ، وهم يبحثون عن مكان يحوِّلون فيه النقود المصرية إلى نقود عراقية ، فقُدتُهم إلى بنك إيسترن ، ثم تبين أن هذا البنك لا يشغل نفسه بأمثال هذه العملية ، فخرجت معهم لأبحث عن مكان آخر تصرف فيه النقود .

وعلى باب البنك وقعت الواقعة :

فقد رأيت فتاة فينانة الجسم تواجهنى بعينين دامعتين وهى تقول :

أما تعرف يا دكتور أن أبى مات فى مثل هذا اليوم ؟

ورجعت إلى نفسى فى مثل لمح البصر فعرفت أن أبى رحمه الله كان مات فى مثل ذلك اليوم .

وانطلقتُ معها إلى رحاب البنك بدون أن أشعر أنى تركت جماعة من المصريين الضالين فى بغداد !

* * *

وقفت الفتاة تبكى ، ووقفتُ أبكى .

هى تبكى على أبيها وأنا أبكى على أبى وعلى حظى الأسود فى هوًى ليلَى .

ونظرتُ فرأيتُ الحزن أنسى الفتاة واجبها فى مراعاة الأدب اللائق فسقطَ عن جسمها

الفينان بعضُ النَّصيف ، وجُنَّ جنونى لذلك المنظر الأخَّاذ فرقَّ إحساسى وطاب بكائى ، وراع الفتاةَ أن يسعدها دمعى فانتقلتْ من البكاء إلى الشهيق .

وماذا أملك فى مواساة تلك الفتاة ؟

كنت أقبِّل يدها مرة ، وذراعيها مرتين ، وجبينها مرات .

وكان العراقيون القُساةُ القلوب يرون هذا المشهد ، فلا يعترضون .

ومن ذا الذى يعترض على رجلٍ باكٍ يقبِّل فتاةً باكية ؟

واستمرت هذه المأساة الرائعة ساعتين .

وخرجنا من البنك وأهل بغداد يحسبونها ليلاى ولو كان لليلى قلبٌ مثل قلب تلك الفتاة لعرفتُ نعيم الوجود .

وفى الميدان الذى يواجه الشُّورجه وجادّة الرشيد وشارع السموءل ، فى الميدان الذى يسمى ميدان الساعة جذبتُ تلك الفتاة إلى صدرى وقلتُ :

— اسمعى ، إن المرأة أجمل ما تكون وهى حزينة .

وعرفتْ أنى سأقبِّلها علانيةً أمام الشرطى وأمام الجمهور فصرخَتْ :

— أتحسب أننا فى باريس ؟

وما هى إلا لمحةٌ حتى عرفتْ أننا فى بغداد التى سبقتْ باريس إلى الحرية الشخصية بأزمان !

قبَّلتُ الفتاة من خديها قُبلتين عميقتين وشربتُ ما على خديها من دموع .

وما أعذبَ مُلوحة الدمع فى خدود الملاح !

أنا فى بغداد ؟

أنا فى باريس ؟

لا أعرف بالضبط أين كنتُ حين شربتُ دموع تلك الباكية السمراء على عيون أهل بغداد .

* * *

كان فى نيتى أن أتغدى بعد ذلك ، ثم رأيت الجوع ذهب إلى غير رجعة ، فمضيتُ إلى منزلى أناجى خيال ما ظفرتُ به فى ذلك اليوم .

وما كدتُ أستقرّ فى المنزل لحظات حتى سمعت طرقًا على الباب ، وما كان من عادتى أن أفتح الباب للطارقين ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن لأهل بغداد عادةٍ جميلة هى السؤال عن ضيوفهم من وقت إلى وقت ، وهذهِ العادة على جمالها لا توافقنى لأنها تضيِّع أوقات فراغى وتشغلنى عن البحث والتأليف ، وليس فى حياتى شىءٌ مُثمِرٌ غير الغرام بالبحث والتأليف .

ولكن الأنامل التى تطرق الباب هذه المرة تذكِّر بأنامل ظمياء ، وقد اشتقتُ إلى ظمياء التى

طردتُها من بيتى بعنف ، وكنت فى ذلك من الظالمين .

* * *

خائن !

خائن !

خائن !

ذلك ما سمعتُه حين فتحت الباب .

والصوتُ فى هذه المرة صوت ليلى لا صوت ظمياء .

* * *

هذه ليلى فى منزلى ، فماذا أصنع ؟

ليتنى أعرف ماذا أصنع !

* * *

مضينا صامتَيْن إلى غرفة المكتب فجلستْ على أريكة وجلستُ على أريكة .

كنت لحظتئذٍ فى دَشْداشة ، دشداشة مصرية تسمى فى بلدنا جَلَبِيَّة ، وقد هممتُ بارتداء الردنجوت لأصلح لمحادثة ليلى ، ولكنها أشارت إلىّ أنها تحب أن ترانى كذلك ، فسمعتُ وأطعتُ .

— خائن ، خائن ، خائن !!!

— أنا ؟ أنا خائن ؟

— إذن ما هذا الذى يتحدث به أهل بغداد ؟

— وماذا يقول أهل بغداد ؟

— يقولون : إنك ناجيتَ فتاةً فى البنك ساعتين كاملتين ؟

— هى فتاة حزينة مات أبوها فى مثل هذا اليوم .

— وهل أنت مسئول عن مواساة كل فتاة تبكى أباها فى هذا اليوم أو غير هذا اليوم ؟

— أؤكد لمولاتى أنها فتاة طاهرة القلب .

— ولكنكَ لست طاهر القلب .

— عفا الله عنكِ يا ليلى ، أَلمثلى يوجَّه هذا الملام العنيف ؟

— أنا أعرف أسرارك ، فهذه فتاة كُردية ...

— ليست كُردية .

— هى كردية .

— وماذا تصنعين إذا كان هواى عند الكرديات المليحات ؟

ـــ لك هوًى فى العراق غيرِ هواى ؟
ـــ ومن قال إنى أهواكِ ؟
ـــ أنت لا تهوانى يا دكتور !
ـــ لا أهواكِ .
ـــ لا تهوانى ؟
ـــ لا أهواكِ .
ـــ لا تهوانى ؟ لا تهوانى ؟ لا تهوانى ؟
ـــ ومن أهوَى يا ليلى إذا كنت لا أهواكِ ؟ سَلِى عنِّى نُجوم الليل ، سَلِى القمر ، سَلِى السَّحَرَ ، سَلِى منارات بغداد ، سَلى نخلات البصرة ، سَلى سمكات الفرات ، سَلى الأرض الصَّماء التى يدوسها العشاق بالكرادة والأعظمية والكاظمية ، سَلى العيون الشُّهْل والعيون السُّود بأرجاء العراق ، سَلى الصابئين فى بغداد وفى العِمارة ، سليهم فقد اقترحوا أن يكتبوا لى تميمة أنجو بها من هواك ، نعم كتب إلىّ الصابئون فى بغداد وفى العمارة مرة ومرتين ومرات ، واقترحوا أن يكتبوا لى بالمجان تميمةً شافيةً أنجو بها إلى الأبد من هواك العَصُوف ، فأبيتُ كل الإباء ، وكيف أرضَى النجاة من هواكِ يا ليلى ؟ كيف ؟ كيف ؟
ـــ تحبنى ؟
ـــ أبغضك أشد البغض ، أتذكرين ما وقع منك منذ أيام ؟
ـــ وما الذى كان وقع ؟
ـــ دخلتُ عليكِ على حين غفلة وأنتِ فى شِعار رقيق يُفصح عن تقاسيم جسمك الجميل ، فنفرتِ كالظبية المذعورة ولبستِ العباءة ، يا لئيمة ، فلما رجوتكِ أن تظلى بلبسة المتفضّل قلتِ بعبارة صارمة « إيش لون يصير ؟ » فما كان ضَرَّك يا لئيمة لو بقيتِ أمام عينىّ لحظةً أو لحظتين فى ذلك الشعار الرقيق ؟
ـــ أما آن أن تعقل يا فاجر ؟
ـــ أنتِ الفاجرة !
ـــ أهذه أخلاق الأطباء فى مصر ؟
ـــ انتهى عهد الطب ، وجاء عهد الجنون .
ـــ وماذا تريد ؟
ـــ أريد أن أعرف ماذا نجاء بك فى هذه الساعة ؟
ـــ جئتُ أسأل عن صباباتك فى بغداد .
ـــ ليس لى صباباتٌ فى بغداد .

— والتقبيلُ علانيةً فى البنك وفى ميدان الساعة ؟

— هو علامة عطف على فتاة مات أبوها فى مثل هذا اليوم .

— وهل تعرف يا فاجر أن ليلاك مات أبوها وماتت أمها فى مثل هذا اليوم ؟

— ....

— ....

* * *

أخذتْ ليلى تبكى بكاءً أحرَّ من بكاء الأطفال ، وكانت تنتظر — ولا ريب — أن أشرب دموعها كما شربتُ دموع الباكية السمراء .

ولكنى تخوفتُ العواقب ، وأنا أعْقِل فى بعض الأحيان .

— من أى صخرة قُدَّ قلبك يا دكتور ؟

— إن قلبى قُدَّ من الجلاميد التى صِيغَ منها قلبك الرقيق !

— وما الذى أنكرتَ علىّ حتى تتهمنى بالقساوة ؟

— يسوءُنى أن لا أظفر منك بما يظفر به الكلاب من ساداتهم ، فالكلب يعبر عن عواطفه باللَّحس والعضّ .

— تريد أن تلحسنى وتعضنى ؟

— أريد أن ألتهمك مرةً واحدة ليصير كيانُك كلُّه نقطة من دمى .

— ثم ماذا ؟

— ثم أصير أشعر الشعراء .

— كُنْ إن شئت أشعر الشعراء .

* * *

كنتُ أستطيع أن أفترس ليلى فى ذلك اليوم .

كنتُ أستطيع .

كنت أستطيع .

ولكنى خشيتُ أن ترانى ليلى حيوانًا كسائر أنواع الحيوان .

خشيتُ أن يكون ما بينى وبين ليلى مُتْعَةً حِسِّية تُشبه ما كان بين آدم وحوَّاء .

خشيتُ أن نعود إلى سيرة الحيوان الجهول الذى تمثل فى فتنة قابيل وهابيل .

خشيتُ أن ألوِّث تاريخى فى العراق بلحظةٍ أثيمة تلاحقنى آثارها السود حيث توجهت .

خشيتُ أن أوذِى سُمعة مصر فى العراق .
وكانت ليلى خليقةً بأن تغفر ذنوبى ، وتستر عيوبى ، لو جهلتُ .
ولكن عزّ علىّ أن أعرِّضها لهذا الاختبار الأليم

* * *

— دكتور .
— مولاتى !
— ماذا تريد منى .
— وماذا تريدين منى ؟
— أريد أن تصير سيِّد الشعراء .
— صرتُ بهذا العطف سيد الشعراء .
— بقى أن تصير سيِّد ليلى .
— أنا عبد ليلى .
— والعبد يطيع مولاه .
— الأدب أفضل من الامتثال
— الامتثال أفضل من الأدب .
— الأدب أفضل من الامتثال .
— الامتثال هو فى جوهره أدبٌ رائع ، ولكنك أحمق وجهول .
— أنتِ الجاهلة وأنتِ الحمقاء .
وفى أقل من لمح البصر خرجتْ ليلى وتركتنى لهمومى وأحزانى .

لقد كنتُ فى مصر شقيًّا فما الذى ... ستَجْنِين يا بغدادُ من وَصل إشقائى

٢٧

وقفتُ بالرُّستمية منذ أيام ألقى قصيدة :

« من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد »

وقد طرب لها أعضاء « نادى القلم » وصرح معالى الرئيس بأنها من غرائب الشعر الحديث . وفى تلك القصيدة هذا البيت :

أبغدادُ هذا آخر العهد فاذكُرى مدامعَ مفطورٍ على الحب بكّـاءِ

وقد التفت الدكتور فؤاد عقراوى وكيل دار المعلمين العالية لمغزَى هذا البيت فأسرّ فى أذنى بعد أن فرغتُ من إنشاد القصيدة : لماذا تقول هذا آخر العهد ؟

فقلت : هذا من تجنّى المحبين ، والمحبون يهددون بالقطيعة فى كل وقت ليستثيروا عطف الأحباب .

والواقع أنى لم أرد غير التخلص من ذلك العَتْب الرقيق الذى يصدر من زميل كريم كانت أيامى فى صحبته من أيام السُّعود .

الواقع المؤلم أنى سأفارق بغداد ، سأفارقها باكيًا كما قلتُ لزملائى بكلية الحقوق منذ أيام .

ولهذا الفراق أسباب يجب تدوينها فى هذه المذكرات :

لم يكن فى نيتى أن حضر لخدمة العلم بالعراق فى هذه السنة بالذات ، فقد كان بينى وبين وزارة المعارف المصرية حسابٌ يجب تصفيته ، وهو حساب بسيط ولكن عقّده الإهمال ، كنتُ رجوت أن أظفر بترقية بعد الدكتوراه الثالثة التى نلتها من الجامعة المصرية ، الدكتوراه التى نلتها من كلية الآداب البخيلة الشحيحة الضنينة التى لم تمنح إجازة الدكتوراه فى مدى اثنى عشر عامًا لغير رجلين اثنين : هما عبد الوهاب عزام وزكى مبارك ، كنت رجوت أن أنتفع بهذه الدكتوراه التى ظفرتُ بها بعد كفاح دام أكثر من سبع سنين فى إعداد كتاب « التصوف الإسلامى » .

ولما كلمنى الأستاذ فهيم بك فى السفر إلى العراق ترددت ثم اعتذرت لأرتب شؤونى فى وزارة المعارف ، ولكنى بعد ذلك تلقيت خطابًا من المفوضية العراقية يقول فيه نائب القنصل :

المفوضية الملكية العراقية
بمصر

الرقم : ١٦٠٠٦/٧/٧

التاريخ : ٧ اكتوبر ١٩٣٧

حضرة الاستاذ الدكتور زكـــي مبـــارك المحترم

تحية واحتراما

يســرني جـدا لو تفضــلتم بزيارة المفوضيــة باقرب فرصــة لديكم للبحث في مسألة انتدابكم للتدريس في العراق بناء على شدة رغبــة وزارة المعارف العراقيــة في ذلك

وتفضــلوا بقبول فائق تحياتي ووافر احترامي !

نائب القنصــل
بالمفوضية الملكية العراقيــة

فكان من الأدب والذوق أن أجيب هذه الدعوة الكريمة الصادرة من أمة عربية لها فى خدمة العلم والحضارة ماضٍ مجيد .

وكان مفهومًا عندى أن وزارة المعارف المصرية ستُنجِز ما وعدتْ من إنصافى وأنا بعيدٌ لتشجعنى على الاطمئنان إلى عملى بالعراق .

ثم عرفتُ مع الأسف أن ما رجوته من وزارة المعارف لم يتحقق وأن قرارًا صدر فى اليوم الحادى عشر من نيسان يرجىء تقدير الدكتوراه الجديدة إلى أن أطبع الرسالة التى قدمتها للامتحان ، وهذا القرار استند إلى كلمة فى ذيل الخطاب الذى تلقيته من عميد كلية الأداب : الخطاب الذى سجل فيه أن مجلس الجامعة المصرية منحنى إجازة الدكتوراه برتبة الشرف .

والدكتور طه حسين يلاحقنى بكرمه وبره حيثما توجهت ، حفظه الله ورعاه !

وما هى الكلمة التى ذيَّل بها سعادة العميد خطابه الكريم ؟

هى كلمة تنص على أن الجامعة لا تسلمنى الإجازة إلا بعد أن أقدّم إليها خمسين نسخة

مطبوعة من رسالة الامتحان .

فهل معنى ذلك أن الامتحان معلّق على تقديم تلك النسخ وإن أعلنت نتيجة الفوز فى الجريدة الرسمية ؟

أعترف بأن الجامعة على حق فى وضع هذا القيد لأنها تريد أن تسوق أبناءها إلى ميادين النشر والتأليف ، وهى فى ذلك مسبوقةٌ بالجامعات الأوربية التى توجب طبع رسائل الدكتوراه قبل الامتحان .

ولكن الحال هنا غير الحال هناك .

والجامعة المصرية راعت ذلك فأباحت أن يؤدَّى الامتحان قبل طبع الرسائل ، وهى بالتأكيد يسرُّها أن يلقَى أبناؤها خير الجزاء على جهودهم فى تأليف الرسائل التى لا تصلُح لامتحان الدكتوراه إلا إذا ثبت أنها تؤدى للعلم فائدة محققة ، وقد استطعت بحمد الله أن أظفر بهذه الشهادة من الجامعة المصرية .

لو كنت أعلم الغيب لصنعتُ غير الذى صنعت ، فأنا الذى قدمتُ بيدى خطاب العميد إلى وزارة المعارف وفيه ذلك النص ، وكان فى مقدورى أن آخذ من الكلية شهادة بالدكتوراه الجديدة ، فقد صرح العميد بأن ذلك ممكن بعد حِوارٍ دار حول الموضوع نفسه فى منزل سعادة الأستاذ محمود بسيونى يوم جمع بيننا بمحضر عمداء الكليات وأساتذة الامتحان ليزيل ما كان وقع بينى وبين الدكتور طه من جفاءٍ دامَ بِضْعَ سنين .

لو كنت أعلم الغيب لأخذت تلك الشهادة من الكلية وأرحتُ نفسى من الخطاب المقيَّد الذى بَنَت الوزارةُ على أساسِهِ قرارَها اللطيف فى نيسان شهر الزيادة والنقصان !

وهل كان يخطر ببالى أن ألقى هذا «اللطف» من وزارة المعارف التى أوفدتنى إلى العراق ؟

إننى آخذ مرتبى من الحكومة العراقية ، وترقيتى لا تعود على الحكومة المصرية إلا بغُرْمٍ ضئيل هو فرق المكافأة التى تمنحها لمن توفدهم لمهمات علمية .

وحالى فى مصر حالٌ عجيب فقد عشت دهرى مظلومًا وكان الظنّ أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعتُ تلك الدكتوراه من أنياب الأسود .

وكان الظن أيضًا أن يكون نجاحى فى العراق تزكيةً جديدة تنفعنى عند وزارة المعارف المصرية .

فما هذه المضجرات التى تواجهنى فى كل يوم ؟

إن الرسالة التى نلت بها الدكتوراه الجديدة كلفتنى أموالاً كثيرة حين أعددت منها خمس نسخ خطية ، فكيف أطبعها وأنا فقير الجيب ؟ ومن هو الناشر الذى يُقدم على طبع كتاب « التصوف الاسلامى » وفيه مئات ومئات من الصفحات ؟

وهل أستطيع أن أطلب معونة الجامعة المصرية على طبع هذه الرسالة وهى التى خذلتنى فى سنة ١٩٣٠ حين رجوتها أن تقرضنى مئة دينار قرضًا حسنًا لأطبع الرسالة التى أقدمها إلى جامعة باريس ؟

لقد استنجدتُ يومئذ بمدير الجامعة وعميد كلية الآداب فلم يستجب مجيب ، مع أن الجامعة المصرية كانت فى ذلك العهد تعطى المئات بسخاء للمحاضرين الذين يمرون بمصر مرور الطيف !

طافت برأسى هذه الخواطر السود بعد أن أجبتُ دعوة المفوضية المصرية فى بغداد لتُطلعنى على ما قررته وزارة المعارف بالقاهرة ، ومنه عرفت أن مصيرى معلّق على طبع كتاب « التصوف الإسلامى » .

فما الذى أصنع ؟

إن مكانى فى بغداد محفوظ لو أردتُ ، فقد نجانى الله من المكاره التى يتعرض لها بعض الناس فى العراق ، وكفاحى فى خدمة الحياة الأدبية قابلَه العراقيون بالإعجاب ، وجوُّ العراق أذكى نشاطى وأوحى إلى قلمى ألوانًا كثيرة من الصور الشعرية ، وما أشعر بالضجر إلا فى حالين اثنين : بلائى بحب ليلى ، وشوق إلى أبنائى .

أما حب ليلى فَخطبُه سَهْل ، لأنى أستطيع التخلص منه حين أشاء بتميمة يكتبها أحد الصابئين .

وأبنائى يمكن استقدامهم إلى بغداد .

ولكنى مع ذلك أشعر بأن حياتى ستظل مكدَّرة ما دام كتاب التصوف الإسلامى محبوسًا بين جدران الجامعة المصرية .

متى يُطبع هذا الكتاب ؟ متى يطبع ؟ متى يطبع ؟

إن أصول هذا الكتاب نجَّت بيتى من الحريق بضع سنين : فقد كنت لا آوى إلى فراشى إلا بعد أن أتعقب أعقاب السجائر لئلا تمتد شرارة فتحرق أصول ذلك الكتاب الذى بدَّد قوتى وسحق شبابى .

وتزيد قيمة هذا الكتاب فى نظرى كلما تذكرت أنه محصول أعوام طوال انتفعت فيها بآراء الأساتذة الكبار فى الجامعة المصرية وجامعة باريس .

وهل أنسى أننى انتزعت به إجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا فى خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب ؟

هل أنسى أنه كان الشاهد على أن أحجار الجامعة المصرية قد تنطق ؟

* * *

إن دار المعلمين العالية تسألنى عن مناهج العام المقبل وتطلب رأيى فى تجديد العقد ، فما الذى أصنع ؟

ليتنى أبقى فى بغداد طول حياتى !

ليت ثم ليت ، وهل ينفع شيئًا ليت ؟

يجب أن يُطبَع كتاب التصوف الإسلامى لأنال الترقية المشودة فى وزارة المعارف المصرية .

يجب أن يطبع كتاب التصوف الإسلامى ليرى النور قبل أن أموت .

وفى سبيل كتاب التصوف الإسلامى أقدم الجواب الآتى إلى إدارة المعهد الذى أظلنى ورعانى :

حضرة الأستاذ وكيل دار المعلمين العالية .

« أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر أنك تلطفت فكتبت تسألنى عن استعدادى لمواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل ، وأجيب بأن نسيم الحياة العلمية والأدبية فى هذا المعهد العالى خليقٌ بأن يجذبنى إلى بلدكم الطيب الجميل .

ولكنى لا أكتمك أن عندى مشروعًا أدبيا سيحرمنى التشرف بصحبتكم فى العام المقبل ، وهو طبع كتاب (التصوف الإسلامى) الذى نلت به الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وطبع هذا الكتاب لا يتيسر فى بغداد لأسباب فنية ، وتأجيل طبعه يزعجنى ، لأنى أراه أعظم عمل قمت به فى حياتى ، وأحب أن يرى النور قبل أن أموت .

وإنما اقتصرت على هذا السبب فى تخلفى عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية لأنه سببٌ علمىٌّ تقدره أنت ويقدره العراق الذى يعرف قيمة الحرص على آثار العقول .

وأؤكد لك ، أيها الزميل الكريم ، أنى أشعر شعورًا صادقًا بأنى مقبلٌ على تضحية خطيرة فى سبيل ذلك الكتاب : هى الحرمان من الجوّ الأدبى الذى تنسمتُ هواءه فى صحبتكم وصحبة الزملاء الأماجد الذين أحاطونى بأشرف معانى الوداد ، ولو شئتُ لنصصت على مودة الدكتور فاضل الجمالى الذى احتمل معنا مشاقّ الكفاح فى رفع قواعد دار المعلمين العالية ، وكان اشتراكه فى التدريس من أشرف معانى الصدق فى الجهاد .

أما تلاميذى فليس بينى وبينهم ما يوجب العتاب ، فقد قدَّمتُ إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية ، وسيصيرون بإذن الله من أشرف خدام العراق ، وإن كان فيهم من يعتب أو يلوم لأنى أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين أن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقذاء العينين تحت ضوء المصباح .

ذلك اعتذارى أقدمه إليك ، أيها الزميل الكريم ، وليتك تعرف كيف أفارق بلدًا يكون فيه وزير المعارف شاعرًا مثل معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ، ويكون فيه مدير المعارف العام أديبًا مثل سعادة الأستاذ طه الراوى .

جعلنى الله وإياكم من خُدّام العلوم والآداب والفنون ، والسلام :

من المخلص

محمد زكى عبد السلام مبارك

* * *

تلقَّى الدكتور عقراوى هذا الخطاب بالدهشة والاستغراب ، وأخذ يناقش العذر الذى سجلته فى الخطاب وقد عجب من أن يكون طبع كتاب التصوف الإسلامى موجبًا لأن أترك عملى فى بغداد مع أن أكثر العراقيين يطبعون مؤلفاتهم فى القاهرة بدون أن يجشمهم ذلك ترك أعمالهم فى العراق .

وكانت حجتى ضعيفة فى مناقشة هذا الزميل العزيز الذى أصفانى أصدق الوداد .

وكانت هناك حجة مقبولة ، ولكننى طويتها عنه ، وهل يستطيع رجلٌ مثلى أن يغتاب وطنه فى بغداد ؟

هل أستطيع أن أحدثه بقصة الأوراق التى أمضيتها اليوم فى المفوضية المصرية ؟

هل أستطيع أن أخبره بأن وزارة المعارف فى مصر قدَّرت لى مرتبًا لا يكفى أن يكون مصروف جيب ؟ ولمن ؟ لرجلٍ متهَمٍ بالغنى لا يُصبح ولا يُمسى إلا وهو مطوَّق بأغلال من التكاليف !

آه ثم آه من حالى فى دنياى !

كرر الدكتور عقراوى رغبته فى أن أسحب هذا الخطاب ولكننى رفضت وأكدت الرفض .

* *

مضت ثلاثة أيام قضيتها فى أحزان لفراق بغداد .

ويظهر أن الدكتور عقراوى حدَّث بعض زملائه عن خطاب الاستقالة فطار الخبر إلى وزارة المعارف ، وما كنت أحب أن يصل الخبر إلى وزارة المعارف ، فهناك رجلٌ يؤذيه أن أفارق بغداد هو الوزير محمد رضا الشبيبى ، الرجل العظيم حقًّا وصدقًا ، الرجل الذى شرفنى بحضور أول محاضرة ألقيتها على الجمهور فى كلية الحقوق ، الرجل الذى اتسع صدره لكل ما نشرتُ

فى جرائد القاهرة وبغداد من النقد الصريح أو الملفوف لوزارة المعارف العراقية ، الرجل الذى انشرح صدره حين رآنى أتكلم فى المؤتمر الطبى باسم العراق .

* * *

فى صباح اليوم وهو الثامن من حُزَيْران مرّ علىّ أخٌ صادق فقال إن سعادة الأستاذ باقر الشبيبى يرجو أن تتفضل بشرب الشاى معه فى منزله بالزّوية فى الساعة الخامسة بعد ظهر الغد ، فقلت : هل عنده حفلة ؟

فقال : عنده كلام يخصك . فقلت : هل تعرف نوع هذا الكلام ؟

فقال : سيدعوك إلى سحب الاستقالة .

فقلت : لن أسحب الاستقالة . فقال : ولكن يجب أن تجيب الدعوة .

* * *

وصلتُ إلى الزوية فى الأصيل فجلسنا على شاطئ دجلة فوق الأعشاب فى مكانٍ أوحى ما أوحى إلى شعراء بغداد ، وطوّفنا بشجون من الأحاديث ، ثم استطرد الأستاذ باقر الشبيبى فقال : بلغنى أنكم حين استفُتيتم فى تجديد العقد للعمل فى العام المقبل اعتذرتم ، فقلت : هذا وقع ، فأظهر أسفه لذلك ودعانى إلى أن أقبل تجديد العقد فأكدت له أنى لا أملك العودة إلا إذا اطمأننت على مصير كتاب التصوف الإسلامى . وقد تأثر جين قلت له إنى أخشى أن أموت قبل أن يظهر هذا الكتاب .

فهل يظهر هذا الكتاب قبل أن أموت ؟

إننى أحب مؤلفاتى أكثر مما أحب أطفالى .

انتهت المحادثة فى جوّ لطيف ، ولن أنسى تأثُّر الأستاذ باقر وهو يقول : إن انقطاعك عن العمل فى بغداد خسارةٌ عظيمة للعراق .

* * *

سأل عنى سعادة الأستاذ طه الراوى مرات كثيرة فى هذه الأيام فلما لقينى قال : أنت تهرب منى ؟

واستصحبنى إلى منزله وسألنى عن الأسباب الحقيقية للاستقالة لأنه استبعد أن تكون مقصورة على طبع كتاب التصوف الإسلامى وقال إنه مستعدٌ لترضيتى ، وأسرف فى التلطف فقال : نستطيع أن نعفيك من الدروس إن كانت أتعبتْك ويكفى أن تقيم فى بغداد لأنك أحدثت مَوْجَةً فى العراق ، وقد استقدمنا الأستاذ الثعالبى قبل ذلك لمثل هذا الغرض .

وقد رأيت أن أصل إلى قلب هذا الرجل فأنشدته قول الشاعر :

تناسيتُ فى مصرَ الجديدةِ صِبْيةً   هُمُ الزَّهَرُ الظمآنُ فى جوف بيداء
يناجون فى الأحلام أطياف والدٍ   لعهــد بنيــهِ والبُنَيَّــاتِ نَسَّاءِ

وأبو هاشم يعرف صدق اللوعة فى مثل هذا الحنين .

* * *

سأفارق بغداد .

سأفارق بغداد .

ويا لوعة القلب من فراق بغداد !

٢٨

كان هذا اليوم من أعجب الأيام التى شهدتُها فى بغداد .

وتفصيل الحديث أنى تلقيت دعوة من دار المعلمين العالية لشهود الحفلة الختامية ، فرأيت فى ذلك فرصة لمصافحة تلاميذى ، التلاميذ الأوفياء الذين يسألون كل يوم عن منهج العام المقبل ، ويتحرقون شوقًا إلى معرفة ما سيصير إليه أستاذهم فى العام المقبل ، فهل كانت تحدِّثهم ضمائر القلوب بأنى سأجنَح إلى إيثار الهجر الجميل !

والواقع أن تلاميذى فى بغداد أحبونى أصدق الحب ، وكنت أستأهل هذا الحب ، فقد خلعتُ عليهم كل ما أملك من المعارف الأدبية والفلسفية ، وعوَّدتهم عادات حسنة هى الاعتماد على النفس ، واقتحام أخطر الموضوعات ومواجهة أصعب المعضلات ، وكنت أدعوهم إلى إحراجى إن استطاعوا بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية ، ومرّ العام الدراسى بدون أن يشهدوا على أستاذهم علامة من علائم الضعف فى تكوينه الأدبى والفلسفى ، وساعدنى هذا الفوز على إقناعهم بأن الأستاذ الحق هو الذى يملك مادته ملكاً تامًا بحيث لا يطمع فى إحراجه أحد ، وأن مصايرهم فى مهنة التدريس مرهونةٌ بهذا التفوق إن أرادوا أن يكونوا من أعلام الرجال .

وما أزعم أن أيامى مع هؤلاء الطلبة مرتْ كلها فى سلام وصفاء ، فقد اشتبكوا معى مرة أو مرتين ، وكان الخلاف يرجع إلى أنى أردت أن أعاملهم كما كان يعاملنى أساتذتى فى الجامعة المصرية وجامعة باريس ، فقد فرضتُ أن يكتب كل طالب رسالة ضافية فى موضوع لم يُكتب فيه من قبل ، ليتعوَّد البحث ويتمرَّن على التأليف . وقد ثاروا على هذا المذهب فى التعليم ، ثم اطمأنوا إليه فأتوا بالأعاجيب ، وستظهر مواهبهم بإذن الله بعد قليل .

وكنت فى هذا الكفاح سياسيًا خطيراً ، فقد ساءنى أن أخيب فى الطب وفى التعليم ، فضلاً عن خيبتى فى الحب ، وقد شاء الله أن أفوز فى التعليم بعد الخيبة فى الحب والطب . أعاذنا الله من الخيبة فإنها مُرَّةُ المذاق .

ولكن هذه السياسة تحولتْ إلى مبدأ من حيث لا أشعر ولا أحتسب ، فقد شُغِلتُ بتلاميذى شغلا جديا ، ورأيت أن أحيطهم بجَوٍ أدبى يملأ فراغ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم ، فملأت أرجاء العراق بالجدَل والصَّخَب والضجيج ، فما كانوا يُصبحون أو يُمسون إلا على مقال منشور أو حديثٍ مُذاع .

وانتهيتُ من ذلك كله إلى إلقائهم فى أتُّون الحياة الأدبية والعقلية ، وهو جهادٌ هدَّم أعصابى ، وضعضع كيانى ، ولكنه على كل حالٍ جهادٌ محمود ، وسيظهر أثره بإذن الله فى الأعوام المقبلات .

* * *

مضيت إلى دار المعلمين العالية لأشهد الحفلة الختامية فرأيت هناك معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى وزير المعارف ، وسعادة الأستاذ طه الراوى مدير المعارف العام ، وسعادة الدكتور فاضل الجمالى مدير التربية والتدريس ، وكان معنى ذلك أن الحفلة لبستْ حُلّةً رسمية .

لم يكن فى نيتى أن ألقى خطبة فى ذلك الاحتفال ، ولكن الدكتور فؤاد عقراوى أسرّ فى أذنى أن مَن الواجب أن ألقى كلمة بوصف أنى أستاذ الأدب العربى فى المعهد .

وإلقاءُ الخُطب لم يَعُد يَشُوقنى ، لأن شهوة الكلام ضعُفتْ عندى بعد البلاء الذى عانيته فى الخطابة أيام الثورة المصرية ، وبعد البلاء بمهنة التدريس عددًا من السنين ، وهى مهنة تقوم على الكلام والحديث ، يضاف إلى ذلك أنى أكتب فى كل يوم نحو عشر صفحات ، والتعبير عن خواطر النفس بالكتابة يُضعِف شهوةَ الكلام عند مَن يعقل ، ولا أزال فيما أزعم من العقلاء !

اعتذرت عن إلقاء كلمة ، ولكن الدكتور عقراوى أصرّ على أن أتكلم فقبلت .

كانت كلمة الطلبة للأديب شاكر الجودى ، وهو شابٌّ مرجوُّ المخايل ، وقد قَرُب من نفسى أشد القرب ، لأنه كان يرحِّب بالملام والتأنيب كلما جدَّ موجبٌ لذلك ، وقد غضبتُ مرة على سوء النظام المتبع فى دفاتر التلاميذ بالعراق : لأنى رأيت من طلبة دار المعلمين العالية من يكتب فروضه فى كراريس الأطفال ، وكانت لحظات غَضِبَ فيها الطلبة وثاروا ، إلا شاكرًا الجودى ، فقد قدَّم إلىّ كراسة لأتخذ منه شاهدًا على تقصير زملائه حين أشاء .

وقف شاكر يلقى خطبته بنبرات تُشعر بأنه تلميذ زكى مبارك ، فتأثرتُ ، ثم اندفع فقال إنه يخشى أن يكون موقفه موقف التوديع لبعض أساتذته الفضلاء .

ولم تكن كلمة « التوديع » أو « الوداع » تؤذى أحدًا غيرى ، أنا الطائر الغريب الذى زار فى السَّحَر بساتين الكَرْخ وبغداد .

وما كدت أسمع كلمة « الوداع » حتى ثارت دموعى .

وما أخطر دموع الرجال !

ونظرتُ فرأيت تلاميذى مكروبين لمنظَر أستاذهم المرتاع ، ورأيت إحدى تلميذاتى

تتأهب للبكاء ، ولو كان اسمها ليلى لخف حزنى ولكنها تسمَّى وَطفْاء .

متى أسمع أن تلميذاتى فى بغداد صِرْنَ من فُضْلَيَات المعلمات ؟

اللهم حقّق أملى فى أولئك الفتيات المهذَّبات .

* * *

وقفتُ لأخطُب ، ولكن كيف ؟

لقد هجم الحزنُ هجمةً عنيفة ، وهجم الدمعُ هجمةً أعنف .

والتفتُّ إلى الدكتور فاضل الجمالى أسأله عن أبيات أبى تمام فى الفراق .

ثم انهدَّتْ قُواىَ فجلستُ وأنا دامعُ العين مفطورُ الفؤاد .

* * *

وهمس الدكتور الجمالى فى أذنى يقول : هذه أعظم خطبة سمعتها فى حياتى !

وكانت أول مرة عرفتُ فيها أن من البيان أن تعجز عن البيان .

وخيَّم الحزن على الأستاذ طه الراوى فلم ينطق فى مواساتى بحرف .

* * *

وجاء دور معالى الأستاذ الشبيبى فالتفت إلىّ وقال : ما هذا الذى صنعتَ فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » ؟

فقلت : وما ذاك ؟

فقال : هل تعلم أن كتابك هذا حبسنى على قراءته ثلاث ساعات ، وهو حظٌّ لم يظفر به منى كتابٌ حديث منذ أعوام طوال ؟

ثم ساق فكاهة وردت فى كتاب المدائح النبوية فطابت نفسى وابتسمت .

وبعد لحظات قمت فألقيت خطبة الوداع .

وآه ثم آه من الوداع !

وما انتهت الحفلة حتى كان الطلبة يهتفون :

« يحيا الدكتور زكى مبارك يا ، يحيا الدكتور زكى مبارك يا »

* * *

وسألنى الدكتور الجمالى أين أذهب ؟ فقلت : إلى التسليم على إخوانى بكلية الحقوق . نمضى معى إلى هناك ، وقد فرح الأستاذ محمود عزمى بزيارته أشد الفرح : لأنه عَدَّ هذه الزيارة تصفيةً لحساب كان تعقَّد بينهما منذ أسابيع .

وفُتِح بابٌ خرج منه صديقٌ هو الدكتور سيف فأقبل يعانقنى بحرارة شديدة وهو يقول : كيف تنسانا وأنت عميدنا فى بغداد !

فقلت وأنا أبتسم : لقد تركتكم فى رعاية الشيطان (وأشرتُ إلى الأستاذ محمود عزمى) !

* * *

وأراد الدكتور فاضل الجمالى أن يحملنى على الذهاب لرؤية الأشبال ، وهو يسمى أبناءه بأسماء الأسود، وكان يسرنى أن أجيب لأرى زوجته الغالية، وهى سيدة أمريكية تشهد شمائلها بأن الأمريكان لم يسودوا من باب المصادفات ، هى سيدةٌ جميلةٌ جدًّا ، ولكنها مع جمالها توحى الاحترام قبل أن توحى الحب ، وسيكون لها ولأمثالها تأثير شديد فى الحياة الاجتماعية بالعراق ، لأن المرأة المصونة تفرض على الناس الاقتناع بأن السفور أفضل من الحجاب .

والدكتور الجمالى وزوجته من أعاجيب الحياة فى المجتمع العراق ، وهما أشبه الأشياء بالأزهار فى الصحراء ، وهما يقضيان النهار مفترقين ، هو فى حياة التربية والتدريس من الصباح إلى المساء ، وهى فى خدمة أطفالها وأطفال الفقراء من الصباح إلى المساء .

وكم تمنيت أن أقبِّل يَدَىْ هذه السيدة قُبلة إعزاز واحترام ، ولكن شهرتى بالكلام فى الحب صرفتنى عن هذا الحظ السعيد . وعفا الله عن ليلى فقد فضحتْنى !

* * *

اعتذرتُ عن صحبة الدكتور الجمالى ، ومضيت وحدى أستمتع بضوء القمر فى ضواحى بغداد ، و ما هى إلا لحظة حتى رأيت سيدة تعترض طريقى ، فنظرتُ فإذا هى ليلى حرسها الحب .

أبعد هذا الهجر الطويل تسأل عنى ليلى وتعترض طريقى ؟

— ليلى !

— عيونى !

— هل أنا فى حُلْم ؟

— أنت فى يقظة وأنا ليلاك

— كان ذلك قبل اليوم !

— أنا إلَكْ ، أنا إلَكْ !

— أنا مفارقٌ يا ليلى .

— ومن أجل ذلك جئتُ أقضى ديونك !

— وأين تُقضَى الديون ؟

— فى حانوت الوراق !

« وحانوت الوراق هو منزلى الذى وصفتْه جريدة الكلام ، وكان فيه خمسمائة كتاب وضعتها فوق الأرض لئلا تسقط فوق فتقتلنى كما سقطت كتب الجاحظ فوقه فقتلته بلا ترفق » .

ــ عَرَبَانْجى ، يَمِّك ، عَرَبانْجى !

كذلك هتفتْ ليلى ، ولكنى رفضتُ أن أركب مع ليلى عربانةً فى جادة الرشيد ، لئلا تأكلنا العيون .

وجذبتها من ذراعها لنركب سيارة عمومية ، وبعد لحظات عرفتُ أن السائق سكران ، فدعوتها للنزول لئلا نموت علانيةً فى جادة الرشيد ، وليتنى متُّ مع ليلى فى جادة الرشيد ، ولكنى حميتها من الفضيحة العلنية فى شوارع بغداد .

ليلى .

أحبك يا ليلى .

ومضينا راجلَين إلى حانوت الوراق ، وهو منزل صديقنا الدكتور زكى مبارك .

وصعدنا إلى سطح المنزل لنرى معًا أضواء بغداد .

وهَّمتْ ليلى بمعانقتى فتأبيتُ وتمنعتُ .

* * *

كنت أبيع العمر كله بلحظة صفاء مع ليلى المريضة فى العراق .

ولكنى خَشيتُ ثم خشيت وأردتُ ثم أردت .

خشيتُ أن تُفجَع ليلى فى عفافى .

وأردتُ أن تشهد بأنى رجلٌ نبيل وأن تقضى حياتها فى الدفاع عنى .

وهل كنت أملك أن أضيِّع صيام تسعة أشهر بلحظة أثيمة تفسد صيامى ؟ يكفينى من الحظ أن تكون ليلى مدت ذراعها إلىَّ ، وهو فضل سأذكره ما حييت .

أحبك يا ليلى ، فاذكرينى بالشعر يوم أموت .

وخرجنا من المنزل صامتين .

ــ إيش بِيكْ يا دكتور ؟

ــ لا شىء ، يا مولاتى !

ــ ألا تزال غضبان ؟

ــ أنا راض كل الرضا يا سمكة الفُرات !

ــ هات يدك أقبِّلها .

ــ لن يكون ذلك !

« وأهوتْ ليلى على يدى فقبّلتْها بالرغم منى » .

— دكتور !

— مولاتى !

— ليتنى كنتُ أعرف أنكَ على هذه الأخلاق !

— وليتنى كنت أعرف أنكِ على هذه الأخلاق !

— دكتور !

— مولاتى !

— إن المفارق يقول ما يشاء

— أحبكِ وأهواكِ .

— أشكرك ، أشكرك .

* * *

— دكتور !

— مولاتى !

— سيتغير كل شىء فى العام المقبل !

— فى العام المقبل ؟

— نعم ، فى العام المقبل .

— فى العام المقبل سيجف عُودى !

— إن لم ترجع إلى بغداد فسأزورك فى مصر الجديدة لأقضى بين ذراعيك أسبوعًا أو أسبوعين .

— وإن لم تجدينى فى مصر الجديدا

— سأسأل عن قبرك لأموت بجانبك ولنكون صلة الوصل بين مصر والعراق .

— من حقى إذنْ أن أموت حين أشاء .

قضيتُ ليلى كلَّه نَشْوانَ ، بعد أن رأيتُ ما رأيتُ وشهدتُ ما شهدتُ من عطف ليلاى .
وفى الليلة التالية حضرتُ سهرةً أقامها السيد عبد الأمير لتوديعى ، سهرة باسمة فوق سطح الفندق ، فُندُق العالم العربى ؛ غنَّى فيها الأستاذ محمد القومبانجى وأطرب حتى اهتاج ما فى دجلة من سمكات ، ثم وقف الشاعر عبد الرحمن البناء وأنشد هذا القصيد :

زكيَّ النفس بَعدَك لا جليسُ ... يروق لناظرىّ ولا أنيسُ
أَلِفتُك صادقًا حرًّا أبيًّا ... أخا نُبلٍ له أدبٌ نفيسُ
لك الأسماع تُنصِت مُرهَفاتٍ ... وتُهطِع إن خطبتَ لك الرءوسُ
تَقَرُّ إذا رأتك العين تمشى ... وترغب أن تطير لك النفوسُ
وإنك أوسع الأدباء صدرًا ... وفارسهم إذا حَمِىَ الوطيس
لقد أخرجت فى الآداب كُتُبًا ... تضىء بها المدارس والدروسُ
عكفتَ على صياغتها مكبًّا ... كما عكفتْ بمعبدها القسوس
بلغتَ من البلاغة كل معنًى ... وجدُّكَ فى العلوم هو الرئيسُ

* * *

عرفنا للوفاء بك احتفاظًا ... تضيق به الصحائف والطروسُ
فكم ليلٍ قطعناهُ بأنسٍ ... تطوف به علينا الخندريس
فغِبْ أو لا تغب ما شئت عنا ... فإنك بيننا أبدًا جليس
تذكِّرنا الحُميَّا منك لُطفًا ... ونحن على موائدها جلوس
فما ننساك ما طلعتْ بدورٌ ... ولا ننساك ما طلعتْ شموسُ
فيومُ لقائنا يومٌ ضحوكٌ ... ويوم فراقنا يومٌ عبوس
فبَعدَك لا تُسلِّينا مُدامٌ ... إذا قُرِعتْ بِمجلسنا الكؤوس

* * *

لَبُعدك كابدتْ بغداد حُزنًا ... وإن فرحتْ بقربك سِنْتِريسُ
يَزُفّ إليك « بَنَّاءٌ » القوافى ... مُحجَّلةً كما زُفَّتْ عروس
ونسأل منك صفحًا عن قصور ... أتى منا به الحظ التعيسُ
فمثلك من يدوم السعد فيهِ ... ومثلك من تزول به النحوس

ومثـلك مــن تعـزّ بـه بـلادٌ   ومثلك من تطول بـه الـرءوسُ

وأنشد السيد عبد الحسين مُلاًّ أحمد قصيدة أذكر منها هذه الأبيات :

لم أذق لـذة السرور بيــومٍ   غير يوم صفا بلُقيـاك أنسى
يـا زكـيَّ الفِعـال أصغِ إليها   تلك ليلَى تشكـو إلـيك بهمس
داوها ما استطعت فالـداء منها   قـد تعـاصَى على أطبـاءَ نُـطس
أنت تشفي النفوس من علل الجهـ   ـل وتُبرى العقولَ مـن كل مسّ
فابعث النَّشءَ فى العراق ليجنى   من ثمار الآداب أطيب غـرس
لا يصدَّنْك عن مـداواة ليلَـى   جاهـلٌ لـو يُبـاع بِيـعَ بِفَـلْس
وإذا فى غـدٍ رجــعتَ لمصرٍ   خُذْفـؤادى فثَمَّ مهبط نـفسى
وأتِ ليلاك بالزمالك صبحًـا   وتفقَّـد نـبض الفتـاة بـجَسٍّ
فلعـل الخلاف راع حشاهـا   فأُصيبتْ بعد الشفاء بنـكس

ومددتُ يدى فخطفتُ القصيدتين ودسَستُهما فى جيبى فابتسم السيد عبد الأمير وقال : ما معنى ذلك ؟ فقلت : لا تؤاخذنى يا مولاى فقد جُنِنْتُ ، فأنا أول مصرىّ أثنى عليه شعراء العراق فى أكثر من عشرين قصيدة ، وحُبِّرتْ فى العطف عليه عشرات الخُطب والمقالات ، ولولا خوف الفتنة لجمعتُ ذلك فى كتاب يكون ذخيرةً تذكرنى بها ليلاى فى الزمالك ، وليلاى فى العراق .

وبعد انقضاء السهرة رجعت إلى بيتى فتوضأت وصليتُ العِشاء وحمدت الله على نعمة التوفيق .

***

وفى الصباح بكرتُ إلى منزل ليلى لا نعَم بالنظر إليها لحظة أو لحظتين ، ولأحدثها عما خَصنى به قومها الأكرمون ، فراعنى أن أراها فى عُبوسٍ وقُطوب .

— ليلاى .

— لست ليلاك .

— ما الذى جدَّ فى دُنيا الوصل ؟

— عصفتْ بها العواصف .

— هل أستطيع أن أعرف من أين هبَّتْ تلك العواصف ؟

— من فندق العالم العربى .

— وكيف ؟

— لأن سهرتك هناك أكدت الوصف الذى نعتَك به أحد الأدباء فى إحدى المجلات

المصرية .

— وما هو ذلك الوصف ؟

— هم يُسمُّونك فى مصر « زعيم الفتُون » .

— وما الذى وقع فى تلك السهرة حتى يصح ذلك الوصف ؟

— ما الذى وقع ؟ أتنسى أنك أنِسْتَ إلى ناس يطيبُ لهم أن يجمعوا بين الشعر والغناء والشراب ؟

— وما العيب فى أن يجمع ناس بين الشعر والغناء والشراب ؟

— ما فى ذلك عيب ؟

— أبدًا ، يا مولاتى .

— أحب أن أعرف مذهبك فقد حيَّرنى أمرُك ، أبعدَ السيرة العَطِرة التى تأرجتْ فى العراق بالخطب النفيسة التى نقلها عنكَ المذياع ، الخطب التى جعلتْك فى الصف الأول بين رجال الأخلاق ، أبعد أن ملأت المحافل والأندية بنفائس الأحاديث والمحاضرات ، أبعد خطابك الرائع « فى ضيافة القرآن » أبعد ذلك كله تُحبطُ أعمالك بالجلوس فوق سطح الفندق مع جماعة يلهون بالقصائد والأغانى والكؤوس ؟ واحسرتى عليك ! واحسرتى عليك !

— إن ما وقع منى فى حضور ذلك المجلس الشائق يضاف إلى حسناتى ، لو تفقهين .

— يضاف إلى حسناتك ؟ أشهد أن التضليل لا يعظُم عليك !

— اسمعى ، أيتها الطفلة ، شرح ما لم تفهميه .

— محاضرة جديدة فى الأخلاق ؟

— نعم ، محاضرة فى الأخلاق ، ومَن الذى يحق له أن يتكلم فى الأخلاق إذا صحتْ لك السخرية من أن أتكلم فى الأخلاق ؟ أنا يا ليلى متخرج فى جامعة باريس ، وقد شربت الخمر مع كبار الأساتذة فى أروقة السوربون ، وشربت مع المسيو هريو فى باريس يوم كان إليه الأمر فى تهذيب الأخلاق ، وما يصح فى ذهنى أبدًا أن يحرُم علىَّ قضاء سهرة شائقة مع جماعة من أدباء بغداد ، وبأى حق أدّعى أن أخلاقى أرفع من أخلاق الأدباء فى بغداد ؟ وفى أى شريعة من شرائع الذوق جاء النص على أن الدكاترة لا يليق بهم أن يسامروا كرام الشعراء ؟ إن التَّبِعة فى الشراب يُسأل عنها مَن خلق النخيل والأعناب .

— ما هذا الكفر الموبق ؟

— الخروج على الأدب مع الله أسلم عاقبةً من الخروج على ما وضع بنو آدم من أصناف الشرائع والقوانين ، فالله عز شأنه لا يَحْرِم الكافرين من نعمة الشمس والهواء والماء ، ولا يمنع أرضهم من أن تُخرج أطيب الثمرات . وأكثر الحكومات الإسلامية تبيح استقطار ثمرات

النخيل والأعناب وتعطى رخصة رسمية بفتح الحانات ثم تبثُّ العيون والأرصاد لتحصى ذنوب الشاربين ، فما هذا الوضع المقلوب فى عقول بنى آدم ؟ رضينا بقضاء الله وقدَره حين رأيناه ينهى عن بعض الطيبات ، وهو الذى خلق تلك الطيبات .

— هل ترى الخمر من الطيبات ؟

— لا تقاطعينى يا ليلى ، ودعينى أكمل حديثى .

— إعترفْ بأنك مضلِّل أثيم .

— وما وجه الإثم والتضليل ؟

— أنت تقول إن الخمر من الطيبات .

— ما قلتُ ذلك .

— قلتَ إن الله ينهى عن بعض الطيبات وهو الذى خلق تلك الطيبات ، وسياقُ الحديث يُشعر بأنك ترى الخمر من الطيبات .

— اعقلى ، يا ليلى ، إن القرآن يصرِّح بأن فى الخمرِ منافع .

— قال إن فيها إثمًا ومنافع ولكنه عقب على ذلك بأن الإثم فيها أكبر من المنافع .

— ما أنكرتُ ذلك ، وإنما أريد أن أقول ...

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الله يخلق الشيء لحكمة ، ثم ينهى عنه لحكمة ، ولكنى أنكر أن يتخلق الحُكّام بأخلاق الله فى هذا الباب .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الحكومات الإسلامية تقع فى تناقض مَعيب حين تُبيح فتح الحانات ثم يجعل الذهاب إليها مما يغضُّ من كرامات الرجال .

— إنها تفتح الحانات لحثالات الناس .

— ومن الذى قال إن الحكومات الإسلامية غير مسئولة عن وقاية جميع الطبقات من آثام المسكرات ؟ إن من تسمينهم حثالات هم أحوج الناس إلى الرعاية والحفظ ، لأنهم فى الأغلب من الطبقات الفقيرة ، والطبقاتُ الفقيرة يتكون منها العمال والصناع والزراع وعليها يقوم الأساس فى تكوين الجيوش البرية والبحرية ، والتفريطُ فى تقويمهم وتهذيبهم يمضى بالأمم إلى الضياع والانحلال .

— فى هذا الكلام نفحات من الصدق ، ولكنك لستَ له بأهل .

— اسمعى ، يا ليلى ، اسمعى ، اسمعى كلام الرجل المسكين الذى ألقاه تناقض المجتمع فى أتُّون الخبال ، لقد جئت إليكم من مصر ، من البلد الذى يقول إنه شيخ الإسلام والمسلمين ، البلد

الذى يزدان بمنارات الأزهر الشريف . ومصر يا طفلتى الغالية ...

ـــ لست طفلتك !

ـــ اسمعى يا أمى !

ـــ يظهر أنك سخيف .

ـــ أنت أسخفُ منى .

ـــ أهذا أدب الدكاترة ؟

ـــ أستغفر الله والحب ، اسمعى يا ليلى ، إن الناس فى مصر لا يجعلون مَناط التَّبِعة فى ذات الشراب ، وإنما يجعلونه فى ظَرف المكان : فالذى يغضّ من قدر الموظف فى مصر هو أن يشرب فى مكان يغشاه سواد الناس ، ولا عيب عليه إن شرب فى سان جيمس أو الكونتيننتال ، وربما كان غشيان تلك الحانات الأريستوقراطية بابًا إلى الترفيع(١) وما يقع فى مصر يقع مثله فى العراق ، فما يعاب على الموظف أن يقضى أوقات الفراغ كيف يشاء فى الفنادق الكبيرة أمثال زِيًّا وتايجرس ومُود ، ولكن من المحرَّم عليه أن يقضى سهرة فى الفنادق الشعبية . وقد هالنى أن أرى الناس فى العراق تختلف أقدارهم باختلاف أنواع الشراب : فالويسكى والبيرة والفيرموت أشربةٌ مَدَنية متحضِّرة لا تلطِّخ سُمعة شاربيها بالسواد ، أما العَرَق وهو الشراب المُستَقْطَر من تُمور العراق فهو فى العُرف السائد شرابٌ مُستقبَحٌ مرذول ، ولو عقل الرأى العام لعرف أن الأمر يجب أن يكون بالعكس ، فالأشربة الأوربية منافعها للسادَة الأوربيين ، وكل كأس من الويسكى يسبِّب الجوع لعشرة أو عشرين من العمَّال فى العراق .

ـــ هذا كلام فى الاقتصاد ، ونحن نتَكلم فى الأخلاق .

ـــ من الجهل الفاشى فى الشرق أن لا يعرف الناس أن الاقتصاد قِوام الأخلاق ، ومن واجبى أن أشرح هذه النقطة بالتفصيل .

ـــ لأنك فيلسوف !

ـــ اتركى المطايبات فى أوقات الجد ، يا حمقاء .

ـــ تكلم ، أستاذى ، تكلم .

ـــ اسمعى يا ليلى ، إن أساس الخُلق السليم هو النفع ، والأخلاق تَحسُن أو تَقبُح وَفقًا لقربها أو بعدها من المنافع ، فالخُلق الذى يعطِّل على صاحبه منافع الحياة هو خُلقٌ ذميمٌ وإن تخلَّق به العُبَّاد والنساك ، والأمم حين تَضعُفُ تختلُّ أمامها موازين الأخلاق ، ومن هنا كثرت الوساوس الأخلاقية فى الأمم الإسلامية ، لأن المسلمين حين ضَعُفُوا كَثُر عندهم القيل والقال حول ما

---

(١) الترفيع هو الترقية فى اصطلاح أهل العراق .

يباح وما لا يباح ، ومثلَهم فى ذلك مَثل المرضَى من الناس ، فالمريض هو الذى يُكثر التفكير فيما يضر وما ينفع من ألوان الطعام والشراب ، أما السليم فلا يشغل نفسه بغير عظائم الأعمال .

— أين هذا الكلام مما نحن فيه ؟

— وأين نحن ؟

— نحن فى ربط الأخلاق بالاقتصاد .

— صحيح ، صحيح ، ويظهر أنى انحرفت عن الموضوع بعض الانحراف .

— أنت تنحرف أحيانًا من حيث لا تشعر .

— ما انحرفتُ ، ولكنك لا تفهمين ، اسمعى يا حمقاء .

— أنت وحدك الأحمق !

— وهو كذلك ، اسمعى ، الأمم الإسلامية تبيح فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، وذلك تناقضٌ ممقوت ، وهى مع هذا التناقض لا تجعل مَناط التبعة فى ذات الشراب وإنما تجعله فى ظرف المكان ، وأقبح من ذلك أن تجعل الويسكى أشرف من العرق .

— أنت إذن تبيح شرب العَرَق .

— لم تفهمى كلامى ، يا بلهاء ، أنا أبغض الخمر أشد البغض ، ولعنة الله على الصديق الذى شربت معه أول كأس ، ولكنى سأفضح الحكومات الإسلامية التى تبيح فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، سأفضح تلك الحكومات فى كل أرض حتى تختار واحدًا من اثنين : أن تمنع استقطار ثمرات النخيل والأعناب وتغلق جميع الحانات ، وتمنع استيرادَ الخمر وبيعه منعًا صارمًا ، فإن لم تستطع ذلك — وهى تستطيع — فلتجعل حكم الخمر حكم الماء وتوفّر على الناس مشقة الابتلاء بالنفاق والرياء .

— وهناك طريقٌ ثالث ؟

— ما هو ؟

— هو التنفير من الخمر وتحقير الشاربين حتى يتوب الناس عن الشراب .

— ذلك ما صنعه المسلمون منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا و لم يظفروا بغير انحلال الأخلاق .

— النهى عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ؟

— نعم ، النهى عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ، فالخمر يشربها النصرانى ويظل سليم الأخلاق ، ويشربها المسلم فيصّير ضعيف الأخلاق .

— خبَّلتنى ، خبَّلتنى .

— اسمعى ، يا ليلى ، واعقلى .

ـــ سأسمع ، إن كنتَ أبقيت لى رُشدًا أسمع به وأعقل .

ـــ اسمعى ، يا سمكة الفرات ، واعقلى ، إن الأوربى يشرب الكأس وهو يعرف أنه لا يُسأل إلا أمام محكمة الأعصاب والأمعاء ، فهو يشرب بحساب ، وتظلُّ شخصيته الخُلقية سليمة ، لأنه مقتنع بأنه لا يخرج على العُرف ولا على القانون ، أما المسلم فيعرف فى سريرة نفسه أنه يخرج على الدين والتقاليد حين يشرب ، فهو يسرف فى الشراب عنادًا ومكابرةً فتنحلّ شخصيته الخُلقية أبشع انحلال .

ـــ وبماذا تشير ؟

ـــ أشير بأن يكون الحساب مع الله لا مع الناس ، فإن المرء يخجل من أن يعاند الله كما يعاند الناس .

ـــ وتكفّ الحكومات أيديها عن معاقبة الآثمين ؟

ـــ الحكومات ؟ الحكومات ؟ هذا كلام مضحك ، وأين الحكام الذين يزهدون فى الشراب ؟

ـــ فى الأمم الإسلامية حكام كثيرون لا يشربون .

ـــ ولكن هؤلاء الذين لا يشربون يُمضون بأيديهم الطاهرة جوازات الفتح !

ـــ أى فتح ؟

ـــ فتح الحانات والدِّنان !

ـــ هل أستطيع أن أفهم من هذا الحِوار أنك تبغض الشراب ؟

ـــ أبغضه أشد البغض .

ـــ ولماذا شربت فى بهو أمانة العاصمة ؟

ـــ شربت لأنى وجدت أكواب الصهباء ، ولأنى رأيت بعض الوزراء يشربون ، ولست أعظم من الوزراء فى ميادين الحزم والعقل ، ولو وجدت أكواب الحامض لا كتفيت بها وشربت حتى ارتويت .

ـــ منطق غريب !

ـــ وما وجه الغرابة فى هذا المنطق ؟

ـــ كنت أحب أن يتم الانسجام بين قولك وفعلك .

ـــ ذلك تمام الانسجام .

ـــ خبَّلتنى ، خبلتنى !!

ـــ اسمعى ، يا ليلى ، أتدرين من أين جاء البلاء ؟

ـــ أحب أن أعرف !

ـــ جاء البلاء من أنى أديب .

ـــ والأدب يوجب هذه الموبقات ؟

ـــ والأدب فنٌّ داعرٌ أثيم ، ولولا الأدب لكنت اليوم إمامًا من أئمة المسلمين : فقد كنت من نوابغ الطلبة بالأزهر الشريف . الأدب هو الذى يوجب أن أرى جميع الأشياء ، وأن أعرف جميع الناس : فأنا أشرب المرَّ من عصير الحياة لأحيله إلى شراب سائغ للشاربين ، وقد كوتنى الحياة يا ليلى بميسم متَّقد فشَوَتْ وِجدانى وجَنانى ، أنا الفاتن المفتون الذى تلسعه العقارب وتلدغه الحيات فى اليقظة والمنام ، وبلائى يا ليلى لم يقع إلا من حيث أردت النفع .

ـــ إيش لون ؟

ـــ توهمتُ يا ليلى أن من واجبى أن أخدم اللغة العربية وقد نظرت فرأيت اللغة العربية لا تُخدَم إلا بالمحاولة الأثيمة التى توجب أن يكون أدبها صورة صادقة لما عليه العرب من أخلاق وآداب وأوهام وأضاليل ، فأنا أتسلَّل إلى كل بيئة ، وأتغلغل فى كل مجتمع ، لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذى يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهى دعوى أعرض من الصحراء ! ومن العجب أن يكون هذا مبدئى ولا أظفر منك بنظرة عطف ، أتذكرين يا ليلى ؟ أتذكرين ؟

ـــ ماذا أذكر ؟

ـــ أتذكرين أنكِ عبتِ علىّ أن أحضر الحفلات الساهرة فى بَهْو أمانة العاصمة ؟

ـــ أذكر ذلك .

ـــ فاعرفى الآن أنكِ كنتِ على ضلال ، فتلك الحفلات التى تقام بأموال الدولة لا تقام إلا لحكمة عالية ، فالدولة تعرف أن هناك رجالاً مكدودين محزونين سُدَّتْ فى وجوههم أبواب الملاهى الشعبية ، لأنهم يقومون بأعمال رسمية ، وأمثال هؤلاء الرجال فى حاجة إلى حماية من فُضُول المجتمع ، وهم لا يُحْمَوْن من فضول المجتمع إلا بأقامة أمثال تلك الحفلات التى لا يحضرها إلا من يستطيعون لبس « الفرِاك » .

ـــ وما هو الفراك ؟

ـــ هو ثوب يُلبَس فى الحفلات الرسمية ويُلبَس يوم الموت !

ـــ إيش لون ؟

ـــ من عادات الأوربيين أن يكفِّنوا موتاهم بلباس الفراك ، وشُربُ الخمر ومخاصرة النساء فى سهرة راقصة قريب من الحياة وقريبٌ من الموت ، وفى تاريخ بغداد أن رجالاً كانوا يموتون فى أعقاب هذه السهرات .

ـــ أنت حزين يا دكتور .

ـــ وما خُلِق الحزنُ إلا لقلبى ، ولأمثال هذا القلب كان الخليفة هرون الرشيد يقيم حفلات الغناء والشراب ، وقد أراد ناس أن يبرِّئوا سمعة هرون الرشيد من استباحة الشراب والغناء ،

ولكنهم كاذبون وجاهلون .

— يظهر أنك تحنُّ إلى تلك الإنجليزية الحسناء !

— وأحب أن أقبِّل يدها مرةً ثانية على مرأى من النواب والأعيان والوزراء .

— فاتِك ، فاتِك !!

— لن يكونِ قلبى أفتك من هذه العيون السُّود !

— وتخوض مع تلاميذك فى أمثال هذه الأحاديث ؟

— ذلك هو ما يهمك ويهمُّ السفهاء من أعدائى ، أليس كذلك ؟ إن تلاميذى ليسوا بأطفال ، وهم لا ينتظرون أن أخوض معهم فى أمثال هذه الأحاديث ، فلى ولهم شواغل أعمق وأشرف ، وهم يعرفون أن أستاذهم نموذجٌ للرجل الصالح ويرعَونه فى المحضَر وفى المغيب .

— والرجل الصالح يسامر شعراء بغداد !

— ويشرِّفه أن يسامر شعراء بغداد .

— ويأكل السمك المسقوف فوق سطح الفُندق !

— ويداعب السمك الحىّ فى أبهاء الفندق .

— ويقول : إن الأمم التى تشرب الخمر هى الأمم التى تسيطر على العالم ، وإن الأمم التى لا تشرب هى التى تعانى بلايا الاستعباد .

— ما قلت ذلك .

— قلتَه ليلةَ سهرتَ بالجزْرة .

— ما سهرْتُ بالجَزْرة .

— سهرتَ بالجزْرة ، وقلت ذلك القول المجرم ، وعليك شهود .

— من هم هؤلاء الشهود ؟

— قلتَ ذلك أمامِ السيدة (م) والآنسة (ب) والسيدة (ف) .

— لا تُقبَل شهادةٌ لأصحاب العيون السُّود .

— لك مُطلق الحرية فى أدبك وفى أخلاقك .

— أحبُّ أن أشرح ...

— كَفَى ، كَفَى .

* * *

كانت العبارة الأخيرة إيذانًا بوجوب الانصراف ، فانصرفت وأنا أعرف أن هذه آخر مرة أرى فيها ذلك الوجه الجميل ، وجه المرأة البَتُول التى صهرتْ قلبى وأرهفتْ بيانى ، وجه ليلى ذات العيون السود .

انصرفت وأنا أُدَمْدِمُ بهذا البيت :

لقد زعمتْ ليلى بأنِّى فاجـرٌ ... لِنفسى تُقاها أو عليها فُجورهــا

* * *

يا صاحبَ الإسمِ الزكيِّ ... وصاحبَ اللقبِ المباركْ
يَهْنيكَ أنكَ لستَ في ... تمريضِ ليلى بالمشاركْ
ومَقالُهم لكَ في غدٍ : ... يَفدي الأطباءُ اقتداركْ
وغدوتَ تُبنيكَ دارَها ... أوْ تُبنِ المحبوبَ داركْ
مَنْ لوْ رأتْهُ في الضُّحى ... شَمْسُ الضُّحى قالت : تباركْ
لا كَدَّرَتْ بالغدرِ ليلَـــكَ ... يا وَفيُّ ولا نَهارَكْ

اخي العزيز الدكتور زكي مبارك

ان اخبار كلفك بليلى ، اعزها الله ، كادت تذيب
صخر المقطم وتنطق اسماك النيل اشفاقا عليك،
فارجو ان تطلع صاحبة وحيك على هذه الابيات
عساها تعرف ان قومك يسرهم ان يسمعوا برضاها
عنك وعطفها عليك والسلام من المخلص

القاهره ١١/٦/٣٨

حسن حمدي

٣٠

على روحى أنا الجانى .
على روحى أنا الجانى !
على روحى أنا الجانى !

* * *

ما أحسب أنى سأرجع لزيارة ليلى بعد اليوم ، فقد تأذيتُ من لجاجتها وتألمّت ، وأحسب أنى شبعتُ منها وشبعتْ منى .

وكيف أغفر لها أن تراقبنى إلى هذا الحد البغيض ؟

أَقبِّل فتاةً فى بنك إيسترن فتسمع بالقُبلة بعد لحظاتٍ قِصار ، وتحضر بنفسها لمعاتبتى .

وأسمر مع جماعة من الشعراء يشربون ويطربون فيصل إليها الخبر قبل نصف الليل .

* * *

من حق ليلى أن تراقبنى ، ولكنى أكره هذه الرقابة الأرضية التى تعاقب بلا إمهال ، وكنت أتمنى أن تكون فيها نفحة سماوية تراقب ثم تمهل عامًا أو عامين ، كنت أتمنى أن تتخلق ليلى بأخلاق الله ذى العزة والجبروت ، فتعطى المذنب فرصًا كثيرة عساه يستغفر ويتوب .

ولو أن الله تباركت أسماؤه عاملنى كما تحب ليلى أن تعاملنى لزُلزِلت الأرض تحت قدمىّ منذ أعوام طوال فلم يَبق لى خبرٌ فى شرق أو فى غرب .

تباركتَ يا ربى وتعاليتَ !

فما مرَّتْ لحظة بلا شاهد يدل على عظمتك السامية .

أنت تغفر لأنك عظيم .

وبنو آدم لا يغفرون لأنهم صغار .

كم أقمتَ الدلائل يا ربى على أنك تطّلع على كل شىء وإن دقَّ وهان ، وكم نظرت إلىّ كما ينظر الأب الرحيم إلى طفله الصغير ، ولولا الأدب معك يا ربى لقلتُ إنى صافحتك بيدى أكثر من ألف مرة .

نعم ، صافحتك ، ثم صافحتك ، وأنا أراك حيثما توجهتُ :

أنا راضٍ عنك يا ربى ، فهل أنت راضٍ عنى ؟

أحبك يا ربى فهل أنت شافعى إلى سَرحةٍ فى شط دجلةَ زهراء
رأيت فنائى فيك حين رأيتها تحاول إضلالى وتَنشد إفنائى
ومن أنت يا ربى ؟ أجبنى فإننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء

* * *

أنا الآن فى غرفتى ، وحيدًا شريدًا ، أعانى غضب ليلى وبلاء الحب .

وأغلب الظن أنْ لن يسأل عنى أحدٌ فى هذا المساء .

ومن الذى يسأل عنى وقد أقنعت أصدقائى فى بغداد بأنى لا أحب أن يزورنى أحدٌ فى البيت ؟

ويشتد بلائى كلما تذكرت أنى كنت فى حضرة ليلى معقود اللسان فلم أحسن الدفاع عن نفسى .

كنت بين أمرين : الأول أن أنكر أن مجلسى مع شعراء بغداد لم يكن فيه شراب ، ويظهر أن الشاعر عبد الرحمن البناء كان من الملهمين ، فقد وقف عند هذا البيت :

فكم ليلٍ قطعناهُ بأنسٍ تدور به علينا الخندريس

ثم قال : أنا مستعدٌّ لحذف هذا البيت إن كان فيه زَحْمةٌ عليك(١) .

فقلت : الصدقُ أبقى وأنفع ، وما أحبُّ أن أكون من الكاذبين .

الأمر الثانى هو الدفاع بقوة الحجة وقوة المنطق ، ويظهر أنى عنجزت فى حضرة ليلى عن الحجة والمنطق .

وهل تنفع الحجة أو ينفع المنطق فى الدفاع عن الشراب ؟

الواقع أن الخمر أمُّ الخبائث ، ولا يدعو إليها إلا رجلٌ مخبول .

ولكنى كنتُ أملك إحراج ليلى لو شئت .

كنت أستطيع أن أضع أوزار الخمر فوق رأس العراق ثم أنجو بنفسى .

كنتُ أستطيع أن أقول إن فقهاء العراق هم الذين تفردوا بتفصيل أحوال الخمر فجعلوا منها ما يَحْرُم وما يباح .

وكنت أستطيع أن أقول إن شعراء العراق هم الذين زينوا الخمر للشاربين ، فما تحدّث شاعر عن الخمر فى مشرق أو فى مغرب إلا وقد وسوس شيطانٌ من شعراء العراق .

ولكن عزّ علىّ أن أعرِض لأسلافنا من فقهاء العراق بسوء : فهؤلاء رجال راعَوا الأدب مع الشرع فحرَّموا ما حرَّم وأباحوا ما أباح ، وهل كان أبو حنيفة من الفجار حين حلل النبيذ ؟

---

(١) الزحمة فى لغة أهل بغداد معناها المشقة ، وهى كذلك فى اللغة التركية .

ما كان أبو حنيفة فاجرًا وإن تجنّى عليه الشعراء الذين عرفوه فى صباه ، وإنما كان رجلا يؤذيه أن يكذب على الشرع لتحسن حاله عند النساك .

وعزَّ علىّ أن أغتاب شعراء العراق ، ففيهم أبو نواس وكان أبو نواس فيما يظهر من الفاسقين ، ولكنْ أبو نواس على فجوره له فى تاريخ الأدب العربى منزلة عالية ، وقد صرح الدكتور طه حسين مرةً بأنه لا يقلّ عظمةً عن أكبر شاعر أنجبته اليونان .

وكنت أحسب الدكتور طه يمزح ، لأنه فى أكثر أحكامه الأدبية من المازحين .

فلما رجعتُ إلى خمريات أبى نواس رأيته من الأعاجيب وهل استطاع شاعر أن ينظم فى المعنى الواحد أكثر من خمسين مرة ثم يتفوق فى كل مرة غير أبى نواس ؟

كنتُ أستطيع أن أحرج ليلى لتسكت عنى ولو فعلتُ لنجوتُ من الهزيمة .

ولكن لا بأس ، فالهزيمة قد تكون أشرف من النصر فى بعض الأحيان .

وما الذى يمنع من أن أنهزم لتنتصر ليلى ؟

إن ليلى مريضة ، والمريض حين ينتصر — ولو جدلاً — يُحسُّ روح العافية .

شفاك الله يا ليلى وهدانى !

* * *

أنا محزون ، محزون ، محزون .

كيف فاتنى أن أنافق فى زمن لا يسود فيه غير أهل النفاق ؟

لعل السبب فى هذه البلية أنى أول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية .

وهذه الأولية فى الدراسات الفلسفية آذتنى أخطر إيذاء ، فقد توهمت أنى مسئول عن درس جميع المزالق الأخلاقية لأكون أعظم مؤلف فى الأخلاق .

وقد صرتُ بالفعل أعظم مؤلف فى الأخلاق ، ولكننى واأسفاه أصبحت مزعزع الأخلاق .

صرتُ كالطبيب الذى يشرِّح الأجسام ليستفيد العلم فيخسر الخلُق من الوجهة الشكلية .

وهل من الخلُق أن تهين أجسام الأموات ؟

أنا أسامر الشاربين لأدرس النفس الإنسانية ثم تكون النتيجة أن أفتضح مع الشاربين .

كنت أشرب لأدرس الناس فصرتُ أشرب لأدرس نفسى .

فمتى أخلُص من شر نفسى ؟ ومتى أخلُص من شر الناس ؟

وقد انتهيت من التجارب الأليمة إلى أن الأخلاق لا رباط لها من العقائد الأزلية ، وإنما تختلف باختلاف الشعوب ، وهل أنسى ما وقع لى فى جامعة باريس سنة ١٩٣١ وما وقع لى فى الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ ؟

ففى سنة ١٩٣١ أقام لى فريق من أساتذة السوربون حفلة تكريم فى بهو السوربون بمناسبة نجاحي فى امتحان الدكتوراه فى الآداب ، وكان من حظى أن أتناول كأساً من الخمر قدّمتها إلىّ حَرَم المسيو ديمومبين ، وحاولتُ أن أرفض تلك الكأس ، ولكن تلك السيدة قالت : « أنت المنتصر ، ومن حق المنتصر أن يشرب أول كأس » .

أسعد الله أوقاتك يا مدام ديمومبين !

وفى سنة ١٩٣٥ كنت أراقب الامتحانات فى الجامعة المصرية فسألتنى الآنسة أمينة السعيد أن أسمح لها بتدخين سجارة فقبلتُ ؛ ثم وجدتُ من الزملاء من ينكر ذلك .

وكنتُ مرة أراقب الامتحانات فى معهد الليسيه مع زميلى الأستاذ فرنسيس العِتْر فأرسلتْ إلينا إدارة الليسيه زجاجتين من البيرة لندفع بهما وَقْدة القيظ ، ثم عزّ علىّ أن أشرب البيرة أمام التلاميذ وفيهم مسلمون ، فشرب العِتْرُ الزجاجتين فى نَفَسٍ واحد !

وفى سنة ١٩١٩ زرت الشيخ الجيزاوى مع جماعة من الفرنسيين فعدَّ ذلك من الهَذيان !

وفى سنة ١٩٣٢ زرت الشيخ المراغى مع جماعة من الفرنسيين فرأى ذلك علامة تفوُّق .

والمسلم يرى من الأدب مع ربه أن يغطى رأسه عند الصلاة ، والنصرانى يرى من الأدب مع ربه أن يكشف رأسه عند الصلاة .

فما هي الحدود الصحيحة لمكارم الأخلاق ؟

ليتنى أعرف !

ليتنى أعرف !

أتكون للشرق أخلاق وللغرب أخلاق ؟

وهو كذلك !

ولكن أين الشرق ؟ وأين الغرب ؟

أليستِ مصر من الشرق ؟

بلى ، هى من الشرق .

فما بال جماعة من الوزراء لا يقضون سهراتهم إلا فى سان جيمس والكونتيننتال ؟

وكيف يتفق أن يكون أعظم ما تغنم الجمارك المصرية من مُكوس الشراب ، وفى مصر شيخٌ عظيم يسمونه شيخ الإسلام ؟

أنا أرجو أن يُنْسِىء الله أجلى حتى أفضح هذا النفاق السمج الممقوت .

الحقُّ أن مصر لا تزال كما وصفها حافظ إبراهيم فى كتاب « ليالى سطيح » .

فالمصريون يستبيحون شرب الخمر ، ولكنهم يأنفون من فتح الحانات ، فعليهم الإثم ولغيرهم الغُنم .

والعراق أعقل من مصر فى هذا الباب .

المصريون يشربون الخمر من أيدى الأفاقين الذين تلفظهم بلادهم الشحيحة .

أما العراقيون فيشربون الخمر من أيدى ناس هم فى الأغلب من نصارى العراق .

وقد أخذت درسًا عن أحد الواغلين فى مصر لن أنساه ما حييت :

دخلت أشرب فى إحدى الحانات فلاحظتُ أن الساقى فى غاية من الصحو والعافية ، فدعوته إلى كأس فرفض ، وكانت حجته أنه يلتزم الصحو ليراقب الشاربين .

أنت تراقبنى ، أيها الوغد اللئيم ؟!

وقد انتفعتُ بهذا الدرس فصدفتُ عن غشيان الحانات منذ ذلك اليوم .

والله المسئول أن يحفظنى من السفه والحمق فلا أبدِّد مالى فى إغناء الحمقى والسفهاء .

كيف يجوز لى باسم المدنية أن أهين نفسى فى مصر أو فى العراق ؟

يجب أن أعرف ما أتعرض له من الخطر إذا انتشيتُ .

يجب أن أعرف أن التفلسف لا ينفعنى إذا فتكت بى سَوْرةُ الصهباء .

يجب أن أتذكر أنى قد أصبح قدوة سيئة لأبنائى إذا ارتضيتُ الأنس بالشراب .

يجب أن أوجه نشاطى إلى محاربة الإثم والرجس والغواية والمجون .

وما قيمة القلم إن لم أستخدمه فى الدعوة إلى الفضيلة لأصل به إلى نعيم الفردوس ؟

وهل نحمل القلم لنعقَّ الفضيلة ونفسد أخلاق الناس ؟

هل نحمل القلم لنزيِّن البغى والفسوق ؟

إن مياه البحار قد تعجز عن تطهير ما جنيتُ من فتون فليكن من همى أن أحارب الغواية بقلمى عامًا أو عامين لألقى الله بوجه أبيض وقلب سليم .

إن فقهاء العراق اتفقوا على أن الخمر لا تحرم إلا إذا عُصِرتْ من العنب وخُمِّرت حتى تقذف بالزَّبد ، وهم يتسامحون فيما استقُطِرَ من التمر ، وأنا قد جربت المستقطَر من التمر وهو العرَق فوجدته سيئ العواقب ، وقد شربت منه كأسين فى إحدى الليالى ثم زرت ليلى فكدت أقتلها لأشرب دمها بمحضر من الرقباء .

وليتنى فعلتُ لأتشرف بالفضيحة بالعراق !

أعترف بأن ليلى على هدى وأننى على ضلال .

ولكن من يردُّنى إلى ليلى ؟

لن أرجع إليها بعد اليوم .

أنا أرجع إلى ليلى ؟

إيش لون يصير !

لو كانت ليلى من أرباب الوجدان لهجرتْ فراشها فى هذه اللحظة وجمحتْ إلى فراشى .

لو كانت ليلى من أصحاب القلوب لعزّ عليها أن أبيت مؤرَّق الجفن محزونِ الفؤاد .

لو كانت ليلى من أهل الذوق لساءَها أن أمسى بلا رفيق ولا أنيس .

أنا أبيت فى كرب وتبيت ليلى فى عافية ؟

سأنتقم ، سأنتقم ، سأنتقم .

سأقول فى كل أرض إن أنكر الأصواتِ هو الصوت الرخيم ، وإن أبغض الأشياء هو الطَّرف الكحيل .

وسأقول إن أقبح الناس هم اليتامى لأن ليلى يتيمة .

سأقول إن أخبث الناس هم الملاح لأن ليلى مليحة .

سأقول إن الشجرة الملعونة هى العراق لأن ليلى فى العراق .

سأقول إن الأدب نقمة لأن ليلى تعرف أسرار الأدب الرفيع .

سأقتل ليلى قتلاً .

وسيعلم آل ليلى كيف يدوِّى صوتى فى العراق .

وإنى لواثقٌ بأنْ لن تنوح حمامةٌ بعد اليوم إلا وقد سرقتْ نُواحى ، ولن يطغَى الفرات إلا غَضبًا لشكايتى وبلائى .

ستعرف الشقية كيف أجزيها لُؤمًا بلؤم ، وإيذاءً بإيذاء .

سألقاك يا ليلى فى كل حين .

سألقاك حين تطلع الشمس ، وحين يُشرِق الزهر ، وحين يفيض الفرات .

سألقاك فى هطول الأمطار ، وهبوب الرياح ، وهجوم القيظ .

سألقاك حين تبسمين ، وحين تعبسين .

سأكون أقرب إليك من خيال العمل السيئ فى ذهن الآثم المرتاب .

سأطوِّقك بطوقٍ من حديد وفُتون كما طوقتنى بطوقٍ من حرير وجُحود .

أستغفر الله والحب .

فلن أقف يا ليلى إلا حيث تحبين .

سأقضى دهرى كله فى الطواف حول ذكرياتك الغالية .

وسأذكر الليلة التى اختفينا فيها من القمر تحت الأشجار البواسق .

سأذكر أنك دعوتنى إلى أن أفتضح فى هواكِ النبيل .

وليتنى افتضحت ، ليتنى افتضحت !!

آه ، ثم آه .

لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكمْ يومُ « العتابِ » فعلتُ ما لم أفعلِ

والحمد لله على أنْ لم أفعل ، فسمُعتك هى أثمن ما أحرص عليه فى حياتى .

ليلى ، أحبكِ وأهواكِ ، فاذكرينى بالشعر والدمع يوم أموت .

* * *

انتصف الليل ، ولم يَعُد لى فى زيارة ليلى أملٌ ولا رجاء .

وسأرجع إلى مصر — حيّا الله مصر — لأعاقر الحبَّ مع ليلى المريضة فى الزمالك .

ولكن ما الذى أرجوه من ليلى المريضة فى الزمالك ؟

سأعود إليها جسمًا بلا روح ، وما الفائدة من جسم بلا روح !

وهل أضمن السعادة مع ليلى المريضة فى الزمالك ؟

لى مع تلك الشقية تاريخ وتواريخ .

ولو كان لى بَخْتٌ لما قضت الأقدار بأن أستجير من الرمضاء بالنار فأنتقل من هوى ليلى المريضة بالعراق إلى هوى ليلى المريضة بالزمالك .

إن ليلى المريضة بالعراق تصدِّق فىّ التُّهم الصحائح ، أما ليلى المريضة فى الزمالك فتصدِّق فىّ التهم الكواذب .

ليلى المريضة فى العراق تذكر جميع حسناتى وبعض سيئاتى .

أما ليلى المريضة فى الزمالك فتذكر جميع سيئاتى ولا تذكر بعض حسناتى .

زرتها مرة فى ليلة عيد الميلاد فقالت : وهل نحن من النصارى حتى تختصنى بالزيارة فى ليلة عيد الميلاد ؟

فقلت : لذلك معنًى يا معبودتى .

فقالت : وما معنى ذلك ؟

فقلت : جئت لزيارتك فى ليلة مولد الرسول الذى أحاطت به الشبهات يوم مات ، إن عيسى يا معبودتى الغالية استقبل الدنيا بالكدر والغم ، ثم ودع الدنيا بالكدر والغم ، وقضى عمره كله فى كدر وغمّ ، ومصير عيسى فى دنياه هو الشاهد على أن غدر الأصدقاء سِمةٌ أصيلة من سِمات الوجود ، ولولا غدر الصديق لما اتفق لعيسى أن يفارق دنياه وهو مصلوب .

فقالت : وهل ترى أن عيسى مات مصلوبًا ؟

فقلت : مات عيسى مصلوبًا فى رؤية العين ثم رفعه الله ، وأنا عندكِ مصلوبٌ بفضل الوشايات وسيرفعنى الله .

فقالت : وترى منزلتك كمنزلة الأنبياء ؟

فقلت : أنا أحوج إلى كرم الله من الأنبياء : لأنهم أقوياء بفضل النبوّة ، وأنا ضعيف بفضل الحب .

فقالت : وهل الحبُّ ضَعف ؟

فقلت : وأين مظاهر الضعف إن لم تتوفر فى رجل عارم تذلّه امرأةٌ مكسَّرةُ الجفون ؟

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى مدَّت الشقية يدها فلطمتنى .

وأسرعتُ فقبضتُ على يدها وقبلتها عشر مرات .

وأنا رجلٌ يخافه الأسُود ويطمع فيه الملاح .

* * *

سأرجع صاغرًا إلى ليلى المريضة فى الزمالك بعد أن أهانتنى ليلى المريضة فى العراق .

ومن يدرى فلعل ليلى المريضة فى الزمالك تصهر روحى بفضل ما تسمع فىّ من الوشايات فأصير كالمسيح عليه السلام ، المسيح الذى أسرف فى الدعوة إلى الصفح والغفران .

وهل دعا المسيح إلى الصفح والغفران إلا بفضل ما عانى من أراجيف الناس وظُلم الناس ؟

سأرجع إلى ليلى المريضة فى الزمالك ، وأمرى إلى الله لا إلى الهوى .

سأرجع إلى شارع فؤاد الذى يَعْبُر الزمالك مرةً ، ويعبرُ النيل مرتين

سأرجع إلى مصر التى تتأنق فى صياغة الغدرِ والجحود .

سأرجع إلى مصر لأعرف كيف تكون وَقدةُ الشوق إلى العراق .

فياليت شعرى متى يعرفنى أهل مصر ، ومتى يعرفنى أهل العراق .

إلى الله أشكو لُؤمَ دهرى وصرفَهُ ... وعند الإلـه البَرّ أودِعُ حوبائِـى

٣١

أفي الحق أن ما بيني وبين ليلى انتهى بالقطيعة ؟

هو ذلك ، فكيف أخادع نفسي بانتظار الصفح الجميل !

آفة الآفات في عامي هذا هي العزلة التي اخترتها لنفسي منذ أول يوم دخلت فيه بغداد ، وقد أصبحتْ هذه العزلة طبيعة ثانية لا يمكن منها الخلاص .

وقد درست نفسي مرات كثيرة حين أتصل بالناس فرأيتني لا أستفيد ولا أفيد إلا في قليل من الأحايين ، وكان ذلك لأني حين ألقى الناس أظل وحدي محبوسًا بين أحزاني وأشجاني ، وقد رأيت أن أخفف عن نفسي بعض التخفيف فلم أستطع : لأن ليلى ملأت أقطار ذهني وعقلي بالأفكار والمعاني . وقصتي معها قصة خطرة قد تجرني إلى الحتف أو تجعلني ملهاة السامرين في القاهرة وبغداد ، والله المسئول أن يقيني شماتة الأعداء والحاسدين .

وكان حالي مع ليلى محتملاً بعض الاحتمال إلى أن حلّ شهر حزيران واشتدت زفرات القيظ ، ففي هذه الأسابيع ظهرت غرائز ليلى واضحةً صريحة : فهي تارةً زهرٌ يتنفَّس وتارةً جحيمٌ يتسعَّر . ويظهر أن ليلى أعدتني فتعرقْتُ : فأنا تارةً مثال اللطف ، وتارةً مثال العنف .

وأنا فيما بيني وبين نفسي أعتب على ليلى أشد العتْب .

هي تراني عبدها المطيع .

وهو كذلك ، وهل السعادة إلا أن يطمع في كرمك من تهواه ؟

ولكنها تنسى أني ضيف ، والضيف مرُهف الإحساس يتألم أحيانًا بلا سببٍ مُبين .

هل تعرف ليلى بعض ما قاسيتُ من عتابها الأليم يوم زارتني في داري على غير ميعاد ؟

وهل تعرف ليلى أني أكاد أتميز من الغيظ كلما تذكرتُ أن الدهر قد يضنّ بهواني في دارها مرة ثانية ؟

هل تعرف ليلى أننا قد نفترق إلى غير مَعاد ؟

ما هذه القسوة يا محبوبتي الغالية ؟

إن العمر وإن طال قصير ، فكيف نضيّعه في التلوُّم والتعتُّب !

* * *

ما لي ولهذا التوسل ؟ إن الصخر أرقُّ من قلب ليلى وأعطف .

المهمُّ أن لا تضيع هذه الفرصة ، فرصة التعقيب على ما وقع بيني وبين ليلى من خلاف .

يجب أنْ أدوّن بعض ما يجيش فى صدرى من المعانى ، فمن الحزم أن لا نترك الأفكار تتبخر وتبيد . والأديب الحق هو الذى يقتنص الخواطر عند فورْة العواطف والأحاسيس .

إن هُيامى بليلى هُيامٌ مضيّع ، فما أحسب الدهر سيسمح بأن نعيش عروسين فى مصر أو فى العراق ، وما بقى لى من ليلى غير هذه اليقظة الروحية والعقلية التى تُلهب قلمى وبيانى ، فمن واجبى أن أسارع إلى تقييد ما يجول فى الخاطر قبل أن يصنع الفراق ما يصنع فيخمُد روحى ويتعثر قلمى .

سنفترق ؟ سنفترق ؟

كيف يكون ذلك وقد تغلغل حبُّ ليلى فى شِعاب القلب والروح ؟

وكيف أعيش بعد فراق ليلاى ؟

وكيف يصحّ أن تبحث ليلى فلا ترانى وتسأل فلا أجيب ؟ وهل تسمح يا ربى بذلك ؟

أنا كنتُ السبب فى هذه القطيعة الباغية ، ولم تكن أول مرة أجنى فيها على نفسى .

أنا الذى أثَرتُ ليلى ومهدتُ لها السبيل إلى البغى والعدوان والعقوق .

كانت ليلى تجلس أمامى جِلسة الأدب والخشوع بطَرفٍ متكسّرٍ وقلبٍ مطلول .

وكانت ليلى تعجب لجمودى فى بعض الأحيان فتترفق وتتلطف عساها تُدخل الأنس إلى روحى .

فهل حفظتُ هذا الجميل ؟

ما حفظتُ شيئًا ، وإنما مضيتُ أعتسف حتى كدرتُ المواردالعِذاب .

أعطيتُ مُلْكًا فلم أحسن سياستهُ   كذاك من لا يسوس الملك يخلعهُ

أنا المذنب ، فلينتقم منى الحب كيف شاء .

* * *

ماذا أريد أن أقول ؟ ماذا أريد ؟

وهل تركتْ لى ليلى عقلاً أعرف به ما أعنى ؟

أريد أن أبحث أسباب الخلاف حول الشراب .

ولكن ما الموجب لهذه الوسوسة الخُلقية ؟

وهل كنتُ أول من شرب الخمر من المسلمين ؟

يجب أن أعترف بكل شىء رعايةً لليلى وإنصافًا للتاريخ .

أنا نشأت نشأة صالحة ، فى بيت يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وكان أبى رحمه الله من أصحاب الأذواق ، ولكنه لم يشرب الخمر أبدًا ، وإن كان عرف أن له خالين فى القاهرة يعاقران الصهباء ، أحدهما من كبار الموظفين ، وثانيهما من كبار المحامين .

وفى المدة التى أقمتها بالأزهر الشريف لم أسمع أن من العلماء من يشرب الإثم ، وإن كنت سمعت بعد ذلك أن الأستاذ فلان كان يشرب مع الشاعر فلان ، وكانا من أقطاب الزمان ، فكان الأول إمام العلماء ، وكان الثانى أمير الشعراء .

ومنزلنا فى سنتريس لم تدخل فيه الخمر ، لأن أبى رحمه الله لم يكن يتصور أن ذلك من الممكنات ، وسيصان منزلنا فى سنتريس عن الخمر تكريمًا لذلك الروح النبيل .

ولن أنسى أنى دعوت جماعة من كبار الموظفين لتناول العشاء هناك ، وكان بعضهم من المدمنين ، فلم أقدم إليهم غير الماء القَراح مراعاةً لخاطر أبى طيَّب الله ثراه ونفعنى بدعواته الصالحات .

وهذه النشأة الطيبة كان لها تأثير فيما صرتُ إليه ، فأنا أشعر بأنى سفيهٌ مجرمٌ حين أشرب الخمر ، ومن أجل ذلك تكثر وساوسى الخُلقية فيما يتصل بهذا المعنى .

وقد فكرتُ مرةً فى إقامة منزل على شاطىء النيل فى سنتريس لأدعو إليه أصدقائى حين أشاء ، ثم خطر بالبال أن ذلك قد يساعد على قضاء بعض الليالى الساهرات ، فأهملت المشروع تكريمًا للروح النبيل ، روح الأب العزيز الذى لم يلوِّث فاه بلُعاب الخندريس ، وهو أخطر من لُعاب الأفاعى والصِّلال .

ولكن الأدب الذى تلقيته عن أبى لم يعصمنى كل العصمة من الزيغ .

وكيف أنجو وأنا أعيش فى القاهرة ، وفى القرن العشرين ؟

شربتُ الخمر أول مرة بعد أن اجتزت امتحانات الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية سنة ١٩٢١ ، شربتها مع صديق سخيف لا يستحق أن أُغضب من أجله صاحب العزة والجبروت ، شربتها مع مخلوق رقيع يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية .

وأعترف بأنى كنتُ أعرق منه فى الرقاعة والسخف ، فقد توهمت أنى محتاج إلى خلع الصِّبْغة الأزهرية لأساير التمدن الحديث . والأزهرىّ بين حالين اثنين : الفجور أو العفاف ، ولا يوجد على ظهر الأرض أسخف من الأزهرىّ حين يتظرف ويختال .

ثم لطف الله بحالى حين وصلت إلى باريس فى سنة ١٩٢٧ ، فقد كنت أظن أن من واجب أهل باريس أن يشربوا « الأبيريتيف » وهو شراب ملعون ، ولاحظ ذلك المسيو بلانشو حفظه الله ، فنبهنى إلى أن « الأبيريتيف » لا يواظب عليه من أهل باريس غير الأوغاد ، وأن أحرار باريس لا يشربون غير البيرة والنبيذ .

والواقع أنه لا يوجد فى باريس الماجنة العابثة رجل يشرب معشار ما يشرب الرجل المتظرف فى القاهرة أو فى بغداد .

الرجل الباريسى يطلب نصف كأس من البيرة ، أو نصفين حين يسرف ، ويطلب على

المائدة رُبع لِتر من النبيذ ، ولا يتجاوز ذلك إلا الأوباش .

أما المتظرفون من أهل مصر والشام والعراق فلهم حساب تضل فيه الملائكة والشياطين .

والحقُّ أنى مَدينٌ للتصون الذى خصنى به الله فى مطلع حياتى ، فأنا لم أقترف كبيرة ولا صغيرة قبل الثلاثين ، وما أذكر أنى فرطت فى الفرائض أو النوافل قبل الثلاثين ، ولعل هذا هو السبب فى أنى بقيت شابّ العقل والعاطفة والإحساس بعد الأربعين .

ولو أن الله عز شأنه كان تداركنى برعايته السامية فحفظ حياتى من جميع الشوائب لكان من الممكن أن تصل مؤلفاتى إلى أعظم مما وصلتُ إليه ، ودليل ذلك أنى لم أذق قطرة من الخمر فى الأوقات التى ألفت فيها كتاب النثر الفنى وكتاب التصوف الإسلامى ، بغض النظر عن العبث الذى كنتُ أقترفهُ فى لحظات الفراغ .

يضاف إلى هذا أن من رجال العصر الحاضر من وصلوا إلى منزلة سامية فى التفكير مع التصون والعفاف أمثال مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى وعبد المجيد اللبان ومنصور فهمى وأحمد أمين .

وقد ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالى) فى زمن لا أعرف فيه من المنبهات غير الشاى والبرتقال ، ومع ذلك ظل هذا الكتاب أعظم ما ألفتُ فى مطلع شبابى ، وقد انتفع به كثير من الباحثين ، وكان أساسًا لكل ما كُتب عن الغزالى بعد ذلك .

وهل كان الغزالى يشرب الخمر وهو يؤلف كتاب إحياء علوم الدين ؟

هيهات ، هيهات !!

إن من المؤكد أن نبى الإسلام لم يشرب الخمر أبدًا ، ولم يَفْسُق أبدًا .

ومع هذه الصيانة صلح لتلقى القرآن عند قوم ، ولتأليف القرآن عند قوم .

وهو فى كلتا الحالتين من أعظم العظماء .

وهل كان عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب يشربان الخمر وهما من نوادر الرجال ؟

فما هى الشبهة السخيفة التى تجعل الخمر والمجون من علائم العبقرية ؟

إن للخمر فضلاً واحدًا هو أنها كدرتْ حياتى ، ولو كان الله نجانى من هذا الإثم لكنت اليوم من كبار الوزراء واستغنيت عن اللجاجة مع ليلى وظمياء .

وكيف يطيب العيش بدونْ ليلى وظمياء ؟

صدق والله شوقى حين قال :

سَيْطَرَ الحبُّ على دنياكُمُ ... كل شيءٍ ما خلا الحبَّ عَبَثْ

إن ليلى من همى وإن أنكرتنى .

أحبك يا ليلى ، وليتنى أعرف كيف تكونين ساعة الصفاء .

إيش لون يصير !

آه ، ثم آه ، منك يا شقية !

أتعرفين عواقب ما تجنين ؟

أتريدين أن تحوّلينى إلى ملَك ؟

وأين أنا من هذا المطلب العالى ؟

أنا مخلوقٌ أرضىٌّ يتسامى إلى معشوقة سماوية ، إن شاء لك الوفاء أن تكونى سماوية الطباع .

أنا الرجل الذى تعرفين : الرجل الذى أهانك بقُبلةٍ أثيمة فى رحاب الكاظمية .

لِمَ تنفرين منى ، أيتها الغزالة الدعجاء ؟ لم تنفرين منى وأنا أثمن ما ملكت يُمناكِ ؟

وما ذنبى حتى أُجازَى بالقطيعة وأنا غريب ؟

أنا غريب ، يا ليلى ، غريب .

غريبٌ مفارِقٌ سيشرب كأس اللوعة بعد أيام ثم لا يجد السبيل إلى التداوى برشفة من ماء الفرات .

غريب لا يعرف متى يرجع إلى العراق .

غريب سيظلُّ فى كروب وأشجان إلى أن يغرق فى دجلة أو فى النيل .

أيؤذيكِ أن أشرب كأسًا من الخمر ، ويدى هى التى عناها جدك الشريف الرضى حين يقول :

فلا عارَ أن تستنجدَ الكأسَ راحةٌ أضرَّ بها حمل الجُراز المصمَّم

لم أكن لاهيًا يا ليلى ، ولو كنتُ لاهيًا لما استطعت أن ألقاك ولى مؤلفات تعدُّ بالعشرات ، ومقالاتٌ ورسائل تعدُّ بالمئات أو بالألوف .

أنتِ التى تنكرين الكأس ؟

آمنت بالله وكفرتُ بالحب !

وما عسى أن تكون الكأس بجانب ما شربتُ من عينيك الناعستين ؟

ألا تذكرين ؟ ألا تذكرين ؟

ألا تذكرين يا لئيمة ما صنعتِ بقلبى يوم التقينا بالكرادة الشرقية ؟

ألا تذكرين يوم غضبتُ عليك أمام خالتك الرفيقة ، فلما عاتبتْكِ على مكايدتى قلتِ بعنفٍ وغطرسة « خلِّيه يولِّى » .

أَنا أُولِّى ؟ أَنا ؟ أَنا أُولِّى يا ليلى ؟ وإلى أَين وقد صيرتِ الدنيا أَمام عينىّ أضيق من سَمِّ الخِياط ؟

ستعرفين عواقب ذلك يا شقية يوم تيأَسين من رجوعى إلى العراق .

بأى حق يجوز لكِ أيتها الآثمة الجانية أن تقتلينى بعينيك الناعستين وأنا غريب ؟

غريبٌ دعاه الشوق واقتاده الهوى　　كما قِيـدَ عَـوْدٌ بالزمـــام أديبُ

ليلى . اسمعى يا ليلى .

كان هُيامى بسحرك الغلاب من أغرب ما أضمرت الأَقدار لسفير العُروبة المصرية فى العراق كما وصفتنى جرائد لبنان .

وحسبى من الشرف أن أكون .

« سفير العروبة المصرية فى العراق »

حضرة الاستاذ الفاضل الدكتور الزكي المبارك

انت الزكي الذي لم — يشق قوم غبارك
فقت الانام بخلق — بمثله لم تشارك
باركت في الخلق ثوبا — من لطفه قد اعارك
ان عز بالناس جار — فانت اعززت جارك
وان تبارك نفسا — انا الزكي مبارك

سلام اسنى وتحياة حسنى لك مني ايها الاخ الذي احببته والله قبل ان اراه وكنت امني نفسي بملاقاته والحمد لله على تلك الصدفة الطيبة التي حققت مناي لما التقيت بالاخ الاستاذ وجدت فيه الفضائل في الصديق المنشود وعلى ان تلك الجلسة وان لم تطل فقد كشفت لي عن نفسية الاستاذ التي تشف عن لطفها ذلك المحيا الرقيق

اخي زرتك مرتين في النزل فوجدتك مستريحا نائما فلم احب ازعاجك كيف وانا اتمنى لك كل راحة وهناء والذنب مني لاني لم ازركم في الساعة الثالثة بينما كان وعدكم في الحي مسسه التي كنت فيها مشغولا ـ

لعلي الاقيك عن قريب ان شاء الله واسألك عن ليالي بغداد ابن هي من ليالي سنتريس او ليالي باريس وعلى كل فاني ارجوك ان تكون مستريحا ناعم البال هادئ الحواس بالرغم اذا هيأت لك شقة منزل تنقلك عن تاكسي بالاس وعن ضوضائه وغلاء اثمانه ورخص مثواه ؛ وعلى اي حال فالامل انني اذ زرتك للمرة الثانية اجدك مستيقظا بعد الظهر مرجئا نومتك الى الليل زادك الله هناء وراحة وسلام لك ايها الاخ وللدكتور عفراوي وارجوه ان يسمعك قصيدتي في اطباء العراق فانه معجب بها وستعجبك ايضا ودم بخير لاخيك المخلص

٣٢

ظهر كتاب (عبقرية الشريف الرضى) منذ أسابيع ، وقد استقبله العراقيون أكرم استقبال .

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب وطبعه فرصةً للراحة والاستجمام ، وأين يستجمُّ مثلى ويستريح ؟ إن بغداد ضيقة وليلى تبث حولى العيون والأرصاد ، فلم يبق إلا الطواف بأروقة وزارة المعارف لمناوشة مَن هناك من الموظفين أمثال السادة محمد حسين الشبيبى ومحمد بهجة الأثرى وسلمان الصفوانى ومحمد صادق الوكيل ومن يختلف إليهم من حملة الأقلام فى بغداد .

أما السيد محمد حسين الشبيبى فقد أِلفته مدة ثم صدفتُ ، لأنه كان يريد أن يَهبَنى دارًا أُقيم بها فى الكرادة الشرقية ، وذلك باب من الكرم واللطف ، ولكنى خشيتُ أن يكون أراد إبعادى عن ظمياء .

وأما السيد محمد بهجة الأثرى فكان حالى معه من الأعاجيب : كان جِنيًّا يرانى ولا أراه ! وتعليل ذلك سهل : فقد كانت حجرته مظلمة وكانت نوافذها مغطاةً بشبكات من الأسلاك « ومَن فى النور لا يرى من فى الظلام » وكذلك كان يرانى حين أمرّ بالدهليز ولا أراه فيدعونى حين يشاء ، ويتناسانى حين يشاء . وأغلب الظن أنه لا يدعونى إلا حين يشتاق إلى من يفهم أسرار البلاغة فى قصائد الجياد .

لم يبق إلا مكتب السيد سلمان الصفوانى ، وقد انجذبتُ إليه نفسى كل الانجذاب ، والأشرار يأنس بعضهم إلى بعض .

يضاف إلى ذلك أن السيد صادق الوكيل كان يجاور الصفوانى . وصادق الوكيل شابٌّ مهذَّب ، ولا يعاب عليه إلا جاذبية خفيفة توجب أن يتطلع القلب إلى لقائه من حين إلى حين .

* * *

أنا أذهب إلى وزارة المعارف كل يوم لأرى هؤلاء الرفاق ، ولأتناول الغداء مع صادق الوكيل حين يجوع ، وهو يجوع فى كل وقت .

والحق أن صادق الوكيل تحفة ، وهو نموذج للصديق النافع : فهو يحضر كل ما يهمنى الاطلاع عليه من نادر المؤلفات ، وينسخ أو يستنسخ ما أحتاج إليه من الوثائق والأسانيد .

وأُنسى بأولئك الرفاق الأوفياء كان نعمة ساقتها إلىّ المقادير ، فلولا الأنس بهم لقتلتنى الوحشة من غضب ليلى ، ليلى التى تغضب من كل شىء ولا ترضى عن شىء .

أحبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، أُحبك يا ظلوم .

* * *

زاد أُنسى بوزارة المعارف ، وأصبح لى فيها أصدقاء يتطلعون إلى لقائى فى كل صباح .

ولكن ما بال وزارة المعارف تُفزِعنى فى هذا اليوم ؟

دخلتُ فى الساعة العاشرة فوجدتُ جماعة من طلبة الحقوق متجمهرين أمام حُجرة الوزير ، وما كادوا يلمحوننى حتى سارعوا إلىّ غاضبين صاخبين .

وما شأنى بطلبة الحقوق ؟

ما شأنى ! ألم يكونوا يروننى كل يوم مع أساتذة كلية الحقوق ؟

ابتدرنى أحدهم فقال : هل تتحمل الحكومة المصرية تَبعة أعمال محمود عزمى ؟

فقلت : إن الحكومة المصرية لم ترسل إليكم الأستاذ محمود عزمى وإنما اختارته حكومة العراق لأنه كان ولا يزال من أصدقاء العراق .

وصاح طالب آخر : هل تظن أن محمود عزمى سيجدِّد عقده ليرجع فى العام المقبل ؟

فقلت : ذلك فى ضمير الغيب . وما كنت أنتظر أن أسمع مثل هذا الاستفهام الطريف !

وصرخ طالب ثالث : هل يجوز للأستاذ أن يُفهم تلاميذه أثناء تأدية الامتحان أنهم سيرسبون فى الامتحان ؟

فقلت : هذا غير معقول .

فقالوا : هذا ما صنعه سيف .

فقلت : اسمحوا لى أن أتهمكم بالتزيد ، فما يستطيع الدكتور سيف أن يقع فى مثل هذا الغلط .

فقالوا : عندنا شهود .

وبعد نِقاشٍ دام بينى وبينهم بضع دقائق تخلصتُ منهم وانصرفت .

* * *

يظهر أن محمود عزمى مُقبلٌ على أخطار ، فما هو تاريخ هذا الرجل فى العراق ؟

إن ذهنى مشرَّدٌ فى هذه الأيام ، وحوادث هذا اليوم آذت أعصابى ، وزادتنى تعبًا إلى تعب ، وقد فكرتُ فى مقابلة معالى الأستاذ الشبيبى بعد النقاش الذى دار بينى وبين طلبة الحقوق ، ولكنى لم أعرف بالضبط ماذا يجب أن أقول ، فأمثال هذه البدَوات ليست غريبة من الطلاب ، وهى تقع فى مصر كما تقع فى العراق ، ولعلها تنتهى بسلام .

يهمنى أن أدوّن فى هذه المذكرات كلمة عن حياة محمود عزمى فى العراق .

ولكن هل تسعفنى الذاكرة بما أريد ؟

لقد انقضت الأشهر الماضية والدنيا تموج بالحقائق والأباطيل ، ومع ذلك كان اسم مصر يعطّر الأندية والمجالس فى سائر أرجاء العراق .

ونحن فى اليوم التاسع عشر من شهر حُزَيْران وسنرجع إلى مصر فى اليوم الثالث والعشرين ، فليس أمامنا للإقامة فى بغداد غير ثلاثة أيام ، ثم لا يكون بيننا وبين أهل العراق غير الذكرى .

على أننى مطمئنٌ إلى حُسن الخاتمة ، فالطلبة الذين يثورون اليوم كانوا منذ أشهر أمثلةً من الأدب والذوق ، وكانوا يحيطون عزمى وسيف بأصدق عواطف التبجيل ، وإنى لواثقٌ بأن كلمةً لطيفةً يفوه بها أحد الأساتذة تكفى لتهدئة هذه الثورة العَصُوف .

وشواهد ذلك تحت يدى ، فقد شكا إلىّ جماعةٌ من الطلبة بعضَ ما ساءهم من محمود عزمى ، ودعونى للتوسط ، فأشرت عليهم بأن يتوجهوا إليه بلا وسيط ، وكان ما رجوتُ أن يكون ، فقد استطاع محمود عزمى بلطفه ولباقته أن يستلّ من صدورهم دفائن الغضب والغيظ ، وهو رجل معسول الحديث .

أنا مطمئنٌ إلى حُسن الخاتمة ، ولكن مظاهرة الطلبة بوزارة المعارف قد تتكرر وقد تكون لها عواقب : فهم يعيشون فى جحيم القرن العشرين وهم يسمعون أن مصاير الكليات فى مصر ليست فى أيدى الأساتذة وإنما هى فى أيدى الطلاب .

ولا يخيفنى إلا هذه الأيام القصار ، الأيام الثلاثة التى بقيت من أيامنا الطوال فى بغداد ، أما العام المقبل فهو فى ضمان الله ، ولن يظلّ الطلبة غاضبين ، فستجدُّ لهم فى الصيف شؤون تنسيهم متاعب السنة الدراسية ، وسيذكرون أساتذتهم بالخير حين يتمثلون ما كان بينهم وبين أساتذتهم من معانى المودة والعطف ، وهم على كل حال قريبو عهد بحياة الطفولة البريئة التى لا تتأصل فى صدرها الضغائن والحقود .

وأين الطالب الذى قُدَّ قلبه من الصخر فلا يذكر ما عانى أساتذته فى تربيته وتثقيفه ؟

لقد وقع لى مع الأستاذ إسماعيل بك رأفت رحمه الله حادثٌ يشبه هذه الحوادث ، فقد كان أسقطنى فى امتحانات الجغرافيا ووصف الشعوب مرتين حين كنت طالبًا بالجامعة المصرية ، وحملنى الغضب والغيظ على أن أؤلف كتابًا فى ثلبه وتجريحه ، ثم هدأت نفسى حين تذكرت أنه لم يكن يريد غير الخير ، فرجعت عن غيى وطويت الكتاب ، وكنتُ أصْدَق من بكى عليه ورثاه يوم مات .

ومحمود عزمى فى هذه الأيام وصل إلى حال تشبه أحوال المساكين ، فقد هدَّه التعب وظهرت عليه الشيخوخة حتى ليكاد يُنكره من يراه ، فمن البعيد أن لا يذكر تلاميذه أن الأدب

يوجب أن ينظروا إليه بعين العطف والرفق .

أنا مطمئنٌّ إلى حُسن الخاتمة ، ولكنى مع ذلك قَلقٌ مُرتاع .

* * *

أحب أن أكتب كلمة عن تاريخ محمود عزمى فى العراق ، كلمة قصيرة فى حدود ما يسمح به هذا الجوُّ القائظ الذى يفرض على الحمائم أن تنوح صباحَ مساء .

والله يعلم أنى أكتب ما أكتب وأنا مكروبٌ مكدود : فما ساغ لى طعامٌ ولا شرابٌ منذ يومين ، وإن كنت ألقى إخوانى فى بغداد بوجهٍ ضاحكٍ جَدلان ، ولعل همومى تخفّ أو تزول حين نَسمُر فى مساء الغد بمنزل الدكتور الجمالى ، فسيكون معنا الدكتور عزمى ، وقد تسنح الفرصة للمداولة فى حلّ المشكلات التى تعترض طلبة الحقوق فيغمر السلام ما بقى من أيامنا فى بغداد .

* * *

أحب أن أقول كلمة عن حياة محمود عزمى فى العراق ، كلمة قصيرة يوجبها نظام هذه المذكرات ، وهى تشرح بعض الشرح ما أدّى إلى حوادث هذا اليوم ، فلكل نتيجة مقدمات .

ولكن ما الموجب لعناء الكتابة فى هذا القيظ ؟

ومن الذى يطالبنى بذلك ؟

وما قيمة السُّخف الذى يسمونه التاريخ ؟

أفى الحق أن الإنسانية تستفيد من تقييد الحوادث التاريخية ؟

لو كان ذلك ينفع كما يزعم الزاعمون لما تكررت مآسى التاريخ .

ولكن هل أكون أول عاقل فى الوجود ؟

لو كنت عاقلاً لبدأت بنفسى فجنّبتُها مكاره الجب ، ولو أنى فعلتُ لنجوتُ من بلايا كثيرة أخفُّها ألم المرارة الذى يعاودنى من حين إلى حين بفضل ما عانيت من اللواعج والشجون .

إن ضياع الوقت فى تاريخ محمود عزمى فى العراق قد ينفع بعض النفع ، فهو سيشغلنى ساعة أو ساعتين عن التفكير فى مصيرى مع ليلاى ، التى تقضى هذه الساعة القائظة فى هُجودٍ مُريح بعد تناولُ غدائها الخفيف من الفاكهة واللبن المثلوج .

ومن المؤكد أنها تنام الآن بلا شِعار ولا غطاء ، وهى أحلَى ما تكون حين تُسلم نفسها عاريةً إلى سريرها الأمين .

لو كنت أراها فى هذه اللحظة !

لو كنت أخرج فأطير إليها لأرى كيف تُناغى الأحلامَ فى هذا الوقت ! إيش لون يصير !

يالئيمة ، ماذا تريدين متى ؟

أَغْفي خيالى من ذكراك لحظةً واحدةً لأدوِّن هذا التاريخ .
أُخرُجى من دنياى لحظة واحدة لأرى أن فى الدنيا أشياء غير لواعج الصبابة والحب .
أُتركينى لحظةً أو لحظتين .
إرحمينى ، يا ليلى ، فلى فى دنياى هموم غير هموم الصبابة والحب .
ليلى ، ليلاى .
كيف تكونين فى هذه اللحصه ؟
أنا أعرف كيف تكونين ، وأكاد أُقبِّل الطلائع من صدركِ الجميل .

* * *

ما هو تاريخ محمود عزمى فى العراق ؟

فى مطلع الربيع من السنة الماضية دعانا الأستاذ محمد على الطاهر إلى حفلة شاى لمصافحة الأستاذ محمود عزمى قبل رحيله إلى العراق ، وكانت حفلة خفيفة الروح تبادلنا فيها الكلمات الطيبات ، وألقى الأستاذ إبراهيم الدباغ خطاباً قال فيه « إن الأستاذ محمود عزمى متهمٌ بضعف العقيدة وليت المؤمنين كانوا فى أخلاق هذا الملحد الذى يعرف كيف يواسى إخوانه حين تجب المواساة » .

وخطبت أنا أيضاً ولكنى لا أذكر ما قلت يومذاك ، ولما وقف محمود عزمى ليلقى كلمته علَّق على عبارة رُقِشَتْ فى صدر بطاقة الدعوة وهى « لا خُطب ولا قصائد » « فترجمها إلى الفرنسية بعبارة » : NI FLEURES , NI COURONNES

وقد ابتسم الحاضرون لهذه العبارة ، أما أنا فقد تشاءمتُ لأن هذه العبارة فى أصلها الفرنسى كانت تُكتب فى ورقة إعلام الوفاة ، الإعلام الذى يرسله أهل الميت إلى المعارف والأصدقاء ، وما أنكر أن هذه العبارة تطورتْ فصار يراد بها الدعوة إلى رفع التكليف ، ولكنها مع ذلك وقعتْ من نفسى أسوأ موقع وقد خِفتُ أن تكون نذيراً بموت محمود عزمى فى بغداد .

وبعد انصراف المدعوين جلس بعض الإخوان يَسْمُرُون ، ودار الحديث حول ما يُنتظَر أن يصير إليه محمود عزمى فى العراق ، واتفقت كلمتنا على أن محمود عزمى رجلٌ يمتاز بثقافة واسعة وتفكير دقيق ، ولكن ما ضيه فى حياته الأدبية والسياسية يشهد بأنه فى احتياج إلى أن يُرزَق حُبَّ العُكوف على عمل واحد والبعد عن مناوشات الأحزاب .

وفى صباح اليوم التالى نشر الأستاذ أحمد الصاوى كلمةً فى جريدة الأهرام أشاد فيها بفضل العراق ، وأعلن أسفه الموجع على أن تضيق مصر فى وجه رجل مثل الدكتور محمود عزمى ، ثم حمد الله على أن يكون لأمثاله مجالٌ فى خدمة العراق .

* * *

دخلتُ بغداد فى صباح اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول ، ومضيتُ فسلمتُ على معالى وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء وقيدت اسمى فى قصر جلالة الملك ، وانطلقتُ فألقيت الدرس الأول بدار المعلمين العالية ، وكنت لا أزال بغبار الطريق ، ورجعت إلى الفندق فاسترحت قليلا ، ثم أخذت عربة وذهبت إلى جريدة البلاد لأسأل عن مقر الأستاذ محمود عزمى فطلبه السيد زعرور بالتليفون ، وكانت دهشتى عظيمة حين عرفتُ أنه يقيم بالفندق الذى نزلت فيه .

فرحتُ جدًّا بلقاء الأستاذ محمود عزمى ، فنحن أصدقاء برغم ما كان وقع بينى وبينه فى باريس ، وتفضل فدعانى للعَشاء .

ثم دار الحديث ونحن على المائدة فعرفت أن مركز الأساتذة المصريين فى العراق كان تعرَّض للعواصف فى السنة الماضية بسبب مناوشة صحفية ثارت حول الدكتور على عبد الواحد الذى انتُدِب من الجامعة المصرية مفتِّشًا للغة العربية بمدارس العراق .

وأصل الحكاية أن أحد المدرسين السوريين سمع من الدكتور على عبد الواحد ما لا يرضيه فهجم عليه ذلك المدرسُ فى إحدى الجرائد وادَّعى أنه خالٍ من المؤهلات العلمية وأنه فى مصر من النَّكِرات .

ومن الواضح أن مثل هذا الهجوم لا يقوم على أساس ، وما كان يمكن أن يَلتفت إليه أحدٌ من أهل العراق ، ولكن الدكتور على عبد الواحد ضعيف الأعصاب إلى حدٍّ مُزعِج ، وقد اشتجرتُ معه مرةً يوم كنا طالبين فى جامعة باريس ، ولولا لطف الله لتضاربنا علانيةً فى أحد المطاعم ، ومَن كان فى مثل هذه الحال من ضعف الأعصاب لا يبعد أن يقع منه ما وقع ، فقد ساءه أن يُشتم فى جريدة عراقية فامتطى طيارة ورجع إلى مصر بدون أن يستأذن رؤساءه فى بغداد .

وفهمتُ من الأستاذ محمود عزمى أن مشكلة الأستاذ على عبد الواحد لم تكن المشكلة الوحيدة التى صادفت المصريين فى بغداد ، فهناك أستاذٌ ثانٍ ترك عمله قبل أن تنتهى السنة الدراسية ، وهو الأستاذ عبده حسن الزيات ، وأستاذٌ ثالث وقع بينه وبين بعض رجال المعارف خلاف ، وتحدثتْ عنه بعض صحف بغداد بما لا يحب فترك عمله فى العراق قبل أن تنتهى مدة العَقد .

وقد آذانى ما سمعتُ فقضيتُ أول ليلة فى بغداد وأنا محزون .

* * *

وفى صباح اليوم التالى حضر لتحيتى شابٌّ يراسل السياسة الأسبوعية هو السيد فخرى شهاب ، وهو من المعجبين بالأستاذ محمود عزمى كل الإعجاب ، وقد قصَّ علىّ نادرة يحسُنُ

تدوينها فى هذه المذكرات ، لأن لها نظائر سأشير إليها فيما بَعد .

حدثنى أن الأستاذ عزمى دخل إحدى المدارس فقال للتلاميذ : هل تعرفون أن اختلاف السُّنة والشيعة أضر بالعراق ؟

قالوا : نعم .

فقال : وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

قالوا : ذلك داءٌ حار فيه الأطباء .

فقال : الداء يرجع إلى الأساس الذى قام عليه هذا الخلاف .

قالوا : وما هو ذلك الأساس ؟

فقال : هو الإسلام ، ولو خرج العراقيون من دينهم ورجعوا إلى الفطرة لزالت أسباب هذا الخلاف .

قال الراوى : فتدَّخل مدرِّس الديانة باللوم والاعتراض ، وكان لهذه المحاورة صدًى فى أندية بغداد .

* * *

والحكاية غريبة ولكن وقوعها من الأستاذ عزمى غير مستحيل .

فلهذا الرجل سوابق من هذا النوع ، وهو الكاتب الوحيد الذى اعترض على أن يُنصَّ فى الدستور على أن دين الدولة المصرية هو الإسلام ، وكان يسميه « النص المشئوم » فى كلمات نشرها بجريدة الأهرام وجريدة الاستقلال .

وهناك سابقة ثالثة وقعت منه يوم كنا فى باريس ، فقد أثنى عليه الدكتور بشر فارس فى أحد المحافل وقال : إنه يريد أن يكون الإسلام إسلامًا ، فاعترض الأستاذ عزمى قائلا : أنا ما يهمنى أن يكون الإسلام إسلامًا !

والواقع أن الأستاذ عزمى صحيح العقيدة وإسلامه غير ضعيف ، ولكن بعض خصومه أسرفوا فى اتهامه بالزندقة والإلحاد ، فقابل الإسراف ولسانُ حاله يقول : لكم دِينكم ولِىَ دين .

وهذا الصِّنف من المثقفين كثير الوجود ، وهو يحتمل فى كثير من الأحيان ، لأنه فى الواقع لا يكفر بالله وإنما يثور على أوهام الناس .

ولكن من يظن أن هذه البدَوات العقلية تمرُّ بلا جزاء فى كل مكان ؟

إن أهل العراق كسائر المسلمين لا يُرضيهم أن يتعرض إنسان بسوءٍ لأصول الدين الحنيف .

لم يكن عزمى أول من أشار بالارتداد عن الإسلام لتنقية الفطرة من أوهام المخرِّفين من أتباع الدين ، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ محمد فريد وجدى ، ولكن فريد وجدى يُقبَل منه كل

شىء ، لأنه قضى حياته فى الدفاع عن الشريعة الإسلامية ، أما محمود عزمى فرجلٌ يعلن أن إيمانه مقصور على الحقائق التى يؤيدها العلم الحديث ، ومن أجل هذا يقع هجومه على الإسلام موقعًا غير مقبول .

رأيت من واجبى أن أتصل بالمصريين المقيمين فى العراق عسانا نتعاون على تبديد الشبهات التى خلقتها حوادث السنة الماضية ، فكنتُ أزور زملائى بكلية الحقوق فى كل يوم ، وساعدنى على ذلك أنْ كانت كلية الحقوق بجوار دار المعلمين العالية ، وأنْ كانت هيئة التدريس مكوَّنة من مصريين وعراقيين على جانب عظيم من أدب النفس ، فمن المصريين الأستاذ محمود عزمى وهو فى قلبى صديقٌ محبوب وقد طوَّق عنقى بجميل لا أنساه وهو الخطاب الذى ألقاه فى الحفلة التى أقيمت لتكريمى فى بغداد ، ومنهم الأستاذ محمود سعد الدين الشريف ، وهو شابٌّ حُلْو الشمائل طاهر القلب ، ومنهم الأستاذ حسن سيف أبو السعود وهو فتًى عذب الحديث لا تفوته النكتة الإسكندرانية ، ومنهم الأستاذ أحمد فهمى وهو إنسانٌ راجح العقل ، ومنهم الأستاذ عبد العزيز محمد وهو مثالٌ عالٍ من التكوين الفقهى ، وقد ظلَّ مرضيًّا عنه إلى آخر لحظة قضاها فى بغداد .

ومن العراقيين الأستاذ منير القاضى وهو من عيون أهل الفضل فى الحياة الفقهية ، والأستاذ مكّى الأورفه لى وهو رجلٌ سَمْحٌ ولأسرته مكانٌ مرموقٌ فى بغداد .

* * *

ولتنسُّم الهواء فى هذه البيئة العلمية كنتُ أزور كلية الحقوق فى كل يوم بعد أن تنتهى دروسى بدار المعلمين العالية .

وفى خلال ذلك كانت تقع بينى وبين الأستاذ عزمى مداعبات فى الأندية والمحافل يتناقلها السامرون من أهل العراق(١) .

ونشط الأساتذة المصريون فزحموا المطابع بأطايب المؤلفات وأصبح نشاطهم مضرب الأمثال .

وما حان موعد العطلة الربيعية حتى كان المصريون استردُّوا ما كان ضاع منهم فى السنة الماضية ، وحتى كان محمود عزمى فى طليعة الموفَّقين بفضل انقطاعه لأعمال كلية الحقوق وعُكوفه على الواجب صباحَ مساء ، وهذا الرجل إذا انقطع لعملٍ بَلغ من الاجادة فيه أبعد الحدود .

* * *

(١) تجد شواهد هذه المداعبات فى كتاب « وحى بغداد » .

وبحلول العطلة الربيعية بدأت المتاعب .

سافر محمود عزمى إلى مصر وكنتُ اتفقتُ معه على أن يبقى فى العراق ليقىَ نفسه شرًّ ما فى مصر من فتن سياسية ، وليته سمع نُصح الصديق .

وما كان عليه من عيب فى أن يسافر إلى مصر ، فقد كنتُ أنا أيضًا أحب أن أقضى تلك الإجازة بين أهلى، لولا انشغالى بالمؤتمر الطبى العربى الذى عُقد فى بغداد ليعيننى على مداواة ليلى المريضة فى العراق .

ما كان على محمود عزمى من عيب فى أن يقضى العُطلة الربيعية فى مصر ، ولكنى سمعت بأذنىَّ تعليقات تحدث بها أهل بغداد ، وهم فى الأغلب لا يتحدثون مازحين ، فقد قيل إن محمود عزمى سافر إلى مصر ليجسّ النبض ، أى نبض ؟ نبض الحكومة الجديدة التى أُلِّفتْ بعد إقالة الحكومة النحاسية ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يبحث عن عمل فى الحكومة المصرية يغنيه عن العمل بحكومة العراق .

وقد قوّى هذه الشبهة أن المجلات المصرية أخذت تتحدث عن منصب قيل إنه سيُسنَد إلى الأستاذ محمود عزمى وهو رياسة قلم المطبوعات .

ومن حق الأستاذ محمود عزمى أن يعيَّن فى الحكومة المصرية بعد أن أصبح أقطابها من أصدقائه القدماء ، ولكن أهل العراق يؤذيهم أن لا يعرفهم الناس إلا فى أيام البؤس ، فقد كان حين استقدموه للعمل بالعراق مغضوبًا عليه من الحكومة المصرية لذلك العهد .

* * *

وقد رجع محمود عزمى إلى العراق ، ولكن كيف ؟ رجع وفى يده ثلاث نسخ من أول عدد من جريدة الدستور وفيه مقالٌ بقلمه الرشيق ، وكان معنى ذلك عند أهل بغداد أنه سيتركهم بعد أيام .

* * *

وهناك مسلك لم يسترح إليه العراقيون وإن جهله محمود عزمى ، فقد كان بغريزته السياسية — وهى غريزة تأصلتْ فيه — كان بتلك الغريزة مشغوفًا بحضور جلسات مجلس النواب العراقى ، وكانت تلك الجلسات مثارًا للجدال والصيال من حين إلى حين ، وكان محمود عزمى يستبيح التعليق على ما يدور فى تلك الجلسات ، يستبيحه علانيةً فى الأندية والمعاهد ، وكان يُوهِم محدثيه بأنه على اتصال بالمقامات السياسية العالية !

وهذا المسلك يراه العراقيون من الفُضول ، فهؤلاء الرجال يحبون أن يعتمدوا على الأساتذة المصريين فى توجيه الدراسات العلمية والأدبية ، ولكنهم يكرهون من يتدخل فى شؤونهم السياسية . وقد أشار الأستاذ سامى الكيالى فى مجلة الحديث إلى أن الأساتذة السوريين لن يطول

بقاؤهم فى العراق إلا إذا انصرفوا انصرافًا تامًّا عن التدخل فى الشؤون السياسية وعرفوا أنهم يُستَقْدَمون لعمل أنفع من خدمة الأحزاب .

* * *

يضاف إلى هذا أن نجاح محمود عزمى فى العراق سهَّل عليه أن يمزح كيف يشاء ، وفى العراقيين شىء كثيرٌ من حِدَّة الطبع ، وقد يرون فى المزاح شيئًا من السخرية فيغضبون .

وهو نفسه قد حدثنى أنه كلَّف أحد طلبة الحقوق بدرس من دروس التمرين ، فلما وقف الطالب يتكلم لاحظ عليه أنه يؤدِّى مخارج الحروف تأدية قوية فيغنُّ ويمدُّ ويفخِّم ويرقِّق وفقًا لأصول التجويد ، فابتسم ابتسامة السخرية وقال : انت كنت فى الأزهر ؟

فقال أحد الطلبة : لقد جاء من النجف !

وكانت نكتة ضحك لها فريقٌ وتألم منها فريق .

وإنما تألم من هذه النكتة من تألم لأسباب يعرفها من يتذكر أن التعليم فى النجف كالتعليم فى الأزهر ، فهو فى ذاته تعليمٌ متين ، ولكن تقاليد العصر الحديث لا ترتاح إليه كل الارتياح ، ونحن فى مصر نعرف أن السخرية من الأزهريين لا تقابل بالقبول فى كل حين ، فكيف يتلقاها النجفيون بالقبول ؟

على أن السخرية من الأزهر غير السخرية من النجف ، فالنضال بين الأزهريين وغير الأزهريين نضال بين مذهبين فى التعليم ، وهو نضال لا يثير فتنة ، أما النضال بين النجفيين وغير النجفيين فهو نضال بين عقيدتين ، وهو نضال يتحاماه العقلاء .

* * *

رجع محمود عزمى إلى بغداد بعد أن استقر فى الأذهان أنه سيتركها بعد قليل .

وكنت أحب أن أراه بعد رجوعه من القاهرة وأن نستأنف سهراتنا فى فُندق مُود وأحاديثنا فى كلية الحقوق ، ولكن الشواغل صرفتنى عما أريد ، فقد كانت ليلى تمردتْ علىَّ كلَّ التمرد ، ومضيتُ أبحث عن الشفعاء فى الحواضر العراقية بلا جَدْوَى ولا غَناء . وكان يزيد فى نُفرتى من الاتصال بزملائى فى كلية الحقوق عِرفانى بأنهم عاتبون ، أو حاسدون ، فقد ساءهم أن يكون لى مع ليلى كل ذلك التاريخ .

وأحمِلُ فى ليلى لقومٍ ضغينــةً ... وتُحمَل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

* * *

وفى تلك الأثناء كانت تصل إلى سمعى أنباءٌ مزعجةٌ عن كلية الحقوق ، فقد سمعتُ أن الدكتور سيف اضطُرَّ إلى أن يخرج من حجرة الدرس مرة أو مرات . والفرارُ من حجرة الدرس كالفرار من ساحة القتال . وسمعت أن الدكتور عزمى يسأل الطلبة عن مذاهبهم الدينية

وأنه يتلقى منهم خطابات تهديد ، وأن بعضهم واجهه بكلمات لا تخلو من عنف ، وأن ذلك البعض فُصِل من الكلية بأمر وزير المعارف محافظةً على مركز وكيل العميد ، فمضى الطالب وهو فى ثورة الانفعال فألف رسالة فى شتم محمود عزمى ، وقد أمرت الحكومة العراقية بمصادرة تلك الرسالة ومنعها من الوصول إلى أيدى الناس ، ولكن ذلك لم يمنع من أن أسمع وأنا فى الموصل أنها وصلت إلى هناك ، ولعلها وصلت إلى غير الموصل من البلاد العراقية . والقليل من الشر كالقليل من النار يحسب له العاقل ألف حساب .

وحملتنى هذه الأنباء المزعجة على أن أسحب من جريدة الكلام مقالاً كنت كتبته فى نقد النظام المتبع فى كلية الحقوق العراقية ، نظام الاكتفاء بالمذكرات ، وكنت أرى أن تكون مراجع الطلاب العراقيين فى المؤلفات العظيمة التى يخرجها أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية .

وإنما سحبتُ ذلك المقال لأنى خشيت أن يزداد مركز الأستاذ عزمى حَرَجًا إلى حَرَج . وأنا أُراعى الظروف فى قليل من الأحيان . والحوادث قد تُصيِّر الطائشين حكماء .

* * *

كنتُ أفهم ما يحيط بالأستاذ عزمى من المضجرات فرأيت من واجبى أن أُبدِّد ما يثور حوله من أقاويل ، من حيث لا يعرف . والصديق الحق هو الذى يرعى صديقه فى المغيب .

وزاد خوفى عليه حين لاحظتُ أن بعض من أصطفيهم من أدباء العراق لم يعودوا يتحدثون عنه كما كانوا يصنعون ، فما الذى يخفون عنى من أخبار هذا الصديق ؟

* * *

وفى ذات يوم نشرت جرائد بغداد أن الحكومة العراقية رفَّعت الأستاذ محمود عزمى فجعلت مرتَّبهُ خمسةً وسبعين دينارًا ، وهو خبر لطيف ، ولكن تلك الجرائد سكتت عن التعليق على ذلك الترفيع ، وكان يُنتظَر أن تخصه فى مثل هذا الظرف بكلمة ثناء ، وهذا السكوت له مدلول عند من يفهم أنه مقصود ، والسكوت المقصود أخطر من الافصاح .

وتفردتْ جريدةُ الرأى العام بالتعليق فقالت إنها ترجو أن يكون هذا الترفيعُ فرصة يراجع فيها محمود عزمى نفسه فيكفُّ عن شتم أهل العراق !

محمود عزمى يشتم أهل العراق ؟ وكيف يقع ذلك ؟

هذا مستحيل ، هذا مستحيل ، ولكن :

قد قِيلَ ما قِيلَ إنْ صِدْقًا وإنْ كذِبًا   فما اعتذارك من قولٍ إذا إقيلا

ومضيتُ أبحث عن صديق عراقى يعرف محرر جريدة الرأى العام فاهتديت إلى السيد عبد الجليل الراوى فأخذته من يده وقلت : إن هذه الكلمة قد تثير الطلبة على الأستاذ محمود

عزمى ، ومركزه فى هذه الأيام دقيق ، فتعال معى نقابل محرر جريدة الرأى العام ، ونرجوه أن يراعى مقتضيات الأحوال .

مضينا إلى إدارة الجريدة بشارع المتنبى ، ولكنى رأيت الأنسب أن يدخل وحده ، وانتظرته على الباب ، فلما أنهى مهمته رجع يقول : يظهر أن بعض خصوم الأستاذ محمود عزمى أشاعوا أنه يتحدث فى مجالسه بسوء عن أهل العراق .

فقلت : هذا مستحيل ، وأنا أعرف محمود عزمى كما أعرف نفسى ، ولا يصح فى ذهنى أبدًا أن تَنِدَّ من لسانه كلمةٌ تؤذى أهل العراق .

ولم يمنعنى ذلك من الاعتراف بأن هذه الاشاعة الكاذبة قد تُفتح لها الآذانُ فتكدِّر بها القلوب ، والعراقيون يؤذيهم أن يسمعوا أن من ضيوفهم من يذكرهم بالسوء ، والإشاعة كاذبة بالتأكيد ، ولكن اضطراب كلية الحقوق يُوهِم من لا يدقِّق أنها خبرٌ صحيح . ولو كان الناس يتبيَّنون كل ما يسمعون لتغير وجه التاريخ .

* * *

نحن فى آخر السنة الدراسية ، والقيظ شديد ، وأعصابُ الطلبة فى تهالكٍ وضعف ، وقد شاع وذاع أن الأستاذ محمود عزمى أعلن الطلبة بأن مستوى التعليم فى كلية الحقوق قد انحطّ ، وأنه لا بدّ من التشديد الصارم فى الامتحان حتى يرتفع مستوى التعليم فى الكلية .

وهذا كلام لطيف ، ولكن قواعد التربية تأباه كل الإباء .

يضاف إلى ذلك أن الأستاذ محمود عزمى كتب خطابًا إلى إحدى الجرائد يقول فيه : « إن الذى ينفع العراق هو الإقبال على قسم العلوم المالية » وقد فهم الطلبة أنه يريد أن يخرِّب كلية الحقوق ليعمِّر قسم العلوم المالية ، فهو الذى أنشأ ذلك القسم ومنصبه فيه منصب الرئيس ، أما منصبه فى كلية الحقوق فهو منصب الوكيل .

* * *

أين وجه الحق فيما شاع وذاع ؟

ومن ذا الذى يَنْقُد كلَّ ما يسمع ؟ ومن ذا الذى يفترض أن وجه الحق قد يغيب عنه فى بعض المستور من الشؤون ؟

هؤلاء طُلاب يعيشون فى سنة ١٩٣٨ وهم يقرأون فى المجلات المصرية تفاصيل ما يقع من اعتداء الطلبة على الأساتذة والعُمَداء ، وعَدْوَى الشر تمشى فى القلوب مَشىَ النار فى الهشيم .

* * *

ما أصعب حالى فى هذه الأيام !

لقد وَقَذَنى حبُّ ليلى وأضْرَعَنى ، وأنا من ليلى فى بلاءٍ جديد كلَّ يوم ، فكيف تشاء المقادير

أن أحمل مع هموم الحب أحمالاً ثِقالاً هي الأحزان لمصاير زملائي في كلية الحقوق

* * *

أين محمود عزمي ؟

أين ؟ أين ؟

لقد بحثتُ عنه في كل مكان لأُنذره بهبوب العاصفة ، ولكني لم أهتد إليه .

فلتصنع المقادير ما تشاء .

آه من ليلي ومن زماني !

٣٣

أزعجتنى مظاهرة الطلبة ضدّ عزمى وسيف ، وقد دوَّنتها ودوَّنتُ ما توهمتُ من أسبابها ظُهر اليوم .

وحاولت أن أستريح قليلاً فلم أستطع ، وكيف يستريح من يشهد هذه المزعجات ؟!

ويظهر أن غرامى بتدوين ما أرى وما أسمع سيجعلنى أسخف الناس أو أعقل الناس . والحدُّ بين السخف والعقل أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف .

ويظهر أيضًا أنى سأقتل نفسى فى بغداد ، وإن لم يكن بينى وبين فراقها غير أيام ، فهذا الغرام بالكتابة ينقل أعصابى من ضعف إلى ضعف ، وأنا مازلت أتذكر بلائى بنفسى يوم رجعت من الموصل ، وهل لى عدوٌّ غير نفسى ؟

إن الحكومة المصرية أخطأت كل الخطأ حين أرسلتنى إلى بغداد ، فأنا فى الواقع مريض بالحذلقة السخيفة فى تصوير الأشياء والأشخاص ، وهذا التصوير كان ينفع لو كنت من أدباء باريس أو برلين ، ولكنى — رضيتُ أو كرهتُ — من أدباء القاهرة أو بغداد ، وجزائى على الصراحة فى التصوير قد يصير عند الجامدين أقبح جزاء .

لقد تأذيتُ من الحال الذى صرتُ إليه فى العراق ، ويجب أن أسجل أنى وقعت فى أبشع ضروب الإسراف ، فمنذ ثمانية أشهر أو تزيد وأنا أطالع الجمهور العراق بمقالات وخُطب وأقوال وأحاديث تضر أكثر مما تنفع ، لأنها تفتح أمام الناس بابًا من الجدل هم عنه أغنياء .

وأعتقد أن مصيرى إن انتهى إلى السوء فلن يُسأل عنه غير رجلين : عبد الرحمن عزام وزير مصر المفوض فى العراق فقد شكانى المصريون إليه مرَّات ومرَّات وقالوا إن أحاديثى وخطبى ومقالاتى تعرِّضهم لألوان من المكاره أمام الجمهور العراقى ، لأن فيها إشارات كثيرة تحتاج إلى تفسير وتأويل . وأما الشبيبى وزير المعارف العراقية فقد سمعتُ أن ناسًا شكونى إليه وانتظروا أن ينذرنى لأكفَّ عن مراسلة الجرائد ، ولو أنه فعل لأراح واستراح ، فالقانون فى العراق صريح فى أن الموظفين لا يجوز لهم أن يراسلوا الجرائد أو يعرِّضوا الجمهور للإكثار من القال والقيل .

والإنصاف يوجب أن أدوِّن فى هذه المذكرات أن سعادة عبد الرحمن عزام اعتذر عنى لمن شكونى إليه ، وأكد لمحدثيه أن زكى مبارك قد أفلح فى إيقاظ الحياة الأدبية فى العراق وأنه لذلك جدير بالتشجيع .

وأما الوزير محمد رضا الشبيبى فقد شهد لى شهادة لم يشهد بمثلها لأحد من قبل ، إذ قال فى حضرة الأستاذين على الجارم وأحمد السكندرى ما نصه بالحرف : « لقد جاء كثير من فضلاء المصريين للتدريس بالعراق ، ولكن لم يستطع أحد أن يُدخل البهجة على تلاميذه ويغرس فيهم الشوق إلى الأدب غير الدكتور زكى مبارك » فقال الجارم :

« وأنتم حرمتمونا منه » وقال السكندرى : « لقد أخذتم منا روضة » .

وقد علمت فيما بعد أن ناسًا شكونى إلى الأستاذ الشبيبى وأظهروا عجبهم من أن يتركنى أتحدث كيف أشاء ، فأجاب : « زكى مبارك أستاذٌ نافع وهو فوق ذلك من أشرف أصدقاء العراق » .

والواقع أن شهادة هذين الرجلين آذتنى أشد الإيذاء ، لأنها دفعتنى دفعًا إلى الطريق المخوف ، فقد مضيتُ أكتب وأخطب بلا تحرز ولا تهيب ، وأخشى أن يزلّ قلمى زلة سخيفة فيشمت أعدائى فى مصر والعراق .

أنا مِسكين ، مِسكين ، مِسكين .

والعجيب أن لا تقوم ضدى مظاهرة كالمظاهرة التى قامت صباح اليوم ضد عزمى وسيف .

ولكن لماذا أظلم نفسى بهذه التصريحات ؟

وما الذى جنيت حتى يثور علىَّ العراقيون ؟

كل ذنبى عند فريق من أهل العراق أنى قدمت الشريف الرضى على المتنبى .

ومن هو المتنبى حتى يُقْرَن بالشريف الرضى ؟ وأين شاعرية المتنبى من شاعرية الشريف ؟

إن كان هذا هو ذنبى عند فريق من أهل العراق فلن أتوب ولن أبوب ولن أتوب .

وأنا مع ذلك مخطىء ، فلى مقال عن المتنبى يجعله سيد الشعراء ، فما الذى كان يمنع من نشر هذا المقال مرة ثانية فى بغداد ؟

يمنعنى العنادُ السخيف الذى آذانى فى مصر وسيؤذينى فى العراق .

ولكن هل يحتاج المتنبى إلى من يُشيد بذكره وقد طبَّقت شهرته آفاق الأرض ؟

إن الذى يحتاج إلى ذلك هو الشاعر المظلوم الذى تناساه الناس عامدين أو جاهلين ، هو الشريف الرضىّ الذى يعدُّ أصدق شاعر تنسم هواء العراق .

أنا أعرف أن ناسًا رَضُوا عنى حين رأونى أتعصب للشريف الرضى ، ولكن هؤلاء لا يهموننى لأن مودتهم للشريف ليست بالمغنم الجديد ، وأنما الذى يهمنى هو أن أخلق للشريف صداقات جديدة عند من يتجاهلون قدره عامدين .

ومن هم الذين يتجاهلون قدر الشريف ؟

هم فيما سمعتُ أهل السُّنة فى العراق .

ولكن هل كان المتنبى سُنِّيًا ؟ هو شيعىٌّ أيضًا ، ولكن يظهر أن تشيع الشريف كان أقوى وأعنف ، لأنه صاحب الوثيقة المشهورة فى سِناد التشيع وهو تصنيف كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إلى أمير المؤمنين .

آه ، ثم آه ، ثم آه !!!

إن مذهب أهل السنة هو أسمح المذاهب الإسلامية لأنه يحترم جميع الخلفاء ، وهو من هذه الناحية أرحبُ صدرًا من التشيع ، فكيف يعيبُ ناس على رجلٍ مثلى أن يهتمَّ بالشريف الرضىّ ، مع أن فى هذا الاهتمام تعزيزًا لما يدعو إليه أهل السنة من التسامح والرفق ؟

أُحب أن أعرف كيف يستبيح ناسٌ إيذائى فى العراق من أجل الشريف ، وهم يعرفون أن المصريين لا يقيمون لهذه الخلافات المذهبية أى ميزان ؟

نحن فى مصر لا نعرف شيئًا من هذه الخلافات على الاطلاق ، ولو سُئِل إنسانٌ فى القاهرة عن مذهبه أشيعىٌّ هو أم سُنِّىٌّ لدَهش وعجز عن الجواب .

فمن واجب أهل العراق أن يراعوا ذلك .

من واجبهم أن يذكروا أن المصريين لا يلتفتون أبدًا إلى هذه الشؤون .

ولكن لا موجب للتخوف من عواقب هذا الخلاف .

فأنا اليوم فى أمان بعد ظهور كتاب (عبقرية الشريف الرضى) الكتاب الذى سيجعلنى صديقًا لجميع أهل العراق .

وأهل العراق يُظلمون أقبح الظلم حين يُتهمون بالطائفية ، فقد كان فى تلاميذى شابٌّ لا يشهد المحاضرات التى ألقيتها فى كلية الحقوق عن عبقرية الشريف الرضىّ ، فلما سمع محاضرتى فى الإذاعة اللاسلكية عن العُلاَ والمعالى فى شعر الشريف جاء فقبَّل يدى وأقسم أنه بكى حين سمع أشعار الشريف فى الفتوَّة وأخلاق الفتيان .

ليس فى العراق تعصُّبٌ عند من يتأمل ويدقِّق .

أهل العراق يعيشون على الفطرة ولا يثورون إلا على من يتوسمون فيه سوء النية .

ويستطيع الرجل المخلص أن يعيش عمره كله فى العراق بدون أن تَقْرع أُذنه كلمةٌ فيها إيذاء .

ولكن هل أعيش عمرى كله فى العراق ؟

ليتنى أستطيع ! ليتنى أستطيع !

وكيف أستطيع وأنا رجلٌ أحمق يخاطب الناس كل يوم بما لا يفهمون ؟

وهل من العقل أن أتكلم فى أطلال الحيرة بالأسلوب الذى أتكلم به فى باريس ؟

وما الذى عانيتُ فى الحيرة وفى النجف ؟

لقد رأى أولئك الناس منى ما لا يحبون ، لأنى رفضت أن أقيم فى بلدهم غير ليلة واحدة ، ومع ذلك صبروا علىّ واستقدمونى مرة ثانية ، واحتفلوا بتكريمى أعظم احتفال .

وهل أنسى لطف الرجال الذين لقيتهم فى كربلاء ؟

هل أنسى كيف تنسمت الحياة فى يوم قائظ فى البلد الذى تشرف برفات الحسين ؟

* * *

ما لى ولهذا الحديث الذى أدور به حول نفسى ؟

أنا أريد أن أسجل ما شهدتُ بعد ظهر اليوم فيما يتصل بالزميلين : عزمى وسيف .

ذهبت لمقابلة الشاعر عبد الرحمن البناء فى قهوة الشَّهبندر فرأيت اثنين من طلبة كلية الحقوق ، أحدهما كاتب يشغل نفسه بالمسائل الاقتصادية ، وثانيهما شابٌّ مهذّب لا أحسبه يعرف غير الأدب الجميل .

أعطيت أذنى اليمين للشاعر عبد الرحمن وأعطيت أذنى الشمال لهذين الشابّين ، وكانا يتحاوران فى همسٍ خافتٍ ملفوف .

أما عبد الرحمن فتكلم فى الشعر والخيال .

وأما هذان الشابان فتكلما فى نتائج الامتحان بكلية الحقوق .

لا أذكر ما قال البنّاء فقد شُغِلتُ عنه بحديث هذين الشابين : لأن له صلة بالمظاهرة التى قامت صباح اليوم فى فِناء وزارة المعارف ضدّ الزميلين : عزمى وسيف .

فما الذى كان من حديث هذين الشابين ؟

كان الحديث يصل إلى أذنى مقطَّع الأوصال ، ولكنى فهمتُ أن مكان الناجح الأول فى أحد الصفوف احتلته إحدى الطالبات . والنص على هذه الظاهرة فى ذلك الحديث له مدلول ، ومعناه أن الطلبة استنكروا أن تظفر إحدى الطالبات بالسبق .

فما العيب فى ذلك ؟

الحقُّ أن الأساتذة فى كل أرض يترفقون بالفتيات فى الامتحان ، وقواعد التربية لا تأبى ذلك ، لأننا نحاسب كل طالب وَفْق مظهره ومخبره ، وما يجوز عندنا أن يستوى القوىّ والضعيف ، فالقوىّ له امتحان ، والضعيف له امتحان .

وقد وقع لى حادث من هذا النوع يوم كنت مدرسًا بالجامعة المصرية .

كنت فى لجنة مع الأستاذ أحمد أمين وكنت معروفًا باللطف وكان أحمد أمين معروفًا بالعنف .

وكانت هناك فتاة تخاف من جهامة أحمد أمين ، فانتظرتْ طول الصباح عساه ينصرف ويتركنى أمتحن الطلاب وحدى ، ولكنه لم ينصرف ، فلما خرجنا عند الظهر للغداء تعقبتنى

تلك الفتاة ثم سلّمتْ وقالت : يا دكتور ، أنا خائفة من الأستاذ أحمد أمين !

فابتسمتُ وقلت : أنا والأستاذ أحمد أمين سنتغدّى فى منازلنا بمصر الجديدة ثم نرجع فى الساعة الرابعة ، وسأحرص على الحضور فى الميعاد بالضبط لأمتحنك قبل أن يرجع .

فقالت : وكيف أضمن أن لا يرجع فى الساعة الرابعة بالضبط ؟

فقلت : أنت تعرفين يا طفلتى أنه رجلٌ وقور ، وللوقار مِشيةٌ ثقيلة توجب أن يتأخر الرجل عن الموعد نحو عشرين دقيقة فى مثل هذا اليوم الصائف ، وهذه المدة تكفى لامتحانك .

وفى الساعة الرابعة حضرتُ قبل أن يحضر الأستاذ أحمد أمين .

وجلست الفتاة تؤدى الامتحان فى طمأنينة وأمان .

وبعد دقيقتين اثنتين حضر الأستاذ أحمد أمين ، فنظرتُ إلىّ الفتاةُ نظرة استنجاد !

فالتفتُّ إلى الأستاذ أحمد أمين وقلت : يهمنى يا حضرة الأستاذ أن أخبرك أنى اتفقت مع هذه الفتاة على أن أمتحنها وحدى !

فقال فى تلطف : ويهمنى أن أخبرك أنى ذاهب إلى المقصفَ لأشرب فنجان قهوة ثم أرجع !

تلك أخلاقنا فى مراعاة الذوق بالجامعة المصرية ، وما كنا بذلك من المتهاونين .

ولكن من يخبر طلبة الحقوق فى العراق بهذه الحقائق ؟

من يخبرهم أن الأساتذة يقومون مقام الآباء ؟

من يخبرهم أن الأب الرحيم يترفق بالبنات أكثر مما يترفق بالأبناء ؟

لو كان محمود عزمى من أهل الفُجور لعذرت هؤلاء الشبان فى ثورتهم عليه ، ولكن محمود عزمى فيما أعتقد سليمٌ من هذه الناحية ، واهتمامه بالتلطف مع الفتيات قد يرجع إلى رغبته فى الظهور بمظهر الحرص على تشجيع الحركة النسوية ، ليكون من زعماء التجديد .

بقى حسن سيف ، وهو شاب يغلب عليه المزاح ، ولكنى أستبعد كل الاستبعاد أن ينطوى صدره على غرض غير شريف .

فما الذى يُغضب طلبة الحقوق من أن تكون إحدى الفتيات أول الناجحين فى صف من الصفوف ؟

أعتقد أن سوء النتيجة هو الذى خلق هذا الروح المتمرد الحانق .

وأعتقد أن التعليم المختلط قد يجرنا إلى ويلات ، لأنه لن ينجح إلا بعد أن تستقر قواعد الذوق .

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أن التنافس لا يقع بين فتًى وفتاة ، وإنما يقع بين فَتَيَيْن أو بين فتاتين .

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أن الطالبات أخواتٌ لا مُنافِسات .

لن ينجح التعليم المختلط إلا حِين نُصبح كأهل أوربا وأمريكا من جميع النواحى ، فالتعليم المختلط نبات نقلناه من هناك ، ولن يعيش إلا إذا خلقنا له جوًّا يشبه الجو الذى كان يعيش فيه .

ولن أنسى أننى اعترضتُ مرةً على أن يوكل أمرُ الطالبات بكلية الآداب فى القاهرة إلى سيدة أوربية فقلت : وما الذى يمنع من أن تقوم بذلك سيدة مصرية ؟ فقال الأستاذ عباس محمود : يمنع من ذلك أن تسلِّم عليها مرةً فيقول أهل الفُضُول إنها عشيقة الدكتور زكى مبارك !

آه ! ثم آه !

إننا نسىء بأنفسنا الظنون ، ونرى الأجانب أفضل منا فى جميع الأحوال ، وذلك داءٌ عُضال .

لو كانت التُّهم الصحيحة هى كل ما نخشاه لخَّف الأمر وهان ، فلنا ذنوبٌ وآثام هى ألوانٌ مما ابتُليتْ به الإنسانية من ذنوب وآثام ، والإنسان معرَّض للضعف ، وادِّعاء العصمة عملٌ ممقوت ، ولكن الذى نخشاه هو التُّهم الكواذب التى تُساق إلينا بلا حساب . والذى يؤذينا هو تلكِ التهم الكواذب : لأن المفترين لا يكفيهم أن نكون ناسًا مذنبين ، وإنما يحاولون أن يجعلونا ذئابًا فاتكين .

وكان الأمر فى الشرق كذلك لأن الشرق نهض فى ظلال دعوة خُلُقيه كانت فى الأصل نوعًا من ردِّ الفعل .

الشرق قام على التوحيد الذى يحارب الوثنية ، والوثنية كانت تمجِّد الشهوات ، فرأى الشرق الموحِّد أن يحارب الشهوات بقوةٍ وعنف ليتفرد بالدعوة إلى مكارم الأخلاق .

ونجح الشرق الموحِّد يوم دعا تلك الدعوة أول مرة ، لأنه احتاط كل الاحتياط ، فلم ينه عن الشهوات جملةً واحدة ، وإنما لوَّن ونوَّع وفصَّل ، فبيَّن ما يباح وما لا يباح ، وتظهر آثار ذلك فى تحريم الخمر وتحريم الرِّق ، فالخمر تحرم فى حال وتباح فى حال ، باختلاف الجنس والنوع ، والرِّق تلطَّف فيه الشرع الموحِّد فدعا إلى الخروج من آثامه بحكمةٍ ورفق .

وكذلك استطاع الشرق لأول عهده بالتوحيد أن يجمع بين عناصر الحلم والجهل فصحَّت له الحياة .

ثم أراد أن يندمج فى صفوف الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون فوقع فى هاوية الانحطاط .

يا ابن آدم ، أنت من لحم ودم وأعصاب .

وأخلاقك لن تصلح إلا إذا فهمت أنك من لحم ودم وأعصاب .

فما هذا الغرور الذى يوهمك أنك تستطيع أن تلحق بملائكة السماء ؟

ومن أنت حتى تصير مَلَكًا يا جهول ؟

مَن أنت ، ومِن الأرض خُلِقْتَ وإلى الأرض تعود ؟
إن قوتك هى فى الاعتراف بأنك مخلوقٌ ضعيف .
إن قوتك هى فى البكاء على آثامك ، فابكِ ما طاب لك البكاء ليصفح عنك غفار الذنوب .

* * *

مالى ولهذا التفكير المزعج ؟
أنا أحب أن أعرف ما يصير إليه أمر محمود عزمى وحسن سيف .
لقد بحثت اليوم عن محمود عزمى فى كل مكان و لم أهتد إليه ، فهل أستطيع أن ألقاه فى الصباح ؟

٣٤

أين أنا وكيف حالى ؟ .

أنا بين جدران الغرفة التى كتبتُ فيها ألوف الصفحات فى أشهر معدودات ، الغرفة التى دوَّنت فيها ما عرفتُ من أسرار المجتمع وسرائر القلوب ، والتى ألَّفت فيها كتاب (عبقرية الشريف الرضى) وكتاب (وحى بغداد) وكتاب (؟؟؟) وقد كتبتُ وأنا مبتهجٌ جذلان ، فما الذى سأكتب فى هذا المساء ، مساء اليوم العصيب ، اليوم العشرين من شهر حُزيران سنة ١٩٣٨ ؟

ماذا أكتب فى الغرفة التى كانت أحبَّ مكان فى بغداد إلىٰ قلب ليلى وقلب ظمياء ؟

أكذلك تتحول دنياى من أفراح إلى أحزان بسرعةٍ لا تخطر فى بال مخلوق ؟

* * *

خرجتُ صباح اليوم للبحث عن محمود عزمى وكان فى النية أن أُحدِّثه عما ترامَى إلَّى من أخبار كلية الحقوق ، وكان ذلك قُبَيْل الساعة الحادية عشرة فقد منعنى التعب من التبكير لرؤية ذلك الزميل ، ثم بدا لى أن أمرّ على دار المعلمين العالية لمراجعة بعض الشؤون ، فما كدت أجتاز عتبة الدار حتى واجهنى الدكتور عقراوى وهو مذعور : وقع اعتداء على الدكتور عزمى !

وأسرع إلى التليفون يستنجد برئيس الشُرطة فى بغداد .

أما أنا فقد عَدَوْتُ عَدْوًا لأتدارك ذلك الاعتداء .

هل أستطيع وصف ما رأيت ؟

وجدت مدخل الكلية ملوثًا بالدماء : فانخلع قلبى ، وطاف بالخاطر أن محمود عزمى قد يكون ضُرِب بالرصاص فى هذا اليوم . وما هى إلا لمحةٌ حتى عاد صوابى : فقد رأيت محمود عزمى حيًّا وإن كان فى صُفرة الأموات . ومددتُ يدى أصافحه وأواسيه فظهرتْ عليه أمارات التأثر لقدومى فى ذلك الوقت ، ولم نكن على ميعاد . وفى تلك اللحظات سمعتُ صرخةً أليمةً فالتفتُّ فإذا رجلٌ ممدَّد فى غرفة العميد وهو مضرَّج بالدماء .

من هذا الذى يصرخ ؟

لقد أخفى الدم معا لم وجهه فلم أعرف هُوِيَّته إلا حين عاود الصراخ : عرفت أنه الصديق العزيز الدكتور حسن سيف .

وكذلك فهمت كيف شاءت المقادير أن يُختم عامنا فى بغداد .

وجاء شرطىٌّ يهزّ رأس الدكتور سيف وهو يقول : من ضربك ؟ من ضربك ؟
ولكن سيف لا يجيب .

وهل يستطيع مَن قَدَّ الرصاصُ رأسه أن يجيب !

وبعد لحظات نُقِل سيف إلى المستشفى وبقيتُ مع محمود عزمى أواسيه .

وما هى المواساة فى مثل هذه الحال ؟

قدمت إليه سجارة فرفض .

فقلت هى تُلْهية تزجى بها الوقت إلى أن ينتهى هذا الاستجواب (وكان بعض الضباط أخذ يسأله عن تفاصيل الصورة التى وقع بها الاعتداء) .

وراعنى أن يمدَّ محمود عزمى فاه لا يده لأخذ السجارة فعرفتُ أنه مطعون .

فقلتُ : تجلَّد ، يا دكتور .

فأجاب : ما كانت تخيفنى هذه الطعنة لو لم أكن مريضًا بالبول السكَّرى ، وأنا أخشى أن تكون ضربةً قاضية .

وأسرعتُ فأحضرت عربة ونقلته إلى المستشفى .

وبعد لحظة قدَّمتْ إليه إحدى المضمِّدات كأسًا من الكونياك .

أخذ رشفةً من الكأسِ ، ثم عاف الكأس .

فقلت : إشربْ يا سِكِّير !

فابتسم .

وأردت أن أُنسيهُ أحزانه فذكَّرته بما كان وقع فى فندق مُودْ منذ أشهر طوال ، فقد طلب كأسًا من الفيرموت ، فلما ذاق الشراب رفضه بحجة أنه ليس بفرموت ، فقال الغلام : كيف تكذبنى وأنا أخدم فى الحانات منذ ثلاثين سنة ؟ فقال محمود عزمى : وكيف تراجعنى وأنا أعاقر الكؤوس منذ خمسين سنة وأعرف جميع أنواع الشراب بالشمّ قبل الذوق ؟!

وعند تذكيره بهذه القصة قال : إنما أرفض هذا الكونياك لأنه ممزوج بالسُّكر .

فأسرعت المضمِّدة وأحضرت إليه كأسًا من الكونياك الصِّرف .

وجاء الدكتور صائب شوكتْ يشخِّص الجرح ، فبدا لى أنه أخطأ التشخيص ، ولكنى لم أعترض ، فقد شاع فى بغداد أنى طبيب أرواح لا طبيب أبدان .

وفى تلك اللحظة بكى محمود عزمى ، بكى الرجل الشَّهم الذى لم يعرف البكاء قبل اليوم ، بكى الرجل الضحَّاك البسَّام الذى كان وجهه زينة المحافل والمنتديات ، بكى العالم الجَهْبَذ الذى طوَّف بالشرق والغرب وملأ رأسه بالأوهام والحقائق .

وبالغتُ فى التجلد فحبست دمعى، وإن كنتُ أحسستُ الدموع تتفجر من قلبى ،

والقلوب تبكى كما تبكى العيون .

وجاء طبيب انجليزى فوجّه إلى محمود عزمى دعابة نقلتْه من البكاء إلى الابتسام .

ثم نُقل محمود عزمى بالنقالة إلى إحدى الحُجرات ، وكان عجزه عن المشى دليلاً على الكرب الذى يعانيه .

* * *

ونظرت فرأيت معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأصحاب السعادة طه الراوى وفاضل الجمالى ويوسف عز الدين ، فجلسنا ننتظر رأى الأطباء فى نهاية الدكتور سيف .

وقد أبدى معالى الأستاذ الشبيبى دهشته من أن يرانى فى ذلك الوقت، فقلت: كذلك شاءت المقادير أن أشهد هذا المصرع الأليم .

ولم يكن بدٌّ من تزجية الوقت بكلام يتصل بالتربية والتعليم ، فاقترحتُ نقل مواعيد الامتحان من الصيف إلى الشتاء ، وقلت : إن هذا رأىٌ قدمته إلى وزارة المعارف المصرية منذ سنتين ، وحجتى أن القيظ يضعف الأعصاب وهو السبب فى حوادث انتحار الطلبة فى مصر وفى العراق .

ثم جاء الأطباء فأخبرونا أن الدكتور سيف قد لا يعيش ، فانصرفنا مكروبين .

* * *

جلسنا فى مكتب الأستاذ طه الراوى ومعنا الدكتور الجمالى والأستاذ الألوسى .

جلسنا ندرس أسباب هذا الاعتداء ونفكر فى مصير كلية الحقوق .

واتفقت كلمتنا على وجوب نقل مواعيد الامتحان من الصيف إلى الشتاء .

وحين هممنا بالانصراف احتجزنى الأستاذ طه الراوى بلطف ثم قال : أنا أعرف يا دكتور أنك تهرب منى ، ولكنك تجهل أنى معنًّى القلب بسبب التقصير فى حقك ، وكنت أظن أن هذا التقصير هو أشد ما سأعانى ، ثم فاجأتنا المقادير بما رأيت .

« واندفع الأستاذ طه الراوى يبكى بكاءً أليما » .

فأقبلتُ عليه أواسيه فكفكف من دمعة ثم قال : إن الشبان لا يعرفون ما نصنع من أجلهم ، نحن شعب كان له تاريخ ، وصنعتْ به الحوادث ما صنعتْ ، وكلُّ همنا أن نجاهد ليكون للعراق تاريخ فى رعاية العلوم والآداب ، واعتمادنا على مصر هو الشاهد على صدق تلك النية ، ولولا ثقتنا بأخوّتكم لما وكّلنا تثقيف شبابنا إليكم ، فانظر كيف نجزع حين نرى هذا المصير لبعض من استقدمناهم من العلماء المصريين ؟ انظر كيف ندافع عن أنفسنا فى عصر يكثر فيه التقول على الأمم والشعوب ؟ أنت تعلم يا دكتور أن هذه الحادثة قد يؤوّلها رجل مثلك بأنها من جنايات القيظ ، فأين من يحلل المقدمات والنتائج على هذا الأسلوب ؟ وهل تظن أن المصريين

وهم إخوان أشقّاء سيلتمسون لهذه المأساة أبوابًا من التخفيف ؟ أنا حزين يا دكتور ، ومتوجّع لما وقع ، ويزداد حزنى حين أتذكر أنْ سيوجد فى مصر من يقول « لقد خاب الظن فى سماحة أهل العراق » .

وانهزم الأستاذ طه الراوى أمام الدمع مرة ثانية .

فتوجعتُ لكربه وأساه .

فالتفت إلىّ وقال: أنت عرفت العراق وعواطف أهل العراق، فهل أستطيع أن أثق بأن هذه الفاجعة لا تغيّر رأيك فى سماحة أهل العراق ؟

فصوبت بصرى إلى الأستاذ طه الراوى وقلت : تلك أقدار ، ولا يثور على الأقدار إلا غافلٌ أو جهول .

* * *

خرجت من مكتب الأستاذ الراوى لأعود إلى المستشفى عسانى أعرف ما صار إليه محمود عزمى بعد ذلك الإعياء ، فعرفت أن الدخول عليه ممنوع .

ثم التفتّ فرأيت جماعة من الرجال والنساء يصرخون فمضيت إليهم فرأيت الشاب المسكين الذى أطلق الرصاص على محمود عزمى وحسن سيف .

وأى شاب ؟

مخلوق هزيل هدّته الأمراض والأحزان ثم أنقذه الموت .

مخلوق تنطق معارف وجهه وهو ميتٌ بأنه لم يكن يدرى عواقب ما يصنع .

مخلوق أفسدته الأنظمة الحديثة التى توجب أن يكون بأيدى الشبان إجازات وألقاب .

وما قيمة الإجازات والألقاب بجانب هذا المصير الفاجع ؟

ما قيمة الكليات والجامعات بجانب الأزلية التى تفرض أن يعيش الناس سعداء ؟

وكان بين الباكين شابٌ من تلاميذى بدار المعلمين العالية فاستفهمت منه عن أشياء تتصل بذلك الشاب الصريع فأخبرنى أنهم وجدوا فى جيبه أوراقًا تشهد بأنه كان يعانى بين أهله ضروبًا من الغمّ والكرب ، وأنه ترك فى جيبه دينارين ليقدّما إلى أحد دائنيه من الشبان ، وأنه أوصى بأن لا يذرف عليه أخوه دمعةً حين يموت ، وأنه يكتفى بما صادف من « العطف » فى دنياه !!

وما كدت أسمع هذا الكلام حتى غلبنى الحزن ، فقد تذكرت أن نظام الأسرة فى بلادنا نظام مضعضع وأن من النادر أن يعيش شابٌ بين أهله عيش النّضرة والنعيم وتذكرت الشاب الذى انتحر بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ وكنتُ أنا والدكتور طه حسين من المسئولين عن انتحار

ذلك المسكين : فقد شكا إلينا أن أهله سيقطعون عنه المرتب إن رسب فى الامتحان ، ورجانا أن نتوسط له عند عميد كلية العلوم يمنّ عليه بأربع درجات حتى لا يعرِّض نفسه للقتل . وقد ظنناه يمزح فلم نفكر فى أمره ، ثم علمنا فيما بعد أنه شرب السم ليتخلص من شماتة الأهل والأقرباء !

تذكرت أن الشبان فى بلادنا أشقياء ، وأنهم لا يتعلمون ليسعدوا ، وإنما يتعلمون ليحسوا معانى الشقاء .

وتقدم أحد أقرباء ذلك الشاب فقال : لطفًا يا دكتور فما كان هذا الشاب لئيمًا ولا أحمق ، وإنما قضى الله ما قضاه ، والبقية فى حياة الدكتور عزمى والدكتورّ سيف !

ورأيت من المروءة أن أنتظر حتى أشيِّع جنازة ذلك الشهيد .

وهل فى الدنيا ميتٌ أحقُّ بالرحمة ممن يستشهد فى سبيل النظام السخيف ، نظام المدرسة ونظام البيت ؟

* * *

ورجعت إلى دارى مكروبًا محزونًا ، ثم طرق الباب طارقٌ ومعه خطابٌ ينتظر الجواب ، فقرأت الخطاب مرات ومرات فلم أفهم شيئًا ، وهل أستطيع فى مثل هذه الحال أن أقرأ فأفهم ؟ أمرى إلى الله .

وبعد العصر قرأت الخطاب من جديد فعرفت أنه من الأستاذ محمود فهمى درويش وهو يقول إنه علم أنى سأفارق بغداد وهو يرجو أن أقدم إليه صورتى تذكرةً لأيامنا فى بغداد .

اطمئنّ ، أيها الصديق ، فلن أنساك ولن أنسى بغداد !

* * *

وقُبيل الغروب رجعت إلى المستشفى لأعرف شيئًا من أحوال محمود عزمى وحسن سيف ، فرأيت رئيس الوزراء هناك فواسانى بكلمة لطيفة سأذكرها ما حييت .

* * * .

وكنت على موعد مع سعادة الأستاذ طه الراوى بوزارة المعارف فمضيت إليه فعرفت أن هناك جلسة برياسة الوزير للنظر فى مصير الدكتور سيف ، وهم يفكرون فى نقله بطيارة إلى أحد المستشفيات فى القاهرة أو باريس ، ثم عرفت مع الأسف الموجع أن رئيس المنتشفى قرر أن نقله قد يعرِّضه إلى الموت .

وخرج معالى الأستاذ الشبيبى من الجلسة ومعه الدكتور الجمالى فالتفت إلىَّ الوزير وقال :

كنا نريد أن نصنع المستحيل فى سبيل إنقاذ حياة الدكتور سيف ولكن إدارة المستشفى تعارض ترفقًا بالمريض .

وقال الدكتور الجمالى : من العزيز علينا أن تُراق قطرةٌ من الدم المصرى فى بغداد .

فقلت : تلك أقدار ، تلك أقدار ، تلك أقدار ، والحمد لله على السَّرَّاء والضَّرَّاء .

ومضيت مع الأستاذ طه الراوى إلى منزله لندرس مصاير هذا الحادث الأليم .

ثم رجعت إلى منزلى لأستريح ، ولأسجل حوادث اليوم ، فماذا فى صباح الغد ؟

سأنتظر ما يأتى به الصباح .

٣٥

ماذا صنعتُ فى هذا اليوم من الصالحات ؟

أعتقد أن روحى لم يرتفع كما ارتفع فى هذا اليوم .

خرجت مبكرًا للسؤال عن حالة الدكتور سيف فعلمت أنه قضى نحبه فى منتصف الليل ، وأن وزارة المعارف تستعد لتشييع جثمانه بصفة رسمية ، وأنها قررت أن يشترك فى تشييعه مُدَراء المدارس والأساتذة والتلاميذ(١) .

وعندئذ مرَّ بالخاطر أن هذه الفاجعة قد تفسد الصلات بين مصر والعراق ، فرجعت إلى دارى بسرعة وكتبت مقالا بيَّنتُ فيه أن الحادثة فردية وأنها لن تعكر ما بيننا وبين العراق من صلات ، وكان روحى قويًّا جدًّا عند كتابة ذلك المقال ، وأعتقد أنه أفضل ما كتبت فى حياتى ، ثم أرسلته بالبريد الجوّى إلى جريدة الأهرام ، وأغلب الظن أنه سينشر فى أحسن مكان وسيكون له فى مصر أحسن وَقْع(٢) .

وهل لمصر مصلحةٌ فى أن يذاع خطأ أن أبناءها يُؤْذَوْن عمدًا فى العراق ؟

وبعد أن وضعتُ الخطاب فى البريد شعرت بأنى بذلت من الجهد فى إنشاء ذلك المقال ما ضعضع بنيانى ، فرجعت إلى المنزل لأستريح .

ثم سمعت الباب يُطرق طرقًا عنيفًا فلم ألتفت إليه لأنى كنت فى حال من التعب لا تسمح بمقابلة أى إنسان .

ونظرت فرأيت الطارق دسَّ ورقة تحت الباب وانصرف .

وجذبت الورقة فرأيت الدكتور عقراوى يقول إنه جاء ليبلغنى أن الدكتور الجمالى طلب منه أن يخبرنى « بأنه يرغب كثيرًا أن أواجهه فى وزارة المعارف » .

فمضيت لأنظر ما يريد الدكتور الجمالى فلم أجده هناك .

وحدثتُ أحد أصفيائه عن هذه الدعوة فقال : يجب أن تراه لأنه يريد أن تسحب استقالتك ، ففى مساء هذا اليوم ستنظر الوزارة فى تجديد عقود الأساتذة الأجانب ، وما يمكن أن يجدَّد عَقدك وأنت مستقيل .

فقلت : وما أريد أن أرجع إلى العراق ما دام يرانى من الأجانب !

---

(١) أهل العراق يجمعون مدير على مدرَاء (٢) تجد هذا المقال فى كتاب (وحى بغداد) .

فقال وهو يبتسم : هذه أمور شكلية لا تخفى على فطنتك ، والحكومات لا تقيس الجنسيات بالعواطف وإنما تقيسها بشهادة الميلاد ، وأنت من مواليد مصر لا من مواليد العراق .

فقلت : هذا حق ، ولكنى على كل حال لن أسحب استقالتى ، لأن الظروف توجب أن يكون لكم صديقٌ فى مصر ، وسأكون ذلك الصديق .

* * *

فى هذا اليوم نشرت جريدة الأخبار مقالاً للأستاذ عزمى وقالت إنه أرسله إليها قبل حادث الاعتداء ، والمقال صريح فى أن كلية الحقوق كانت انشطرت شطرين وأنه كان يقاسى لواعج من الامتعاض .

وفى هذا اليوم تلقى محمود عزمى برقية من الدكتور هيكل ، وهى برقية دبلوماسية ، فقد نص فيها على أنه يحمد لحكومة العراق عطفها على المصابَيْن وقيامها بما يوجب الإخاء بين الشقيقين . وقد فرح محمود عزمى بالبرقية وقدمها بسرعة إلى مندوبى الجرائد . ثم أخبرنى حين عُدته أنه لم يقدّمها لمندوبى الصحف إلا حين رآها مذيلة بعبارة « وزير المعارف » فلها معنى أكثر من المواساة الشخصية .

* * *

وقع اليوم حادث مضحك للأستاذ عزمى ، وهو فكاهة تستحق التدوين .

ذهب رجل لزيارته باسم صديق القُنصُل فظنه فرَّاشًا بالمفوضية المصرية وسمح له بالدخول ، ثم هاله أن يراه منسدِّرًا لا مُطَرْبَشًا ، وجلس الرجل يتحدث فى شؤون مختلفات ومحمود عزمى يتكلف الاصغاء ، وبعد لحظة مدَّ الرجل يده إلى خاصرته ليهرش فظن محمود عزمى أنه يبحث فى جيب بنطلونه عن مُسدَّس .

فصرخ صراخَ الفزَع : إيه يا شيخ ؟ إيه يا شيخ ؟ أتريد أن تقتلنى ؟

وانزعج الرجل من فزع محمود عزمى فخرج !

وكانت أول مرة ضحكنا فيها بعد أن اكتأبنا يومين كاملين .

عُوفى محمود عزمى أو كاد ، وسيسافر بالطيارة فى يوم الخميس — فى طيارة غير الطيارة التى تحمل جثمان المرحوم سيف — ومن حسن الحظ للأستاذ عزمى أن يعافَى بهذه السرعة وأن يسافر فى الموعد الذى كان محددًا لسفره من قبل .

* * *

بغداد كلها فى جزع لما وقع فى كلية الحقوق ، وبالرغم من التأويلات الكثيرة التى أُوِّلت بها أسباب هذه الفاجعة الأليمة فقد ظهر العراق بمظهر الشهامة والنبل ، وأعلن أساه لمصرع

الدكتور سيف ، وجميع الصحف أنكرت الاعتداء وتمنت أن لا يكون بداية قطيعة بين مصر والعراق .

وإنى لأرجو أن تكون هذه الفاجعة أول وآخر ما يقع من هذا الضرب فى بغداد ، فالسُّمعة الحسنة هى أثمن ما تحرص عليه الشعوب .

* * *

هذه الفاجعة أليمةٌ جدًّا .

ولكنى أحسب أنها ثمن النجاح الذى صادفته مصر هذا العام فى العراق .

وأغلب الظن أن العراق لم يعرف مصر كما عرفها فى هذه السنة التى خُتمتْ بهذه النهاية الدامية .

فهل أعتقد أن العَين حقٌّ ؟

هل يصح القول بأن الأوهام القديمة فيها شيءٌ من الصدق ؟

كانت مصر عنوان العروبة فى هذه السنة ، وكان صوتها يرنُّ فى جميع أجواز الشرق .

كانت مؤلفات المصريين تزحم مطابع بغداد ، وكانت أصواتهم تملأ أندية بغداد .

وكان انعقاد المؤتمر الطبى العربى فى مدينة الرشيد فرصةً طيبةً للتنويه بالمواهب المصرية ، فقد استطاع أطباؤنا أن يؤلفوا بين الأطباء فى سائر الأقطار العربية ، وأن يكوّنوا منهم رابطة شرقية ستقوى على الزمان .

* * *

كان قلبى يحدثنى بأننا نسرع الخطوات أكثر مما يجب وأن ذلك قد يجرنا إلى مزالق .

وهل أنسى أنى دَوَّنت فى هذه المذكرات منذ شهرين كلمات تشير بأنْ قد يقع بعض الذى وقع ؟

ألم أقل فى التعقيب على حفلة توزيع الجوائز فى كلية الحقوق إن من واجب الأساتذة المصريين أن يرحِّبوا بالموت فى سبيل تلاميذهم بالعراق ؟

إن فاجعة الأمس تشرِّف مصر ، إن كان فى مصر من يفهم قيمة هذا التشريف ، وهل كُتِب القتل إلا على الرجال ؟

كلُّ ما أخشاه أن ينزعج المصريون لهذه الفاجعة ويتهيبوا الاتصال بالشرق .

كل ما أخشاه أن تكون هذه الفاجعة وقودًا جديدًا للدسائس الأجنبية .

ألم تقل إحدى الجرائد الانجليزية : إن اعتماد العراق على الأساتذة المصريين يدل على أن الروابط العربية قد اصطبغتْ بصبغة جدية ؟

هذا كلام نقلته جريدة الأهرام فى صباح اليوم الذى هاجرتُ فيه إلى بغداد ، ولا يزال

محفوظًا بين أوراق ، وما يسوغ فى ذهنى أن تمرَّ هذه الصلات بدون أن تُحدِث رَّجةً مُخِّية فى رؤوس أهل الغرب .

ولكن من الذى يفهم أن هذه الصلات يجب أن يكون لها بين أبناء العرب شهداء ؟

إن الكلمة التافهة قد تجد من ينقلها من أرض إلى أرض ، فكيف يفرِّط المفسدون فى استغلال حادث سالت فيه الدماء ؟

أعتقد أن هذه تجربة قضت بها الأقدار ، وسنعرف إلى أى درجة وصلنا فى التربية القومية ، وأخشى أن يثبت أننا لا نزال فى بداية الطريق .

* * *

اتصلتُ اليوم بمراسلى الجرائد المصرية فى بغداد ورجوتهم أن ينقلوا إلى مصر عواطف أهل العراق .

* * *

لا أزال محزونًا أشد الحزن مما رأيت وسمعت .

فقد آذانى وآلمنى أن يحتاج العراق إلى من يدفع عنه قالة السوء بعد أن أقام ألوف الشواهد على أنه من أقوى الحصون للأخوّة العربية .

وأهل العراق فى هذين اليومين لم يكن لهم إلا حديث واحد هو التخوف من صَدَى هذا الحادث فى الأندية المصرية .

ومن واجب العراق أن يتخوف عواقب القيل والقال .

فمتى أرى إخوانى فى مصر لأهوِّن فى أنفسهم وقْع هذا الحادث الأليم ؟

إن المقال الذى أرسلتُه إلى جريدة الأهرام قد ينفع بعض النفع إذا وجد من يزكّيه من العقلاء ، وذلك ما أرجوه ، فالصحافة المصرية قد شبَّتْ عن الطَّوق ، وهى فى الأغلب لا تنشر شيئًا إلا بعد تأمل ورَويَّة .

أنا أعانى من الضجر ما يهدُّ الجبال ، ويخيَّل إلىّ أنى سأموت قبل أن أرى أطفالى ، لا قدَّر الله ولا سمح !

ومن العجائب أن هذه الفاجعة زادتنى حبًّا فى العراق ، ولا أعرف لذلك تعليلا واضحًا من الوجهة النفسية ، إلا أن يكون اشتباك الأحزان يزيد الألفة بين القلوب .

لم نكن تجارًا حين قَدِمْنَا العراق ، وإنما كنا طُلاَّبَ مجد ، وللمجد تكاليف منها الدم ، فلنصبر إن كنا صادقين ، فلنصبر إن كنا صادقين .

وسلام الله على شهداء العلم والوطنية !

٣٦

ليتنى أستطيع أن أفلح فى تصوير ما طاف بقلبى من الخواطر فى هذا المساء !

ليت ! ليت !

كان علىّ أن أجيب دعوتين : الأولى دعوة الرفاق رافائيل بُطى ومِنَشّى زَعرور وحسين تيمور ، والثانية دعوة الجار العزيز الذى يزدان بيته بسيدة مصرية .

أما الدعوة الأولى فيرجع تاريخها إلى أسبوع يوم كانت الدنيا هادئة ، ويوم كان القمر فى عُنفوان الشباب ، وكان أولئك الرفاق يريدون أن نقضى سهرة طريفة أرى فيها ملاعب بغداد قبل أن أفارق بغداد .

ثم تغير منهج الدعوة مرةً واحدة ، تغير لأن الناس فى بغداد لا يتحدثون فى هذه الليلة إلا عن نظام الجنازة التى ستُشيَّع فى صباح الغد من المستشفى الملكى إلى المطار المدنى : جنازة الدكتور سيف .

ولو وجدنا الشهوة إلى ارتياد الملاعب فى هذا المساء لصدَّنا الذوق .

وكيف ألهو ذات اليمين أو ذات الشمال وما رآنى عابر سبيل إلا عزّانى فى الدكتور سيف ؟

كذلك شاءت المقادير أن تكون الليلة الأخيرة من ليالىّ فى بغداد ليلة تحزُّن وتوجُّع واكتئاب .

والحق أنى كنت أحب أن أقضى سهرة سعيدة مع هؤلاء الرفاق ، فأوّلهم وهو رافائيل بُطى صديق قديم عرفته فى الإسكندرية سنة ١٩٣٢ ولما وفدتُ على بغداد رأيته فى حال لا تخلو من انزعاج بسبب مسلكه فى الحياة السياسية ، ولكن أبت نفسى أن ألتفت إلى هذا الجانب لأنى صديق ، ولأنى ضيف ، والصديق يُدَّخر لأوقات الشدائد ، والضيف لا يحقّ له التدخل فى الأمور المحلية .

وثانيهم منشّى زعرور ، وهو أول أديب عرفته فى بغداد ، وما أذكر أنى لا حظتُ عليه شيئًا يُعاب .

أما حسين تيمور فهو تحفةٌ : لأن الابتسام لا يفارق شفتيه ، ولأنه يحفظ أشياء كثيرة من غَزَل الأعراب .

وكان فى نيتى أن لا أستجيب لهذه الدعوة فرارًا من هذا الظَّرف العصيب .

كان فى نيتى أن أقضى مساء هذا اليوم فى منزل السيدة التى ترجّ الأرض والسموات حين

تقول :

« قلبى مات ! قلبى مات ! »

السيدة التى يذكِّرنى وجهها بوجه أمى رحمها الله ، السيدة التى وُلدت فى مدينة ... والتى تشبه فى كرمها ولطفها ملامح السيدة ... والدة الصديق العزيز ...

ليتنى ما رأيت بغداد ، ولا عرفت عواطف النساء فى بغداد !

* * *

طوَّفتُ عصر اليوم بمنازل أصدقائى وقبَّلتُ أيدى آبائهم وأمهاتهم ، وضممت الطفل الذى يشبه عبد السلام إلى صدرى فطبع على جبينى قُبلتين .

متى أراك يا عبد السلام ؟ متى أراك ؟

وأهديتُ إلىّ صور كثيرة ، وسأمزق بعض تلك الصور بالرغم منى ، حتى لا تثور زوجتى . وهل فى الدنيا امرأة تصدق أن زوجها إنما يعشق الصباحة والجمال ليزداد إيمانه بخالق الصباحة والجمال ؟ تلك معان تعلو على أفهام النساء .

ومن بين تلك الصور صورة الفتاة التى قالت فى دَلال : أنا أجملُ من السيدة البصرية التى طلبت أن تراك وحدك يوم زرتَ البصرة ؟

وقد صرخ أخوها فى وجهها وقال : ما هذه القِحة (وشدَّد الحاء) .

فقلت : أنت تخطىء فى الألفاظ لأنك تخطىء فى المعانى !

* * *

طوّفتُ بجميع شوارع بغداد إلا شارع العباس بن الأحنف .

وما الموجب لذلك ؟ لقد اختصمتُ مع ليلى وبلغتُ لجاجة الخصومة أبعد الحدود .

ولكنى — ولا أكذب نفسى — أستأهل التأديب .

كنت أستطيع أن أظفر بليلاى ظفرًا أبديًّا لو رُزقتُ مرونة التعبير وسهولة الترفق ، ولكن غرامى بالدراسات الفلسفية كدَّر أمامى جميع الموارد : فقد كنت أستثير غضبها من وقت إلى وقت لأعرف الدقائق من غرائز المرأة ، وقد عرفتُ من ليلى كل مجهول ، ولكنها ضاعت من يدى .

اليوم أبكى على قلبى وأندُبُهُ ... قلبٌ ألحَّ عليه الحبُّ فانصدعا

وقد أُعلل نفسى فأقول : هذا درسٌ ينفع فى الأيام المقبلات .

هاها ، هاها !!

وهل ينفعنى شىءٌ بعد أن أُحرَم عطف ليلاى فى العراق ؟

هى الغاية القُصوَى فإن فات نيلها ... فكلُّ مُنَى الدنيا علىَّ حرامُ

ومتى يسمح الدهر بأن أرى امرأة تحبنى بمثل هذا الصدق ؟ متى أرى امرأةً تُدير عينيها الناعستين وهى تغنّى .

يـــا نَبْعَـــة الـــرَّيحانْ   حِنِّـــــى على الـــولهانْ

سأخرج من أحلامى كما خرج آدم من الفردَوْس .

وسأذكر العراق إلى أن أموت : لأن ليلى هدتنى فى رحابه وأضلتنى .

سأذكر العراق بكل خير ، فهل يذكرنى بالشعر يوم أموت ؟

لو كنت أعرف أن ليلى تبغضنى لانتهيتُ وسلوتُ .

ولكن ليلى تحبنى ، تحبنى ، تحبنى .

وما وقع منى ما وقع إلا لأننى أحمق .

ولا وقع منها ما وقع إلا لأنها حمقاء .

ولن أعقل وتعقل إلا بعد الفراق .

* * *

مـا أنتِ يـا دنيـا أرُؤيـا نائـمٍ   أم ليلُ عـرسٍ أم بساطُ سلافِ

كانت ليلى تتوهم أنى سأقضى بقية العمر فى بغداد ، وكنت أتوهَّم أنى سأقضى بقية العمر فى بغداد .

ومن هنا كان الحمق الذى تردّينا فيه .

فلو كنتُ أعرف أن أيامنا فى بغداد إلى زوال لسرنى أن أفتضح فى هوى ليلى أشنع افتضاح .

ولو كانت تعرف أننا قد نفترق لأرغمتنى على ترك الأدب والحياء .

غدًا ينتهى حلُم الحب فلا أرى ليلى ولا ترانى .

غدًا يشمت المقيمون بشارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى .

غدًا يكثُرُ الباكون منـا ومنكُـم   وتزداد دارى من دياركُم بعـدا

غدًا تهتفُ ليلى فلا يستجيب مجيبٌ .

وهل كنتُ إلا طيفًا زار فى السحر بساتين الكرخ وبغداد ؟

غدًا أذكر أيامى بالعراق ، أذكرها بالدم القانى ، وأذكر الصديق الذى قال : ليتنى أعرف من الذى أشار باستقدام الدكتور زكى مبارك إلى العراق !

لا تذكروا الرجل الذى أشار بأن أعرف العراق ، فما أحسبه كان يجهل أنه سيرمينى فى أتُّون العذاب ، وسأعادى ذلك الرجل ما حييت .

وماذا غنمتُ من العراق ؟

سيعود ناسٌ إلى أوطانهم صحاح القلوب ، وأعود إلى وطنى بقلبٍ ممزَّق لم تَبْقَ منه غيرُ

أطيافٍ من الأشلاء .

لو بقيتْ ليلى بجانبى تحرسنى وترعانى ليلة الفراق !

لو بَرَّتْ ليلى بالوعد !

ألم تكن وعدتْ أن نبيت معْتنِقَيْنِ ليلة الوَداع ؟

سأفارق بغداد ، فهل تمدُّ القاهرة ذراعيها لِعناقى يوم أعود ؟

وكيف والقلب يحدِّثنى بأننى سأخاصم القاهرة فى سبيل بغداد ؟

آه من ليلى ومن زمانى !

ما أدرى كيف أعجز فى هذه اللحظة عن دفع الذكريات التى تنهال على قلبى .

أنا تَعبان ، وأحب أن أستريح : فقد كتبت فى أيام قصار ما كانت تعجز عنه الأسابيع الطوال .

ولكن الخواطر تهجم على ذهنى بلا ترفق ، وأشتاق إلى صحبة القلم أشد الاشتياق ، وأخشى إن دفعتُ هذه الخواطر أن لا أجدها بعد اليوم ، وهل يسمح الدهر مرة ثانية بأن أقضى ليلةً فى توديع بغداد وأنا محزون ؟

إن من الناس من يحتال على الخواطر الشعرية ليلوِّن بها آثارهُ الأدبية .

وأنا أُرى الخواطر الشعرية تنثال انثيالاً على قلمى ولسانى ، فما الذى يمنع من التهجُّد فى هذه الليلة لأُدوِّن حسرتى على فراق بغداد ؟

دخلتُ هذه المدينة وأنا خائفٌ أترقّب ، فقد كنتُ أخشى أن أُطيع فِطرتى فى الجدل والمناظرة فأُبتلَى بعداوات يعجز عن حملها كاهل الرجل الغريب .

والواقع أن مواطنىَّ فى مصر آذونى ، فقد أجمعوا على أنى رجلٌ غير مصقول ، وقد كنت اطمأننت إلى أنهم على حق ، فكففت عن الكتابة فى الجرائد بعد أن عُيِّنْتُ مفتشًا بوزارة المعارف المصرية .

وما هى قدرتى حتى أعادى الحكومة وأعادى الناس ؟

لقد كانت جماهير كثيرة ترتاح إلى مصاولاتى فى الجرائد والمجلات وترانى أُمدُّ الحياة الأدبية بالنار والوَقود .

ولكن هذه الجماهير كانت تقف موقف المتفرج حين ترى جناية قلمى على معاشى .

وقد تحمست الأندية الأدبية فى مصر والإسكندرية لظهور كتاب « النثر الفنى » فأقاموا لى حفلات التكريم مشكورين ، وطوَّقوا عنقى بكرائم الخطب وجياد القصائد .

ولكنى لم أفهم أن من حقى أن أنتظر حماسة هؤلاء الرجال فى كل وقت ، وأن أتخذ منهم ظهيرًا أدفع به شر الحاقدين ، وهل يستطيع إبراهيم المازنى أن يعادى الناس من أجلى كل يوم ؟

أقول إنى دخلت بغداد وقد تأدبت بأدب الزمان فصممتُ على أن لا أعرف شيئًا غير دروسى وتلاميذى ، ونزلتُ أولاً فى فُندق تايْجرس ، ولكنى عرفت منذ أول يوم أن من تقاليد أهل العراق أن يسألوا عن ضيوفهم فى كل وقت ، وصَعُبَ علىَّ أن أُعلن زهدى فى لقاء من يسأل عنى ، فانتقلت إلى منزل مجهول وأعلنت فى الجرائد أنى لا أستطيع مقابلة أحد إلا فى مساء يوم الخميس وفى نادى المعلمين .

كذلك احتجبتُ عن أهل بغداد .

ولكن من الذى يستطيع أن يفرَّ إلى الأبد من نور الشمس ؟

لقد تعقبنى أهل بغداد وعرفوا أين أقيم بفضل ثرثرة ظمياء .

وبعد شهرين اثنين كنتُ على صلات وثيقة بأكثر من ثلاثين دارًا فى بغداد .

فكيف اتفق ذلك ؟ وكيف وثق بى كل من عرفت فى مدينة الرشيد ؟

كنت أدخل تلك الدُّور كما أدخل المحراب ، وأهل العراق يحبون الرجل الأمين ويستريحون إليه . وأغلبُ الظن أنهم لم يروا ضيفًا فى مثل أدبى وأمانتى .

وما أدرى كيف اتفق لى أن أصوم عن الشبهات فى أيامى بالعراق مع أنى أعرف فيما بينى وبين نفسى أننى لستُ من الصالحين .

ولعلها دعوةٌ استجيبتْ من دعوات أبى وأمى فحمتنى من الآثام والمهلكات .

ولكن الثقة التى خصنى بها أهل بغداد كدرت حياتى فى بغداد بعض التكدير ، وأين الصفاء المطلق فى هذا الوجود ؟

كان لى صديق يحب أن يعرف أسرارى وكان يتوهم بفضل ما فطر عليه من الشيطنة أننى لا أخلو فى بغداد من صَبَوَات .

وكان هذا الصديق يطرق بابى فى لحظات يعرف هو أنها لحظات الأنس فى بغداد .

كان يطرق الباب فى النهار وفى الليل حتى تَدمَى كَفّاه ، ثم أُضْطَرُّ إلى الاشفاق عليه فأفتح الباب فيقول قبل إلقاء السلام : شَكُو عندك ؟ شَكُو عندك ؟

فأجيب وأنا أبتسم : ماكو ، ماكو !!

فيقول : بلى ، بلى ، أكو ليلى ، أكو ظمياء .

وأفتح أمامه جميع الغرف فلا يرى ليلى ولا ظمياء .

وما صدّقتُه القول ولا هدتْه عيناه : فقد كانت ليلى فى قلبى ، وكانت ظمياء فى فؤادى ، وما عشت فى بغداد لحظة واحدة إلا وأنا معمور القلب بغطرسة ليلى ولطف ظمياء .

والحقُّ أنى كنت أغلق بابى فى أوجه الزائرين لسببين .

السبب الأول : أن بيتى فى بغداد أضحوكة الأضاحيك فهو عبارة عن مكتبة بلا رفوف ،

وكل غرفة من غرفه تحتوى على بساطٍ مغطى بالكتب والدفاتر ، وقد آذانى أن يزورنى بعض الصحفيين فيكتب فى جريدته أنى أقيم فى حانوت ورَّاق !

ومع لطف هذا الوصف فإنى أذكر أنه آذانى أشد الأيذاء .

السبب الثانى : أن حياتى فى بغداد كانت مملوءة بالأفكار والعواطف ، وما مرَّ نهار ولا ليل بدون أن آنس بالدواة والقلم والقرطاس .

وكان الظن أن أطرب للصلات التى عقدتها مع بيوت كثيرة فى بغداد .

ولكن هذه الصلات ساعدت على شقائى .

كان البغداديون يُطْلعوننى على أشياء من ذوات أنفسهم تُقِضُّ مضجعى وتشرِّد نومى ، وكانوا يستريحون بإزاحة الستار أمام قلبى عن سرائر قلوبهم ، وما يعلمون أنهم يخاطبون شاعرًا يتوجَّع لآلام القلوب .

وكَثُرتْ هذه المآسى أمام خواطرى فعرفتُ أحزان بغداد من الكاظمية إلى الكـرادة الشرقية ، وصرتُ لا أرى نخلةً تداعب النسيم إلا سألتُ : كيف تجدين الحياة يا بنت بغداد !

وكنت أول الأمر أتوهم أن كل من يركب عربة فى المساء يتوجه إلى موعد غرام ، فأمسيتُ أُوقنُ أن الناس لا يركبون العربات بعد الغُروب إلا ليصلوا بسرعة إلى أودية الشجون !

وطغى الحزن والكرب حين عرفت أن مشكلات المعاش فى بغداد تشتبك بمعضلات العواطف ، فليس فيمن عرفتُ بهذه المدينة من خلتْ دنياه من هموم الجيب وهموم القلب .

وقد استطعت أن أُنقذ خمسة بيوت من الخراب ، أنقذتها بالترفق لا بالمال ، لأن أهل بغداد يتسامون عن قبول الهدايا من الضيف .

ومن الغريب أن يتم هذا كله بدون أن يفطن إليه أهل بغداد ، فالأسرة التى عرفتُها بالكاظمية تجهل كل الجهل أننى موصول القلب بأسرة بالأعظمية ، وأهل الأعظمية لا يتوهمون أن لى صلات بأهل البتّاوين ، والدار المحبوبة فى الباب الشرقى لا تعرف أنى متصل بالدار التى كان فيها قمر ابن زُرَيْق ، وسمكات دِجلة لا تصدِّق أننى مشغوفٌ بسمكات الفُرات ، وأتباع علىّ بن أبى طالب لا يخطر فى بالهم أنى أحب أشياع عمر بن الخطاب ، وليلى نفسها تجهل أننى أحب ظمياء .

ليت أيامى طالت فى مكايدة ليلى ومداعبة ظمياء !

وزاد البلاء حين عرفتُ أن من أهل بغداد من لا يزال يذكر كتاب « الأخلاق عند الغزالى » والغريب أن يكون من الشيعة بالعراق من يغضب للغزالى ، مع أنه من أقطاب أهل السُّنّة ، وهذا جانبٌ متين من الجوانب العقلية فى العراق .

وهل آذيت الغزالى حتى يحلف ناس بالعراق أن لا يصافحونى من أجل الغزالى ؟

اتقوا الله يا فقهاء العراق إن لم تتقوا الذوق ، فالإسلام هو دين الفكر ودين العقل ، وأنا ما خاصمت الغزالى إلا باسم الفكر والعقل .

ولم تكن هذه المحرجات كلَّ ما عانيتُ فى بغداد ، فقد كان أطفالى يكتبون إلىَّ فى كل أسبوع مرتين ، ولم تكن رسائلهم مما يُطَمْئن فى كل مرة ، وكان خصومى فى مصر لا يزالون يذكروننى بما لا أحب فى الجرائد والمجلات ، فضلاً عن المناوشات التى كانت تصوَّب إلىّ فى بعض صُحف لبنان .

وكنتُ إلى هذا كله مسئولاً أمام وزارة المعارف العراقية ومسئولاً أمام وزارة المعارف المصرية ، بغض النظر عن المسئولية الخطيرة أمام تلاميذى بدار المعلمين العالية ، وبغضّ النظر عن المسئولية أمام المصريين الذين يشتغلون بالطب والهندسة والتعليم فى العراق .

كنت أمشى بشارع الرشيد مشرَّد الذهن فيصدمنى أحد المصريين وهو يقول :

هِيهْ ، أنت متونِّس فى بغداد !

وليتنى كنتَ متونِّسًا فى بغداد !

وهل أنست فى بغداد بغير سواد المداد وسواد الليل ؟

تلك شهورٌ طوال قضيتها فى بغداد بثغرٍ باسمٍ وقلبٍ محزون .

وهذا القمر الشاحب الذى يعانى البؤس فى الرابعة والعشرين من ربيع الثانى يعرف كيف أُدارى بلائى .

هذا القمر الذى حييتهُ ألف مرة وهو يُطلّ على منارة جامع مَرجان يعرف كيف كان يعيش الروح الحزين فى بغداد .

هذا القمر يعرف من أخبارى كل شىء ، ويشهد بأننى لم أتونّس فى بغداد .

هذا القمر يؤمن بأنه لم ير الصبر على السهاد قبل أن يرانى .

وأيامى فى بغداد ستكون الفَيْصَل بين شيخوختى وشبابى .

فاللهم عونَك على ما قدَّرتَ من المكاره لأحرار الرجال .

أين أنا مما ابتدأتُ ؟

كنت أحبُ أن أتكلم عن آخر سهرة قضيتها فى بغداد .

كنت أحب أن أقول إننى ذهبت لملاقاة إخوانى فى جريدة الأخبار .

فماذا صنعنا بعد ذلك ؟

ذهبنا للعَشاء فى أحد المطاعم بشارع الرشيد ، وكنا نعرف أننا سنذهب فى صباح الغد لتشييع جنازة الدكتور سيف .

رحمك الله يا سيف ، وجعل فى الجنة مثواك !

انطفأت الأنوار ثلاث مرات فى المطعم الذى اخترناه .
وكان طعامنا شبيهًا بالسم الزُّعاف .
هى ليلةُ كدَر لا تصلح لشىء ، والله المستعان على غدر الزمان .

* * *

وفى الساعة العاشرة مضيت إلى الجار العزيز أحييه وأُحيى زوجته الغالية .
فماذا رأيت ؟
رأيت الأطفال يئسوا من قُدومى فناموا .
والذنبُ ذنبى ، فأنا الذى لم أُراعِ عواطف هؤلاء الأصدقاء اللّطاف .
وأى أصدقاء ؟
هم أطفال يحسُّون بفطرتهم أنى رجلٌ كريمُ الطبع ، خفَّاقُ الفؤاد .

* * *

لقد تنفَّس الصبح أو كاد .
ومن واجبى أن آوى إلى فراشى لأستريح لحظات عسانى أستطيع فى صباح اليوم أن أودِّع جثمان الدكتور سيف .
بغداد .
الوَداع ، الوَداع ، الوَداع !!!

يا راحلين

يا راحلين قفولى كى اودعكم
وداع مشتاق لا يرجو البقاء غدا
وكيف ابقى وقلبى لا يفارقكم
وهل رأيت بلا قلب بقى احدا

حبيبتك الوفيه
ليلى المريضه بالعراق
١/٦/٢٨

(ليلى المريضة فى العراق)

زكي مبارك

ليلى المريضة في العراق

الجزء الثالث

« تاريخ يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ويشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر القلوب » .

« ... فتنتني رسائل ليلى المريضة فى العراق ... »

محمد العشماوى بك

« لقد ابتكر زكى مبارك فنًّا جديداً حين نقل الغَزَل والتشبيب من الشعر إلى النثر » **على الجارم بك**

« لو شرب الصخرُ من رحيق الوجود بعضَ ما شربتُ لتحوّل إلى أوتارٍ وقلوب . فكيف أصمُت والدنيا كلها تتأرج من حولى بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولى قلبٌ يتشوّف إلى أفنان الجمال تشوُّفَ الشمس إلى أنداء الصباح » .

زكي مبارك

أراك قد كثُرتْ خصومك والفتى ... من كان حسّادٌ له وخُصومُ

ما ضرّ فضلكَ ناقِدٌ أو جاحدٌ ... فلطالما جحدَ الجميلَ لئيمُ

كُنْ حيث شئت بمصر أو فى غيرها ... فجميلُ ذكرك فى العراق مقيمُ

اليعقوبى

٣٧

أنا فى دمشق وطن ...

وطن مَنْ ؟

لا أريد أن أفضح نفسى وقد سترنى علام الغيوب . .

أكتب هذا فى الساعة الثانية من صباح اليوم الخامس والعشرين من حُزيران بعد سهرة قضيتُها مع الموسيقار محمد عبد الوهاب .

فما الذى وقع بعد أن أغفيتُ فى صباح الخميس يوم فراق بغداد .

استيقظت فى الساعة التاسعة تَعبان ، فعرفتُ أنى حُرِمتُ نعمة الثواب فى تشييع جنازة الدكتور سيف .

والتفتُّ إلى أمتعتى أحزِمُها بعناية لأستعدَّ للرحيل .

وكنت أنتظر أن أستقبل فى صباح ذلك اليوم ليلى أو ظمياء ، فلم تحضُر ليلى ولا ظمياء .

وفى الساعة العاشرة طَرَقَ البابَ طارقٌ فإذا هو رسولٌ من قِبَل السيد جواد أبو التُّمّن يسأل عن كتاب (يتيمة الدهر) فقلت إنى سلمته للسيد فخرى شهاب .

وبعد لحظة طَرَق البابَ طارقٌ آخر فإذا هو رسول من قِبَل الدكتور شريف عُسَيْران يسأل عن كتاب (أمراء الشعر فى العصر العباسى) فقلت إنى سلمته للسيد صادق الخفّاف .

و لم أستقبل غير هذين السائلَين يوم فراق بغداد .

وماذا يهمنى من زيارة الزائرين بعد أن ضنَّتْ ليلى ، وبخلتْ ظمياء ؟

أهـذا جـزائىَ فى العـراق وحبِّـهِ   أهـذا جزائىَ فى رَوَاحـى وإسرائى

* * *

ورأيت أن أودِّع بغداد ، وإن لم تودِّعنى بغداد ، فخرجت لزيارة السيد محمود فهمى درويش الذى طلب صورتى منذ يومين ، فلم أجده فى الدائرة ، وإنما وجدت السيد جعفر خياط مدير دار المعلمين الريفية ، فأظهر أسفه الصادق لفراق ونقلنى بسيارته إلى منزلى ، المنزل الذى فارقته وأنا مفطور الفؤاد .

وكان علىّ أن أمرّ على معالى وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء : لأؤدى واجب التحية قبل الرحيل ، ولكنى قدَّرت أن انشغال الوزراء بتشييع جنازة الدكتور سيف جعل الجوّ مشوبًا بالكدر والانقباض .

انتظرت فى المنزل ساعتين فى قيظ فاتك خانق ، و لم أجد شهيةً لتناول الغداء ، وتذكرنى الجار العزيز فأرسل ماعونًا من البطيخ المثلوج فاستروحتُ نفسى بعض الاسترواح

وصلت إلى المطار المدنى فى جوّ محرق لا ينتظر فيه صديق لقاءَ صديق ، ومع ذلك رأيت فى انتظارى جماعة من عيون أهل الفضل فى بغداد فسلموا تسليم الشوق ورجونى أن أعفو عن تقصيرهم فى واجبات المجاملة والوداد

ونظر أحدهم فرأى الطربوش فوق رأسى فقال : ما هذا ؟

فقلت : لأصحح نسبتى إلى مصر بعد أن جعلتنى ليلى من صميم أهل العراق .

وقفنا نتحدث فى شؤون مختلفات منها جنازة الدكتور سيف ، وقد أجمعوا على أنها كانت أروع منظر شهدته بغداد . والموتى يُغبَطون فى بعض الأحيان !

وقُبَيْل قيام السيارة بلحظات حضر شابٌّ من أقارب ظمياء هو ابن عمها عبد المجيد فتجلَّدتُ وتماسكتُ . ولكنه عرف كيف يغزو قلبى حين قال : أهذه آخر مرة ترى فيها بغداد ؟

نعم ، يا مجيد ، هى آخر مرة أرى فيها بغداد ، وهذا جزاء من يثق بعهود الملاح

سيسألُ قومٌ مَن زكــىٌّ مبــاركٌ وجسمىَ مدفونٌ بصحراءَ صماءِ
فإن سألوا عنى ففى مصرَ مرقَـدى وفـوق ثـرى بغـدادَ تمرحُ أهـوائى

* * *

كنا فى السيارة السريعة من سيارات نيرن ، وكانت معى الغادة الموسوية التى شربتُ من يديها أكواب الشهد فى إحدى ليالى بغداد ، الغادة التى أوحتْ إلى قلبى ما أوحتْ وإن لم أنْعَم بلقائها غير مرتين ، الغادة التى ذهبت تصطاف فى دمشق لأن محبوبها فى دمشق .

ركبتُ السيارة بقلبٍ مقتول ، وركبتُ بوجدٍ مشبوب ، وقد همَّتْ بمواساتى وهممتُ بمواساتها ، ولكن هيهات ، وكيف تستطيع أو أستطيع وقد وقَذَنا البرد بعد ساعتين ؟

فما هى قصة ذلك البرد ؟

كان مفهومًا أن الحر سيؤذينا فى الصحراء فاخترنا السيارة السريعة لأنها مزوَّدة بالمراوح وما أعنف ما قاسيتُ من تلك المراوح !

كنتُ نسيت مع الأسف أنى عرفتُ وجع المفاصل بسبب الليلة التى بتُّها فى النجف أول مرة ، فلما ركبتُ تلك السيارة أخذتُ أشعر بالبرد يتمشَّى فى أوصالى ، ونظرتُ فرأيت الغادة ممدَّدة فوق مقعد مستطيل وهى تتلوَّى من الألم ، وهل كنت أستطيع ومعنا عشرون من الركاب أن أتمدد بجانبها عسانا نُفيق ؟

ثم نزلنا بالرمادى فقضينا دقائق فى المقصف

شربتْ هي فنجانا من الشاى ، وأكلتُ أنا قطعةً من الدجاج نزلتْ بالسّم بسبب النظرات التي صُوِّبتْ إلىّ من الأطفال الجياع الذين يحيطون بأسوار ذلك المقصف

ثم رجعنا إلى السيارة وقد اجتمعتْ برودة المراوح مع برودة الليل فى البيداء

وما هى إلا لحظات حتى تيقنتُ أن مفاصلى مُزّقتْ أعنف تمزيق

هل أصرخ من الألم بين أولئك الناس وعلى مسمع من تلك الحسناء ؟

وهل أبقى الدهر مجالاً للدمع والصُّراخ ؟

شوتنى خطوبُ الدهر شيًّا فلم تَدَعْ لمعتسفٍ حُلمًا إذا رام إبكائى

لم يبق عندى شكٌّ ساعتئذٍ فى أن مفاصلى مُزّقتْ ، ولكن كيف ، ذلك أمرٌ يحار فيه العقل

ثم خطر بالبال أن ذلك قد يكون رجعةً لصدمة الروماتيزم التى عرفتها بالنجف فهتفتُ :

— يا غلام ، هات كأسًا من الكونياك

— ليس عندنا كونياك

— وماذا عندك ؟

عندى ويسكى

— هات كأسًا من الويسكى

وما كدت آخذ من الويسكى رشفتين حتى شعرت بأن مفاصلى لا تزال سليمة وأن الذى وقع لم يكن إلا صدمة بَرْد ، فحمدت الله على نعمة السلامة وعرفتُ أن لى بقيةً من العافية أرشف بها صهباء الرُّضاب

وصلت إلى دمشق هامد الجسم ، خامد الروح ، فلم أسأل الغادة أين نلتقى فى المساء

فواهًا كيف تجمعنا الليالى وآهًا من تفرُّقنا وآها

كان أحد أصدقائى فى بغداد عيَّن لى فندقًا أنزل فيه بهذه المدينة وقال إنه أرسل برقية إلى الشاعر أحمد الصافى النجفى ليلقانى بذلك الفندق

ولكن وقع ما لم أكن أنتظر ، فقد لقيت بالمحطة رجلا يتلطف فى نقل أمتعتى إلى فندق داماسكوس ، وكنت تعبان فلم أراجعه فى نقلى إلى هذا الفندق

وبعد أن استرحت لحظات خرجت أسأل عن مكتبة العلوم والآداب ، مكتبة فرحات وهاشمى ، لأقدم إليها النسخ التى اشتركتُ فيها من كتاب « عبقرية الشريف الرضى » فرأيت دمشق تتحدث بقدوم الموسيقار محمد عبد الوهاب

محمد عبد الوهاب ؟

ومن الذى يسمع باسم محمد عبد الوهاب ويفكر فى أحمد الصافى ؟

أين عبد الوهاب ؟

أين ؟ أين ؟

ها نحن أُولاءِ نعتنق بعد فراقٍ أرمضَ الأحشاء وأوجعَ القلوب .

ها نحن أُولاء نستعيد الذكريات العِذاب لأيامنا فى القاهرة وباريس .

ها نحن أُولاء نذكر الأصائل والعشيات على ضفاف النيل .

ها نحن أُولاء نتشاكى ونتباكى ونذكر مصايرنا فى الحب ، ونتوجع للنعيم الذى ضاع فى غَيابات الليالى .

نظرتُ إلى عبد الوهاب وأنا أُدَ مْدِم :

« يا زَرْع بلدى ، عليك يا وعدى »

وتذكرتُ موقفنا عند بحيرة أنجان ، وتذكرت القصيدة التى نظمتها فى الشوق إليه وأنا فى قطار ليون إذ أقول :

يا أميرَ الغِناء تَفديك روحى ... من صُروف الهوى وجَور الغرامِ

أذبلتْ عُودَك الصبابة حتى ... عُدتَ مثل الخيال فى الأحلامِ

وغدَا صوتك القوىُّ أنينًا ... باكىَ اللحن شاكىَ الأنغامِ

خُذْ دموعى فَنُحْ بها يا هَزارًا ... ذاب من قسوة الجوى والهيامِ

* * *

صدّنى عن لقاك فيضُ حنينى ... لبلاد النخيلِ والآطامِ

قد دعتنى مصرٌ فطار صوابى ... وتناسيتُ مُلهمى وإمامى

وتجاهلتُ واجبى يوم تكريـ ... ـمك بين الأماثل الأعلامِ

أنا بالروح والفؤادِ صفىٌّ ... فتقَبَّلْ تحيتى وسلامى

* * *

عانقتُ عبد الوهاب حين لا قيتُه عناقًا ضجَّ له من رآه من صبايا دمشق ، فالتفت إليهن وقال : نحن عُشّاق !

نعم ، عشاق ، عشاق ، عشاق .

وهل فى الدنيا عشقٌ أنضر وأروع من أُنس الأرواح بالأرواح ؟

وأى قلب لا يتشرف بأن يخفُق شوقًا إلى محمد عبد الوهاب ؟

أى قلب لا يستهويه أن يكون له وجدٌ بهذا الروح الطاهر النبيل الذى يُحسن الافصاح عن سرائر القلوب ؟

إن محمد عبد الوهاب من أكرم الذخائر فى الوطن الذى تنسم هواءه محمود البارودى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى .

إن محمد عبد الوهاب هو الشاهد على أن مصر من بساتين الشعر والخيال .

حرسك الله يا عبد الوهاب وزاد روحك صفاءً إلى صفاء .

* * *

ومضيت مع هذا الروح اللطيف أزور من يعرف من عيون دمشق ، فراعنى أن أرى صورته مرسومة فوق كثير من الأرائك : أرائك المنازل الأمينة التى تثق بهذا الروح الأمين .

وإنى لأعتقد أن عبد الوهاب أعجوبة بين أهل الفنون فهو شابٌّ مهذَّب اللفظ ، شريف الوجدان ، وما اتصل به أحدٌ إلا بَهَره ما فيه من سموِّ الأدب ودقة الذوق .

وكيف كانت ليلتى فى صحبة عبد الوهاب ؟

قضينا لحظات فى شهود « فلم يحيا الحب » ثم أمضينا بقية السهرة فى منزل الدكتور رمزى فردوس .

وما كدَّر هذه السهرة إلا لحظات صمت كانت تعتاد عبد الوهاب من حين إلى حين .

وهذا الفتى لا يتصنع الوقار كما يتوهم من لا يفقهون ، وإنما يعانى لحظات من الغيبوبة حين تمسُّه أطياف التلحين ، وهو يخلو إلى نفسه من وقت إلى وقت من حيث لا يحتسب ولا يريد ، هو يتلقى وحى التلحين كما يتلقى الشاعر وحى الخيال .

دخلت عليه ليلةً فى منزله بالعباسية فوجدته فى نشوة روحية فقلت : أتشتهى الآن أن تغنى ؟ فقال : أنا حين أطرب أشتهى اللحن .

وأيامى فى صحبة هذا الروح بالقاهرة وباريس دلتنى على معانٍ كثيرة من شمائل نفسه العالية وقلبه الخفاق .

وقد درستُ هذا الفتى دراسةً وافية لأعرف السبب فى نجاحه فرأيته يرجع إلى أنه يتناول جميع الأمور بطريقة جدية ، حتى الحب يراه عبد الوهاب لونًا من ألوان الجد الرزين ، وهو لا يعاقر كأس الحب إلا ليواجه أسرار الوجود .

وعبد الوهاب مؤمن بعظمته الفنية ويتسامى إلى الخلود فى عالَم الفنون ، وهو من أجل ذلك يحرص على سلامة صوته أشد الحرص ، فهو الفنَّان الوحيد الذى لا يدخِّن ولا يشرب الخندريس .

والناس يقولون إن شوقى وجَّهه فى مطلع حياته الفنية ، وهذا حق ، ولكن من الحق أيضًا أن عبد الوهاب وجَّه شوقى إلى أفانين من البيان : فعبد الوهاب صاحب الفضل فى إقبال شوقى فى أعوامه الأخيرة على الأناشيد الغنائية ، وقد هتف شوقى باسمه عند الموت .

* * *

وليس فى عبد الوهاب إلا عيبٌ واحد : هو التقصير فى تلحين الشعر الفصيح .

وقد حاول ذلك فنجح فى قصائد معدودات ، ولو أنه صبر على هذا الفن لأتى بالأعاجيب .

أقام عبد الوهاب فى العراق نحو أربعة أسابيع، وكانت هذه المدة كافية لأن ينقل إنشاد الشعر عن أهل العراق ، ولكنى علمت أنه لم يعرف دار ليلى ولم يمرّ بشارع العباس بن الأحنف ، فكان مصيره مصير بعض المصريين الغافلين الذين يزورون بغداد ولا يستوحون ليلى المريضة فى العراق .

وماذا يحسن العراقيون فى التغنى بالشعر الفصيح ؟

الحقّ أنى لم أفهم قيمة الأخبار المبثوثة فى كتاب الأغانى إلا بعد أن زرت العراق .

وإذا كان المغنّون المصريون لم يستطيعوا أن يعيدوا عهد مَعبَد والغريض فى إنشاد الشعر الفصيح فأهل الفن بالعراق لا يزالون قادرين على إحياء ذلك الفن الجميل .

سهرتُ ليلةً فى منزل السيد عبد الوهاب الأمين مع جماعة من الرفاق منهم السيد يوسف رُجَيْب وكان معنا رفيق نسيت اسمه مع الأسف ، ولعله يسمى عبد الله ، وفى نهاية السهرة انطلق ذلك الرفيق يتغنى بالشعر الفصيح غناءً يبعث الغافيات من سرائر القلوب ، وخرج ذلك الرفيق معى فركبنا سيارة عمومية وهو يغنى ، فنسى السائقُ الطريقَ وأخذ يدور ذات اليمين وذات الشمال فى أضاليل الرصافة ، سقاها الحب ، ودام الحال كذلك نحو ساعتين حتى خشيتُ أن يُقتَل ذلك الرفيق وهو فى حومة الغناء .

وفى تلك اللحظات تذكرت المغنى محمد عبد الوهاب الذى عجز عن تلحين قصيدة :

« ساعة حُبّ »

وهى القصيدة التى يقول فيها شاعر سنتريس :

يا مَلِيكَ الحُسْنِ عزَّتْ دَوْلتُكْ　　وَرَعتْ آلهةُ الحبِّ صِباكْ
شِرعةُ الإسعادِ فينا شِرْعَتُكْ　　وَهُدَى الإشفاقِ والعطفِ هُدَاكْ

* * *

أنْتَ أنقذْتَ فؤادِى مِن جَوَاهْ　　وسَقَيْتَ الرُّوحَ أكوابَ الصَّفاءْ
آن أنْ يَنْسَى فؤادى ما شَجاهْ　　نَسَخَ الإقْبالُ أيامَ الشقاءْ

* * *

ساعة مرَّتْ وَفِى القلبِ هَوَاكْ　　ساحِرَ النَّغمةِ خفَّاقَ الجَناحْ
يَرْشُفُ اللَّثْمَةَ من كأسِ لَمَاكْ　　فِى ظلالِ الأنسِ والصَّفْوِ المُتاحْ

* * *

سكَبَتْ نَجْواكَ فى الرُّوح الأَمانْ وأَرانى الـوصلُ أَسرارَ جمالِكْ
فتمثَّـلتُ فـراديسَ الجنـانْ ورَأَيتُ الخُلدَ مَنْضُورَ وصِالكْ

* * *

وَقَـفَ النَّجـمُ وَأَلقَـى بالَـهُ لِيَعُدَّ اللَّمحَ من قلبي وقلبِكْ
وَيـحَ هـذَا النَّجـمِ مِمَّـا هالَـهُ فِى ضَمِيرِ الليلِ من حُبِّى وحُبِّكْ

* * *

غارتِ الأَنْجُمُ مِن قلبى الطَّرُوبْ مَا يقولُ النَّاسُ لو شامُوا غرامى ؟
أَنـا بالأَفنـانِ فَتَّـاكٌ لَعُـوبْ يزْدهِينى الغَىُّ فى تِيهِ هُيامِى

* * *

شُبْهَةٌ فِى قَلبِكَ الْبِكْرِ يَلُـوحْ طيفُها المرتابُ فى إنسانِ عَيْنِكْ
أَنـا يـا مَوْلاَىَ لَوْ تَعْلَـمُ رُوحْ يَهْصِرُ المطلولَ من مائِدِ غُصْنِكْ

* * *

تَنْظُر الساعـةَ مـن حِيـنٍ لحِيـنْ لَيْتَ شِعْرِى ما الذى يَسْتَعْجِلُكْ
إنَّ هـذا الـوصلَ أَحـلامُ سِنِيـنْ فاتَّقِ الـحُبَّ ودَعْ مَـا يَشْغَـلُكْ

* * *

ومع تقصير محمد عبد الوهاب فى تلحين الشعر الفصيح فأنا أعطف عليه أكرم العطف ، وأذكر بالحمد والثناء أنه رفع الفن المصرى فى الأقطار العربية والإسلامية .

ولو كانت أم كلثوم تملك ما يملك عبد الوهاب من القدرة على التلحين لأغنت الشعر الفصيح عن دلال هذا الصديق العزيز .

أكتب هذا وصوتُ أم كلثوم يملأ أجواز الفضاء فى دمشق ، ولعله يصنع مثل ذلك فى بيروت والقدس وبغداد والبصرة والموصل وتونس ومراكش والجزائر والخرطوم..

أكتب هذا وبجانب الفندق الذى أقضى فيه هذه الليلة دارٌ يغتبق أهلها بصوت أم كلثوم بعد نصف الليل .

وماذا أقول فى أم كلثوم ؟

إن مصر ـــ حيَّا الله مصر ـــ لم يُذع اسمها كاتبٌ ولا شاعر كما صنع صوت أم كلثوم .

وهذا كلام قد لا يرضاه الأستاذ محمد خالد الذى عَتبَ علىَّ حين سمعنى أخطب يوم ظهر فِلم (الغندورة) للسيدة منيرة المهدية ، فقد راعه أن أقول : إن الفنانين المصريين يذيعون محامد القومية المصرية .

فهل يكتب الله لمثل هذا الصديق أنْ يشرّق أو يغرّب ليرى الخدمات التى يؤديها صوت

أم كلثوم للأمة المصرية ؟

هل يكتب الله لمثل هذا الصديق أن يزور بغداد ليرى أن أهل العراق يرون أن النشيد القومى المصرى يجب أن يكون « نشيد الجامعة » الذى لحّنه الفنّان رياض السنباطى وغنّته الحَمامة الموصلية أم كلثوم ؟

* * *

وماذا لقى الفنّانون عندنا من عناية النقد الأدبى والفنى ؟

كل ما غنموه أن يقال إنهم يذيعون ثقافة البكاء والأنين !

فهل يفهم النُّقّاد أن النفس الإنسانية لها مآسٍ وأشجان ، وأنها فى حاجة إلى مُواسين من صوت أم كلثوم وعبد الوهاب ؟

هل يفهم النقاد أن الفنانين المصريين أفصحوا عن عواطف يحسها الناس فى كل مكان ؟

هل يفهم النقاد أن الحزن علامة قوة لا علامة ضعف ؟

هل يفهمون أن الحزن هو الشاهد على أننا نفهم قيمة ما نفقد ؟

اعرفوا هذا ، أيها النقاد ، لتقدروا حزنى على فراق ليلاى .

اعرفوا هذا لترحمونى يومَ يطول إلى ليلى حنينى .

وكيف أستجديكم العطف وأنتم غُلْفُ القلوب ؟

كيف أستجديكم الرفق وقد حرمكم الله نعمة الضلال فى هوى العيون السود ؟

* * *

أنا فى دمشق وطن ...

وطن مَن ؟

لا أريد أن أفضح نفسى أكثر مما افتضحتُ .

فأين تعيش الإنسانة التى ذهبتُ إلى بغداد وفى جيبها مسدَّس لتقتل ليلاى فى العراق ؟

أين تعيش ؟ وفوق أى سرير تنام ؟

لقد هددنى زوجها بالقتل إن سألتُ عن بيته حين أمرُّ بدمشق .

وكنت أستطيع أن أدخل دمشق ومعى جيش من قومى فى العراق ، ولكنى صفحتُ وغفرتُ .

حسبتُم هذه الدنيا ... تضيق برحبها عنّا
فصرتم كلما جئنا ... نَفرتُم جَهرةً منّا
أسأتم إذ تبرمتم ... بهذا المُغرمِ المُضنَى
وجُرتم حين غيرتم ... بصدق ولائه الظنا

ولو أنصفتمُ قـلتم :   أديبٌ يعبـدُ الحسْنـا

فما ذنبى عندكم يا بنى دماشق بن قانى بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح ؟

ما ذنبى عندكم وقد أذعتُ محاسن الشام فى بغداد ؟

ما ذنبى عند صاحبة العينين و لم أشرب على وجهها غير مرة واحدة فى قِطار الحِلة ؟

أيكون ذنبى عند زوجها أن تفرح بلقائى يوم سَدَّة الهندية ؟

لا تغضبوا ولا تعتبوا ، يا بنى دماشق ، فلم أبِت فى مدينتكم غير ليلتين ، وقد أفارقها إلى غير مَعاد .

وهل يسمح الدهر لرجل مثلى أن يستوحىَ العيون فى دمشق حين يشاء ؟

إن أهل دمشق يحترسون منى كما احترس أهل بيروت .

وهو كذلك .

ولكنكم ستجنُون عواقب ذلك بعد حين .

ستطلبون وتُلحُّون أن أرجع إلى اجتلاء المحاسن فى هذه البلاد .

وهل تروننى أقلَّ من حسان بن ثابت الذى رَقَم اسم بَرَدَى على جبين الزمان ؟

نحن الشعراء ، يا بنى دماشق ، وعداوةُ الشعراء بئس المقتنى ، كما قال المتنبى .

فكيف تجنُون على أنفسكم بمكايدتى ؟

أمثلى يمرُّ على دمشق وبيروت ثم يخرج سليم القلب ؟

ستندمون ، ثم ستندمون !!

* * *

آه ، ثم آه !!

دخلت دمشق وأنا محزون ، وسأُفارقها وأنا محزون .

ولكن لا بأس فسأُسافر بإذن الله إلى السودان .

ألم أتلقَّ فى بغداد عشرات الخطابات من ليليات السودان ؟

إن أهل السودان من عيون العروبة وفيهم شمائل من النبل والكرم والذوق ، وهم من قراء مؤلفاتى ، المؤلفات التى نظمتها من حَبَّات قلبى .

فإن تجنَّتْ علىّ الوجوه الشُّقر والبيض فسأُنعمُ بإذن الهوى فى ظلال الوجوه السُّمر والسود .

سأذهب إلى قومى فى السودان ، السودان الذى تناسيناه ونحن آثمون .

سأذهب إلى البلاد التى فيها منابع النيل .

سأذهب إلى الخرطوم التى خلَّدها صاحب « ليالى سَطيح » الخرطوم التى تنسَّم هواءها

حافظ إبراهيم أظرف رجل رأته عيناى .

سأذهب إلى الخرطوم التى عزّ عليها أن أقصر هوایَ على القاهرة وباريس وبغداد .

سأزور الأماجد من أهل السودان الذين كانوا ولا يزالون أصدق الحافظين لعهد القرآن .

سأبنى بيتًا فى دارفور لأستطيع أن أقول إنى وفيتُ بالعهد للعروبة المصرية .

سأكتوى بقيظ السودان كما اكتويت بقيظ العراق .

سأنشر كتابًا عن « ذكريات الخرطوم » كما نشرت كتابًا عن « ذكريات باريس » .

* * *

غدًا أفارق دمشق ، ويا لوعة القلب من فراق دمشق !

وكنت أحب أن أمرّ على بيروت مرةً ثانية ، ولكنى أخشى أن أُواجه الأدباء هناك بما لا يحبون ، وهم قومٌ ليس فيهم إلا فضيلةٌ واحدة : هى أنهم يشتموننى باللغة العربية !

وما ذنبى حتى أُشتَمَ باللغة العربية أو اللغة الفرنسية ؟

ما ذنبى وأنا أُذيع المحامد العربية فى كل بلدٍ أَحُل فيه ؟

لقد قضيتُ فى بيروت ليلة واحدة ، فكانت تلك الليلة فرصةً لِهيام الأقلام فى شهورٍ طِوال ؟

إن كان مثلى يُشتَم فى بيروت فغضبةُ الله والجب على بيروت !

* * *

غدًا أفارق دمشق ، لأمرَّ بفلسطين وأُجيب دعوة الأستاذ إبراهيم طُوقان فى مناجاة ليلى فوق منبر الإذاعة اللاسلكية بالقدس الشريف .

إلى القدس ، إلى القدس .

إلى وطن العيون التى أسرتنى فى غَزة وفى اللُّد وفى ....

أنا فى حيفا وقد شرعت فى كتابة هذه الكلمات قبل منتصف الليل : لأشعر أنى استوحيت فلسطين .

فما هى قصتى مع فلسطين ؟

قبل أن أسافر إلى العراق نصحنى الناصحون بأن أسافر فى الطيارة من مصر الجديدة إلى بغداد . فإن لم يَرقنى ذلك فلأُسافر بالبحر من الإسكندرية إلى بيروت . ثم أمتطى سيارة إلى دمشق ثم إلى بغداد ، ونهانى أولئك الناصحون عن عُبُور فلسطين : لأن الثورة كانت جُنَّتْ ، وكان نَسْفُ القطارات من بعض ما يصنع الثائرون .

ولكنى رفضتُ ذلك النصحَ الجميل وأبيتُ إلا عُبُور فلسطين لأرى اللُّدَّ التى وردت فى أبيات رواها صاحب الأمالى ، ولأرى غَزَّةَ التى قال أحد شعرائها القدماء :

قالوا تركتَ الشعرَ قلتُ ضرورةٌ باب البواعثِ والدواعى مُغْلَقُ
لم يبق فى الدنيا كريمٌ يُرتَجَى منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن البليةِ أنه لا يُقتنَى ويُخانُ فيه مع الكساد وَيُسرَقُ

وكذلك تخوّف المصريون الذاهبون إلى العراق من عبور فلسطين ، وتفرَّدتُ بعبور فلسطين فى لحظات تموج بالدماء ، ولطف الله فلم يُصِب القطارَ الذى امتطيته مكروه . وغَنِمْتُ إمتاعَ عينىَّ برؤية البلاد التى يَحترِبُ فى سبيلها العرب واليهود .

وبعد أن أديتُ واجبى فى العراق وفكرتُ فى الرجوع إلى وطنى وأبنائى كانت سبقتنى دعوةٌ من الأستاذ إبراهيم طُوقان لالقاء محاضرة فى الإذاعة الفلسطينية فى الأسبوع الأخير من حُزيران ، وحدثتُ الدكتور الجمالى بذلك فنهانى عن عبور فلسطين ، وكانت الثورة زادتْ بلاءً إلى بلاء .

ولكن هل ينتصح رجلٌ مِثلى حين ينهاه الناصحون ؟

هيهات ! هيهات !

* * *

ومضيت لأخذ تذكرة من شركة نيرن فطلبوا جواز السفر فقدمته ، فلما نظروا فيه أعلمونى أنه يحتاج إلى تجديد لدخول دمشق ، ولم أكن تأملت ما كُتِب فيه بالفرنسية ، فأعطيتهم ما طلبوا ليجددوه .

وبعد أن بتُّ فى دمشق ليلةً كان من واجبى فى صباح اليوم التالى أن أمرَّ على مكتبة (فرحات وهاشمى) لأقدم إليهم النسخ التى اشتركوا فيها من كتاب (عبقرية الشريف الرضى) فتلقانى أصحاب المكتبة بالترحيب ، وتفضل شابٌّ مهذَّب اسمه شفيق بالتطوع لمصاحبتى إلى أن أبرح دمشق — و لم يكن بينى وبين مبارحتها غير ساعات — وما كدت أبدأ الحديث مع ذلك الشاب المهذب حتى قال : هل جددت جواز السفر لعبور فلسطين ، يا دكتور ؟

فتذكرت ما وَجب علىّ فى بغداد من تجديد جواز السفر لدخول دمشق ، وأسرعنا إلى المفوضية الإنجليزية .

فماذا صنعنا هناك ؟

انتظرنا ساعتين أو ثلاث ساعات كانت أثقل على قلبى من الجبال ، و لم يخفف تلك الساعات إلا الأُنس بحديث فتًى من فلسطين اسمه بهاء الدين بيبى ، شقيق تلميذى القديم رشاد بيبى ، و (بيبى) نسبة إلى الباب إحدى قُرى حلب ، وإليها ينسب البابى الحلبى ، وتلك فائدة لغوية تستحق التدوين .

وبعد ذلك الانتظار الذى لم يخفف من ثِقله غير صُحبة شفيق وبهاء الدين عرفتُ أن جواز السفر لا يحتاج إلى تجديد .

وعندئذ تذكرت خطر العناد الفظيع الذى حرمنى تعلُّم اللغة الإنجليزية ، فقد كنتُ أُحب أن أُشهد أهل المشارق والمغارب على أن المصرى يستطيع أن يكون فى وطنه أعظم الرجال بدون أن يتعلم الإنجليزية ، لتسقط حجة الإنجليز حين يزعمون فى أوربا أن لغة المصريين هى الإنجليزية « !؟ » .

ولو كنتُ أعرف لغة الإنجليز لنجوتُ من مرارة الانتظار فى تلك الساعات الثقال ، ولرحمتُ شابًّا مثل شفيق من أن يعانى فى صحبتى تلك الساعات المضجرة فى وقت قائظ عصيب .

اطمأننتُ إلى أن جواز السفر يبيحنى حق عبور فلسطين فامتطيت سيارة إلى حيفا ، بعد أن زودت نفسى بألوان من الفواكه الشامية .

وما كدت أخرج من الشام وأدخل فلسطين حتى رأيتنى مسئولاً عن جواز السفر فى محطة تسمى « بنات يعقوب » وطلب المراقبُ الإنجليزى جواز السفر ليختبره ثم رجع بعد لحظة فأفهمنى أنه يحتاج إلى تجديد وأنه لا مندوحة من رجوعى إلى دمشق لتصادق عليه المفوضية الإنجليزية .

كلمت ذلك المراقب بالفرنسية وأفهمته أنى قضيت بالمفوضية الإنجليزية ثلاث ساعات إلى أن أفهمونى أن الجواز لا يحتاج إلى تجديد ، وأكدت له أن رجوعى إلى عاصمة الشام غير

ممكن ، لأن جيبى خلا من المال ولا أستطيع الاتفاق مع السائق على أجر جديد .

فتردد المراقب الإنجليزى لحظة ثم قال : انتظر حتى أخاطب المحطة المقبلة بالتليفون ، ثم رجع فقال : دبِّر أمورك مع المحطة التالية !

وفى المحطة التالية وقفت وقدمتُ الجواز ، فاختبره الموظفون هناك ورأوا أنه لا يحتاج إلى تجديد .

أشهد أن بنى آدم بلا عقول !

وأشهد أن الإنجليز ناس كسائر الناس قد يقرأون فلا يفقهون !

وأشهد أنى جنيت على نفسى حين اكتفيت بمعرفة اللغة الفرنسية ، وكان فى مقدورى أن أتعلم الإنجليزية بجانب الفرنسية لأستطيع التفاهم مع جميع « أصدقائنا » فى الشرق .

ولا تجىء المصائب ، إلا من الحبائب !

لم يكن لى مأربٌ من زيارة فلسطين إلا تنسم هواء البلاد التى مكَّنت الإنجليز من أن يكونوا دواهي السياسة فى العصر الحديث .

فأنا أعتقد أن معضلة فلسطين ليست إلا فخًّا ينصبه الإنجليز ليَبْلُوا الأمم العربية والإسلامية ، وإلا فمن الذى يصدِّق أن الإنجليز يعجزون عن إقرار الأمن فى بلاد لا يزيد سكانها عن بضع مئات من الألوف ؟

أنا أعتقد أن الإنجليز يصانعون العرب ويصانعون اليهود ليشغلوا الأمم العربية والإسلامية بشاغل لطيف يصرفهم عن التفكير فى شواغلهم المحلية .

وهذا الكلام يعدُّ كفرًا فى نظر المغفَّلين الذين لا يدركون مرامى السياسة الإنجليزية .

وما أحب أن أزيد !

* * *

وصلت إلى حيفا فسألت عن الأستاذ عبد الكريم الكرمى فلم يعرفه أحد .

ثم سألتُ عن الأستاذ أبى سلمى فعرفه الجميع !

وهنالك ندمتُ على الوقت الذى ضيعته فى دراسة « الكُنية » يوم كنت مشغولاً بتأليف كتاب « النثر الفنى » فلو أنى كنت زرت العراق أو فلسطين قبل ذلك لاستغنيت عن تلك الأبحاث الطوال .

الكُنية هي أساس التعريف فى العراق : فأبو هاشم هو طه الراوى ، وأبو ليث هو فاضل الجمالى، وأبو صباح هو نورى السعيد، وأبو مفيد هو إبراهيم حلمى، وأبو ليلى هو زكى مبارك!

أُحبك يا ليلى وسأهتف باسمك فى كل مكان .

أحبك يا ليلى ؛ وسأذكر أنى خرجت من داركِ غضبان .

أحبك يا ليلى ، وأعترف بأنى أستحق وأستأهل كل ما طوقتنى به المقادير .

ألم تكونى بين يدىّ ؟ ألم أكن أملك من أمرك كل شىء ؟

ألم يكن زِمامُك فى يدى لو كنتُ أُحسن التصرف فيما أملك ؟

ليلى ، ليلاى .

لم يكن طبيبك من الغافلين ، وإنما كان من الأمناء .

لقد قبّلتِ يدىَّ مرةً أو مرتين أو مرّات ، وكان فى ذلك إيذانٌ بأن من حقى أن أقبّل جبينك المُشرِق وخدك الأسيل .

فهل ترينني فهمتُ أو عقلتُ ؟

ليلى ، ليلاى .

سيطول ندمى على ما ضيَّعتُ من الفرص السوانح ، وسيطول بلائى كلما تذكرتُ أن غرامى فى بغداد لم يكن إلا حُلمًا تبدَّد وأملاً ضاع .

لقد نصبتِ الشبّاك لاقتناصى ألف مرة ، ثم نجوتُ من تلك الشباك ، فوا كرباه من تلك النجاة !

جَنَتْ علىَّ الليالى غير ظالمةٍ إنى لأهلٌ لما ألقاهُ من زمنى

توهمتُ يا محبوبتى الغالية أن من واجبى أن أصونك عن جميع الشبهات .

توهمتُ أن من واجبى أن أتصوَّرك نفحةً روحانية تعزُّ على إدراك الناس .

وأنتِ والله كذلك ، وإن تبذَّلتِ طائعةً فى هواى .

اذكرى يا ليلى أنى صُنْتُكِ صيانةً كريمة ، وأنى رأيتك فوق الشهوات والأهواء ، فلم أمسَّكِ بسوء ، مع أنى من العارمين

اذكرى يا ليلى أنك اقترحتِ ان تعينينى على ليل بغداد فرفضتُ .

اذكرى يا ليلى أنك اقترحت أن تكونى نور بيتى فأبيتُ .

اذكرى يا ليلى أنى من أجلكِ عشتُ عُذْرىَّ الهوى فى بغداد .

اذكرى يا ليلى أن بلدكم لم يعرف قلبًا أشرف من قلبى وإن كثُر المدَّعون .

اذكرى يا ليلى هُيامنا الطاهر النبيل فى ضواحى بغداد .

اذكرى يا ليلى أنى خرجت من داركِ غضبان ، ولن أعود

إيش لون يصير ؟

ما أدرى كيف أصبر على فراق بلدٍ أنتِ نورُهُ الوّهاج !

ما أدرى كيف أهجر العراق إلى غير مَعاد !

ومن يضمن أن تذكرينى بالخير بعد الفراق ؟

كان العذال يقولون ... ويقولون ... ويقولون ...
فهل يعرف العذّال أنك ستمضغين عِرضى كما يمضغ الظبىُ عُوَد الأراك ؟
إن سمعتى بين يديك يا محبوبتى الغالية ، فاصنعى بها ما تشائين .
كونى سِنادى ، يا ليلى ، يوم يتقوَّل المرجفون .
كونى سنادى ، يا ليلى ، يوم يُرجف المتقولون .
قولى الحق ، يا ليلى ، هل شهدتِ على محبوبكِ الغالى ما يُعاب ؟
هل رأيتِ منه غير الكرم والصدق والنُّبل ؟
أنا أعرف ما جنيتُ على نفسى يوم تعففتُ وتصوَّنتُ .
ولكن من الظلم أن يكون العفاف بابًا إلى الخسران .
قولى فىّ كل شىء ، إلا تهمة الإثم والفسوق .
وما أشد ندمى على أن أسلم فى هواكِ من الإثم والفسوق !
كنتُ مخلصًا ، يا ليلى ، فيما اخترتُ لنفسى من التصوُّن والعفاف .

وأُقسم بالله وبالحب أنى ما تركتُ حظوظى من جمالك الفضّاح إلا لأنى رأيته أعظم وأشرف من أن تخوض فيه هواجس الظنون .

أنت يا محبوبتى « حليوة » كما كانت تعبِّر ظمياء .
ومن حق « الحليوة » أن تصان عن الأهواء الفواتك .

لقد استطعتُ وأنا غَوِىٌّ أثِم أن أصونكِ عن الدَّنس والرِّجس ، فتصوَّنى يا ليلى عن الدنس والرجس ، واقضى دهركِ كلَّه وأنتِ مَصونةٌ بَتُول .

إن قلبى يكاد ينصهر من الغيظ كلما تصورتُ أن نورك الوهاج قد يجتذب إليه فُضُول الفَرَاش .

فارحمينى يا ليلى من هذه الغيرة القتّالة التى تبدِّد رشدى ، وتَسْحَقُ قلبى .
ارحمينى يا ليلى فإنى أخشى أن أموت وأنا من الغاضبين .
ولك الويلُ إن متُّ وأنا عليكِ غضبان !

* * *

فكرتُ فى عصرَ اليوم فى التنزه بحيفا فسألتُ عن أجمل حىّ فى المدينة فقيل أنه حىُّ العزيزية ، ثم قيل إن ملاهيه ستُقفل فى المساء بسبب الثورة . وليست حيفا فى ثورة ظاهرة ، ولكنْ التعادى بين العرب واليهود يسبِّب حوادث كثيرة فى كل مساء .

وكذلك اكتفيتُ بالطواف فى الحىّ الذى تقع فيه المحطة وفُنْدُق السنترال .

* * *

وفى ذلك الحىّ جلستُ على قهوة بعد الغُرُوب لأجتلى وجه الحياة فى حيفا ، فأقبَل شابٌ يقول :

— حضرتك من الإسكندرية ؟

— أنا من القاهرة .

— ولكنى أتذكر أنى رأيتك فى الإسكندرية .

— قد يكون ذلك : فلى بالإسكندرية صِلات

ودعوته إلى الجلوس فلم يرفض ، ثم قال :

— ظننتك أول الأمر أجنبيًّا .

— ماذا تعنى ؟

— لأنك تجلس على قهوة أجنبية .

— هذه قهوة أجنبية ؟

— نعم ، لأن أصحابها يهود .

وكذلك يرى العرب أن اليهود أجانب فى فلسطين .

واقترح الشابّ أن نزور معًا بعض الملاهى فقمتُ معه وأنا متهيِّب ، وكنتُ أحب أن أدرس بعض الشمائل من حياة المرح فى هذه المدينة ، ولكنى لم أستطع أن أدخل الملاهى : فقد خشيتُ أن أرى ما أكره فى ليالٍ لا يسهر فيها إلا المعربدون .

وحاول الشاب أن يقنعنى بأنه مصرىٌّ وأن ضميره لا يبيحه أن يقودنى إلى مواطن الشُّبهات ، فاعتذرتُ بتلطُّف وانسحبتُ .

* * *

لم أجد فى حيفا مجلة مصرية ، على كثرة ما بحثتُ ، ولعل ذلك لأنى دخلتها فى أيام الهياج ، ومع تجهُّم حيفا بسبب الفتن فقد رأيتها مدينة جميلة ، بغض النظر عما لمائها من طعم ممجوج .

وقد تأملت « ورقة الفندق » التى تسمَّى « قائمة الحساب » فرأيتها تذكِّر بورقات الفنادق فى دمشق : فهى تنصّ على أنواع الشراب .

ولذلك دلالة يدرك قيمتها الباحث الاجتماعى .

* * *

فى مثل هذه الساعة من الليلة المقبلة سأكونُ بإذن الله فى مصر بين أهلى وأبنائى .

ولولا الشوق إليهم لمضيتُ إلى القدس وناجيتُ ليلى على منبر الإذاعة الفلسطينية ، إجابةً

لدعوة الشاعر إبراهيم طُوقان .

فيا أيها القدس الشريف .

سلام عليك من شاعرٍ يعرف فضلك فى إحياء القلوب .

سلام عليك من مؤمنٍ يعرف فضلك فى إيقاظ الأرواح .

ويا إخوانى فى القدس .

لا تحسبونى نسيتُ العهد .

٣٩

هنا القاهرة !

هنا القاهرة !

هنا القاهرة !

إلى ذراعىَّ ، يا عروس الشرق .

إلى ذراعىَّ ، يا جِنِّية النيل ..

إلى ذراعىَّ ، يا وطن ليلى المريضة فى الزمالك .

إلى ذراعىَّ ، يا مَلاذ كل خائف ، ومأمَن كل ملهوف : فقد مرَّت أجيال وأنت المأوَى الأمين لكل مَن تضيق عنه بلاده من أحرار العرب والمسلمين .

إلى ذراعىَّ ، يا وطن الشاعر الذى قال وهو يخاطب قلبه المفطورَ فى باريس :

ستأسُو عذارَى النِّيل آصار ما جَنتْ عليك عـذارَى السيـنِ حِين تعـودُ

* * *

امتطيت القطار من حيفا إلى القنطرة ورأسى معمور بما كنت شاهدتُ فى فلسطين من معالم الوقائع الإسلامية فقد شهدتُ المكان الذى وقعتْ فيه واقعة حِطِّين ، وقد أقمت لحظةً لاهيةً على شاطىء بحيرة طَبريَّة ، وبقى أن أُمتِّع البصر بما سأراه من بساتين فلسطين وأنا ماضٍ إلى القنطرة . وخفق القلبُ حين مررتُ على رَفَح ، فقد كنتُ موعودًا بزيارتها حين اعتقلنى الإنجليز أيام الثورة المصرية ، وهو اعتقال دام مدة أطول من المدة التى قضيتها فى سجن ليلاى بالعراق !

وما كدت أصافح قناة السويس حتى دخلتُ مع المصريين فى قِيلٍ وقال حول فاجعة بغداد ، ودام ذلك الجدل ساعات إلى أن حان موعد قطار القاهرة ، فأسلمتُ نفسى إلى هدوءٍ مُرِيح لأستعد للسَّمر مع أبنائى ليلة الوصول .

كدتُ أُجَنُّ حين رأيت محطة باب الحديد ، المحطة التى يتخطَّر فوقها الظباء فى كل وقت ، والتى شهدتْ ألطف التحيات ، وأعذب القُبُلات ، المحطة التى كان مَقصفها موعد غرامى يوم كنتُ موصول القلب بأفنان الجمال .

لم يستقبلنى أحدٌ على محطة باب الحديد لأنى وصلت على غير ميعاد .

وأخذتُ سيارة إلى منزلى بمصر الجديدة فوجدت أطفالى :

يناجون فى الأحلام أطياف والدٍ   لعهـد بنيـهِ والبُنَيَّـاتِ نَسَّاءِ

وكانت دقةٌ واحدة من الجرس كافيةً لأن يطرب جميع أهل البيت .

قالت زوجتى وهى تبكى من الفرح : ما كنتُ أحسب أنى سأعيش حتى أراك !

فقلت : أنتم تفلّون نشاطى بهذا الحنان المزعج ، ألم تكف الرسائل التى أرّقتم بها جفونى فى بغداد ؟

وفتحتُ الحقائب فأخرجتُ التحف المهداة من البصرة والموصل .

وكان فى نيتى أن أقدّم قلبى ، ولكنى خشيت أن تفطن زوجتى إلى أن ليلى لم تترك منه غير أشلاء !

ثم سألتُ سليمان عن أحوال القاهرة فقال : كان مقالك فى الأهرام عن فاجعة بغداد شغل الناس بالأمس .

وقدّم إلىّ جريدة الأهرام فرأيت مقالى فى الصدر ، فقرأته بلهفة وشوق : لأنى أعتقد أنه أنفع مقال كتبته فى حياتى .

ولكنى رأيت فى العدد نفسه ما آذانى : رأيت كلمة للصديق أحمد الصاوى ، وهى نموذج من التحامل الفظيع على أهل العراق .

فكيف استباحت جريدة الأهرام أن تنشر تلك الكلمة فى أعقاب فتنة نكراء ؟

إن جريدة الأهرام أحسنت فى الاحتفاء بمقالى ، لأنه مقالٌ كتبه رجلٌ شهد بعينيه فاجعة بغداد ، ولكنها أساءت بنشر كلمة الصاوى ، الكلمة الجافية التى خلتْ من العقل ومن الذوق .

* * *

أوى أطفالى إلى مضاجعهم بعد الأنس بأبيهم ، وبقيتُ سهران أفكر فى الرد على الصاوى ، وقد انتهيت بحمد الله من إنشاء كلمة تُفحمه وتردُّه إلى الصواب .

* * *

هذا مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران .

فما الذى صنعتُ ؟

قضيت اليوم فى الاستخبار عن أحوال أهلى فى سنتريس ، وتغديتُ مع أبنائى بعد طول الغياب . وبعد المغرب مضيت إلى جريدة الأهرام لأقدم إلى الأستاذ أنطون الجميّل مقالى فى الرد على الأستاذ الصاوى ، فنظر فيه مرة ومرتين ، ثم قال : الأفضل أن نغلق هذا الباب لأن الصاوى كتب مقالاً فى الرد على مقالك الذى نشرناه منذ يومين ، والفتن تزداد ضرامًا بكثرة التقليب .

وما الذى فى مقالى من الخطأ حتى يحتاج إلى ردّ ؟

هذا والله أغرب ما رأت العيون !

* * *

وخرجتُ لأسلّم على الأصدقاء الذين يَسْمُرُون فى بار اللواء فوجدت الصاوى هناك ، فاستقبلنى بثورة مجنونة دلتنى على أنه كان ينتظر جنازة يلطم فيها حتى يشبع ، وهل يجد فرصَةً أنسب من جنازة الدكتور سيف ؟

وما عسى أن أصنع فى تقويم هذا الصديق ؟

لقد طاف بالخاطر أنى أعرف الصاوى منذ سنة ١٩٢١ يوم كان يدعونى لمعاونته على فهم ما يعجز عن فهمه من النصوص الفرنسية ، وكان يتسامى إلى ترجمة بعض روايات أناطول فرانس .

ثم وثب الخيال فتذكرت أيامنا فى باريس يوم كنا نتواعد على التلاقى فى المكتبات لنوفّر تكاليف التلاقى فى الأندية والقهوات .

أينسى الصاوى اللئيم هذه الذكريات العِذاب ليراجعنى بلا بينة فى بار اللواء ؟

كنتُ أستطيع أن أناضله لو شئتُ ، ولكنى رأيت التلطف معه أفضل وأنفع ، لأخفف غَضَبَهُ على العراق . والتلطف مع الأصدقاء القدماء من أشرف ما يتحلى به كرام الرجال .

وتذكرت أن الصاوى يؤدى مهنةً صحفية ، والصحفيون يؤذيهم السلام ، لأنه يقلّل عدد القراء ، فمن واجبه نحو مهنته أن يصرخ ويستغيث ليزيد عدد القراء ألفًا أو ألفين !

ولكن التهويل فى فاجعة بغداد يباعد بين أمتين شقيقتين هما مصر والعراق .

وما يجوز أن نفرح بالمغانم العاجلة حين تكون بابًا إلى الخسران .

* * *

وأخذت الصاوى من يده وانتحينا ناحية ثم قلتُ : اسمع ، يا صديقى ، إنه لا يجوز لك أن تكتب حرفًا واحدًا عن العراق قبل أن تستشيرنى : لأنى قادمٌ من هناك ، وما راءٍ كمن سمع .

فاطمأن لكلامى وانصرفنا بسلام .

علمت أن جريدة المصرى كتبت كلمة قالت فيها إن أهل العراق كتبوا فى جرائدهم عبارات تشهد بأنهم يرون أن الشاب الذى اعتدى على محمود عزمى وحسن سيف « بطل » وقد تأذى الجمهور المصرى بذلك ، فأخذتُ أُفهم كل من أُلاقيهم أن كلمة « بطل » صارت كلمة اصطلاحية يراد بها النص على الشخصية الأساسية فى الحوادث ، وهو اصطلاح نقلناه عن اللغات الأوربية .

وجريدة المصرى نفسها تكتب فى كل يوم عبارات من هذا النوع وهى تتحدث عن

اللصوص وتجار المخدِّرات ، فما تعبِّر به صحف مصر تعبِّر به صحف العراق .

* * *

تفَّضل الأستاذ أحمد أمين بزيارتى عصر اليوم فوجدته سمع كثيرًا من الأخبار المتصلة بفاجعة بغداد ، وقد عرفتُ من لَحن القول أن بعض خصوم محمود عزمى انتهزوا الفرصة وطوَّقوا اسمه بأغلال من الأراجيف ، وقد حدثت الأستاذ أحمد أمين بكل شىء ليطمئن ، وليعرف أن أسباب الحادثة أهون مما يشيع المرجفون .

* * *

قابلنى اليوم سعادة الدكتور عبد الرحمن بك عمر فقال : أرجو أن لا تكون لفاجعة بغداد أسبابٌ أعمق مما نشرت الجرائد .

فعجبتُ من هذا الطبيب ، لأنى لم أر شواهد هذا العقل الحصيف منذ أيام . وقد أقنعته بأن الحادثة فردية ، وهى بالتأكيد جناية من جنايات القيظ فى بغداد .

* * *

زرت سعادة العشماوى بك فى مكتبه بوزارة المعارف فقال : أمن أجل هذه التصرفات السيئة أرسلناكم إلى العراق .

فأجبتُ : حاسب الأقدارَ إذا كنت تملك !

ثم استطرد فقال : يعزُّ علىّ أن تسوء سمعة العراق فى هذه البلاد بعد الذى شهدتُه بعينى من لطف أهل العراق .

ثم زرت معالى الدكتور هيكل باشا فسألنى عن أسباب الفاجعة فقلت إنها ترجع إلى تصرفات لم يصحبها التوفيق ، و لم أشأ أن أُطيل ، فقد كان فى مكتبه ناس ، وخشيت أن يُنقل ما بيننا من أحاديث .

* * *

أرسلتُ اليوم خطابًا إلى سعادة الدكتور الجمالى أعتذر فيه عن فراق بغداد قبل أن أراه ، وقد أكدت له أنى آسف على أن لم أستطع إجابته إلى دعوتى لمواجهته قبل الرحيل .

* * *

أشارت الجرائد إلى عودتى من العراق إشارة خفيفة وتفردت جريدة المصرى بنشر كلمة لطيفة تشهد بأن كاتبها صديق نبيل . وسأزور جريدة المصرى زيارة تحية ، ثم أرجو أصدقائى هناك أن يراعوا المودة فى كل ما يكتبون عن العراق .

٤٠

هنا القاهرة !

هنا القاهرة بلد العقل .

هنا القاهرة بلد الجنون .

* * *

أصبحتْ همومى لا تطاق .

كنتُ نذرتُ وأنا فى بغداد أن لا أترك فى القاهرة مكانًا بلا تحية يوم أعود .

وكنتُ أتوَّهم أن القاهرة ستمدّ ذراعيها لعناق يوم أرجع .

ثم أخلفت الأيامُ ظنونى كل الإخلاف .

أمسيتُ أنفر من القاهرة لأنى لا ألقى إنسانًا إلا وقفتُ أمامه موقف المسئول عن تعليل فاجعة بغداد .

وقد عرفتُ من تجاريب هذه الأيام القليلة أنى لا أُريح أهل مصر من همومهم إلا فى أحد أمرين :

الأول : أن أصرح بأن محمود عزمى وحسن سيف كانا يعيشان فى بغداد عيش السفهاء ، والثانى أن أعترف بأن أهل بغداد وُحُوش ، ثم أضمّ صوتى إلى أصوات من يهجمون على العراق .

وهما أمران أحلاهما مُرّ فأنا لا أعرف أن محمود عزمى وحسن سيف وقعا فى أغلاط غير التى دونتها من قبلُ فى هذه المذكرات ، وهى أغلاط لا تستوجب القتل .

وأنا لا أقول بأن أهل العراق وحوش ، ولو كانوا كذلك لما أمكن أن يعيش فى بلادهم مئات من أهل مصر وسُوريَّة وفلسطين ولُبنان .

ولكن هذا العقل الذى اعتصمتُ به لا ينفع فى أوقات الفتن ، ولا يطمئنّ إليه إلا مَن صيغت أعصابهم من حديد .

ولتكييف هذه المعضلة أسوق الحادثة الآتية :

نشرتْ جريدة الدستور مقالاً فظيعًا جدًا حول فاجعة بغداد بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة . وقد فكرتُ فى الرد على ذلك المقال ، ثم خشيتُ أن يكون فى الرد ما يغرى الكاتب بانشاء مقال جديد فينفتح الباب للجدل واللجاج ، وصحّ عندى أن الرأى الأصوب هو مقابلة

الأستاذ محمد خالد صاحب جريدة الدستور وهو صديق قديم فيه مخايل كثيرة من النجابة والعقل ، وبعد أن قضيت لحظات فى مراجعة الأستاذ محمد خالد تبسم وقال :

أترى أن يُطلَق الرصاص فى بغداد على أستاذَين مصريَّين ، ثم يكون من واجبنا أن نعتذر عن أهل العراق ؟

وفى هذه الكلمة الخلدونية جميع المعانى :

فالمصريون يتمثلون بفطرتهم أن فاجعة بغداد تقْبض صدر الحليم ، وتقهر أعقل الناس على اصطناع الجنون ، وهل من الكثير أن يسمع من أطلقوا الرصاص كلمةً أو كلمتين من مُوجع التأنيب ؟

هذا حق .

ولكن لا بدَّ من إفهام أهل مصر أن أهل العراق لم يَفُتْهُم أن يُسمِعوا أنفسهم تلك الكلمات اللواذع ، ولم يَفُتْ جرائدهم أن تكتب بالخط العريض أن تلك الفاجعة أساءت إلى سمعة العراق وعرَّضته لأن يتهَم بالوحشية .

وأنا رأيت بعينى كيف توجَّع العراقيون لمصير المرحوم حسن سيف .

فكيف أسكتُ عن تحامل الجرائد المصرية على أهل العراق ؟

كيف أسكت وأنا أعرف أن الحادثة فردية ولا ينبغى أن تُفسد العلاقات بين أمتين شقيقتين ؟

كيف أسكت وقد رأيت بعينىّ دموعًا تسيل فى بغداد جزعًا على صديقى سيف ؟

* * *

ولكن كيف عرَّضتُ سمعتى للأراجيف وأنا أدافع عن أهل العراق ؟

لذلك أسباب يجب تدوينها فى هذه المذكرات :

رأيت كثيرًا من الذين عاشوا فى العراق يطربون لما أكتب فى الدفاع عن العراق ، فسألتهم : ولماذا لا تتقدمون لمعاونتى ؟ فقالوا : نحن معك بقلوبنا ! .

فقلت : وذلك أضعف الإيمان !

وحدثنى قلبى بأن الشرق لم ينحطّ من قلة القلوب ، وإنما انحطّ من قلة العزائم ، وتذكرتُ أن الأمم العظيمة هى التى يوجد فيها رجال شجعان يقولون كلمة الحق حين تخرس ألسنة الجبناء .

وما الذى يمنع من أن أزكّى عن شجاعتى بمقاومة من تحدثهم أنفسهم بمحاربة العراق ؟

ما الذى يمنع من أن أكتب صفحة جديدة فى لَوح المجد المصرى بإعلان كلمة الحق ؟

ما الذى يمنع ؟

آه ، ثم آه !!

يمنع من ذلك أن ناسًا حميتُ أعراضهم بقلمى ولسانى يقدِّمون الشواهد الكواذب لتغذية الأقلام التى تنقض ما أكتب فى الدفاع عن العراق .

ومن هم أولئك الناس ؟

هم أصغر وأحقر من أن أُشير إلى أسمائهم فى هذه المذكرات .

وستنجلى الغُمَّةُ بإذن الله ويسود الصفاء بين مصر والعراق ، ثم لا يبقى لأولئك الناس غير الخزى والهوان !

أهؤلاء مصريون ؟

لو كانوا مصريين لتذكروا أن لهم إخوانًا فى العراق يؤذيهم أن تسوء الصلات بين مصر والعراق .

لو كانوا مصريين لتذكروا أن فى العراق عشرات من المهندسين والأطباء والمدرسين يؤذيهم أن تنقطع العلائق بين مصر والعراق .

ولكن أين المصرىُّ الذى يُسند أخاه ؟

نحن نعيش فى عصرٍ غادرٍ لا يعرف الوفاء .

* * *

لقينى اليوم جماعة من الأصدقاء وهم يصرخون : كيف تقول إن حادثة بغداد فردية وقد شاع أن الشاب الذى أطلق الرصاص كان له أعوان ؟

فقلت : والحادثة مع ذلك فردية .

فقالوا : كيف تكون فردية وقد اشترك فيها جماعة ؟

فقلت : الحادثة فردية لأنها موجهةٌ إلى فرد .

فقالوا : ما معنى ذلك ؟

فقلت : معناه أنها موجهةٌ إلى رجل مصرىّ ، و لم توَّجه إلى الأمة المصرية .

فقالوا : كل فرد يمثل أمته .

فقلت : لا يمثل الفردُ أمته حين يخطئ ، وإنما يمثلها حين يصيب .

فقالوا : وهل أخطأ محمود عزمى ؟

فقلت : إنه إنسانٌ يخطئ ويصيب !

* * *

تلقيت خطابًا بإمضاء مجهول يتهمنى كاتبه بأخذ رشوة من حكومة العراق لتهوين فاجعة بغداد ، فعرفت أن هناك مؤامرة سرية يراد بها إفساد ما بين مصر والعراق .

ولكن من الذى كتب ذلك الخطاب ؟

لستُ من الغفلة بحيث أجهل أسرار تلك الألاعيب .

وهل يمكن أن يكتب هذا الإنذار السخيف غير مخلوق وسوس إليه شخص حَرَمه الله نعمة الصدق ؟

وهل يضرنى أن أُتَّهَم بالرشوة ؟

إن التهم لا تفُلُّ من عزيمة الرجل إلا حين تكون صحيحة ، وقد عشتُ دهرى رجلاً شريفًا لا آكل لُقمة بغير عَرَق الجبين .

فلأمضِ فى طريقى غير هيّاب ، وللسفهاء أن يقتلوا أنفسهم من الغيظ .

وستنجلى الغمة بإذن الله ويبوءون بالخسران .

أمثلى يُتَّهَم بالرشوة ؟

غضبة الله على الدساسين المناكيد !

* * *

لقد حمى وطيس المعركة بينى وبين خصوم العراق .

ولا بدَّ مما ليس منه بدّ .

لا بدَّ من سدِّ جميع الطرق فى وجوه الآثمين .

وتلك الطرق هى الجرائد .

أما جريدة الأهرام فقد أُغلقت الباب بعد المحادثة التى كانت بينى وبين الأستاذ الجُميِّل .

وأما جريدة المقطم فقد ضمنتُ سكوتها عن الحادثة بعد أن قابلت الرجل الحصيف خليل ثابت .

وأما جريدة الدستور فهى جريدة صديقى محمد خالد ومن حقى أن أقترح عليها ما أشاء .

وأما جريدة البلاغ فقد وعد صاحبها الأستاذ عبد القادر حمزة أن لا تتعرض لتلك الفاجعة بغير ما يهوِّن أثرها فى القلوب ، وكان ذلك بمحضر زميلين من أصدقاء العراق هما المازنى والعقاد .

وأما السياسة الأسبوعية فزمامها اليوم بيد صديق أريب هو الأستاذ حافظ محمود ، وقد وعد بأن يكتب ما يرضينى ويرضى الحق .

وأما جريدة المصرىّ فلى فيها صديقان عزيزان هما محمد على رفاعى ومحمد شافعى البنا ، ولى أن أردهما إلى جادَّة الحق حين أجد ما يوجب ذلك .

ومجلة الاثنين لى فيها صديق هو الأستاذ حسين شفيق المصرى ، وهو رجل لا يهمه شىء ، ولكنى استطعت أن أقنعه بأن التحامل على العراق لا يليق .

ومجلة الدنيا لى فيها أخ هو الأستاذ طاهر الطناحى وهو أعقل من أن يحتاج إلى إرشاد .

ومجلة المصور فيها الأستاذ فكرى أباظة ومركزه الأدبى والسياسى يصدُّه عن البغى والعدوان .

ومجلة الصباح هى مجلتى ، ولى الحق المطلق فى تصحيح ما يقع فيها من أغلاط .

فما الذى بقى من الأقلام المصرية ؟

لقد تلقيت اليوم خطابًا من السيد حقى سليمان الخالدى يخبرنى فيه بأن الحكومة العراقية صادرت مجلة اللطائف لأنها نشرت كلمة غير لائقة عن حادثة بغداد .

وقد سألت عن كاتب تلك الكلمة فعرفت أن كاتبها هو الأستاذ حسن مظهر ، وهو أديب لم أعرفه من قبل ، ولكن يظهر مما قرأتُ من آثاره الأدبية أنه شابٌّ على جانب من الأدب والذوق ، وسأتصل به ، ولو تليفونيًّا ، بعد يوم أو يومين .

* * *

ومجلة آخر ساعة ...

وما الذى أخافه من مجلة آخر ساعة وصاحبها هو صديقى محمد التابعى ، ومحررها هو تلميذى الوفىُّ الأمين مصطفى أمين ؟

اليوم عرفتُ أن المرء قد يخاف من حيث يأمَن .

ولذلك تفصيل مزعج :

عرف الأستاذ أحمد الصاوى أنى أغلقتُ فى وجهه جريدة الأهرام فمضى يناوشنى ويناوش العراق فى مجلة آخر ساعة ، وساعدَهُ صديقٌ عزيز هو الدكتور سعيد عبده .

فماذا أصنع ؟

لا يزال الصاوى هو الصديق القديم الذى عرفتُه فى القاهرة وباريس .

لا يزال الصاوى هو الأخ المخلص الذى تعزّ علىّ إهانتُه ، وإن ظلم وخان .

* * *

وأما الدكتور سعيد عبده فهو صديق حميم لم تغيِّر ودَّه الأيام الطوال ، فكيف أستبيحُ الهجوم عليه ؟

كيف أستجيز العدوان على هذين الصديقين والدنيا أحقر من أن يعتدىَ فيها صديق على صديق ؟

وما الذى أستفيد أو يستفيد العراق من العدوان على هذين الصديقين ؟

لم يبق إلا بابٌ واحدٌ هو إفحامهما بترفق فى مجلة آخر ساعة .

وكذلك مضيتُ فأقصيتهما عن الميدان إلى غير مَرجع بمقالين نفيسَيْن يرقّ لهما أقسى القلوب .

وكفى الله المؤمنين القتال .

* * *

وأعود إلى تصفية الحساب فأقول :

أراد الأستاذ الصاوى أن يثبت أن المصريين لم يلقَوا فى العراق غير الضيم والهوان .

وأضاف إلى ذلك أنى لم أكن سعيدًا فى بغداد ، وهو يعرف أنى لم أسعد فى حياتى كما سعدت فى بغداد . وهو كذلك يعرف أن شعراء العراق خلّدوا اسمى فى كثير من القصائد الجياد(١) .

وأراد الدكتور سعيد عبده أن يُفهم المصريين أننى أدافع عن العراق لأحفظ مكانى بدار المعلمين العالية فى بغداد .

فهل يعرف هذا الصديق أننى اعتذرت اعتذارًا قاطعًا عن الرجوع إلى بغداد ؟

هل يعرف هذا الصديق أن الدكتور زكى مبارك يستطيع أن يشوى لحم الأسود إن قضتْ عليه المقادير أن يجوع ؟

وما الذى يُحْوِجُنى إلى مصانعة أهل العراق لأرجع إلى عملى فى بغداد ؟

أنا بفضل الله من الأغنياء ومن كبار المُلاّك فى بلدى ، فما الذى يوجب أن أتزلف لأهل العراق لأحفظ مكانى فى بغداد ؟

ما الذى يعوزنى لأعيش ولى دارٌ فى مصر الجديدة ودارانِ فى سنتريس ؟

ما الذى يعوزنى لأعيش ولو فرغتُ لتدبير أملاكى لعشتُ فى ظلها عيش السعداء ؟

وكيف أخاف العيش وأنا أعرف أنى سأموت قبل الأوان بسبب الإسراف فى الطعام والشراب ؟

من العيب على الدكتور سعيد عبده أن يتهمنى بالمصانعة من أجل الرزق ، وهو يعرف أنى أبذل من الصدقات ما لا يبذل كبار الأغنياء .

ومن العيب على الأستاذ الصاوى أن يسمع فىّ أقوال السفهاء وهو يعرف أنى أفضل صديق صافحتْه يمناهُ .

وسيثبت بإذن الله أن الدكتور زكى مبارك أشرفُ رجلٍ أنجبه وادى النيل .

فانتظروا قليلاً حتى تسمعوا صوت التاريخ .

* * *

---

(١) سأنشر بعض تلك القصائد فى ختام هذه المذكرات ، إن شاء الله .

كنت أظن أن قومى سيذكرون أنى رفعت صوت مصر فى العراق .

كنت أظن أن قومى سيذكرون أنى قضيت العام كله فى بغداد وأنا أصحح أغلاط الكتّاب المصريين الذين يجهلون قواعد الذوق وهم يتحدثون عن علاقة مصر بالأمم العربية .

كنتُ أظن أن مكانتى ستُحفَظ فى مصر وقد غنمتُ لها قلوبًا عزيزةً فى الشرق .

كنتُ وكنت ، فمن أنا فى وطنى وفى دنياى ؟

أكل ما يرجو فلان وفلان أن لا أحفظ مكانى فى بغداد ؟

وهو كذلك .

فلأعلن فى مجلة آخر ساعة وفى سائر الجرائد والمجلات وفى جميع الأندية أننى اعتذرت اعتذارًا قاطعًا عن الرجوع إلى العراق لأقيم الدليل على أن المصرىَّ قادرٌ على أن يكون من أهل المعانى حين يشاء .

أهذا كل ما يرضيكم ، أيها الإخوان الأعزاء ؟

لن أرجع إلى بغداد فى العام المقبل ، وإن كان فى هذا التمنُّع خروجٌ على رغبة الأستاذ الجليل مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية ، فقد كتب إلىّ يقول :

(وزارة المعارف)   بغداد ١٢/٠ ٧ / ٣٨ .

الأخ العزيز الدكتور زكى مبارك ، أيده الله .

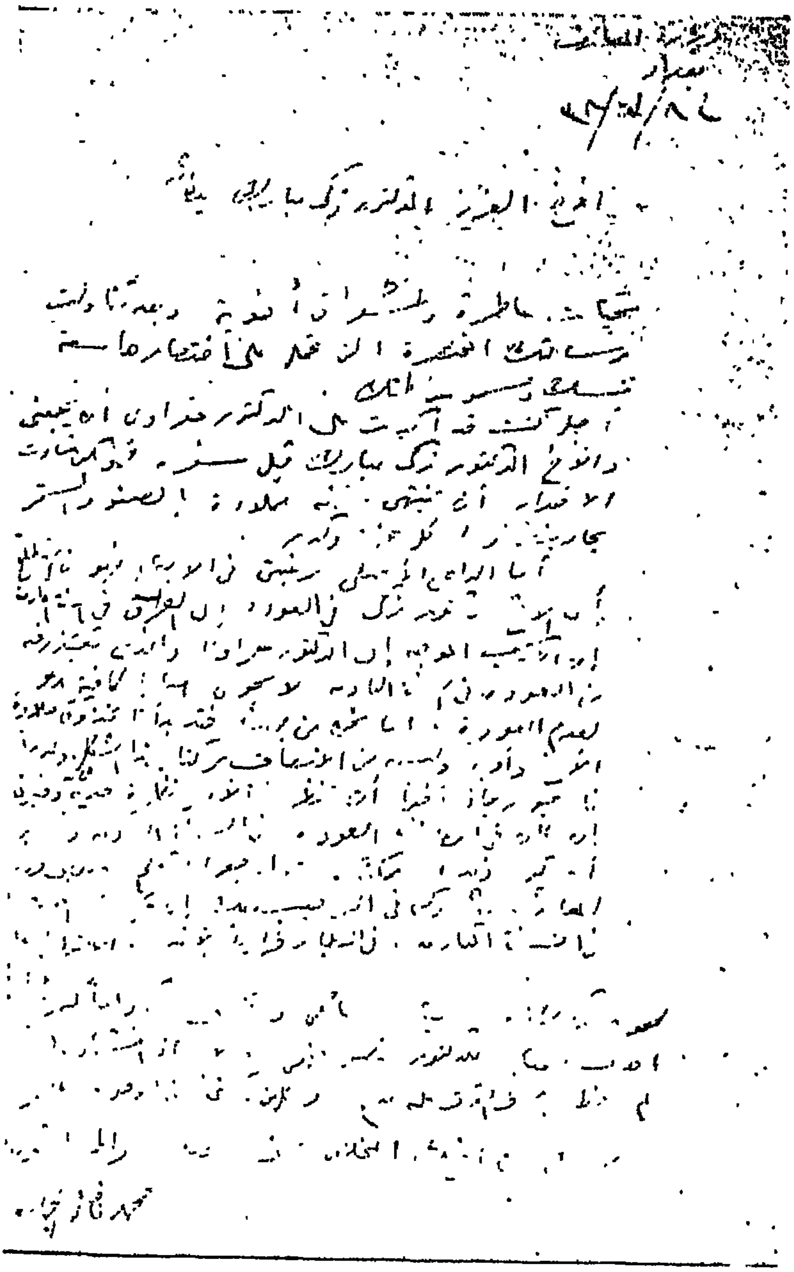
تحيات عاطرة ، وأشواق أخوية « وبعد » تناولت رسالتك المختصرة التى تحمل على اختصارها سعة نفسك وسموّ عواطفك .

أجل ، قد أكدت على الدكتور عقراوى أن يجمعنى والأخ الدكتور زكى مبارك قبل سفره ، ولكن شاءت الأقدار أن تنتهى سنة مملوءة بالصفو والسمر بحادث ترك كل حزن وكدر .

أما الداعى الأصلى لرغبتى فى الاجتماع ، فهو أن أستطلع رأى الأخ الدكتور زكى فى العودة إلى العراق فى السنة القادمة . إن الكتاب الموجه إلى الدكتور عقراوى والذى تعتذر فيه عن العودة فى السنة القادمة لا يحوى أسبابًا كافية تدعو لعدم العودة . أما نحن من جهتنا فقد بدأنا نتذوق حلاوة الأخ وأدبه ، وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل ، ولذلك فأرجو رجاءً أخويًا أن تنظر فى الأمر نظرة جدية ثانية وتخبرنى إن كان فى إمكانك العودة فى السنة القادمة ، وأرجو أن يكون ذلك ممكنًا . وأرجو أن تعلم أن معالى وزير المعارف يشاركنى فى الترحيب بك إن قررت العودة فى السنة القادمة . فى انتظار قرارك الأخير الإخوان جميعًا يلهجون بذكرك . تحيات عائلتى وأطفالى لكم وللعائلة والأطفال . أهدى التحيات للدكتور منصور فهمى وللأستاذ العشماوى (وإن لم أحظ بشرف التعرف عليه بعد) ولكل من يذكرنى من

الإخوان فى مصر .

ولك من أخيك المخلص أسمى التحيات وأطيب الشوق ؟ محمد فاضل الجمالى



ما كنت أحب أن لا تتحقق رغبة الأستاذ مدير التربية والتدريس الذى نصّ فى خطابه الكريم على أن معالى وزير المعارف العراقية يشاركه فى الترحيب بى ، إن قررتُ العودة فى السنة المقبلة ، والذى رجانى رجاءً أخويًا أن أنظر فى الأمر نظرةً جديةً ثانية ، والذى شرفنى كل التشريف حين قال : « لقد بدأنا نتذوق حلاوة الأخ وأدبه وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل »

أنا بين نارين : نار التخوُّف من أراجيف من يشيعون أنى لم أتحمس فى الدفاع عن العراق إلا لأحفظ مكانى بدار المعلمين العالمية فى بغداد .

ونار الخوف على مصير كتاب التصوف الإسلامى الذى يتوقف على طبعه تسوية حالتى بوزارة المعارف المصرية .

وهل يصدِّق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطينى غير مرتبٍ مؤقتٍ إلى أن يُطبع ذلك الكتاب ؟

هل يصدق أحدٌ أنى لا أستطيع النص على قيمة ذلك المرتب المؤقت لئلا يشمت أعدائى ، ولئلا يعرف ناسٌ أن رجال الأدب فى مصر قد يعيشون عيش الفاقة والإملاق ؟ .

لمصر أن تدَّعى الزعامة الأدبية كيف تشاء ، ما دامت « حرفة الأدب » تلازم فى ظلها أحرار الأدباء !!

* * *

الخير كل الخير فى أن أحرم نفسى من رؤية العراق فى العام المقبل .

الخير كل الخير فى أن أسارع إلى طبع كتاب التصوف الإسلامى لأسوِّى حالتى بوزارة المعارف المصرية .

ولكن كيف أطبع ذلك الكتاب ؟

وأين ؟

قضيت بقية حُزيران ، ثم أتبعته بشهر تموز ، فى دفع الأذى عن العراق ، وسرَّنى أن أُفلح فى تهدئة النفوس التى امتعضتْ من فاجعة بغداد ، وقد أصبح مفهومًا عند أكثر المصريين أن الحادثة فردية وأنه لا يجوز أن تُفسد ما بين مصر والعراق من صلات .

ولكن هذا لا يكفى .

لا يكفى أن يقع الصلح بينى وبين من خاصمته فى سبيل العراق ، وهو صُلْحٌ قد تكدِّره الأهواء بعد حين .

لا يكفى أن تصفح مصر عن حادثة وقعتْ لأحد أبنائها فى العراق .

بل يجب أن نحاول رياضة أهل مصر على حب أهل العراق .

وهذا الحب المنشود ستكون له ثمرات : لأن العراق هو أعظم شعب عربى بعد مصر ، فإذا تحابَّ هذان الشعبان القويان كان ذلك نواةً صالحة لشجرة الوحدة العربية .

وفاجعة بغداد أطلعتنى على حقائق لم أتنبه إليها من قبل : فقد رأيت العراقيين والمصريين يتشابهون فى أشياء كثيرة منها الأنفة وسرعة الانفعال .

فماذا أصنع لأروض أهل مصر على حب أهل العراق ؟

مضيت فاقترحت على الأستاذ محمد سعيد لطفى أن يمهد السبيل لسلسلة محاضرات أُلقيها فى الإذاعة اللاسلكية عن العراق ، وقلت له بعبارة صريحة إننى أريد أن أحدِّث أهل مصر عن محامد العراق ، لأن من الظلم أن يشيع بالحق أو بالباطل أن أهل العراق متوحشون ، وهم قومٌ كرام وثقوا بمصر وائتمنوها على توجيه الحركة العلمية فى معاهدهم العالية .

وقد شرعتُ فى إلقاء تلك المحاضرات وسيكون لها بإذن الله قَبولٌ حَسن عند الجمهور ، وستصل إلى ناس لم يقرأوا ما نشرتُ عن العراق فى الجرائد والمجلات .

ورأيت أن أخطو خطوة جديدة فقررت أن أطبع كتاب « وحى بغداد » وهو كتاب يؤدِّى مهمتين عظيمتين فى وقت واحد : فهو يقدِّم إلى أهل العراق صورًا شائقة عن مصر ، ويقدِّم إلى أهل مصر صورًا شائقة عن العراق . والتعارف أساس الحب .

وكذلك أصبحتُ فى ليلى وفى نهارى مشغولاً بشواغل نبيلة ترفع نفسى درجات عاليات .

* * *

لم أجد صعوبة فى طبع كتاب « وحى بغداد » فقد اشتركتْ فيه المكتبة التجارية بالقاهرة

والمكتبة العصرية فى بغداد .

ولكن الصعوبة فى طبع كتاب التصوف الإسلامى لأن حجمه مزعجٌ مخيف .

ومن الذى يصدِّق أنى لم أجد ناشرًا لكتاب التصوف الإسلامى بين أهل القاهرة مع أنى وجدت ناشرًا لكتاب النثر الفنى بين أهل باريس ؟

ولكن لا بدّ من طبع كتاب التصوف الإسلامى لأسوِّى حالتى بوزارة المعارف ، وهو لن يطبع إلا إذا خاطرتُ فى سبيله بأثمن ما ادخرتُ من الأموال .

وأين أطبع ذلك الكتاب العظيم الذى توَّج هامتى بتاج المجد ؟

أطبعه فى مطبعة دار الكتب المصرية التى طبعت فيها كتاب النثر الفنى

* * *

قدمتُ كتاب التصوف إلى مطبعة دار الكتب وأنا أتوّهم أنى سأنجز طبعه فى شهرين ، ولكن مدير دار الكتب وهو سعادة الدكتور منصور فهمى أعلمنى أن الإذن بطبعه قد يحتاج إلى أسابيع طوال ، لأن اللجنة المختصة بمراجعة الكتب لا تجتمع إلا فى أحايين قليلة بسبب عطلة الصيف .

فقلت : هذا كتابٌ أقرَّته الجامعة المصرية ، وكنتَ أنت من أعضاء لجنة الامتحان ، فكيف يحتاج إلى مَن ينظر فيه من جديد ؟

فقال : لا بدَّ من مراعاة الشكليات .

وقد خرجت من مكتبه محزونًا ، لأنى اطلعتُ على مرضٍ جديد من أمراض الشرق : هو مراعاة الشكليات .

وحياتى مُلِئتْ بالأكدار : لأنى لم أكن أُراعى الشكليات فى بلاد الشكليات !!

* * *

ثم نظرت فرأيتنى أعيش عيش العزلة والانفراد ، وتذكرتُ ما عانيتُ فى الأسابيع الماضية من الشقاء فى الوصل بين مصر والعراق ، وهو جهادٌ لم يجد من يسيغه من أهل هذه البلاد ، و لم أُجْزَ عليه خير الجزاء ، مع أنى كنت فى ذلك الجهاد أصدق الرجال .

نظرت فرأيتنى محرومًا من النعيم بأندية القاهرة ، ورأيت أكثر أصدقائى صدفوا عنى ، فقررت الاعتكاف فى بيتى ، ونشرت الكلمة الآتية فى مجلة الرسالة الغراء :

هذه دارى وهذا وطنى

ولكن أين أحبابى ؟!

هذه دارى ، الدار التى أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبى آفاق المجهول من عوالم المعانى .

وهذا وطنى ، الوطن الذى عانيتُ من أجله ما عانيتُ ، ولم أخُنْهُ فى سرّ ولا جهر ، ولم يرَ منى غير الصدق والوفاء .

هذه دارى وهذا وطنى ، ولكن أين أحبابى ؟

من كان يظن أنى أقضى الأيام والأسابيع فلا أجد من يسأل عنى بعد غياب الشهور الطوال ؟ من كان يظن أنى لا أجد أنيسًا غير بريد بغداد على بُعد ما بينى وبين بغداد ؟

من كان يظن أنى أحبس نفسى فى دارى ليالىَ وأيامًا فلا يُسهد لعزلتى جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع وجدان ؟

من كان يظن أنى لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد ، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد ، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين ، وسكت من أهواهم فى المنصورة وأسيوط ؟!

من كان يظن أنى لم أعبرُ شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟

وما فائدتى من عُبُور ذلك الشارع المتموِّج ؟

كان لى فى القاهرة هوىً معبود فتبدد وضاع ، كانت ليلاى فى الزمالك ، فأين ليلاى وأين الزمالك ؟

أنا أطفىء المصباح بعد نصف الليل وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء ، فماذا تصنع ليلاى بالزمالك أو ليلاى بالعراق ؟

آه ثم آه من حيرة القلب فى غَفَوات الليل !

* * *

أيتها الصحراء .

إن حالك مِثل حالى مَوَاتٌ فى مَوَات .

وقد تمرح فوق ثراكِ الميت هوامّ وحشرات .

وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هوامّ وحشرات هى السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب ، وجمال الوجود .

وقد ترقّ حواشيكِ بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب !

أما قلبى فقد أمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شىء .

وأشقى الناس من يعيش بقلبٍ أجدب من الصحراء .

* * *

أيها الليل !

هل رأيت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبى ؟

هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاءً مثل شقَائى ؟

* * *

أيها الليل !

خذ السواد من قلبى ، إن أعوزك السواد .

خذ الظلام من حظى ، إن أعوزك الظلام .

خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات .

خذ منى ما تشاء ، أيها الليل ، فلن تجد مشتهاك عند إنسانٍ سواى .

خذ منى ما تشاء بلاَ مَنٍ عليك : فما أخذتُ السواد إلا منك ، ولا ورثتُ الظلام إلا عنك .

ومثلى يحفظ الجميل .

* * *

أيها الليل !

لا تجزعْ من العُزلة ، فأنا هنالك أسامرُك وأُناجيك .

لا تفزعْ من الوحدة ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات .

عندى آلامى ، وعندك آلامك . والجريح يأنس بالجريح ، يا ليل !

أنا أعرف من أنا فى دنياى ، فمن أنت فى دنياك ، يا ليل ؟

أنت جزءٌ من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه .

وأنا جزءٌ من الوجود هجرته الشمس فأظلمت دنياه .

إن شمسى تغرب فى الزمالك أو فى بغداد ، فأين تغرب شمسك ؟

إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك .

وشمسى تغرب فلا ترجع .

فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !
والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك .
وأنا أعانى الظلام المطلق حين تغيب الشمس التى تعرف .
فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !
وأنت باقٍ على الزمان ، وأنا صائرٌ إلى الفناء .
فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !
والناس يخافون بأسك فيتقرَّبون إليك بالقناديل والمصابيح .
وأنا مأمون الجانب فلا يتقرَّب أحدٌ إلَّى بشىء .
فليت حظِّى كان مثل حظّك ، يا ليل !
من اسمك يا ليل جاء اسم ليلى ، ففيها طُغيانك ، وفيها ظلامك ، فلا عفا الحب عنها ولا عفا الله عنك !

* * *

هذه دارى ، وهذا وطنى ، ولكن أين أحبابى ؟
إن قلبى يستحق التأديب ، فلْيتلقَّ من الضيم ما هو له أهل :
ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد فسكت عنها سكوت الغادرين ؟
ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين .
ألم تنتقل إليه الغادة النورمندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة محافظةً على سمعته بين الناس ؟
إن قلبى يستحق التأديب ، فليتلق من الضيم ما هو له أهل .
أيها الليل !
قد اقترب صباحك ، فمتى يقترب صباحى ؟
لك خلاصٌ من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتى ؟
ستمضى لشأنك وتتركنى ، يا ليل !
إن الظلمات تقتل شبابى ، وتحيى شبابك .
إن الظلمات تصيِّرك أقوى وأعنف ، وتصيرنى أرقّ وألطف . والرقة واللطف من بواكير الفناء .
أيها الليل !
لقد عرفتُ قسوتك فى بلادٍ كثيرة من الشرق والغرب ، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون فى دارى وفى وطنى .
أما بعد فأنا أعترف بأن قلبى يستحق التأديب .

كنت أصمُّ أذنيّ عمن يسألون عني فى باريس وفى بغداد : لافرغ لما سموه الواجب ، فليتنى أجبت الدعوة فى باريس وفى بغداد لآخذ ذخيرتى من الحب والعطف !

ليتنى صنعت وصنعت ، ولكن هيهات ، فقد فات ما فات !

أيها الليل فى مصر الجديدة !

أنا على كل حال رفيقك وأخوك .

وستمضى الأعوام والدهور ، ولا تعرف أصدق منى .

* * *

سيذكرنى الناسونَ يومَ تَشُوكُهمْ ... شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ

سيذكرنى الناسونَ حينَ تَرُوعُهمْ ... صنائعُ من ذكرى هوايَ شُهودُ

فوالله ما أسلمتُ عهدى لغدرةٍ ... ولا شابَ نفسى فى الغرام جُحودُ

ولا شهد الناسونَ منى جنايةً ... على الحب إلا أن يقال شهيدُ

٤٢

تداويتُ من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمرِ

وكذلك أُداوى حبًّا بحب ، وغرامًا بغرام : كما كان يصنع زميلى قيس فى الأيام الخوالى .

إن ليلاى بالعراق مغفورة الذنوب : لأنها أوحتْ إلى قلمى فنونًا من الغرائب ، وقد رقمت اسمى بأحرفٍ من نور فوق جبين الزمان .

فما حجة ليلاى بالزمالك فى تجنّيها الأثيم ؟

ما حجةُ هذه اللئيمة فى سفك دمى ، وقد أذعتُ محاسنها عند صبايا دِجلة والفُرات ؟

كنت أتشهَّى أن أرى النور المتوهج فى جبينها المُشرق .

كنت أتشهَّى أن ألهوَ بها فى ليلة قمراء بطريق السويس .

كنت أتشهَّى أن أقضى معها سهرةً فى زورقٍ يترنَّح فوق أمواج النيل .

كنت أتشهَّى أن أخاصرها فى بساتين الجيزة الفيحاء .

كنت أتشهَّى أن نهيم على وجوهنا فى حىّ القصر العالى الذى يسميه الجهلاء (جارْدِنْ سيتى) .

كنت أتشهَّى أن أرى معها البيت الذى كنا اصطفيناه بحدائق القبة .

كنت أتشهَّى أن أُهصِر فَوْدَيها بحىّ الزيتون .

كنت أتشهى أن نغرق معًا فى النيل عند القناطر الخيرية .

كنت أتشهى أن أرى وجه الله فى وجهها الجميل .

ولكن من الذى يدرك كل ما يتمناه ؟

أنا أعيش بروح سماوية وهى تعيش بروح أرضية ، مع أنها والله حُورِيَّةٌ نزلت إلينا من الفردوس .

إن ليلاى بالزمالك لا تعقل ، لأنها حسناء ، والحسنُ يغرى بالجنون .

سأحاربها بقلمى ، كما حاربت انجلترا بقلمى .

وأنا رجلٌ يحارب الظلم فى جميع الأشكال .

وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلى المريضة بالزمالك ولأجعلها عبرةً لغادات المعادى وحلوان .

« وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلَبٍ ينقلبون » .

الرسالة الأولى

سيدتى .

أشكر لكِ الخطابَ الرقيق الذى نشرته فى مجلة الصباح ، وأتمنى أن أقرأ لكِ مثلَهُ من حين إلى حين ، فأمثال هذه الرسائل هى آخر ما أظفر به من نعيم الحب فى الزمالك .

وما كنت أظن أن الدنيا ستصل إلى هذا الحد من الإقفار والإيحاش ، ما كنت أظن أن تفسُدَ الدنيا حتى أحبِس نفسى عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابى فى العراق ، واشتقتُ إليكِ وإلى الزمالك أشد اشتياق .

كان الوهم يحدِّثنى أن الأرض سترقُص تحت قدميكِ حين تسمعين بقدومى ، كنت أتوهَّم أنى سأموت مقتولاً بأريج الأزهار فى قصرك المنيف ، كنت أحسبُ أن حسابى سيطول على ما قدَّمتُ وما أخرت ، وأن العتاب سيقتل الليالى المطلولة حين نلتقى .. فما الذى وقع من كل ما توهمتُ وحسبتُ وظننتُ ؟

لم يقع شىء ، و لم تطأ قدماى أرض الزمالك ، لأنى عرفت بوحى القلب أنك انتقلت من رياض الملائكة إلى حظائر الشياطين . وأنا الجانى على نفسى حين تركت الثمرة الشهية لتَنُوشها البُوم والغِربان !

ليتكِ تعرفينَ يا سيدتى ما صنع الدهر بقلبى !

ليتكِ تعرفينَ أَنى لم أَعُدْ ضاحكًا بَسَّامًا على نحو ما كنت فى الليالى الخوالى !

كان هواكِ يا غادرة يُنير الدنيا أمام روحى ، وكنتُ كلما تشكَّيتُ بلائى بليلى المريضة فى العراق منَّيتُ النفس بالعيش السعيد حين ألقى ليلى المريضة فى الزمالك . ولكنى عرفت فيما قرأت فى بعض المجلات أن قصركِ فُتِحتْ أبوابه فدخلتْه وجوهٌ مشئومة لا تصلُح لمجدٍ ولا حُبّ ، وعرفت أن الأكواب فى قصرك العالى لمسَتها أفواهٌ كان يكثُر عليها أن تظفر بالماء القَراح !

أترين الدنيا تصلُح مرةً ثانية فأرى أنى حين اتهمتك كنت من الظالمين ؟

أيجىء يوم أرى فيه أنكِ لا تزالين نقية القلب طاهرة الوجدان ؟

أكتب هذا وأمام قلبى خيالُ اليوم الذى دفعنا فيه مرةً حساب النور لقصركِ العالى ، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرتُ إليكِ وقلت : ولكن قلبك يا شقية لا يزال ظلامًا فى ظلام !!

كنا نلهوونلعب ، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب ، وكان للقمر رقصات تميد لها

راسيات الجبال من الرفق والحنان .

فمن يُعيد تلك الأيام السوالف ؟

من يعيدها لأرى بعينىّ جبينك المُشرِق وهو يتوهَّج ويتألَّق ؟

من يعيدها ، يا ليلى ، من يعيدها يا روح القلب الذى شرَّده الزمان !

إن قلبى يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل .

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء ؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون ؟

الأمر إليك يا ليلى ، إن كنت لا تزالين على كرم العهد .

لا تظنى أبدًا أنى سأعْبُر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصح عندى أنى كنت فى سوء الظن من الخاطئين .

اعرفى يا ليلى وتيقنى أنى أصبحت أحمل فوق كاهلى همومًا لا تحملها الجبال .

اعرفى أنكِ ملأت الدنيا سوادًا فى وجه عاشقٍ مخلص كان مَلأً الدنيا نورًا فى وجهك الوضاح .

اعرفى يا ليلى ما تعرفين ، وأنكرى ما تُنكرِين ، ولكن تذكرى أنى لم أكن إلا رجلا كريمًا يحفظ العهود والمواثيق .

وتحدثك الغيرة بأنى أحضرت معى ليلى المريضة فى العراق .

فما الذى يمنع من أن تفاجئينى بزيارة فى غَسَق الليل لتعرفى ما تضمر دارى من مِلاح الليليات ؟ ليتكِ تحضرين مرة على غير موعد لتعرفى أن أنيسى فى دارى هو صورتك الباسمة التى انتهبتُها منكِ انتهابًا فى ليلة مُقمِرة من ليالى الربيع الأسبق !

تعالى مرةً يا غادرة وانظرى كيف صارت تلك الصورة وثنًا يعبده القلب .

تعالى تَرَىْ صورتك مصحوبةً بصورةٍ عزيزة غالية هى صورة أختك العزيزة الغالية ، صورة ليلى المريضة فى العراق .

تعالى وانظرى كيف جمعتُ بين الصورتين لينعم القلب بجحيمين !

تعالى مرة ، فما فى شريعة الحب أن نعيش فى عبادة الصور والأشكال .

تعالى مرة ، تعالى ، تعالى واستغفرى من ذنبك فى الصدود لا فى العقوق ، فما زلت أرجو أن يكون ارتيابى فى وفائك المعهود أُضلولةً من أضاليل الخيال .

تعالى ، يا ليلى ، تعالى ، تعالى نقرأ معًا بريد بغداد !

أحبك يا ليلى ؛ أحبك وأحب بغداد ، وليلاى فى العراق .

أحبك بلا أمل ولا رجاء ، وإن كنت أتشهّى أن أُقبِّل ذلك الوجه مرةً ثانية ، قُبلة أثيمة

تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء .

أحبك يا ليلى ، فتعالى خذينى ، خذى الطفل الكبير الذى لم تؤدبه الأيام ولا الليالى ، ولم يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضربٌ من الخبال .

تعالى يا عروس الزمالك ، تعالى إلى قلبى وروحى وضميرى ، تعالى إلى الرجلا العارم الذى لا يزال على ما تعهدين من العُنف والجموح .

تعالى يا ليلى ، تعالى ، تعالى نقرأ معًا بريد بغداد لتعرفى أن ليلاى هناك تسأل عنى ، وهى ترتاب فى وفائى كما ترتابين ، ولكنها تقول فيمن أُحبُّ :

« أفوقهم باخلاصى »

تعالى وانظرى هذه الجملة « أفوقهم بإخلاصى » لتعرفى أن الاخلاص له فى عالم الحب ميزان .

اسمعى يا ليلى .

سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين ، فإنْ دار رأسُك من حيث لا تحتسبين فاعرفى أن روحًا شفافًا يزور ذلك الحىّ الجميل ، ولن يكون ذلك الروح غير روحى المشرَّد الذى أشقاه الغرام بالملاح .

اسمعى ، يا ليلى ، اسمعى .

ستطوف بالدنيا قلوبٌ وأرواح ، ويبقى فى عالم الخلود قلبى وروحى .

لن يكون لك أثرٌ فى الوجود إلا بفضل العاشق الذى تكوين فؤاده بنارك الحامية .

ستفنى مَحِلّة الزمالك ، ويبقى ما قلت فى عروس الزمالك .

اصنعى ما شاء لك الغدر والجحود ، ولكن تذكّرى أن غضب الحب سيحل عليك ، وسيذلك الهوى فتسألين عنى بعد حين .

أستغفر الحب :

فما أتمنى إلا أن تعيشى بخير وعافية ، وأن تظلى ريحانةً مطلولة تبسم للشروق والغروب ، وتطالع الدنيا بالنّضرة والنعيم .

أحبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، وأحب من أُجلك جميع الملاح .

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التى كانت ذكراها تؤنس وحشتى فى أيام الاغتراب .

وسبحان من لو شاء لأرضانى عنك وأرضاك عنى .

الرسالة الثانية

لم أكن أعرف وليتني ما عرفت !

لم أكن أعرف أني قدّام على سعير العذاب حين فكرت فى إغناء الأدب العربى بألوان من الصورالشعرية التى تصوّر عذاب الأرواح والقلوب .

لم أكن أعرف أنى سأضع قلبى بيدى فوق جمرات الصبابة ثم أنظر إليه وهو يتنزّى ويتوثّب عساه يظفر بالخلاص ، ولا خلاص !

لم أكن أعرف أنى سأجد ليلى فى طريقى ، ليلى ، ليلى التى عذبت روحى وأحرقت قلبى .

لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقنى إلى الهيام فى غَيابات الليالى السود .

لم أكن أعرف أن الأقدار تدّخر لى هدا النصيب الضخم من العناء والشقاء .

وهل يصدِّق أحد أنى صرت لا أعرف غير الحيرة والضلال فى يقظتى ومنامى ؟

هل يصدِّق أحد أن الدنيا تحولت أمام عينى إلى منادح من الهول والعذاب ؟

أين من يصدق أنى أقضى الأيام والليالى فى أحزان وكروب ؟

وفى سبيل مَن ؟

أحب أن أعرف فى سبيل مَن ؟

فى سبيل المخلوقة التى تقيم فى الزمالك ، عليها غَضْبَةُ الحب !

لم أكن أعرف أن ليلى التى نقلتُ قلبها من مكان إلى مكان ، وعلمتها كيف تناجى النجوم ، وتصافح الأزاهير وتباغم البلابل ، وتسامر الأحلام ، وتراود الأمانى ، لم أكن أعرف أن هذه الإنسانة الظّلُوم ستسقينى أكواب العَلْقم بعد أن سقيتُها أكواب الشهد .

إنك يا ربى تعلم أنى لم أكن سيىء القصد فيما صنعت .

كنت أحب أن أقيم فى دنيا الشرف هيكلاً يُعبَد فيه الجمال .

كنت أحب أن تقوم فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب والأحاسيس .

كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كتّابًا وشعراء يعرفون مواسم القلوب .

فكيف كان جزائى ؟

كنت كالطبيب الذى يحمل المِشْرَط ليداوى جرحاه فينقل إليه المِشرط جراثيم الهلاك .

ليتنى أعرف كيف أصوِّر بلائى بما أسلفت من جميل !

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعانى ، وما أخطرَ ما أعانى !

وما خَفقَتْ أرواح النسيم ، ولا بَرقَتْ لوامع النجوم ، ولا هتف هاتفٌ بالوجد فى صباح أو مساء ، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبى .

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرتُ إليه ؟

ومن أنتِ يا ليلى ؟ من أنتِ ؟ أتملكين شيئًا غير عينين سوداوين ، وخدين أسيلين ، ومَبْسَم يتلألأ بسحر البريق ، وقوام يترنّح وما سَقَوْه الصهباء ؟

أمن أجل ليلى التى تفضح نفسها حين تمشى وحين تنطق يضيع رشدى وصوابى ؟

ماذا عندكِ من الحسن حتى يسيرِ غرامى بلحظك الساحر سَير المثَل الشَّرود ؟

ماذا عندكِ حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفُتُون ؟

أشهد أنى كنت أرى النور يتموَّج فوق جبينك الوهاج فى بعض ليالينا بالزمالك .

وآه ثم آه من ليالى الزمالك !

ولكن ما هذا الطغيان وما تملكين من شواهد الحسن غير لفتات مسروقة من لفتات الظباء ، وغير ساقين ملفوفتين لا توضع إحداهما فوق الأخرى إلا مادت الأرض وترنحت الجبال .

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرتُ إليه ؟

ومن أنتِ يا ليلى ؟ من أنتِ ؟

من أنت حتى تحوِّلى دنياى إلى أمواج من الظلمات ؟

تذكرى ما تملكين من شواهد الحسن التافه السخيف !

هل تملكين غير ذلك الدلال الذى يُزلزِل قلبى وعقلى ؟

هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسِّر الناعم الرفيق المقتول الذى يذل الأسود ؟

هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذى يُغرق الناسك فى بحار الضلال ؟

هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التى تخجل الأقمار والأزاهير ؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفتون ؟

ماذا عندكِ وماذا تملكين ؟

* * *

أنا الذى خلقتُ بقلمى وخيالى كل ما وصفكِ به الواصفون من حُسنٍ وإشراق .

أنا الذى جعلتكِ ريحانةَ الدنيا وأُنس الوجود .

أنا صاحب الفضل ، يا ليلى ، ولولاى لكنتِ زهرةً مجهولة من أزهار الصحراء .

أنا صاحب الفضل على ليلى المريضة فى الزمالك وليلى المريضة فى العراق .

ولكن أين جزائى ؟

أين جزاء العاشق المهجور الذى صار حظه أشدّ سوادًا من قِطع الليل ؟
كل حظى أن أتلقى خطابًا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظى فى غرامى .
كل حظى أن أصبح وأمسى مُبَلْبَل الخاطر ، مقروح الكبد ، مفطور القلب .

* * *

ولكن لا بأس .

فقد كنت أومن بأنى أواسى بحبى فتاةً لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون الرُّمد بضوء الشمس .

كنت أشعر أنى أخلق هذه الفتاة خلقًا جديدًا ، وكنت أرى من الوطنية أن أُشيد بمحاسنها ومفاتنها لتجد مكانها فى عالم الصباحة والجمال .

وقد وصلتُ من ذلك إلى ما أردتُ ، فهى اليوم أمل الآمل وأمنية المتمنى .

أما أنا فقد كان مصيرى فى هواها مصير من يعبد النار ، وعابد النار يؤجِّجها بيديه لتُحرقه حين يداعبها وإن ترفق وتلطف !

وما أنكر أنى عرفت بفضل هذه الفتاة ما لم أكن أعرف .

عرفت أن النبات الجميل قد يكون أمرَّ من الصاب .

عرفت أن البحر لا يروى الظمآن لأن ماءَه مِلْحٌ أُجاج .

عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان .

وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك :

كنت بالرستمية ذات مساء مع أعضاء « نادى القلم العراقى » ومضينا نستروح بسكون الليل حول نهر ديالة فراعنا أن تنبح الكلاب بنزق وطيش .

قال أحد الزملاء : ما أقبحَ نُباحَ هؤلاء الكلاب !

فقلت : هذا النُّباح صورة من صور الجمال !

فقال : وكيف ؟

فقلت : لأنه يكمل صورة الليل .

وكذلك تصنع المرأة الغادرة ، فهى تكمل صورة الوجود .

آه من زمنى ومن دنياى !

* * *

ورجعت أسائل نفسى : ماذا غنمتُ من حب ليلى التى تقيم فى الزمالك ؟

لقد ظفرتُ بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيما بقى من حياتى .

والظاهر أنى لا أخلو من لُؤم ، لأنى أحب اللئام من الملاح .

وإنما كان الأمر كذلك لأنى قضيت أكثر من عشرين سنة فى الدراسات الفلسفية ، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى إلا قليلاً ، لأن عقلى أكبر من قلبى ، وأنا أشتهى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول .

أردت مرة أن أساهم فى نفقات البيت فقالت : أنت تريد أن تحتل بيتى .

وتلك نظرة دقيقة قد يغفل عنها السياسيون .

وهجمت عليها ذات مرة فدفعتنى بعنف وهى تقول : إن مظهر القوة يذكّر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان .

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء ، واللؤمُ بابٌ من الذكاء .

أحبك يا لئيمة حبًّا لئيمًا ، ولا يَفُلُّ الحديد إلا الحديد .

* * *

آه من زمنى ومن دنياى !

أنا اليوم فى خلاف مع ليلاى .

هى تريد أن تنتصر فتنقلنى إلى الزمالك ، وأنا أريد أن أنتصر فأنقلها إلى مصر الجديدة وطن الملائكة والشياطين .

إن آدم عليه السلام انتقلَ فى سبيل حواء من الجنة إلى الأرض ، فلأنتقل فى سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك .

ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنة إلى الأرض فى سبيل حواء ، وهم والله جاهلون ، فلو بقى آدم فى الجنة لعاش أغلف القلب ، خامد الإحساس .

إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضغائن والأحقاد . والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم .

سأرجع إليك يا ليلاى ، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك فى سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية .

وستَرضين عنى يا شقية لأحترق فى كوثر الوصال .

ولكن ما هو الوصال ؟

هو أن تكشفى الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما فى الوجود من حقائق وأباطيل .

أحبك يا ليلى .

أحبك يا ليلاى .

وأستبيح الشِّرك ، فأحب معك الإنسانة النقية التى أمتعتنى بخطابين كريمين و لم تظفر بجواب .

لا تغارى من تلك الإنسانة فبينى وبينها أهوال ، ولن ترانى إلا فى عالم الخيال .

أيتها الإنسانة التى تخاطبنى فلا أجيب !

أنت كل شىء فى دنياى ، ولو كرهتْ ليلى المريضة فى الزمالك .

وسأوقد نيران الغيرة فى صدور مَن هنا ومَن هناك إلى أن يقضى الحب بما هو قاض ، وأنا راضٍ بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين .

أكتب هذا وقد طلع الصبح ، ولا تزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبى .

الرسالة الثالثة

صديقى ...

سألتنى أن أكتب كلمة عن ليلى المريضة فى الزمالك فأثَرتَ فى صدرى لوعةً محرقة كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسى إلى الخمود .

وماذا يهمنى من أمر تلك الإنسانة الظلوم ؟

إن الدنيا كلها سخفٌ فى سخف ، والحب كله بلاءٌ فى بلاء ، فلْتمضِ تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود .

وقد تعلمت فى حياتى أشياء ، وكان أثمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب .

وأقسم بالله وبالحب ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع ، فمن الحسرة واللوعة أن أنفُضَ يدىَّ من العواطف بعد أن جعلتُ الكتابة فى العواطف مذهبًا أدبيًّا له أنصارٌ وأشياع فى سائر الأقطار العربية .

ولكن خيبتى فى الحب لها أسباب .

وآه ثم آه ، من الاعتراف بالخيبة !

ليت ضلالى فى هواى كان دام حتى أُخرج من دنياى وأنا موصول العطف على الملاح !

فإن سألتَ عن أسباب القطيعة بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك فإنى أحدثك بأن تلك الأسباب ترجع فى جملتها إلى سبب واحد هو العظمة الحقيقية التى فطر الله عليها قلبى .

ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين ، فلى قلبٌ ما عرف الناس مثل جوهره النفيس فى قديم أو حديث .

هو قلبٌ فُطِرَ على الحب والعطف والوفاء .

وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة فى الزمالك .

فماذا صنعت تلك الحمقاء ؟

* * *

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة ١٩٣٧ .

كنا عاشقين .

وما أسعد العشاق !

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل .

وما أسعد من يستصبحون بظلام الليل على شواطئ النيل !

كان قلب ليلى أصغر من قلبى .

ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبى ، وهو قلب يرضى بالقليل فى بعض الأحيان .

وكنت أتلقّى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء .

والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح .

كانت ليلى تَعِد وتُخلف ، وكنت أرى إخلافها من الدلال .

وكنت أروضها بنفسى على الإخلاف ، لأنى كنت أحب أن أخلق منها دُميةً روحانيةً أُعاقِرُ فى محيّاها كؤوس النُّبل والصفاء .

وكان ما أردتُ وأراد الحبُّ العذرىُّ حينًا من الزمان .

أردنا مرة أن نؤلف رواية ..

فهل ألفنا الرواية ؟

ليتنا أُلفنا الرواية !

آه من ليلى ومن زمانى !

* * *

ودامت دنيانا فى قبض وبسط ، وبؤس ونعيم ، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة ١٩٣٧ .

ففى ذلك المساء تفضلتْ ليلى فدعتنى إلى تناول العشاء لتمنحنى القُبلة الموعودة قبل رحيلى إلى العراق .

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت ، وإن كدَّرتْها ليلى بعد ذلك .

أحبك يا ليلى ، أحبك لتلك اللحظة التى بَلبلَت نجوم السماء .

أحبك يا ليلى وإن صيَّرتِ حياتى بؤسًا فى بؤس ، وشقاءً فى شقاء .

أحبك يا صغيرة القلب ، ويا ضعيفة العقل ، ويا قليلة الوفاء .

أحبك يا مثال النزق والطيش والجنون .

أحبك لتلك اللحظة القصيرة التى بدّدتْ أضواؤها ظُلمات قلبى .

* * *

وفى اليوم التالى رحلتُ إلى بغداد وأطيافُ الزمالك تؤنس روحى .

ثم سمعتْ ليلاى فى الزمالك أنى تعرفت إلى ليلى المريضة فى العراق .

فماذا صنعت الحمقاء ؟

أرادت أن تنتقم منى ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان .

ولم تكتف بذلك ، بل أعلنت غضبها علىّ فى رسائل نشرتها فى مجلة الصباح .

وأسرفت الشقية فى الحمق فنشرت فى مجلة المصوّر أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء .

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهمٌ سيصيب صدر حبيبها فى العراق .

ولكنى تجلدتُ وتماسكتُ ، وكتبتُ إليها أعتِب فى رفقٍ ولطف .

فأجابت الحمقاء :

« هل كنت تنتظر أن أضع يدى على خدى إلى أن ترجع من بغداد ؟ » .

خبر أسود !

خبر أسود !

خبر أسود !

كذلك هتفتُ كما يهتف الفّلاح المصرى حين ينزعج — وعبارات الفلاحين تسبق إلى لسانى حين يثور غضبى — .

إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدّها حتى أرجع من بغداد ، وهى تعرف أنى هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق .

وهل تفهم المرأة هذه المعانى ؟

آمنتُ بالله ، وكفرتُ بالحب !

* * *

أما بعد فقد انتهى ما بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك ، وقد حرّمتُ على نفسى رؤية الزمالك إلى أن أموت ، فحدِّثونى يا رفاق عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالى الزمالك ، حدثونى كيف يغنِّى الكروان فى الزمالك ، حدثونى كيف تكون أشجار الزمالك فى الليل ، حدِّثونى كيف يَثِبُ النيل ليقبِّل أقدام الزمالك ، حدثونى كيف تصبر عنى ليلاى فى الزمالك ؛ حدثونى كيف تغيب الشمس عن الزمالك ، وكيف يطلع القمر على الزمالك ، وكيف تثور

عواصف الحب والبغض فى الزمالك .

حدثونى ، حدثونى ، حدثونى .

انتهى حُلْم الحب ، وانتهت أيام الزمالك ، وانقضت ليالى الزمالك .

تلك الزمالك لم تكن إلا قطعةً من وطنى ، ولو شئتُ لقلت إنها قطعة من كَبِدِى .

فى الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب .

وبالزمالك شقَى روحى ومرض قلبى .

فأين السبيل إلى الرجاء ؟ بل أين السبيل إلى اليأس ؟

أحبك يا غادة الزمالك ، أحبك يا غادرة ، وأعشق ضلالى فى هواك النبيل وهواك الأثيم .

ليلاى ، ليلاى .

مازال روحى الظامىء يحوم على وِرْدك النمير ، فارحمى الطائر الذى يرفرف حول حِماك فى السَّحَر والضُّحى والأصيل ، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذَعَهُ الشوق إلى صهباء الرُّضاب .

أنا مشتاقٌ إلى الكوثر الممنوع الذى كانت قَطَراته تُسكر روحى وتَغْفِر فؤادى .

أنا مشتاقٌ إلى النار التى كَوَتْ كبدى ، فمتى أُواجه تلك النار العَصُوف ؟

سأُقبِّل قدميك حين أراكِ يا شقية ، ولكن متى أراكِ ؟ متى أراك ؟

أفى الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان ؟

أفى الحق أن غربدة الهوى لن تعود ؟

لقد شمت فينا الشامتون ، فمتى يندحر الشامتون ؟

إننى واثقٌ بطهارة قلبك يا شقية ، ولولا ذلك لأصليتُك نار العقوق .

فحدِّثينى متى ترجعين إلىّ ؟ متى ترجعين ؟ متى ترجعين ؟

* * *

ليلى ، ليلاى التى خرجتُ من حِماها كما خرج آدم من الفردوس ، ليلاى أجيبى .

مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان ، فأين تحية رمضان ؟

إن الناس يذكرون موتاهم فى هذه الأيام يا معبودتى ، وأنا قتيل الهوى ، فمن يذكرنى إذا صدفتِ عنى ؟

لا تؤاخذينى بما جنيتُ فى حب ليلى المريضة فى العراق ، فما كانت ليلاى هناك إلا صورةً من صور الطهر والنبل والعفاف .

أحب ليلاى فى العراق ، وإن تأذَّيت بذلك ، فاصنعى ما تشائين .

أيتها الحمقاء فى الزمالك !

لا أحب أن أراك إلا يوم تعرفين أنى صاحب الفضل على جميع الملاح ، فلولا قلمى ولولا بيانى لصارت الصبابة أُلعوبةً من الألاعيب .

أنتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدى .

فإن لم تفعلى — وستفعلين — فودّعى دنيا الرفق والحنان .

ليلى ، ليلاى .

إلى صدرى يا عروس الزمالك .

إلى صدرى يا جارة النيل .

إلى صدر العاشق الوفى الأمين .

٤٣

أنا فى هذه الأيام فريسةُ الكدح والتعب والعناء :

أنا أُشغل ثلاث مطابع فى وقت واحد لأُخرج « وحى بغداد » ولأخرج الجزء الأول والثانى من كتاب التصوف الإسلامى .

ويظهر أنى لن أرى الإسكندرية فى هذا الصيف ولن أرى جِنّيات الشواطىء إلا فى عالم الأحلام .

وكيف يتسع الوقت للطواف بالشواطىء وأنا أُشغل وقتى بالتأليف والتصحيح من الصباح إلى منتصف الليل ؟

والسهرات التى أقضيها بمصر الجديدة بعد أن تنام العيون لم تستطع أن تمحو حزنى على فراق شارع فؤاد .

والمجلات تتكلم عن المصايف كلامًا جذابًا ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخرجنى من عزلتى ، ولم تنقلنى إلى الشاطىء الذى قال فيه أحد الشعراء :

رعـاه الحبُّ مـن شَطٍّ جميـلِ ... خفيف الروح مصقولٍ أنيقِ

بهِىّ الرمـل تحسبـهُ سُجوفًـا ... مُطَـرَّزةً بحبـات العقيـق

أطـوف بـه فيغلبنـى خشوعـى ... كـأنى طـفتُ بالبيت العتيـق

* * *

أيا حَرَم الظباءِ أَنـرتَ روحـى ... بمشكـاةٍ مـن الحسن الرفيـقِ

يـراك الأكمهـونَ حمًى مُباحًـا ... يذكرُّهـم بـأسواق الرقيـق

ولـو كُشِفَتْ غِشاوتهم لقالـوا ... صبايا الخلد تسبح فى الرحيـق

فهل رأى الناس شاعرًا قبلى يزهد طائعًا فى فراديس الشواطىء بالإسكندرية ودمياط وبور سعيد ، ويجنى على نفسه بالبعد عن شواطىء النيل فى الصيف ؟

أتمضى ليالى الصيف لا تنقَعُ الجوى ... مبـاسمُ بالعـذب النمير تجود ؟

ويَـدْرُج فى مَغْدَاهُ أسوانَ صاديًـا ... فـؤادٌ بأثقـال الشجـون يميـد ؟

وتخلو مغانى النيل مـن لهو فـاتكٍ ... لـه مـن رُباهـا جَنَّـةٌ وخلـود ؟

ويحيا أسيرَ الحزن فى مَيْعة الصِّبـا ... فتًى مَرِحٌ طاغى الشباب مَريـدُ ؟

الحقُّ أنى أسأت إلى نفسى فى هذا الصيف ، فقد حَرَمتُها دواعى الوجد ، ولم يسعفنى الخيال بغير هذا القصيد :

تجاهلتُ أيامَا هيامى لعلنى أثوب إلى رشدى فأرجعَ عن جهلى
ولم أدرِ أن الحب يَسْرِى ضَرِيمُهُ ليَعْصِفَ بالباقى المشرَّد من عقلى
فأين المفرُّ اليومَ من فَتْكِ لَوعةٍ مضرَّمة الأقباس مسمومة النَّصل
أُكابد فى بأسائها كلَّ لحظةٍ شدائدَ من وجدٍ عَصُوفٍ ومن خَبْل

* * *

لقد كنتُ ودَّعتُ الصبابات وانقضتْ ضلالةُ أحلامى لَدَى الأعيُنِ النُّجْلِ
فكيف أرانى عُدتُ وَلْهَانَ صاديًا أبيتُ على هَمٍ وأُصبح فى شُغلِ

* * *

إلى أين يا قلبى ؟ إلى أين ؟ إننى أخاف عليك اليوم عادِيَةَ القتل
أمَا لك فى الماضى المضرَّجِ عِبرة ألم تشرب الآلامَ سَجْلاً إلى سَجْل
إلى أين ؟ حدِّثنى ، فلم تبقَ لى قُوَى أصدُّ بها جيش الملامة والعذل
طوتنى خُطُوبُ الوجدِ طيًّا فلم أعُدْ أتُوقُ لِجَدٍ فى الغرام ولا هزلِ

* * *

هَوَاك الذى تهوَى لئيمٌ يَسُرُّهُ ضلالك بين الظلم والحتف والويلِ
هواك الذى تهواه قاسٍ وإن يكنْ أرقَّ من الزهر المصبَّحِ بالطَّلِ
هو الورد أشواكًا هو الوَبْلُ نِقمةً هو الرفقُ رِفقُ الهولِ فى غسَقِ الليلِ
هو الراح تسرى فى السرائر خِفيةً ليمُسِى بها النشوانُ فى قبضةِ الغَولِ
حِذارَكَ منهُ يا فؤادى فإنهُ وإن يكُ بَسَّامًا لأُخْبَثُ من صِلِ

* * *

إلى حُبِّهِ يا قلبُ سارع ولا تَخَفْ فظُلْم الملاح الهُوج أندَى من العدل
إلى قلبه الظَّلاَّم خُذْنى فإننى أحبُّ ظلامَ الليل والحبِّ والهول
عَدِمتُ فنائى فيه إن كنتُ أشتهى سِوَى طبعه المشبوبِ بالغدر والختل

* * *

أُحبك يا صِنْو الزمان الذى قسا فلطِّفْ من طبعى وخفف من جهلى(١)
أحبك وليصنعْ بنا الدهر صُنْعَهُ فللدهر أو للحب مثلك أو مثلى

* * *

(١) الجهل هنا ضد الحلم ، فهو الحدة والطيش .

ولكن هذا الصيف الأجرد وقعتْ فيه أشياء تستحق التسجيل :

أنا أتلقى فى كل يوم أخبار ليلى وظمياء ، وتصل إلىّ جرائد بغداد بلا انقطاع ، يرسلها أديب لم أعرفه فى بغداد ، وهو السيد عبد القادر أحمد ، أرانى الله وجهه بخير وعافية ، وجزاه عن الأدب والذوق خير الجزاء .

وفى جرائد بغداد قرأتُ أن جريدة « العُقاب » تقترح أن أُمنَح لقب « ابن بغداد » .

ثم قرأت أن جريدة « اليوم » تقترح أن أُمنَح لقب « ابن العراق » .

فما هذا الكرم يا أبناء الرافدَين ؟

ابن بغداد ؟

ابن العراق ؟

أهلاً وسهلاً ، فأنا بإذن الله أخوكم الشقيق ما حييتُ .

أنا ابن بغداد وابن العراق ، لأنى وقفتُ وقفة الأسود أدفع التهم الكواذب عن بغداد والعراق .

فهل يعرف العراقيون كيف وقفت ذلك الموقف ؟

الله يشهد أنى فكرتُ فى خدمة مصر قبل أن أُفكِّر فى خدمة العراق .

ومع ذلك اتهمنى الغافلون بأنى أُجامل أهل العراق .

وهل يكون من المجاملة أن نقول كلمة الحق ؟

لم أُرد — يشهد الله — إلا أن أحفظ لوطنى مكانةً فى قلوب الصناديد من أهل العراق .

فإن كان العراقيون رأونى أديتُ لوطنهم خدمةً حين دفعت عنهم قالة الزور والبهتان فذلك منهم تلطُّف وترفُّق ، وستحفظ لهم مصر هذا الجميل .

أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟

إن من الشرف العظيم أن أكون ابن بغداد وابن العراق .

لم يبق فى نفسى إلا كلمة أقولها لكم ، يا أبناء الرافدَين ، وهى دعوتكم إلى الثقة بأن المصريين يحبونكم أصدق الحب ويرونكم إخوانهم الأشقاء ..

وما رأيتموه من عُنف الصحافة المصرية لم يقع إلا لهول فاجعة كلية الحقوق .

أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟

الحمد لله الذى كتب أن أكون موصول العهد بأهل العراق .

الحمد لله الذى جعل لى مَقام صدق فى البلاد التى رفعت لواء الحضارة الإسلامية .

الحمد لله الذى قضى أن أُذكَر بالخير فى المدينة التى فيها شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى .

الحمد لله الذى تفضل فوصل قلبى بالغُرّ البهاليل من أهل العراق .
الحمد لله الذى رفع اسمى فى بلادٍ تحفظ الصنيع .
الحمد لله الذى أعزنى فى وطن ليلى وظمياء .

* * *

إخوانى فى بغداد .
أشكر لكم ما حَبَوتمونى من لُطفٍ وعطف .
ثم أعترف بأنى أغار غيرةً شديدةً على سمعة العراق .
فهل أنتظر أن تغاروا على سمعة مصر كما أغار على سمعة العراق ؟
إنى أرجو كم أن تحفظوا عهد البلد الذى أحبكم أصدق الحب ، ورحب بأُخوّتكم أجمل ترحيب .
فى مصر ذخائر من الأدب والذوق ، وإن خفِيت عنكم بعض الخفاء .
إن مصر تنتظر أن يكون لها سِنادٌ من عواطف أهل العراق ، فكونوا عند ظنها الجميل .
أرجو أن تذكروا أنى لم أتفرد بالصدق فى هواكم ، فلكم فى مصر أصدقاء يعدُّون بالملايين .
ثقوا ، أيها الأخوان ، بأننا أقسمنا أمام الله وأمام الضمير بأن نحفظ العهد .
ثقوا بأننا نؤمن أن الوفاء هو أكرم ذخائر الرجال .
أنا ابن بغداد ، أنا ابن العراق .
أنا ابن بغداد ، أنا ابن العراق .
أنا أخٌ صادق لأبناء دجلة وأبناء الفرات .
أنا الصبّ المشغوف بالبلاد التى عرفتْ بكاء الحمائم ، وظلام الليالى ، ونور القلوب .
أحبك يا مَهْدَ ليلى ويا وطن ظمياء .
وأرجو أن تحبّ مصر كما أُحب العراق .

٤٤

أنا أتلقى فى كل يوم مجموعة من الجرائد العراقية ، فأقضى فى تصفحها ساعةً أو ساعتين لأستخرج الفقرات التى تساعد على وضع كتاب عن حياة التعليم فى العراق ، ولأتعقّب سَير الحياة الاجتماعية فى بغداد .

والوقت الذى أقضيه فى مراجعة تلك الجرائد يؤنس روحى كل الإيناس لأنه ينقلنى إلى الجوّ الذى يعيش فيه أصدقائىَ هناك .

ولكنى أنظر فأرى جريدة « العراق » تقول :

أستاذ الآداب العربية

فى دار المعلمين العليا

علمنا أن وزارة المعارف قد طلبت إلى المفوضية العراقية فى مصر أن تراجع ذوى الشأن فى مصر لانتداب أحد أساتذة الآداب فى مصر للقيام بتدريس الآداب العربية فى دار المعلمين العالية بعد أن أبدى الدكتور زكى مبارك إصرارا على عدم تجديد عقده للسنة الدراسية القادمة .

* * *

وعندئذٍ أعرف أنى لن أرجع فى السنة المقبلة إلى العراق .

أنا أصررتُ على الاعتذار عن الرجوع إلى بغداد ؟

هذا حق .

ولكن كيف وقعتُ فى ذلك الغلط الفظيع ؟

ندمتُ على ما كان منى ــ فقدتُنى ــ كما يندمُ المغبون حين يبيعُ

لو كنت أعلم أنى سأشتاق هذا الاشتياق إلى العراق لما أصررت على الاعتذار عن الرجوع إلى منصبى فى بغداد .

وما قيمة الحرص على طبع كتاب « التصوف الإسلامى » والحرص على تسوية حالتى بوزارة المعارف المصرية بالقياس إلى الحرص على جوِّ المدينة السحرية التى أوحت إلى قلمى

خمسة آلاف صفحة فى أشهر معدودات ؟

لقد نصحنى العشماوى بك وعوض بك وفهيم بك ودعونى إلى مراعاة عواطف أهل بغداد ، ولكني جهلت قيمة ذلك النصح التمين ، وأصررت على الاعتذار لأخرس الألسنة التى قالت إنى أدافع عن أهل العراق لأحافظ على منصبى فى بغداد .

أنا نادمٌ نادم ، ولكن ما فات فات .

* * *

أيها العراق النبيل .

تذكَّر أنى وقفتُ بجانبك يوم خذلك أصدقاؤك .

تذكر أننى لم أخُنْك فى سرّ ولا علانية .

تذكر أننى عرّضت سمعتى فى سبيلك إلى أقبح الشبُهات .

تذكر أننى خاصمتُ فيك أهلى وقومى .

تذكر أن أحاديثى عنك وصلتْ إلى أسماع المشرقين والمغربين .

تذكر أننى أديتُ إلى بغداد ما لم يؤد بعضه بييرلُوتى إلى استامبول .

وقد حفظ الأتراك فضل بيرلوتى ، فهل تحفظ فضلى أيها العراق النبيل ؟

ستُسأل عن ذلك أمام الله وأمام التاريخ .

* * *

وأنت يا مصرُ ، ماذا تريدين منى ؟

كنتُ لك سفيرًا نبيلاً فى الشرق .

فماذا تريدين أيتُها الظَّلُوم ؟

ماذا تريدين ، وقد وصلتْ مؤلفاتى إلى كل بلد يذكر فيه اسم الله واسم الرسول ؟

ماذا تريدين ، يا مصر ؟ أحب أن أعرف ماذا تريدين ؟

* * *

الآن ، وبعد أشهر قضيتُها فى كروب من حُزيران إلى أيلول ، أترك الحديث عن ليلى المريضة فى العراق .

فإن كنت آذيتك يا ليلى فاغفرى ذنبى .

سامحينى ، يا ليلى ، فأنا أضعف من أن أحتمل العتاب .

سامحينى ، يا ليلى ، واذكرينى بالخير عند قومك الأبرار ، فأنا أذكرك بالخير عند الأبرار من قومى .

سامحينى ، يا ليلى ، فأنا رجلٌ مودِّع ، والمودِّع تُغفَر له جميع الذنوب .

إن عشتُ ، يا ليلى ، فسأطوّق جِيدك الأغيد بطوقٍ نفيس من المعروف .

وإن لم أعش فحسبُك هذه المذكرات ؛ وأغلب الظن أنها ستنشر قبل أن أموت .

خلعتُ على الدنيا جمالك فانثنتْ   تَخايَلُ فى طيبٍ وحُسنٍ ولألاءِ

تذكرى ، يا ليلى ، أنى قلت فى بغداد أضعاف ما قلت فى القاهرة وباريس .

تذكرى ، يا ليلى ، أنى كنت أصدق صاحب وأشرف صديق .

تذكرى أن دجلة مرتْ عليها أزمانٌ طوال و لم تسمع مثل عتابى فى قصيدة :

« من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد » .

تذكرى ، يا ليلى ، أنى أصدق من استصبح بظلام الليل فى مدينة الرشيد .

تذكرى ، يا ليلى ، أنى أصدق من ضلَّلته العيون السود .

تذكرى ، يا ليلى ، أن العيون الخضر لم تر فى أرجاء العراق غير الجميل .

تذكرى ، يا ليلى ، أننى عانيتُ فيك ما لم يعان قيسٌ فى ليلاه .

***

أما بعد فقد تنفس الصبح فى اليوم التاسع والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٣٨ .

وسيكون من واجبى أن أسلِّم نفسى لوزارة المعارف المصرية لتوجه جهودى كيف تشاء .

أنا منذ الغد موظف فى الحكومة المصرية ومسئولٌ أمام القاهرة لا أمام بغداد .

فمن شاء أن يعرف كيف حالى فأنا أسير ليلى المريضة فى العراق وأسير الليليات فى الزمالك والجيزة ومصر الجديدة ودمياط وحلوان وأسيوط .

أنا منذ الغد مسئولٌ أمام حكومة مصر ، ولكن قلبى سيظل أبد الدهر مسئولاً أمام الأمة العراقية .

فيا أصدقائى فى ضفاف الرافِدَين تذكروا أن لكم صديقًا وفيًّا فى ضِفاف النيل .

***

أحبك ، يا ليلى ، وأشكو من فراقك ما شكوتُ يوم فارقت أبى وأمى .

إلى الله أشكو فَقدَ ليلى كما شكا   إلى الله بعـد الوالديـن يتيـمُ

لن أرجع ، يا ليلى ، إلى العراق ، ولك الأمر فاصنعى ما تشائين .

ومن بينات الحبّ أنْ كان أهلها   أحبّ إلى قلبى وعينىَّ مـن أهلى

وإلا فكيف صح أن أُحبَّ الفرات أكثر مما أحب النيل !

إلى اللقاء ، إن كان لمثلى أملٌ فى البقاء .

أحبك ، يا ليلى ، فاذكرينى بالشعر يوم أموت .

وكيف يموت من يرقُم اسمه على جبيْن مصر وجبين العراق !

كيف يفنى من يخلّد اسم السين والنيل ودجلة والفرات !
الفناء لأعدائى .
أما طبيب ليلى فله الخلود .

سيدى الدكتور زكي مبارك
بعد السلام

لقد ارسلت لك كتاب مطولا ومفصلا ولم ياتني الجواب وقلت يمكن اشغلتك
بلادك واهلك ونسيت من لا ينساك وقد هاج قلبي وتاكدت عندى خيانتك
عندما قرات كتاب ليلي في الزمالك وكيف انك نسيتها وتبجّح علي نسيانها
وثم قرات كلمة الرفض حول تدريسك في السنة المقبلة فسأنسب لك
امرين احلاهما مر وخيرهما الأسر إما (خائن للعروبة وكافر بالحب)
او جبانا) اما الاولي فهي بك واما الثانية فلم اعهدها بك
اصدق واخلص يا اخي لا ينفع غير الصدق والاخلاص والله مع المحقين
أين هو حقك حتي يكون الاه معك لا اريد اكتب لك اكثر من هذا لان
الهياج اخذ ما اخذه مني كيف ثم كيف تسلب قلبي وتتركني لقد تفرغت
قليلا انت رحل تحب الغوامض وها انا كتبت لك كتابي ولم اعلمك بنفسي
سوف ارى هل يمكنك ان تميزني من بين ليلاتك الكثيرات اكبر درس وصمت
للعراقيين واكبر جناية جنيت علي ليلاتهم لا ينفع الا الصبر والاخلاص والصدق
ولك اصدق التحيات تذكر تذكر من تذكرك اكثر منما تذكر نفسك انت
انني عارفة بخطئي وصوابي في كلماتي هذه فقلتها عمدا حتي اسد الطرق
عليك ([redacted]) و([redacted]) و([redacted]) و([redacted]) يسلمون عليك وأنا بدوري اقبلك قبلة من وعدت
واخلفت أعتذر منك ثم أعتذر منك . ماذا اقول لك ومن استحسن عليك
عنواني تجده في الكتاب الاول الذى وصلك وأهملته واقبلك
يا حبيبي اقبلك ولا تنسني ليلي

ليلي

٢٤ / ٧ / ١٩٣٨

......................حل هذه العقد

أنا فى هذه الأيام بعافية من مرض الحب .

ومن شواهد العافية أن ليلى لا تخطر فى البال أكثر من مئة مرة فى اليوم ، ولا يؤرِّق خيالها نومى غير مرة أو مرتين فى كل ليلة ، والطيف ينقلها إلىّ راضيةً مَرْضية ، فلا عِتاب ولا مَلام .

وقد تسلمتُ عملى فى وزارة المعارف فى مطلَع تشرين الأول .

ولكن أى عمل ؟

إنه عملٌ طريف لم تُسنِده وزارة المعارف إلى أحدٍ من قبل : وهو التفتيش على المدارس الأجنبية بالديار المصرية . وما اختارنى قومى لهذا المنصب إلا وهم يعرفون أنى أصلَح الرجال للاتصال بالأجانب ، ويفهمون أنى أقدَرُ الرجال على رفع دعائم اللغة العربية فى المدارس الأجنبية .

وقد صرّح سعادة العشماوى بك بأنه مستعدٌّ لتنفيذ كل ما أقترح فى سبيل تقوية اللغة العربية فى تلك المدارس .

والواقع أن التجارب أثبتت أنى لا أصلحُ لغير السِّفارة بين مصر وبين من تعامل من الأمم الغربية والشرقية : فأنا حين أتولَّى عملاً مصريًّا صِرْفًا أملأُ الدنيا بالمشاغبات والمناوشات والمصاولات ، وقد أصل فى ذلك إلى حدود من العُنف يأباها الذوق السليم ، ولكننى حين أتوّلى عملاً يقضى بأن أكون سفيرًا لوطنى أترفقُ وأتلطف ، وأُؤديه تأديةً صحيحةً يراها المنصفون غاية ما يتسامى إليه العقلاء .

وأيامى فى العراق هى من شواهد هذا الغرض الشريف : فقد قضيتُ أيامى هناك فى كَدْحٍ دائم وكفاحٍ موصول ، وكنتُ حريصًا أشد الحرص على أن يفهم العراقيون أن المصرىَّ خليقٌ بأن يظفر بثقتهم الغالية ، ومضيتُ أبدِّد التُّهم التى أراد المُغرضون أن تسوء بها سُمعة مصر فى بلاد الرافدَيْن . ولم أكتف بذلك : بل شاركتُ العراقيين فى أفراحهم وأحزانهم ، واتصلتُ بالشعب نفسه فساقيتُه كؤوس الوداد فى مختلف البلاد العراقية ، وشربت ماء الفرات ، شربتُه صِرفًا وهو ممزوج بالطين فرأيته أشهى من الرُّضاب المعسول .

وكان فى نيتى أن أقترن بالفتاة « الملثوغة الراء » ولكننى خشيتُ أن تموت زوجتى مقتولةً بالغيرة ؛ فهل يكتبُ الله لأحد أبنائى أن يتشرف بمصاهرة العراق ؟

إن فى صدر المرأة العراقية كنوزًا من العطف والحنان ، وفيها شمائل كثيرة من الأمانة

والصدق ؛ ألم يكف أنها أنجبت الصناديد من أبطال الحرب والقتال ؟

ألم يكف أنها استطاعت أن تنتصر على الطبيعة الهوجاء فى العراق ؟

* * *

أنا اليوم أواجه الأجانب فى مصر بقلبٍ راضتْه الأيام بعد الجموح .

أنا اليوم أُحاول أن أوجِّه الأجانب إلى خدمة اللغة العربية . فهل أُفلِح ؟

إن ذلك ليس بالمستحيل ، وكيف يكون مستحيلاً وقد استطعتُ من قبلُ أن أرفع دعائم اللغة العربية بمعهد الليسيه فرانسيه بالقاهرة يوم كنتُ أستاذًا بذلك المعهد ؟

اتصلتُ بمعهد الليسيه فى سنة ١٩٢٨ فرأيت تعليم اللغة العربية هناك مزاحًا فى مزاح ، ثم صحّ عندى أن الفرنسيين الذين عرفتهم قبل ذلك فى باريس لا يمكن أن يكونوا مازحين ، ورأيت الخير كل الخير فى دعوتهم إلى تقوية اللغة العربية فى الليسيه ففرحوا بذلك وأفهمونى أن غايتهم الأصيلة هى الظفر باكتساب ثقة الأمة المصرية .

ولما اشتركتُ فى مؤتمر المسيون لابيك فى باريس سنة ١٩٣٣ وقفت أصاول المسيو هِرْيو لأفهمه أن الثقافة الفرنسية لن تجد أصدقاء فى مصر إلا إذا اهتم الفرنسيون بالمشاركة الجدية فى إحياء الثقافة العربية .

واتفق بعد ذلك أن اعترفت الحكومة المصرية بالشهادات التى تمنحها كلية فيكتوريا فى مصر وأعطت حامليها جميع الحقوق التى يتمتع بها حملة البكالوريا المصرية فنشرتُ فى جريدة البلاغ مقالاً بينت فيه الخطر الذى يهدد الثقافة المصرية ، وقد قلت فى ذلك المقال :

« والآن — بعد هذه الصدمة — لننظرْ ما سيكون فى الغد ، ولسنا فى حاجة إلى منجِّم ولا عرَّاف ولا بديهة كبديهة وزير المعارف لنتنبأ بما يخبئه الغد ، فإن هذا معروف منذ هذه اللحظة : فسيتوجه فى الغد القريب جدًا سفراء الدول الأجنبية ليطلبوا لمدارسهم نفس الحقوق التى أُعطيتْ لكلية فيكتوريا ، وسيحرص وزير فرنسا بنوع خاص على كسب هذه الحقوق : لأن الفرنسيين أكثر الأجانب مدارس ومعاهد فى هذه البلاد ، ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين : نار الرفض ونار القبول ، فإن رفضتْ كان معنى ذلك أنها حكومة متجلنزة تخصّ الإنجليز بالطيبات صدقًا أو رياءً ، وإن قبلتْ كان معنى ذلك أنها تصوِّب السهم طائعةً إلى صدر الثقافة المصرية »[1] .

ويظهر أن شخصًا من « أولاد الحلال » سارع فترجم هذه الكلمة إلى المسيو دى كومنين

---

(١) تجد هذا المقال فى الجزء الثانى من كتاب « البدائع » وفيه تفصيل ما اقترحته لتقوية الثقافة المصرية بالمدارس الأجنبية .

فعاتبنى بحضرة الأستاذ كانيرى فقلتُ له ما ترجمتُه :

« لن أكون صديقًا صحيحًا لفرنسا إلا بعد أن أكون مصريًا صادقًا » .

فتهلل وجه الرجل بعد عُبوس وقال ما ترجمته :

« إن فرنسا التى تفردت بصدق الوطنية لا تستطيع أن تعادى الوطنيين الصادقين » .

وانقضت السهرة بسلام .

* * *

أنا اليوم رجلٌ نافعٌ جدًّا ، وطبيبُ ليلى خليقٌ بأنْ يستمدّ من روحها معانى الصدق والشرف .

أنا أدخل المدارس الأجنبية بلا استئذان : لأن الأجانب يعرفون أنى لا أحاول السيطرة عليهم ، وإنما أحاول معاونتهم على كسب ثقة الأمة المصرية ، وهم لن يصلوا إلى ذلك إلا إذا أمكنوا تلاميذهم من ناصية الثقافة العربية .

وما دخلتُ مدرسة أجنبية إلا حوَّلتُ أصحابها إلى أصدقاء أوفياء .

وقد هدتنى التجارب إلى أن أنفع سلاح هو الصدق : فأنا لا أُوارب ولا أُخاتل ، وإنما أصل إلى غرضى بأساليب صريحة لا تعرف الالتواء ولا الاعوجاج .

أنا اليوم على صلات وثيقة بأصحاب المدارس الفرنسية والأمريكية والإسرائيلية والأرمنية واليونانية ومن إليهم من الأجانب ، وهم جميعًا يعرفون أنى أعاونهم على أشرف غاية يتسامَوْن إليها وهى الظفر بثقة الأمة المصرية .

وليس لى فى معاملة هؤلاء الناس أسرار مكتومة أحاول الوصول إلى تحقيقها بالختل والمراوغة واللين ، وإنما أنا مصرىٌّ صادق يسعى إلى غرضه فى وَضَح النهار بلا بغى ولا عدوان .

وأُقسم بالله وبالشرف إنى لم أتلق أية إشارة من وزير المعارف بتنفيذ سياسة خاصة فى المدارس الأجنبية ، وإنما أوصانى الوزير والوكيل بالدعوة إلى الحق ، وهى أن تكون اللغة العربية لغةً خليقةً بالسيادة فى بلاد حفظتْ تُراث العرب بعد سقوط بغداد على أيدى التتار والمغُول ، ونبَّهانى إلى أن لمصر فى تلك المدارس أبناءً أعزاء ، وأن من الواجب أن تحرص مصر على أن لا يفوتهم التفوق فى اللغة القومية .

* * *

استطعت فى هذه الأيام أن أدخل مدارس لم يدخلها المفتشون المصريون من قبل ، فما هى الخصوصية التى دخلتُ بها إلى قلوب الأجانب ؟

هى الصدق .

هى الصدق .

هى الصدق .

والرجل الصادق يُذيب الصخر ولو كان من الكافرين .

وفى مدارس الأجانب مدرسة واحدة بحىّ الفجالة صرّح مديرها بأنه مستعدٌّ لقبول إشراف وزارة المعارف على شرط أن يضمن أن لا يرى غير وجه الدكتور زكى مبارك .

فليعرف هذا المدير أننى لم أتفرد بصدق النية بين المفتشين المصريين ، ففى وزارة المعارف رجالٌ فضلاء يملكون من صدق النية أكثر مما أملك .

فى وزارة المعارف المصرية كنوز مخبوءة من العزائم والقلوب ، ولكن لم تُتَح الفرص التى تقضى بأن تبلوَهم الأيام كما بلَتْنى الأيام .

لو أُتيح لتلك العزائم والقلوب أن تقف على الجمر كما وقفتُ ، وأن ترى اصطخاب العواطف فى باريس وبغداد كما رأيتُ ، وأن تفهم أن مصر صِلة الوصل بين الشرق والغرب كما فهمتُ ، لو أُتيح لأحد زملائى أن يذرف الدموع على مصير وطنه كما ذرفت غاليات المدامع على مصير وطنى ، لو أتيح لهم شىءٌ من ذلك لعرفوا أن من القليل أن يشقى المصرىّ فى سبيل مصر الغالية .

إن أحمال مصر أحمال ثِقال : لأنها تريد أن تكون عند ظن الشرق .

وماذا يريد الشرق ؟

هو يفهم أن مصر عندها العلم وعندها المال ، وفى مقدورها أن ترفع دعائم القومية العربية .

والبخل قبيح حين يصدر عن العلماء الأغنياء .

* ** *

خذوا الدرس عن طبيب ليلى ، يا بنى وطنى .

وليلى علمتنى أن أكون شجاعًا وأن أكون كريمًا ، وسأظل على هذه الأخلاق إلى أن أموت ، فهل تذكروننى بالخير يوم أموت ؟

لقد غنمتُ لكم ثقة الأجانب فى مصر وثقة العرب والمسلمين فى الشرق ، فهل تحفظون هذا الجميل ؟

لا تؤاخذونى إذا طالبتكم بالوفاء ، فهذا درس ستعرفون قيمته بعد حين .

إن مصر هى أعظم أمة عربية ، ولكنها لا تقول إنها عربية .

فما هذا الحمق ؟

وما هذا الخبال ؟

إن مصر تصرِّح فى كل لحظة بأنها أمة عربية ، مع أنها تعلم بأن العروبة هى مصدر الإسلام .

إن عشتُ لكم ، يا أهل مصر ، فسأوجهكم إلى وجهة الحق .

وإن متُّ — وعُمرُ الصادقين فى مصر أقصر من عُمر الوَرد — فستكون هذه المذكرات وصيتى إلى أمتى .

* * *

أنا فى هذه الأيام سعيدٌ لأننى أخدم وطنى .

ولكن يؤذينى أن ليلى بعيدة منى .

كنت أريد أن أستصبح بوجهها فيما أعانى من مُشكلات ومُعضلات .

كنت أريد أن آوى إلى صدرها فى كل مساء بعد الفراغ من عناء الأعمال .

كنتُ أُحب أن لا تتركنى لرعاية ليلى المريضة فى الزمالك ، الزمالك التى يعبرُها شارع فؤاد ، ويا لوعة القلب من سِحر الأصائل والعشيات فى شارع فؤاد !

أمِثلى يحرَّم عليه أن يصطبح ويغتبق فى شارع فؤاد ؟

فى سبيل الواجب أحرم نفسى من ملاعب القاهرة وأكتفى بخيال ليلى فى تخفيف ما أحمل من ثقال الأعباء .

* * *

أنا وليلى ، وليلى وأنا ، أخوَان لا يفترقان .

أنا أحب العراق أكثر مما أحب مصر ، وهى تحب مصر أكثر مما أحب العراق .

ومن بينات الحب أنْ كان أهلها ... أحبَّ إلى قلبى وعينىّ من أهلى

هى ترى السعادة فى رؤية النيل ، وأنا أرى السعادة فى رؤية دجلة والفرات .

هى مجنونة وأنا مجنون ، وما لذة العيش إلا للمجانين .

* * *

إلى صدرى يا سمكة شط العرب .

إلى صدرى يا حلوة ، يا جميلة ، يا فتَّانة ، يا ظَلوم ..

إلى صدرى بمصر الجديدة فى ليالى السِّرار .

إلى صدرى ، إلى صدرى ، إلى صدرى .

إيش لون يصير !

إيش لون يصير !

أنا والله هالِكٌ ... آيسٌ من سلامتى

أو أرى القامة التى ... قد أقامت قيامتى

أصبحتُ بحمد الله والهوى جَذْوةٌ من الجد والنشاط ، وقد فرغتُ من طبع كتاب (وحى بغداد) وسيظهر كتاب « التصوف الإسلامى » بعد أيام . وقد شرعتُ فى طبع مذكراتى عن « ليلى المريضة فى العراق » وأن أستعدّ لأخراج الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وسأُضيف إليه دراسة مفصَّلة عن الشريف المرتضَى ، وبذلك أُتمّم فى القاهرة ما فاتنى إتمامه فى بغداد .

* * *

ولكن الشواغل التى تساورنى فى هذه الأيام هى فهم المهمة التى أسندتْها إلىّ وزارة المعارف ، وقد أصبحتْ هذه المهمة عسيرة أشدّ العُسْر : لأنى أعالج هذا العمل أولَ مرة ، ولأنى أُحب أن أنتصر فى عملى بمصر كما انتصرت فى عملى بالعراق . والله وحدَه هو المستعان .

يضاف إلى ذلك أنى أغار من رجال المعارف أشدَّ الغيرة ، لأنهم يكافحون ويجاهدون ، وكأنهم ليسوا بموظفين وإنما يدبِّرون ملكهم الخاص ، وأنا أخشى أن يكونوا أصدق منى فى خدمة الواجب .

* * *

والواقع أننى اليوم أجاهد بين تيَّارَيْن عنيفين : تيار وزارة المعارف وتيَّار الجامعة المصرية .

ويُخيَّل إلىّ أنى قد أُصبح من المغرَقين ، إن لم أستنصر بما فى قلبى وعقلى من ذخائر الصدق والقوة :

فرجال المعارف لا يمكن الظفر بثقتهم إلا إذا صرت من كبار المفتشين ، ورجال الجامعة لا يمكن الخلاص من طُغيانهم إلا إذا صرت من كبار المؤلفين .

وانتصارى على رجال الجامعة المصرية مضمون : فلن يسبقونى فى التأليف ولو ركبوا متون الهواء ، وسلطوا أفواههم على مسامع البرق .

أما انتصارى على رجال المعارف فلن يتحقق إلا يوم يظهر جليًّا أننى أدخلت رُوحًا جديدًا فى تعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية .

وكيف أصل إلى هذا الغرض ؟

تلك هى النقطة ، كما يقول لا فُونتين .

الوسيلة الصحيحة هى اختبار المدرسين والتلاميذ لأعرف مواطن القوة والضعف فى تلك

العقليات ، ولأعرف كيف ينظر أولئك وهؤلاء إلى تلك المدارس ، ولأفهمَ ما بينهم وبين الأجانب من صلات .

وقد توهمتُ لأول وهلة أنى سقطتُ فى بُرج بابل ، ثم عرفت بعد قليل أن الأمر أيسر مما توهمتُ .

الصعوبة فى سياسة المدارس الأجنبية ترجع إلى فرعيّن :

الأول اكتساب ثقة النظار بتلك المدارس .

والثانى نوع التربية التى تصلح لتعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية .

أما اكتساب ثقة النظار من الأجانب فلم أعانِ فيها إلا مشقةً واحدة : هى إقناعهم بأنهم يعيشون فى مصر ، وأن من الواجب عليهم أن يراعوا ذلك وقد جاءوا من بلاد تؤمن بأن الثقافة يجبُ أن تُلوَّن بانتقالها من إقليم إلى إقليم .

وقد اقترحتُ عليهم أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدرس فى جميع الموادّ ليعيش تلاميذهم فى الجوّ الذى يعيش فيه تلاميذ المدارس المصرية ، وليستطيع النظار أنفسهم أن يقولوا إنهم يخدمون الثقافة المصرية .

وقد أدهشهم هذا الاقتراح حين سمعوه ، ثم عادوا فاطمأنوا إليه وسألونى أن أُمِدَّهم بما يحتاجون إليه من الخرائط التعليمية باللغة العربية فى الموادّ التى تحتاج إلى خرائط .

وكنت أظن أنى أُحرج وزارة المعارف حين أطلب منها تحقيق ذلك ، ثم رأيت بعد أن زرت مخازن الوزارة أن عندنا كل ما يَطلبُ الأجانب لتسهيل التدريس باللغة العربية ، وحدثنى سعادة العشماوى بك بأن الوزارة قد تقدِّم إليهم كل ما يطلبون بالمجان .

وقد فهمتُ وأنا أتنقل بين القاهرة والإسكندرية أن آباء التلاميذ بتلك المدارس يتشهَّون أن يتفوق أبناؤهم فى اللغة العربية بجانب تفوقهم فى اللغات الأجنبية ، وهذه الرغبة المشروعة وصلتْ إلى آذان النظار بتلك المدارس : فهم يريدون أن يسايروا هذه الرغبة ليظفروا بثقة العائلات المصرية .

* * *

وهذه المسألة لا تهمنى من حيث الشكل فقط ، وإن كان الشكل هنا يعاون على تقوية القومية المصرية .

إنما الذى يهمنى هو مصير الأدب العربى ، فأنا أعتقد أن تلاميذ المدارس الأجنبية بمصر هم جيلٌ مُخضرَمٌ سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب ، وهؤلاء قد يمدّون الأدب العربى بمحصول نفيس إذا استطاعوا إجادة الإنشاء باللغة العربية .

وانضمام هذا الجيل المخضرَم إلى جيش الأدب العربى قد يعوِّض النقص الذى تتعرض له لغةُ

العرب فى هذه الأعوام ، فالعرب فى أعوامنا هذه يريدون أن يخلُوا إلى أنفسهم ، وهم يصرحون بانسلاخهم عن الأمم الإسلامية ، وهذا المسلك قد يقوّى الرابطة العربية لأنه يحصرها فى حدود مأمونة الثغور ، ولكنه يسوق الأدب العربى إلى هاوية الخمود .

فإذا استطعنا أن نضمن تفوُّق أبنائنا بالمدارس الأجنبية فى اللغة العربية فقد نكوِّنُ منهم جبهةً أدبية تُعيد للأدب العربى مجدَهُ يوم كان من الآداب العالمية ، ويوم كان فى لغتنا أدباء من الفرس والروم والهنود والأسبان .

وهناك جانبٌ لم يلتفت أُحدٌ إليه ، وهو الحالة الصحية لأبنائنا بتلك المدارس ، فهم فى الأغلب من أبناء المياسير ، وعلى وجوههم نَضرةُ النعيم والعافية .

والأدب العربى سيقوَى ساعدُه حين تُسنده سواعد أولئك الشبان الأصحاء .

وما رأيت أولئك الشبان إلا تذكرتُ الحديث الشريف « لأن يَهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم » فنقلُ شابٍ واحد من أولئك الأصحاء إلى ميدان الأدب العربى قد يحوِّله إلى رياض وبساتين .

وأقول بصراحة إن الأدب العربى قد شبع منَ أخيلة الضعفاء والمهازيل من الذين يأكلون الفول ويشربون الماء .

والأدب العربى ينتظر طلائع منَ أصحاب الأريستوقراطية الفكرية والمعاشية .

الأدب العربى ينتظر كتّابًا وشعراء ومؤلفين ينهضون به نهضة الأمراء لا نهضة البوساء .

ولستُ بذلك أتجنّى على الفقراء من أصحاب المواهب ، وإنما أقول إن الأغنياء يعانون من المشكلات والمعضلات أضعاف ما يعانى الفقراء ، وهم لذلك أقدر على تصوير المآسى الإنسانية ، وأبصرُ بتقلبات النوازع والأهواء والميول .

وقد عرفتُ حافظ إبراهيم وأحمد شوقى معرفة شخصية وعرفتُ أسرارهما عددًا من السنين ، وصحَّ عندى بعد الدرس أن أحمد شوقى أقلُّ ذكاءً من حافظ إبراهيم ، ولكن اصطدام شوقى بهموم السياسة وهموم المعاش حوَّله إلى عبقرية ترى بالوهم ما لا تراه العيون .

والأديب الفقير تغلَق أمامه أبواب كثيرة من فهم المجتمَع ، لأنه لا يرى غير ألوانٍ قاتمة من العيش ، أما الأديب الغنّى فيحسُّ فرح الحياة وحزن الحياة ، ويصل إلى دقائق لا يصل إليها الأدباء الفقراء .

الشبان الأغنياء سيكون إليهم الأمر فى الأيام المقبلات وإن كثر التهويل بسيطرة الديموقراطية ، فليست الغنيمة فى أن يكسب الأدب العربى شابًّا فقيرًا ضعضعه الجوع ، وإنما الغنيمة فى أن يكسب الأدب العربى شابًّا غنيًّا يدرك قيمة الأناقة فى الفكر كما يدرك قيمة الأناقة فى الثياب .

وأقول مرةً ثانية إنى لا أتجنّى على الفقراء من أصحاب المواهب ، فلله حكمةٌ فى رفع الفقير الموهوب ، وإنما أنتظر أن ينتصر الأدب بالأدباء الأغنياء ، كما انتصر الإسلام بالمؤمنين الأغنياء .

وإنما أُلِحُّ فى شرح هذا المعنى لأنى أرى الأدب العربى يقصِّر تقصيرًا ظاهرًا فى وصف الحياة الاجتماعية ، الحياة الشاملة التى تنتظم ألوان البؤس والنعيم من جميع الصنوف ، فما عندنا اليوم من رسائل وأشعار وأقاصيص يدور فى الأغلب حول جانبٍ واحد من جوانب المجتمع ، وهو مجتمعٌ تعددتْ ألوانه وعُدِّدتْ واشتبكت ، وهو ينتظر أدباءَ يتذوقون طُعومهُ المختلفات ليعرضوه للقارئين فى تهاويلَ مختلفات .

وإن صحّ شيءٌ مما أرجوه فقد نبعث دولة الأدب من جديد ، وهل يرتاب عاقلٌ فى أن الأدب العربى لم يزدهر إلا حين قدر على تصوير ألوان الحضارة فى العصر العباسى ؟

إن المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هى اتصالُهم بالآداب الأجنبية ، وقُدرتهم على التجول فى أقطار المشرق والمغرب . وشباننا الأغنياء سيؤدُّون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية .

وهل كُتِب على لغتنا فى العصر الحاضر أن لا يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة فى الشرق والغرب كما كان ذلك من حظها فى الأعصر الماضية ؟

إن الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس ، ولا يتمُّ له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس .

وأنا أنتظر أن أجد هذا الجوهر النفيس بين أبنائنا بالمدارس الأجنبية ، لأنهم أغنياء ولأنهم يجمعون بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

فهل نصل فى تثقيفهم إلى ما نريد ؟

* * *

العائق الوحيد هو الطريقة التى ندرِّس بها اللغة العربية .

وقد عرفت بالتجربة أن تلاميذ المدارس الأجنبية يرون أساتذتهم فى اللغة العربية من الغرباء فى بيداء الحياة ، وكان الأمر كذلك لأنهم يرون فى الأساتذة الأجانب شمائل لا يرونها فى الأساتذة الوطنيين ، فالأستاذ الأجنبىُّ رجلٌ يتصل مباشرةً بالحياة الاجتماعية ، وهو يحدِّث تلاميذه بما يفهمون ، لأنه يعيش كما يعيشون ، ولذلك شواهد فصلتُها فى كتاب « ذكريات باريس » وكتاب « البدائع » فلا أعود إليها الآن .

واتصال الأساتذة الأجانب بالحياة الاجتماعية يعطيهم فرصة الابتكار فى موضوعات الإنشاء ، وفى المحادثات الشفوية ، ويجعل ظلَّهم خفيفًا حين يحاورون التلاميذ .

والأستاذ الأجنبى يرى من حقه ، بل من واجبه ، أن يشارك التلاميذ فى ميادين النشاط الاجتماعى ، وتدفعه الحماسة إلى دعوتهم لمشاهدة ما فى مصر من متاحف وحُصون .

أما الأستاذ المصرى — ولا سيما أستاذ اللغة العربية — فهو شخصٌ « مَلْخُوم » يرى الحركة تنافى الوقار ، ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء !!

وقد رأيت منهم أستاذًا يفتخر بأنه لم يدخل دور السينما مرةً واحدة ، فهو خليفة الشيخ خليل ، وهو رجلٌ من أئمة المالكية كنتُ سمعت أنه افتخر فى بعض كتبه بأنه لم ير النّيل ، وإنما قضى حياته كلها فوق حصير الأزهر الشريف !!

* * *

ماذا أصنع فى توجيه هؤلاء المدرسين لأحوِّلهم إلى قلوب تفرح بالحياة لتغرس فى نفوس التلاميذ حُبَّ الحياة ؟

ماذا أصنع وأنا أول مفتش من الجامعة المصرية وآرائى قد تجد من يسىء التأويل ؟

رأيت أن أسأل التلاميذ من وقت إلى وقت عما يقرأون من المؤلفات الجديدة وما يشاهدون من الأفلام ، ورأيت أن أعرف الفروق بين صِلاتهم بالحركة الفكرية فى الغرب وصلاتهم بالحركة الفكرية فى الشرق ، فهالنى أن أعرف أنهم يعرفون من الغرب كل شىء ، ويجهلون من الشرق كل شىء .

هم يعرفون الغرب لأن أساتذتهم فى ا للغات الأجنبية أحياء ، ويجهلون الشرق لأن أساتذتهم فى اللغة العربية أموات !

وكيف لا يموت من يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ؟!

لقد حدثت تلاميذ بعض المدارس بأنى سآخذ عناوينهم من إدارة المدرسة لأزورهم فى بيوتهم على حين غفلة عسانى أعرف كيف يكوِّنون مكتباتهم الخصوصية .

مع أنى واثق بأن أكثر أساتذة اللغة العربية ليس فى بيوتهم مكتبات .

أليس منهم فلان الذى يعتقد أن كتاب « النثر الفنى » من تأليف الجاحظ ؟

أليس منهم فلان الذى يظن أن « حديث عيسى بن هشام » من تأليف بديع الزمان ؟

لم يبق بدٌّ من توجيه أساتذة اللغة العربية إلى فهم العصر الحديث ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم بجانب الأساتذة الأوربيين .

ولكن هناك ما هو أوجب من ذلك .

هناك تغيير الطريقة التى تُدرَّس بها اللغة العربية فى المدارس الأجنبية .

ولكن كيف أُغيِّر طريقة نزلتْ من قلوب الأساتذة منزلة التقديس ؟

كيف أغير تلك الطريقة وحولى أرصادٌ وعُيون ؟

إن كلمةً واحدةً من فلان وفلان قد تقصيني عن التفتيش بحجة أني أخاطب المدرسين بما لا يفهمون .

ولكن الله قدَّر ولطف :

فالرجل الذى أقدم إليه التقارير هو الأستاذ محمد رخا بك وهو رجلٌ مُشرِق العقل إلى أبعد الحدود .

وقد حدثته بما تساميتُ إليه فى إصلاح الطرق القديمة لتدريس اللغة العربية .

وأنا أحدِّث هذا الرجل عن كل شيء ، وللتقارير التى أقدمها إليه صِيوانٌ خاص ، والمفهوم بيني وبينه أن مصر لها فى أعناقنا ديون ، وأن الصدق فى تأدية الواجب هو أشرف ما يتحلى به الرجال .

وقد دخلت عليه منذ يومين فدارتْ بيننا المحادثة الآتية وهى نموذج لما نفترع من فنون الأحاديث :

ابتدأ فسألنى عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة ، فقلت إن مديرها هو المسيو دى كومنين ، أعظم أصدقائى فى دنياى ، فاستطرد وقال : وما رأيك فى ذلك المعهد بعد أن زرته مرتين ؟ فقلت : إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب ، لأن هذا الرجل يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية فى وقت واحد ، وهذه الغاية مع صعوبتها ليست من المستحيلات .

ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التى يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية فى المدارس الأجنبية ، فقلت : إن الخطرَ كلَّ الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين : الفصيحة والعامية ، فهذا الفهم الخاطيء يُشعر التلاميذ بأن اللغة الفصيحة لغةٌ ميتة وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية .

وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه فى ذلك الحوار الطريف :

اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب « محطة باب الحديد » فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة « محطة » ويضع مكانها كلمة « مَحَطّ » بحجة أن هذا هو اللفظ المختار فى كتب المطالعة المدرسية .

وإذا كتب التلميذ « بائع متجوِّل » فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة « متجول » ويضع مكانها كلمة « جائل » .

والتلاميذ جميعًا يقولون « قُط » بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس فى أكثر البلاد العربية ، فليس من الحتم أن نصحح هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر : لأن سَيْرورتها مضمومة تشهد بأن الضم لغة من اللغات ، وإن لم تنص المعاجم على ذلك .

وإذا قال التلميذ « فُرشة » فليس من الواجب أن نفرض عليه أن يقول « فِرْجَون » لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون .

وإذا قال التلميذ : أجفف وجهى « بالفوطة » فلا تفرض عليه أن يقول « القَطِيلة » لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة ، ولا كذلك الكلمة الأولى فهى مأنوسة ومألوفة لجميع الناس .

وإذا قال التلميذ جلست على « السُّفرة » فلا تحتم عليه أن يقول « المائدة » لأن السفرة كلمة فصيحة وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع .

وإذا قال التلميذ « الليالى القمراء » فلا تلزمه بأن يقول « الليالى القُمر » لأن الكتّاب فى العصر الحديث تسامحوا فى هذه القضية ، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرةً كلمة « الليالى القمراء » ولأن للشيخ النجار كتابًا اسمه « الأيام الحمراء » ولأننا نستثقل عبارة « الحدائق الغنّ » ونستخفّ عبارة « الحدائق الغنّاء » .

وإذا قال التلميذ « خَطوة » بالفتح فلا توجب عليه أن ينطقها بالضم ، لأن الفتح لُغَيَّةٌ وهو اليوم أسهل وأفصح .

وإذا سكّن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا تفرض عليه أن يراعى التحريك فى كل وقت ، إلا إذا كان يهمك أن تختبره فى الإعراب لأن من المستبعَد أن يكون العرب التزموا الإعراب فى جميع المواطن ، وهم قد نصوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللّبس ، ومعنى ذلك أن الإعراب لا يُطلب إلا لتحديد المعانى .

وأغلبُ الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا فى موطنين اثنين : الشعر والقرآن .

وإنما التزموا الإعراب فى الشعر لمراعاة الوزن ، والتزموه فى القرآن لأن القرآن نُظِم نظمًا غنائيًّا فهو فى أغلب أحواله كلام موزون رُوعِىَ فى وزنه أن يصلح للترنم والترتيل .

واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعًا بين اللغات ، فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطَبين ؛ والمدرس الحق هو الذى يفرق بين ما يعبِّر به وهو يلقى درسًا فى مدرسة أولية ، وما يعبر به وهو يلقى درسًا فى مدرسة ثانوية ؛ والمدرس الغافل هو الذى يتكلم بطريقة واحدة فى جميع الفصول .

واتفقنا على أن أساليب التعليم لا يجب أن تكون واحدة فى جميع المدارس ، وإنما يجب أن نراعى مقتضيات الأحوال فنسلك فى المدارس الأجنبية غير ما نسلك فى المدارس المصرية .

وأصول التربية نفسها توجب ذلك ، إنها توجب أن تُخاطِبَ كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن تدرس نفسه حق الدرس ، لأن الناس يختلفون فى العقول كما يختلفون فى الوجوه . وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامَل بها جميع التلاميذ .

واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب ، لأن عنده فرصًا لا تتاح لسواه ، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد فى دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالاً لمحادثة الطلبة فى معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان .

ومدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع فى صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية فى الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية ، وفى مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعًا إلى رحاب الواجب فى خدمة الوطن الغالى . وهو يستطيع أن يخلق منه رجالاً يفرقون بين المعانى الوطنية والمعانى الإنسانية ، بحيث يصبحون فيما بعدُ من دعائم الحياة القومية .

مدرس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوى فى المدارس لأنه يملك التعبير الجميل ، ولأنه ارتاض على سياسة القول ، ولأن لديه فرصًا كثيرة يستطيع بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعانى .

* * *

ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية .

والظاهر أنى أحب المدارس الأجنبية حبًّا يجعل ذنوبها حسنات ، وقد فصلت رأيى فى حضرة رخا بك وارتضاه ، فما هو ذلك الرأى ؟

من بين أبنائى ثلاثة يتعلمون بمعهد الليسيه فى مصر الجديدة . وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أخيهم الأكبر الذى يتعلم فى مدرسة مصرية : فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رَتيب لا يتغير ولا يتبدل ، أما أولئك الثلاثة فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة فى كل يوم ، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق ، فلما اختبرتُ الأمر بنفسى ضِقْتُ به ذرعًا لأول وهلة ، ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هى شواهد الحيوية فى الحياة المدرسية ، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهدأ ويسكن ، وإنما يشعر بالمسئولية تتجدد أمامه فى كل لحظة : فهو اليوم فى حاجة إلى كتاب ، وكان بالأمس فى حاجة إلى كراس ، وهو غدًا فى حاجة إلى ثوب جديد للحفلات ، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة دينارًا للاشتراك فى رحلة مدرسية ، إلى آخر ما لا آخر له من موجبات اليقظة فى المدارس الأجنبية .

أقول إن هذه المطالب راعتنى لأول وهلة ، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أبيهم ، الأب المسكين الذى يخترق شوارع القاهرة فى كل يوم ولا يراها ، لأنه لا يمتطى ترامًا أو سيارة إلا وهو مشغولٌ بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق .

أترونني على حق فى استحسان هذا المذهب فى التثقيف ؟

إن كنت مخطئًا فاعذرونى لأن اتصالى بالأجانب حبَّب إلىَّ الحركة وزهدنى فى السكون !

هل تصدّقون أننى لا أستريح إلى الدعوة التى تكررها الجرائد فى الصبح والظهر والمساء ، الدعوة إلى الوفاق والاتحاد والائتلاف ؟

هل تصدقون أنى أعتقد أننا نختلف أقلّ مما يجب ، وأنه ينبغى أن لا نعرف غير النضال والصيال ؟

هل تصدقون أن التجارب علمتنى أن الراحة نذير الموت ؟

هل تصدقون أنى نفرت من منزل جميل فى باريس لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير إلى أنه معروف بالهدوء ؟

هل تصدقون أنى لم أسترح فى بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء ؟

الحق أن مزاجى أفسدته المدنية الحديثة فسادًا لا يُرجى له صلاح .

ولكن هذه هى المدنية ، وهذا هو عقل العصر الحديث ، وأنتم تطلبون أن نروضكم على التخلق بأخلاق العصر الحديث .

* * *

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم انتقلنا إلى تعليم البنات فعرفنا بعد الأخذ والردّ أن البنت فى المدرسة المصرية تُقتَل قتلاً بالدروس ، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت فى المساء .

والواقع أننا كنا أخطأنا فى تقدير مناهج التعليم بمدارس البنات : فقد كانت البكالوريا واحدة للبنات والبنين ، مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف .

وقد لوحظ أن البنات فى المدارس الأجنبية يعامَلن معاملةً تقوم على أساس العطف والرفق ، والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلُح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت .

ولوحظ أيضًا أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التى تجيء منها التلميذات ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات .

وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية: لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت.

والظاهر أنى لا أزال أستجيد الوصف الذى أطلقتُه على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين حين سميتها « مجازر بشرية » فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعمق ، وإنما يُلهى الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون .

وسيجيء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية ، لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علومًا قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق .

ولو شئت لقلت إن المدارس الفرنسية تُريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين ، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا فى الميادين العلمية .

ولو شئت لقلت إن الامتحانات عندنا لا تزال جائرة الميزان ، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب أن لا ينجح من كل مئة غير عشرين أو ثلاثين .

وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين ، وهى مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية ، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال ، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة المسطورة فى تلك المجموعة ، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون ؟

ولو شئت لقلت إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين ، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعًا أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق .

أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح ، أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية فى الاستعداد للامتحان .

ولكن هذه آمال لا تتحقق إلا إذا غير الممتحنون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرةَ بالشدة والعنف مطلبٌ سخيف .

ثم ماذا ؟

ثم تحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت ، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل .

وأين المدرس الذى يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ ؟

وأين الناظر الذى يجد فى جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلاميذ وآبائهم حفلة أو حفلتين ؟

لقد حاولت ذلك بنفسى ثم عجزت ، لأنى كنت أخرج من المدرسة مكدودًا لا أصلح لشىء .

ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسى ، لأن المناهج لا تقيم له أىَّ ميزان ، وهو سُخْرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء .

أما بعد فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رخا بك ، فإن أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه ، وإن رآنى أذعت ما لا ينبغى أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبى ، وعليه أن يعقل لسانه حين يرانى .

يا مصر .

إنك تستعدِّين لأخطار عظيمة فى بناء الجيل الجديد ، فاعرفى ما تأخذين وما تدَعين ، واحذرى أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء .

وأنتم أيها المدرسون .

ثقوا بأن واجبكم الأول هو التغلب على المصاعب ، المصاعب التى تواجهكم فى الحياة المعاشية والحياة المدرسية ، واعرفوا أن الاخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلكم أثقال العيش وأعباء التعليم .

إن التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يُتعب نفسه فى تأدية الواجب ، ولا يشقى فى هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاونٍ واستخفاف .

إن العناية التى تبذلونها فى إلقاء الدروس تُعدى تلاميذكم بالجد والنشاط ، وتروضهم على النظام ، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرأون .

وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ ، فاحذروا أن تُعدُوهم بالضجر واليأس ، وتذكّروا دائمًا أن المدرس المنشرح الصدر ، المبتهج النفس ، هو وحده الذى يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان .

إن فى الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة فى الأيام المقبلات . والله بالتوفيق كفيل .

وقع حادث لم يخطر فى البال ، وستكون له عقابيل .
لقينى الأستاذ عبد الحليم الغمراوى بشارع الفلكى مصادفةً فقال :
ـــ كيف نسيت جريدة المصرى ، يا دكتور ؟
ـــ ما نسيتُها ، وقد كانت أول جريدة زرتُها بعد الرجوع من بغداد .
ـــ هل تستطيع أن تتفضل بمقالة عن حديث الصيام ؟ أمْ تخاف غضب الحكومة ؟
ـــ أنا لا أخافُ الحكومةَ يا جبان ، وهل تظنُّ أن الحكومة تحرِّم على رجلٍ مثلى أن ينشر ما يشاء ، حيث يشاء ؟

* * *

ولكن ما الذى أكتب فى حديث الصيام بجريدة المصرىّ ؟

لقد كنتُ صاحب الفضل فى هَدْم التقليد السخيف الذى يوجب أن يَكْتُبَ حديث الصيام رجلٌ واحد ، وفى موضوعات متصلة بالدِّين .

أنا الذى أرحتُ الجمهور من استبداد أغبياء الفقهاء بالصحف اليومية ورغْبتِهم المبتذَلة فى أن يشغلوا الصائمين كل يوم بأحاديث الفضائل والرذائل والمباحات والمحظورات .

وقد مات الشيخ التفتازانى وهو يحقد علىّ أبشع الحقد لأنى أزحت كابوس قلمه عن صدر جريدة الأهرام فى شهر رمضان .

* * *

ماذا أكتب ؟ ماذا أكتب ؟

تمثَّلتْ لى العزلة التى أعانيها بضياع حظى من ليلى المريضة فى الزمالك وليلى المريضة فى العراق ، فكتبت أقول :

إلى متى الصوم يا قلبى ؟

قلبى !

كيف أصبحتَ ؟ وكيف أمسيتَ ؟ فما عدتُ أسمع خفوقك فى صباح ولا مساء !

صام الناس منذ أيام فتذكرتُ صيامك .

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون ، وأنت يا قلبى تصوم ليلك ونهارك ؛ وأخشى أن تصوم دهرك .

وسينقضى صيام الناس بعد أسابيع حين يجىء العيد ، وتبقى وحدك بلا عيد .

أتسمع يا قلبى ؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعوَّدوا فى مثل هذا الموسم أن يقيموا مناحةً على الآداب ، وملطمةً على الأخلاق .

وصومك يا قلبى هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات المدامع .

ولو كان لصومك نهاية لتعزيتُ وتأسيت ، ولكنى أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول ، ويؤذينى أن أعترف بأنى لا أملك رجعك إلى ملاعب هواك .

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك فى صيامك ؟

أما رأيت يا قلبى كيف تمضى الليالى والأيام وأنا مبلبَل الخواطر لا أعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد ؟

قلبى !

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون فى السر ، ويصومون فى العلانية ، وقد استوى سرك وجهرك فألفتَ الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال .

كنت أنتظر أن أصير شاعرًا على حسابك ، فأين أنت يا قلبى ؟

كنت أطير إلى دنيا المجد والحب بجناحيك ، فماذا صنع الدهر بجناحيك ؟

كانت القاهرة لا تسعنى فى ليالى رمضان ، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل والضجيج ، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار فى بيتى لأداوى جراحك يا أشرف جريح ، فمتى يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس ؟

يعز علىَّ يا قلبى أن أصبح بالرغم منى حكيمًا من الحكماء .

اعترفْ ، أيها القلب الصائم ، بأنك تخذل نصيرك وأخاك .

اعترفْ ، أيها القلب الصائم ، بديونى عليك .

ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك ؟

ألم أضيع ألوف المنافع فى سبيلك ؟

فما الذى يضيرك يا قلبى لو تركت صومك يومًا أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين ؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذى يعيش فى مصر الجديدة ولا يرى مصر الجديدة ، ويخترق شوارع القاهرة ولا يحسّ جمال القاهرة ، ويدخل عليه رمضان فلا يهتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب .

كنت أرى الدنيا بك يا قلبى ، فأين أنت يا قلبى ؟

أين أنت ؟ حدثنى أين أنت ؟ فقد ذهب صيامك بهيامى ، وقضى على عنفوانى .

قلبى !

لقد تحطمتْ معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنيانى ، فكيف تهدمنى أنت ؟

أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدىْ من أحب ؟

لقد بدأتُ أبغضك يا قلبى ، ولكن يعز علىّ أن تعيش بلا صديق ، فإن بقيتُ بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقيةٌ من كرم الوفاء .

قلبى !

إلى متى الصوم يا قلبى ؟

إن الناس يصومون ليلقَوْا من الله حسن الجزاء ، وصيامك يا قلبى من أشنع الذنوب ، فاعترف بذنبك يا غافل واجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا يُنصَب لخفوقك ميزان .

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف .. هل فهمت ؟

أما أنا فسأسوقك إلى حيث أريد ، وإن أبيتَ وتمردت . وإلى اللقاء فى مساء الخميس .

* * *

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررتُ على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف فنبهنى الأستاذ محمد بيلى الفار إلى أن سعادة العشماوى بك سأل عنى ، فطربتُ وظننت أنه سيبشرنى بأن حالتى قد سُوِّيتْ بوزارة المعارف وأن مرتبى ارتفع بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاى من الملاح !

وما كدت أدخل على سعادة العشماوى بك حتى نهض واقفًا ، فكيف خرج هذا الرجل

على « التباله » الذى عُرِف به حين يستقبل الزائرين ؟.

كيف يقف هذا الرجل لاستقبالى وبينى وبين مكتبه خطوات طوال ؟.

ـــ دكتور !.

ـــ مولاى !.

ـــ لقد أزعجتنى مقالتك فى جريدة المصرى .

ـــ أوَ قرأتها ؟.

ـــ أنا أقرأ كلَّ ما تكتب : لأنك من ذخائرنا الأدبية..

ـــ ومن أجل هذه المقالة تسأل عنى ؟.

ـــ أنا أسأل عن صحتك الغالية .

ـــ أجزل الله ثوابك ، يا سعادة الوكيل !.

ـــ اسمع ، يا دكتور ، نحن فى السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرًا طبيًّا عربيًّا لمداواة ليلى المريضة فى العراق ، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبى العربى فى هذه السنة بالقاهرة لمداواة طبيب ليلى .

ـــ دوائى عند ليلاى ، يا سعادة الوكيل ، لا عند الأطباء .

ـــ إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك .

ـــ أنا رفضتُ السفر إلى العراق لأنى :

أخافُ العيونَ السودَ فليرحم الهوى   فجيعةَ أهلى يـومَ أقضى وأبنـائى

ـــ نعدِّل الغرض بعض التعديل .

ـــ وكيف ؟.

ـــ ندعو المؤتمر الطبى للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى .

ـــ لا بأس .

وما هى إلا لحظة حتى كان السيد على مراد ينسخ بالمِكتاب خطاب العشماوى بك إلى الدكتور على باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبى الحادى عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى ، هداه الله وشفى ليلاه !.

* * *

أمن أجل مواساتى ينعقد المؤتمر الطبى فى القاهرة ؟

هو ذلك ، أو هذا هو ، كما يعبر أهل بغداد .

* * *

بفضلك يا ليلى صرتُ شخصيةً عالمية .

بفضلك يا ليلى رفعنى الحبُّ درجات .
بفضلك يا ليلى صرتُ فى وطنى من الأطفال المدلَّلين .
أحبك يا ليلى ، فاذكرينى بالشعر والدمع يومَ أموت .

* * *

سينعقد المؤتمر الطبى فى القاهرة لمواساتى .
الله أكبر ، ولله الحمد !.
وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء ؟.
أنا أعرف العواقب ، ستُغَلَّف مؤلفاتى من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين ، وسوف يعلمون .
الفناء لأعداء الآداب والفنون .
أما طبيب ليلى فله الخلود .

أرباه أنقذنى فأنت رميتنى ... بقلبٍ على عهد الأحبّاء بكّاءِ
أرباه لا تفعل فإنى أرى الهوى ... على وَقْدِه بالقلب أنفاسَ رَوحاءِ
تباركتَ ما الجناتُ من دونِ لوعةٍ ... سِوَى بقعةٍ فى غابة الموت جرداءِ

أقبلتُ بكل نشاطي على الكفاح في خدمة اللغة العربية بالمدارس الأجنبية ، و لم يفتني أن أشاغب الأساتذة الأفاضل على الجارم وأحمد أمين وطه حسين في مقالات نشرتها بمجلة الرسالة ومجلة الرابطة العربية ، ثم وثبت فنشرت مقالاً في جريدة الإهرام أشاغب به من يستكبرون على تعليم اللغة العربية من أعضاء البعثات .

وكنت أريد بهذا الكفاح المختلف الألوان أن أصرف قلبي عن هوى الليليات ، ولا سيما بعد ظهور « كتاب التصوف الإسلامي » وهو كتاب يرشحني لمشيخة الأزهر الشريف ، إن احتاج الأزهر إلى شيخ يفهم أسرار الفلسفة الإسلامية .

ولكن هذا التعقل لم يَدُم طويلاً ، فقد نشرتُ فصلين بمجلة الرسالة عن بعض غرامياتي في باريس ، وبهذين الفصلين ساءتْ سمعتي من جديد في بيئات المنافقين من عباد الله الصالحين !.

اشتركتُ في المؤتمر الطبي العربي الذي سيعقد في القاهرة لمواساة طبيب ليلى .

وأنا أنتظر اليوم الذي آنس فيه بالوجوه الصِّباح ، والعقول الصِّحاح .

* * *

سيتغير كل شيء يوم ينعقد المؤتمر الطبي بالقاهرة .

وسيكون لهذا المؤتمر تأثيرٌ في القاهرة كما أثر أشدَّ التأثير في بغداد .

ستظفر القاهرة بحيوية جديدة تزيدها فتونًا إلى فُتون .

ستعوّد القاهرة إلى الأفراح ، والليالي الملاح .

فمتى يجيء شهر ذي الحجة لتلبس القاهرة من الحلل بعض ما لبستْ بغداد ؟.

متى ؟ متى ؟ متى ؟ فقد اشترك في المؤتمر نحو ستمائة طبيب ، وهذا الجمهور خليق بأن ينقل القاهرة من حال إلى أحوال .

٤٩

لم يكن يهمني من أعضاء المؤتمر غير أطباء العراق ، وإن كنت شديد الحرص على التشرف برؤية من يَفِدون من سُوريَّة وفِلسطين ولُبنان واليمن والحجاز وتونس ومراكش والجزائر ومن إليهم من أطباء العرب والمسلمين .

ورأيت فى الجرائد العراقية أن العراق سيوفِد أربعين طبيبًا للاشتراك فى مواساة طبيب ليلى، شفاه الله وهداه !

ورأيت فى تلك الجرائد أن العراق سيوفد مع الأطباء عددًا من رجال وزارة المعارف العراقية أُسوةً بما صنعتْ مصر فى المؤتمر الذى عُقِد فى بغداد : فقد حضره عددٌ من رجال وزارة المعارف المصرية .

فقلت فى نفسى : هذه فرصة أرى فيها الراوى والجمالى والألوسى .

* * *

ـــ ألّو .

ـــ ألو .

ـــ مين يتكلم ؟

ـــ طبيب ليلى .

ـــ وأنا مين ؟

ـــ ما أنت « مين » وإنما أنت « مِنُو » !

ـــ عرفتَنى ؟

ـــ نعم ، عرفتك .

ـــ وأنا مِين ؟

ـــ أنت مِنُو ؟

ـــ ومن منُو ؟

ـــ أحد أقارب ليلى .

ـــ أنا شلاش .

ـــ أهلاً وسهلاً ومرحبًا بأشبال الفرات .

وبعد لحظة عرفت أن أطباء العراق حضر منهم وفدٌ

برياسة الدكتور سامى شوكت .

لم يبق شكٌّ فى أن القاهرة تموج بالوافدين من أطباء العروبة .

لم يبق شكٌّ فى أن القاهرة لم يبق فيها موضع قدم أو عربة للراجلين والراكبين .

لم يبق شكٌّ فى أن القاهرة لم يبق فى فنادقها أو ملاهيها مكان .

لم يبق شكٌّ فى أن القاهرة أمستْ فى ازدحام واشتباك .

لم يبق شكٌّ فى أنى سأرى وجوه الضيوف حيثما توجهتُ .

وكيف تخفى وجوه المئات من الرجال والنساء وهم من أقطار مختلفات ؟

* * *

استعددتُ لزيارة القاهرة عسانى أؤدى بعض الواجب فى تحية أعضاء المؤتمر الطبى .

ثم فكرت فى التحرز من فتنة النساء ، فقد كان لى معهن تواريخ سجلتها فى صدر هذه المذكرات .

وخطر بالبال أنى كنتُ ألقيتُ محاضرة بالجامعة المصرية عن قصة آدم وحواء ، وقد قلتُ فى تلك المحاضرة : إن قصة آدم وحوّاء رمزية ، والغرض منها تحذير الرجال من فتنة النساء .

وكانت حجتى أن الجنة لم تُخْلَق بعدُ ، ولو أنها كانت خُلقتْ لاهتدى إليها العلماء الذين عرفوا أسرار ما فى الكون من جواذب الكهرباء .

لو أن الجنةَ كانت خُلِقتْ وعرفها آدم لدخل عليه من نورها ما يُنْجيه من طُغيان المرأة وهى مخلوقٌ منَسَّبٌ فى الرَّقاعة والسُّخف والهَذَيان .

وقد قال الدكتور طه حسين يومئذٍ إنى لم أبتكر هذا المعنى ، وإن له أصولاً فى كلام الفلاسفة من القدماء .

وما أعرف من هم الفلاسفة الذين قالوا بذلك ، فعددُ الفلاسفة يزيد على عدد الهموم والأحزان ، ولكنى أعرف أن قصة آدم وحوّاء عِبرةٌ على أىّ حال ، فإن كانت حقيقية وذلك رأى القرآن المجيد فهى درس يُلقيه رب العزة والجبروت ، وإن كانت خيالية كما أفترض فهى كذلك درسٌ مُفيد .

والمفهوم من قصة آدم أنه عصى ربه لأنه أطاع زوجته ، كما يعصى المتفرنجون ربهم لأنهم يطيعون زوجاتهم ، وهل يقلّ جمال الجنة عن جمال باريس ؟

كان آدم نبيًّا ، ثم أضلته امرأة ، بشهادة القرآن .

فكيف أنجو من ضلال المرأة ، ولستُ من الأنبياء ؟

لى مع النساء تواريخ وتواريخ .

وقد انتهيت من تلك التجاريب إلى أن المرأة للرجل عدوٌّ مُبين .

* * *

المرأة مخلوقٌ جميل ولكنه سخيف ، لأنها تجهل ما فُطِرَتْ عليه من الضعف ، وهى لا تسيطر ولا تستطيل إلا على كرام الرجال .

والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة بفضل ما فُطر عليه من الهُيام بالجمال والرفق بالضعفاء ، ولكنها تجهل ذلك ، وتظن أنه لا يراعيها إلا بفضل ما تملك من السِّحر والجاذبية ، وفى المرأة سِحرٌ وجاذبية وإن كانت شوهاء ، لأنها بابٌ إلى الضلال .

المرأة !

المرأة !

غضبةُ الله على جميع بنات حوّاء !

لن ينقضى عَتْبى على ربى حين ابتلانا بهذا المخلوق الذى يجمع بين الرفق والعُنف .

المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيب .

والمرأة الدميمة قد تستعبد زوجها بلا ترفق .

فلأية حِكمةٍ خُلق هذا الجنس « اللطيف » ؟

* * *

آمنت بالله والحب !

خُلِق هذا الجنس ليستطيع رجلٌ مثلى أن يحاور ليلى وظمياء .

وما قيمة ذلك فى حُكم العقل الصحيح ؟

أحب أن أعرف كيف صِيغَ نظام الوجود على هذا الأسلوب ؟

ومتى نخلُص من بلاء هذا الوجود ؟

إن لله حكمةً عالية حين وعدنا بالجنة ، فسنسلم فى الجنة من طغيان النساء ، إن كان لنا إلى الجنةِ سبيل !

المرأة تملك أصول الشهوات وهى باب الدمار والخذلان ، وما أُطاع رجلٌ امرأته إلا ذَلَّ وهان .

وأعظم مزية لنَبِىّ الإسلام هى دعوته إلى الحذر من النساء .

لا ، بل أعظم مزية لنبى الإسلام هى أن يقترن بتسع نساء ثم يسلم مما فُطِرتْ عليه المرأة من احتراف الزُّور والبهتان .

إن المزية الصحيحة لنبى الإسلام هى أن يقترن بتسع نساء ثم لا يضلّ ، مع أن آدم اقترن

بامرأة واحدة فأنزلَتْه من السماء إلى الأرض ، وقهرته على أكل الفول بعد أكل التفاح !

أعاذنا الله من كيد النساء ، فإن كيدهن أعظم من كيد الشياطين !

* * *

ولكن ما الذى أشكوه من المرأة حتى أصبَّ على رأسها هذا السَّوط ؟

ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غُلُوِّها فى الغيرة ، فهى تخاف من جميع الهواجس وجميع الظنون ، ولا تترك للرجل منفذًا واحدًا من منافذ الحرية ، وهى تودُّ لو استطاعت أن تسجنه فى البيت حتى لا تقع عليه العيون .

والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض على الرجل أن يتحول من شأن إلى شؤون ليصل إلى فهم المجتمع الذى يُراوِحه ويغاديه فى سبيل الرزق أو فى سبيل المجد .

المرأة لا تطمئن ولا تستريح إلا إذا وثِقتْ بأن زوجها قِطعةٌ من الثلج لا تطلُع عليها الشمس ، المرأة لا يُرضيها إلا أن يكون زوجها أُلعوبةً تلهو بها كيف تريد ، وهى مع ذلك تتمنى أن يكون أقوى الرجال وأعظم الرجال ، وكيف يقوَى ويعظم وهو فى سِجن حوّاء ؟

المرأة هى الجحيم الذى نتمرن به على الإقامة فى سَقَرَ . هى البلاء الذى يصبه الله على رءوس العباد ، هى الشقاء المعجَّل والكربُ الذى يسبق الموت .

والمرأة فى جميع أحوالها مصدر فساد ، هى التى تفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، ولها مَداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس .

ولا يُطيع زوجته إلا الضعفاء من أشباه الرجال .

ومع أن الرجل يُعزُّ المرأة بغناه وعافيته فهى تستريب من ظَفَره بالغنَى والعافية ، لأنها ترى فى ذلك بابًا لتطلُّعه إلى سواها من النساء .

المرأة تحبُّ للرجل كل شىء ، على شرط أن تكون هى التى تُعطى وتمنع .

لقد كنتُ صالحًا للكفر بالله والرسول ، ثم صدَّتنى الآية الكريمة :

« إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم » .

فهذه الآية تشهد بأن القرآن نفحة سماوية .

الرجل يتقلَّب ليلَه ونهاره فى مجاهدة الخصوم والأعداء لينتزع من أيديهم لُقمةً يسدُّ بها رَمَق من فى البيت ، وهو يرجو أن يجد الراحة حين يدخل البيت ، ثم تقهره المرأة حين تَلوُم على أن يعترف بصدق من يقول :

أُطـوِّف مـا أُطـوِّف ثم آوى   إلى بـيـتٍ قَعِيدَتـه لَكَـاعِ

وما فى الأرض عدوٌّ إلا وهو خليقٌ بأن يتعامَى عن بعض عيوبك ، إلا المرأة فهى وحدها العدوُّ الذى لا يغفر ولا يصفح .

زادها الله ذِلّةً إلى ذلة ، وضعفًا إلى ضعف !

ولم يكتف النساء بالسيطرة على الرجال فى البيوت ، وإنما يُردن السيطرة على الحياة الاجتماعية والسياسية ، ويطالبن بحرية الانتخاب والمساواة فى الميراث .

وما وقع ذلك إلا لأن الرجال حُرِموا فضائلهم الأساسية فهم اليوم يتظرفون ليقال إنهم متمدِّنون !

غَضبةُ الله والملائكة على رجال هذا الزمان !

***

ولكن هل يمكن نسيانُ فضل المرأة فى حياة العظماء ؟

المرأة تؤثر فى حياة العظماء بلا جدال ، لأنها توقِظ فيهم غريزة المخاتلة والنفاق والرياء ، وهى فضائل يعدُّها الغافلون من العيوب .

بفضل المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونُراوِغ .

بفضل المرأة عرفنا أن صفْو الحياة تحيط به شوائب .

بفضل المرأة راضتْنا المقادير على الصبر الجميل .

وهل هناك أصبر من الذى يحمل الحية فى كُمِّـه طـول الحيـاة ؟

***

وبلائى فى دنياى أعظم بلاء : لأنى متزوج وعاشق .

أنا أرى المرأة فى البيت وفى خارج البيت ، أراها حيثما توجهتُ : لأن الله كتب أن أكون من الأشقياء .

إذا دق التليفون فى المنزل سمعته زوجتى ، لأن له وَصْلةً تُسمع من فى الطبقة الأولى ومَن فى الطبقة الثانية ، وزوجتى تظن أن جميع المحادثات التليفونية آتيةٌ من سعير الوجد فى الزمالك وحُلوان ، وقد افتضحتُ بهواى فى الزمالك وهواى فى حُلوان .

وإذا ذهبتُ إلى باريس فهى تظن أنى ماضٍ إلى مخادنة مرجريت .

وإذا مضيتُ إلى بغداد فهى تظن أنى ماض إلى مغازلة ظمياء .

وإذا تقلّبت من مدينة إلى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على ميعاد مع حِسان الإسكندرية أو ملاح أسيوط . فمن يُفهم هذه المرأة أنى لا أريد غير فهم سرائر النساء : لأقدِّم إلى الأدب ألوانًا من الدراسات النفسية ؟

وللمفتونات بأدبى أوهامٌ أبشع وأقبح ، فهنّ يَحْسَبْن أنى من كبار المخادعين ، ويَنْسَيْن أنى رجلٌ له أهلٌ وأبناء .

وصاحبة الضحكة الرنّانة لا ترحمنى : فهى تضحك فى التليفون ضحكات أثيمة توقظ

الأموات ، وقد نبهتها إلى خطر هذا الصنيع فلم تعقل و لم تنزجر ، مع أنها من أزهار الدقهلية وطن أمّ كُلثوم .

كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول :

« من لم يتزوجْ مِصْرية فليس بمُحْصَن » .

وأنا تزوجتُ سِنتريسية ، وعشقتُ منصورية ، وهَوِيتُ أسيوطية ، وابتُليت بدمياطية ، وتُيِّمتُ بُحلوانية ، وشقيتُ بإسكندرانية ، وأُوذيتُ بجيزاوية ، وافتضحتُ بطنطاوية ، أفَلا أكونُ مُحْصَنًا بعد الغرام بكل هاته الجِنِّيات ؟

ماذا تريد منى مصر وقد أذعتُ جمالها الفتَّان فى المشرِقَين والمغرِبَين ؟

وماذا يريد منى العراق ، وقد صيَّرتُ ليلى عراقية بعد أن كانت نَجدية ؟

وماذا تريد منى زوجتى وقد حفظتُ عهدها فزهدت فى « الراء الملثوغة » بين الموصل وباريس ؟

* * *

المرأة !

لعنة الله على جميع بنات حوَّاء ، وإن كنَّ فى صَبَاحة ليلى وحَلاَوة ظمياء وملاحة سُعاد .

ومع ذلك سأنتقل من مصر الجديدة إلى القاهرة لأحيى الأطباء الذين تجشموا ما تجشموا لمواساة طبيب ليلى ، شفاه الله وهداه !

ولكن لا بدَّ من الاحتراس من فِتن النساء ، فما أريد أن أصنع فى مؤتمر القاهرة ما صنعت فى مؤتمر بغداد .

أين أعضاء المؤتمر الطبى ؟

أين ؟

٥٠

طوفتُ بجميع أرجاء القاهرة فلم أر أثرًا للضيوف القادمين من الحجاز واليمن وسورية وفلسطين ولبنان وتونس ومراكش والجزائر والعراق .

فأين ذهب أولئك الضيوف ؟

أين ذهبوا ؟ أين ذهبوا ؟

ابتلعتْهم القاهرة فلم يُحسَّ لهم أحدٌ بوجود .

فما هذه القاهرة ؟ ما هذه المدينة التى استفحلتْ واستطالتْ على جميع مدائن الشرق ؟

إن القاهرة أصبحت تضارع أكبر الحواضر الأوربية والأمريكية ، وفيها خصائص تفردت بها بين حواضر الشرق وحواضر الغرب ، وهى الشاهد على أن اللغة العربية صالحةٌ للسيطرة والاستعلاء .

أليس من مفاخر العروبة أن يكون لها حاضرة مثل القاهرة ؟

إن من حق جميع العرب والمسلمين أن تنشرح صدورهم حين يتذكرون أن لهم عاصمةً تجمع بين الملائكة والشياطين ، وتؤلِّف بين الهدى والضلال .

وما الذى تطلبه القلوب والعقول والعيون ثم لا تجده فى القاهرة ؟

لقد سمعنا أن الدنيا ستصلُح يومًا فيعيش فيها الحَمل بجانب الذئب ، والظبى بجانب الغَضَنْفَر ، والحمامة بجانب الثعبان .

وقد تمَّ ذلك أو كاد فى القاهرة : فهى اليوم ملتقَى الناس من جميع الأجناس .

إن كنت عربيًّا فلك فى القاهرة إخوان ، وإن كنت عجميًّا فلك فى القاهرة أمثال ، وإن كنت أوربيًّا أو أمريكيًّا فلك عِصاباتٌ ترعاك من سكان العالم القديم والعالم الجديد .

فى القاهرة جرائد ومجلات بأشهر اللغات ، فتقرأ فيها مطبوعات بالفارسية والتركية والأردية والصينية واليابانية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية واليونانية .

أما اللغة العربية فلها فى القاهرة سلطانٌ لم تظفر بمثله يوم استظلتْ بأفياء قُرطبة وبغداد .

والشابُّ العربىُّ لا يستطيع أن يقرأ ما تُصْدِره مطابع القاهرة فى كل يوم من كُتب وجرائد ومجلات ، ومن هنا كان العرب فى القاهرة ينقسمون إلى جماهير مختلفات الأذواق : فلحىّ الأزهر قرّاء ، ولحىّ الحلمية قرّاء ، ولقهوات شارع عماد الدين وشارع فؤاد قرّاء ، ولسكان

الجيزة قراء ، ولمصر الجديدة قراء ، وللزيتون وحدائق القبة قراء ، وللمعادى وحلوان قراء ، ولكل حزب من الأحزاب السياسية والدينية جرائد ومجلات ، ولكل جماعة ألوانٌ من الأذواق والآراء .

القاهرة تحتاج اليوم إلى رجلين لتأريخ ما فيها من جِدّ ومُجون .

تحتاج القاهرة إلى رجل مثل الجاحظ ليدوِّن ما فيها من المذاهب الأدبية والفلسفية والدينية والاجتماعية .

وتحتاج إلى رجل مثل بديع الزمان يدوِّن ما فيها من أخبار الهزل والمجون وحِيل اللصوص .

القاهرة اليوم مدينةٌ خطرةٌ جدًّا : ففيها يشتبك الجد والهزل ويصطرع الهدى والضلال .

فى القاهرة طوائف من المغفَّلين ، وطوائف من المحنكين ، ويكفى أن يكون فيها الأزهر والجامعة المصرية .

فى القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين .

فى القاهرة خُلفاء الحسن البصرى وخُلفاء إبليس .

فى القاهرة أتباع القرآن والتوراة والإنجيل .

فى القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ، والموعودون بالنعيم والجحيم .

فى القاهرة أحياء باريسية ، وأحياء بغدادية ، وأحياء دمشقية ، فيها مَشابه من جميع البقاع وجميع البلاد .

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة ، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع .

فى القاهرة ناسٌ يموتون من الظمأ ، وناس يموتون من الشراب .

فى القاهرة خدودٌ تجرحها خطرات النسيم ، وفيها وجوه تعجزُ عن لَفْحِها النِّيران .

ومن الذى يصدِّق أن فى أدباء القاهرة رجالاً لهم مطابع لنشر مؤلفاتهم الخصوصية ؟

من الذى يصدِّق أن فى القاهرة مئات من الأدباء لهم فى منازلهم مكتبات تشتمل على الألوف من نوادر المخطوطات ؟

من الذى يصدِّق أن إبليس يقف مبهوتًا أمام حِيل الفجور فى القاهرة ؟

من الذى يصدِّق أن رِضوانَ ينتظر أن لا يجد مكانًا فى الجنة بعد أن يحتلها القاهريون ؟

من الذى يصدِّق أن أهل القاهرة يملكون من الحرية الصحفية ما لا يملك أهل باريس ؟

من الذى يصدِّق أن القاهرة تملك أكبر مجموعة من الوجوه القِباح والوجوه الصِّباح ؟

القاهرة !

القاهرة !

رحم الله القلب الذى يتفطر لحرمانه من نعيم القاهرة !

أليس فى القاهرة محطة باب الحديد ، ومحطة الليمون ، ومحطة حُلوان ؟
أليس فى القاهرة شارع عماد الدين وشارع المدابغ وشارع فؤاد ؟
ليس فى القاهرة مكانٌ يُحرَم أديمه من أقدام الأسواد وأقدام الظباء .

* * *

تنظر فى شوارع القاهرة فترى شيخًا يُهطع لإلقاء عظـــة فى مسجد ، وترى فتًى متأنقًا يمضى إلى موعد غرام فى مصر الجديدة أو حُلوان ، وترى رجلاً يحمل أوراقه ليناقش الميزانية فى مجلس النواب ، وترى فتاةً تصاولك بعينينِ مصوغتين من السحر الحرام أو الحلال ، وترى فقيرًا مسكينًا يستجدى لقمةً يتبلَّغ بها فى الصباح أو فى المساء .

القاهرة !

لَطَف الله بأهل القاهرة !

فى القاهرة مئات من الأندية الخصوصية والعمومية ، وفيها ألوف من الزوايا والمساجد والحانات .

ألم تسمعوا أن الحكومة المصرية غضبتْ مرة فأغلقت مئة جريدة فى يوم واحد ؟

مئة جريدة ؟

إى ، والله ، مئة جريدة ، كان لها محررون وقراء ومشتركون ، وإن ضعف بعضها وهان .

فى القاهرة جرائد لا يقرأها غير الرجال ، وجرائد لا يقرأها غير النساء .

ولكل حّي من أحياء القاهرة ضروبٌ من الرموز والإشارات .

ولكل فئة من الصالحين والماجنين أساليب فى الرمز والإيماء .

فى القاهرة قهوات سيدنا الحسين وسيدنا عماد الدين !

فى القاهرة مئة زاوية للصوفية ، وفيها مئة غُرْزَة لتدخين الحشيش !

القاهرة !

القاهرة !

ومن الذى يستطيع أن يتعقَّب حركات العقول والأهواء فى القاهرة ؟

من الذى يستطيع أن يحاور فى الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية ؟

من الذى يتسع وقته لمسامرة الصحفيين القاهريين بعد نصف الليل ؟

من الذى يستطيع أن يسجِّل حركات القاهريين قبل الشروق ؟

من الذى يفهم أن أهل القاهرة يموتون قبل الأوان بسبب الافراط فى الكدح والكفاح ؟

من الذى يصدق أن من أهل القاهرة من يملأ الدنيا بالنشاط والحركة وفى جوفه خمسون علة ؟

من الذى يصدِّق أن فى القاهرة ألف خطيب فى فصاحة سحبان ؟
من الذى يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط فى المنافسة والنضال ؟
من الذى يصدق أن زكى مبارك سيؤلف كتابًا فى مثالب زكى مبارك ؟
آه ، ثم آه !!

هذه القاهرة صارت موئل الخائفين ، وهى لأهلها مصدَر خَوف .

يستطيع أصغر متعلم فى أى بلد عربى أن يحتل أكبر المناصب ، ولا يستطيع أكبر متعلم فى القاهرة أن يصل إلى القوت إلا بشقِّ النفس .

ومن الذى يصدّق أننا نضيق عن ملاقاة الأهل والمعارف والأصدقاء فى الأعياد ؟
من الذى يصدِّق أننا لا نرى شوارع القاهرة إلا كما يراها المُعْجَلون من عابرى السبيل ؟
فى القاهرة موسم الشتاء حيثُ تُحشَر فيها غرائب الجمال من جميع الصُّنوف .
وفى القاهرة موسم الصيف حيثُ تصل لياليها إلى أبعد حدود الحسن والطيِّب .
وفى القاهرة تُعرَض جميع الفنون من الشعر والتمثيل والرقص والغناء .

وفى القاهرة تُسمَع أصوات محمد رفعت وفتحية أحمد وحياة محمد وأم كلثوم وعبد الوهاب .

ولكن أين الوقت الذى نتُابع به ما فى القاهرة من غرائب وأعاجيب .

فى القاهرة كل شيء ، وليس لنا منها شيء ، نحن المجاهدين المكدودين الذين كتب الله عليهم الفناء فى سبيل المجد أو فى سبيل المعاش .

هنيئًا لمن يزور القاهرة وعنده ذخيرة من الوقت والمال والعافية .
وبُؤْسًا لمن يعيش فى القاهرة بالسَّماع لا بالعِيان .
ما أنت يا قاهرة ؟
وصدق من سمّاك « قاهرة » فالقاهرة فى عُرف أهل مصر هى المرأة اللَّعُوب !

* * *

كيف أعيش فى القاهرة وأنا أشتغل سَبْعَ عشرةَ ساعةً فى كل يوم ؟
كيف أعيش فى القاهرة ولى فى البيت شاغل ، وفى عملى شواغل ؟
كيف أعيش فى القاهرة ولى فيها ألوفٌ من الأعداء والمنافسين ؟
كيف أعيش فى القاهرة وأنا معرَّضٌ فى كل يوم لفتنة المباسم والعيون ؟
كيف أعيش فى القاهرة وهى قاهرة ؟

قال اللائمون : كيف تؤلف كتابًا عن « ذكريات باريس » وكتابًا عن « وحى بغداد » ولا تؤلف كتابًا عن « فِتن القاهرة » وما يعلم اللائمون أنى أسأل الله السلامة من الفتن ، ما ظَهَر

منها وما بَطَن ، لا يعلمون أن رِماح الداء لا تطعن فى الجُسوم كما تطعن رماح القاهرة فى القلوب .

وهل نستطيع معاقرة الحُب فى القاهرة وإلى من يمشى فى شوارعها وُجِّه هذا الخطاب :

وإنك لو أرسلتَ طَرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتْك المناظِرُ
رأيت الذى لا كلّهُ أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وأين المدينة التى تزاحم القاهرة فى مُساورَة القلوب والعقول ؟

أين المدينة التى تُضِلُّ وتَهدى كما تُضل القاهرة وتهدى ؟

إن الشيطان يجد فى القاهرة مراتع لا يجدها فى لَنْدن ولا باريس ولا روما ولا برلين .

هى صِلة الوصل بين الشرق والغرب . والجمالُ المُخَضْرَم هو أفتن ضروب الجمال

* * *

لقد هربتُ من القاهرة وسكنتُ بمصر الجديدة فى منزل يواجِه الصحراء ، فهل أرانى مع ذلك نجوتُ من فِتن القاهرة ؟

وكيف أنجو وهى تلاحقنى عن طريق الإذاعة اللاسلكية وطريق التليفون ؟

كيف أنجو من القاهرة وكان سِحرها يتعقبنى فى باريس وفى بغداد ؟

كيف أنجو من القاهرة وهى قاهرة ؟

أردت أن أخصص يومًا من كل أسبوع لمشاهدة ما يجدُّ فى مكتبات القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمشاهدة ما يجدّ فى ملاهى القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمحاورة الصحفيين بالقاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمواجهة ضيوف القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمسامرة أطفالى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمحاربة أعدائى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمجاهدة نفسى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لقتل ما فى صدر زوجتى من عقارب الغَيْرة فضاق الوقت .

فمن أنا فى القاهرة ومن أنا فى دنياى ؟

لقد دعانى المسيو ماسينيون لسماع إحدى محاضراته بالجامعة المصرية فعجزت عن تلبية دعوته الكريمة ، فهل يعرف أن بين بيتى وبين الجامعة المصرية أكثر من تسعين دقيقة بالوسائل السريعة ؟

وتصل إلىّ عشرات من الخطابات فى كل أسبوع فأعجز عن الجواب فى أكثر الأحيان ، فمن يخبر قرائى بأن لى عذرًا وهم يلومون ؟

* * *

أما بعد فقد طوّفتُ بشوارع القاهرة لأرى أعضاء المؤتمر الطبى الذى يُعقد فى القاهرة لمواساة طبيب ليلى ، شفاه الله وهداه ، فهل رأيت أولئك الأطباء ؟

ابتلعتهم القاهرة بلا ترفّق ، كما ابتلعتْ نشاطى بلا ترفق .

ولولا الموعد المضروب مع السيد عبود شلاش لعزّ علىّ أن أرى وجوه أطباء العراق .

وجدتُ فى هذه الليلة الدكتور صادق علاّوى والدكتور هاشم علاّوى ، أما الدكتور عبد الأمير علاّوى فقد ابتلعتْه القاهرة من أول لحظة ، ولم نصل إليه إلا بعد أن فتشنا عليه أربع ساعات فى ملاهى عماد الدين .

وفى هذه الليلة رأيت الدكتور سامى شوكت والدكتور صائب شوكت .

أما الدكتور سامى شوكت فهو عقلية جبّارة كان لى معها مصاولات فى بغداد .

وأما الدكتور صائب شوكت فقد مرتْ إليه إشارة فى الجزء الثانى من هذه المذكرات .

* * *

وفى هذه الليلة علمتُ أن الشيخ حسن سُهَيْل قَدِم القاهرة لشهود المؤتمر الطبى ، وقد مرت إليه إشارة فى الجزء الأول من هذه المذكرات وفى هذه الليلة علمتُ أن الدكتور الريزه لى والدكتور حيدر جواد حضرا مع أطباء العراق ، وفيها علمت أن الدكتور شوكت الزهاوى تخلف ، وفيها علمت أن رجال المعارف بالعراق لم يحضر منهم أحد ، وكنتُ أنتظر أن يحضروا لمواساتى .

وعفا الله عن الراوى والجمالى والألوسى !

* * *

واتصلتُ بعد نصف الليل بجميع فنادق القاهرة فعرفت أنِ الدكتور فلان لم يحضر ، وهو زوج صاحبة اللسان الالثغ الملجلج ، زوج السيدة التى فضحتْ وقارى فى بغداد .

وشكوتُ حزنى وبثى إلى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال : لا تجزع فقد حضرتْ بنت خالتها من أجلك ، وستراها فى انتظارك على باب الجامعة المصرية فى الصباح .

* * *

موعد غرام على باب الجامعة المصرية ؟

آمنتُ بالحب !

وما الذى يمنع من أن تذكّرنى الجامعة المصرية بجامعة باريس ؟

غدًا أساور العيون على باب الجامعة المصرية ، وكنتُ أعظم من ظفر بألقابها العلمية فى عهدها القديم وعهدها الجديد .

* * *

أيتها الجامعة المصرية .

خذى بزمامى إلى الحب والمجد .

٥١

فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية بكّرتُ إلى منزل ليلى بُكورَ النَّدى لنحضر معًا حفلة افتتاح المؤتمر الطبى فى بهو أمانة العاصمة بدار السلام . واليوم بكّرتُ لحضور حفلة افتتاح المؤتمر الطبى بقاعة الاحتفالات بالجامعة المصرية .

لبست ثوب البُونجور الذى فصّلته فى بغداد ، ومضيت أتخطّر فى زَهْوٍ وخُيَلاءَ .

ولم يُؤذنى فى طريقى إلا شيءٌ واحد : هو المرور بحىّ الزمالك الذى يسمى « روضة البحرَيْن » لأن النيل يحضنه من الجنْبَين ، وما أسعدَ الحيَّ الذى يحضنه النيل !

وما الذى يؤذينى من المرور بالزمالك ؟

هنالك ليلاى التى لم ترع العهد ولم تحفظ الجميل .

هنالك الجدائل المعطّرة التى كنتُ توهمتُها تشعثّتْ بعد رحيلى إلى العراق .

هنالك الدار التى لم تُسْدَل ستائرها على قلبٍ أحرَّ من قلبى ، ولم تشهد هَوًى أعنف من هواى ، ولم تعرف بين المجانين أصدق منى ، وستعرف تلك الدار كيف يحالفها الشقاء إلى أن أرجع إلى تنسُّم الهواء بشُرفاتها العالية ، وسوف أرجع ولو كره الواشون .

* * *

مررت على الزمالك وأنا راغم لأنها طريقى إلى الجامعة المصرية .

مررت على الزمالك فخفق قلبى خفوقًا عنيفًا ، وكيف لا يخفق القلب والزمالك كلها مَراتِع غِزلان ومَرابض أُسود ؟

تمهّل ، أيها السائق ، تمهل .

فأنا أشتهى أن أحيى جميع من أراهم فى الزمالك .

إن الزمالك تشبه سنتريس : لأنها تقع بين نهرَين كما تقع سنتريس بين نهرين : الريّاح المنوفى والترعة العامرية .

ولأن ليلاى فى الزمالك تنطق اسم سنتريس بلسانٍ ألثغ وصوتٍ مطلول .

أنا أُحب الزمالك أشد الحب ، وأبغضها أشد البغض .

أحب الزمالك من أجل ليلاى الظلوم .

وأبغض الزمالك لأنها تنافس مصر الجديدة ، وفيها دارى ، الدار التى أقمتها على حدود الصحراء لمناجاة الشعر والخيال .

مررت على الزمالك مرور الغريب .

مررت على الزمالك مرور الطّيف العاتب .

ثم نظرت فرأيتنى أُساير النيل لأصل إلى الجيزة الفيحاء .

وفى ذلك الطريق خفق القلبُ خفقةً ثانية ، فهنالك الذهبيات المنثورة نثر الأمواج فوق بساط الماء ، الذهبيات التى عرفها النيل منذ عهد الفراعين ، والتى قضتْ بأن يتخوف عمر ابن الخطاب على الجيش الذى كان يقوده عَمْرو بن العاص .

هنالك الذهبيات التى اصطبحتُ فى أمثالها واغتبقتُ حين كنت من تلاميذ سيدنا عمر بن أبى ربيعة ، رضى الله عنه وأرضاه !

ورحمة الله على الشباب الذى بدّدته فى طلب الحب والمجد .

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هنا الجامعة المصرية ، وهى اليوم تسمّى « جامعة فؤاد الأول » لأن الملك فؤاد طيَّب الله ثراه كان أول رئيس للجامعة المصرية .

والجامعة المصرية هى بلا جدال ولا نزاع أعظم جامعة فى الشرق ، وطلابها اليوم يزيدون عن عشرة آلاف ، وفيها حيوية أعظم من حيوية النيل فى أيام الطُّغيان .

وللجامعة المصرية تاريخ يتلخص فى أنها من صنْع الأمة لا صُنع الحكومة ، كما عبر على الشمسى باشا فى حضرة الملك فؤاد ، أُكرم الله مثواه .

الجامعة المصرية بناءٌ شامخٌ أقامهُ المصريون لمقاومة الاحتلال ، أقاموه بعزائمهم وأموالهم ليكون شاهدًا على أنهم أهلٌ للحرية والاستقلال ، وهو فى مصر الإسلامية أعظم من الأهرام فى مصر الفرعونية ، وهو كذلك أعظم من الأزهر الشريف : لأن الأزهر أقيم لنصر مذهب على مذهب ، أما صرح الجامعة المصرية فأقيم ليكون موئلاً لجميع المذاهب والآراء ، وليكون منارةً ترسل الأشعة إلى جميع أقطار الشرق .

وعن الجامعة المصرية تَصْدُر أقباس الهدى ودياجير الضلال : فهى مِحْوَر الجدل والمراء ، وهى التى تقدّم الوَقود للباحثين والكاتبين والخطباء والشعراء .

إن صدرتْ دعوة إلى الزيغ فهى من الجامعة المصرية .

وإن صدرت دعوة إلى الحق فهى من الجامعة المصرية .

فهى اليوم تهاجِم ، وخصومها يدافعون .

وموقف المهاجِم أقوى من موقف المدافع فى أكثر الأحيان .

للجامعة المصرية طريق لم تشهد مثلَ جماله العيون ، وهو أطيبُ ما يكون فى الصباح

والأصيل والمساء .

يسير الطالب فى ذلك الطريق صباحًا فيبهره عَبَقُ الأشجار والأزهار من كل جانب ، ويسير فيه مساءً فيروعه جلال الليل فى رحاب الجيزة الفيحاء .

وفى ذلك الطريق تختلط الظباء بالأسود ، لأن الجامعة شرعت اختلاط الجنسين فى التعليم ومهّدت السبيل لطغيان العواطف وجُموح الأحاسيس ، وسيكون لذلك تأثيرٌ حَسَنٌ أو سيىء فى تلوين الأخلاق ، أما الأدب والفن فستكون لهما مغانم كثيرة من هذا الابتداع .

والجامعة المصرية تؤدى اليوم خدمة عظيمة للغة العربية بفضل تفوق أساتذتها فى فنون التأليف ، وسبقهم إلى ميادين المحاضرات والمناظرات ، وحرصهم على رفع مكانة مصر العلمية .

وفى الجامعة المصرية رجالٌ أقوى من المَرَدَة وأذكى من الشياطين .

***

الله أكبر ولله الحمد !

هذه إدارة الجامعة المصرية وعلى يمينها كلية الآداب وعلى يسارها كلية الحقوق ، وأمامها الميدان الذى أقيم فيه التمثال التذكارى لشهداء الجامعة المصرية فى سبيل الوطنية .

وهذه قاعة الحفلات ، القاعة العظيمة التى تذكّر بالمُدرَّج الأكبر فى السُّوربون .

أقيمتْ هذه القاعة وَفقًا لرغبة الملك فؤاد الذى أراد أن تتسع لأكثر من أربعة آلاف ، وفيها مقصورات للملوك والأمراء والسفراء ، ومقصورة للنساء المتأنقات ، وأماكن تسمح للطلبة بأن يشاغبوا الخطباء وهم فى أمان !

ولهذه القاعة مَدْخل للجمهور ، ومدخل لجلالة الملك ، وهى تصافح النور من كل جانب ، ولها مسرحٌ فسيح الأرجاء يذكّر بالمسارح العظيمة فى عواصم الغرب .

ولكن الملك فؤاد الذى أشرف بنفسه على تصميم هذه القاعة نُقِل إلى جوار ربه قبل أن تراها عيناه .

رحمك الله يا فؤاد ، وجعل فى الجنة مثواك !

***

امتازت حفلة الافتتاح هذه السنة بمزيتين : الأولى أدبية ، والثانية علمية .

أما المزية الأدبية فهى موقف الشاعر على الجارم بك الذى ألقى قصيدة فى مصر تذكّر بقصيدته فى بغداد ، وقد سجل فضل مصر فى القديم والحديث ، وغَنِم الموقف فى القاهرة كما غَنِمه فى بغداد ، مع فرقٍ نُسجّله للتاريخ ، فقد اهتزت بغداد لقصيدة الجارم ودعاه وزير المعارف هناك لإلقائها بالإذاعة اللاسلكية ، ولم تمض أيام حتى كانت قصيدته فى بغداد من

محفوظات الشباب والكهول ، وقد لُحّنتْ لتغنّى فى الملاهى الشعبية ، وستظل على ألسنة أهل بغداد عدة أجيال .

أما قصيدة الجارم فى مصر فقد اكتفى الناس بقراءتها فى الجرائد ، وقد تُنسى بعد حين ، لأن مصر فى هذه الأيام تُعنى بصراع العقول أكثر مما تُعنى بغناء الشعراء .

وأما المزية الثانية فهى محاضرة الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك فى تسجيل ما صنع الدكتور أحمد البقلى فى علاج مرض الفيل ، وهى محاضرة شهدتْ بقدرة اللغة العربية على تأدية الدقائق الطبية .

ومحمد خليل عبد الخالق يشبه عبد الواحد الوكيل فى أدب النفس ، والفناء فى خدمة الواجب ، وسيكون لأمثال هذين الرجلين فضلٌ عظيم فى إنهاض الدراسات الطبية .

* * *

وقعتْ فى حفلة اليوم نُكتة : فقد شاء الجارم أن يسمى الدكتور على باشا إبراهيم « أبا الحسن الجراح » فابتسم عميد كلية الطب وقال : أخشى أن يتطور اللقب فيصير « أبا الخسن المغفّل » !

والدكتور على باشا إبراهيم ابن نُكتة ، وله ذوقٌ فى الجمال ، ويملك مجموعة من الأبسطة والسجاجيد تقدَّر بعشرات الألوف من الدنانير ، ولولا شهرته بالبخل لاستهديته سجادة أقرأ فوق أزهارها أوراد الصباح .

* * *

لم أر فى حفلة اليوم أثرًا للنساء المليحات ، فما هذا ؟ وما سببُه يا ناس ؟

لعلَّ السبب هو بُعد الجامعة المصرية : فبينها وبين القاهرة سَفَرٌ شاقّ ، بسبب تعقيد المواصلات ، أليس من المؤذى أن لا نصل إلى الجامعة إلا بالعبور فوق جسر فؤاد أو جسر عباس ؟ ما الذى يمنع من أن يكون للجامعة طريق بالسيارات أو بالترام فوق جسر إسماعيل ؟ لو نفذت الحكومة ما أقترحه لصارت الجامعة من منازل القاهرة .

ولكن الحكومة لا تسمع : لأن أقطابها يركبون السيارات الخصوصية ، والذى يملك سيارة لا تدخل له المسافات الطوال فى حسبان .

ثم خرجت مع السيد عبد الله عبد الغفار ومضيت معه إلى سكرتارية المؤتمر الطبى لآخذ كتاب المؤتمر وتذاكر الدعوات ، فهالنى أن أرى أنى لست مدعوًّا للحفلة التى يقيمها رفعة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبى بقصر الزعفران .

وسألت عن السبب فى حرمانى من هذه الدعوة الكريمة فقيل إنها خاصة بالضيوف ، ولستُ بضيف : لأنى مصرى .

وعندئذ تذكرتُ ما وقع فى مثل هذه الأيام من السنة الماضية ، فقد تفضل جلالة الملك غازى الأول بدعوة أعضاء المؤتمر الطبى للتشرف بتناول الشاى فى قصر الزهور ، ونظرت فرأيتنى محرومًا من تلك الدعوة الكريمة ، فاتصلت تليفونيًا برئيس الديوان الملكى وسألته عن السبب فقال : « إن الدعوة خاصة بالضيوف ولستَ بضيف : لأنك موظف فى الحكومة العراقية » .

فكرتُ فيما وقع هنا وهناك فتذكرت كلمتى الحزبية فى كتاب « ذِكريات باريس » إذ أقول :

« إن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التامّ فى هيئة من الهيئات ، أو حزب من الأحزاب : فأنا عند أنصار الحزب الوطنى شعبىٌّ يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خيالىٌّ يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب ، وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا برٌّ عند الفجار ، وفاجرٌ عند الأبرار : فأنا فى كل بيئةٍ أجنبىٌّ وفى كل أرضٍ غريب » .

أحزننى ذلك لحظات ثم رجعتُ إلى رشدى فقلت لنفسى :

إن حرمانى من تناول الشاى فى قصر الزهور مع أعضاء المؤتمر الطبى شهادةٌ رسمية بأنى لم أكن فى العراق من الضيوف ، وحرمانى من تناول العشاء فى قصر الزعفران مع أعضاء المؤتمر الطبى شهادةٌ رسمية بأنى لست فى مصر من الضيوف .

فأنا مصرىٌّ عراقىٌّ ، كما يسمينى أهل بغداد .

ولله الحمد على هذا التوفيق .

* * *

وفى عصرية(١) اليوم أقام سعادة عبد السلام الشاذلى باشا محافظ العاصمة حفلة شاى لأعضاء المؤتمر بحدائق الحيوان فى الجيزة . ولا أعرف الشاذلى باشا معرفة شخصية ، ولكن فى ماضيه قصة طريفة : فقد كاد يحال إلى مجلس تأديب بسبب إسرافه فى تجميل إحدى الحواضر — لا أذكر بالضبط أهى دمنهور أم أسيوط — فهو إذن من أرباب الأذواق ، وسيكون له فضل فى تجميل الأحياء القديمة بالقاهرة .

وقد استرقتُ السمع فى محاورة بينه وبين سعادة العشماوى بك فعرفت أن الكلام متصل بالتفكير الجدىّ فى إنشاد دار عظيمة لبلدية القاهرة . فإن تمَّ ذلك فسيكون من السهل أن تقام

---

(١) العصرية كلمة حية فى مصر وهى تماثل **Après midi** فى اللغة الفرنسية .

حفلات العشاء — الحفلات الرسمية — فى دار وطنية ، فنستغنى عن فندق مصر الجديدة وفندق الكونتيننتال ، فمن العيب أن تستقبل الحكومة ضيوفها فى فنادق أسسها الأجانب .

* * *

وبعد تناول الشاى تدفَّع الضيوف إلى مشاهدة الغرائب فى حدائق الحيوان ، وهى حدائق ليس لها نظير فى الشرق ، ولها خصائص لا توجد فى أمثالها من الحدائق الأوربية والأمريكية .

ولحدائق الحيوان بالجيزة فضلٌ كبير فى البهجة التى تتسم بها الأعياد القومية ، وهى تصنع بالأذواق ما تصنع حدائق الجزيرة وحدائق القناطر الخيرية وحدائق حُلوان وحدائق الإسكندرية .

ومن المؤكد أن مصر وصلتْ إلى مبلغ عظيم من الافتنان فى تنسيق الحدائق : فحديقة الأزبكية بالقاهرة لا تقل جمالاً عن حديقة لِكسمبور فى باريس . وقد كانت حديقة الأزبكية مغطاة الأسوار تغطيةً تحجبها عن الناظرين ، فما زلتُ أطالب برفع تلك الأغطية حتى استمع محافظ العاصمة وأمكنَ الناسَ من شهودها وهم يَغْدُون ويروحون ، وليته يبيح عبورها بالمجان .

و لم يبق إلا أن يتفضل جلالة الملك فيقبل الاقتراح الذى نشرتُه فى مجلة الهلال منذ سنتين : فقد اقترحتُ أن تُرفع الأسوار التى تغطى حديقة قصر عابدين ، وهى أعظم حديقة فى القاهرة ، ولو رُفعتْ تلك الأسوارُ لشاهد الجمهور من نَضرة النعيم ألوانًا وأفانين .

وحجتى قوية فى الدعوة إلى رفع تلك الأسوار : فقد وضعتْ يوم كان من المستحيل أن تُنشر صورة لإحدى الأميرات فى الجرائد والمجلات ، أما اليوم وقد صار من المألوف أن تُنشر صور الأميرات فلم يبق موجبٌ لأن تعيش حديقة القصر فى ظل الحجاب .

يضاف إلى ذلك أن قصر عابدين لا يسكنه جلالة الملك إلا فى أيام معدودات ، وهو فى أكثر شهور السنة يقيم بقصر القبة وقصر رأس التين .

ولأميرات مصر حجابٌ أحصن من الأسوار هو حجاب القلوب ، لأنهن بنات فؤاد الذى أفنى قوته العاتية فى خدمة الأمة المصرية ، فؤاد الذى كان مثال الأبوّة الكريمة للشعب الذى بكاه بدماء القلوب يوم مات .

إن رفع الأسوار عن حديقة قصر عابدين سيتيح لأهل القاهرة فرصة الأنس برؤية قصر الملك ، فمن الخسارة أن يمر الإنسان بشارع حسن الأكبر أو شارع جامع عابدين أو شارع المبدولى ولا يحس أنه يساير حديقةً غنّاء .

يا جلالة الملك فاروق :

تفضل بقبول هذا الاقتراح الجميل ، حرسك الله ورعاك !

رجعت من حدائق الحيوان بالجيزة بعد الغروب فى سيارة الدكتور محجوب ثابت ، ومضيت معه فتركنا بطاقات التحية لمن نعرف من أعضاء المؤتمر الطبى العربى .

ثم انطلقتُ بأودية القاهرة لأُحِسَّ ليلة العيد .

فماذا رأيت ؟

لم أر شيئًا غير هُيام القلوب فى شارع فؤاد ، وليس ذلك بجديد : فالقلوب تهيم فى هذا الشارع فى كل وقت ولا تنتظر المواسم والأعياد .

وبقيتْ حسرتى على ضياع الحظ من سهرة قصر الزعفران .

لو أتيح لى أن أشهد هذه السهرة لقابلتُ رئيس الوزراء ، فقد فرطتُ فى مقابلته بعد رجوعى من بغداد ، ولعله يظن أنى كنت فى ذلك التفريط من الآثمين ، ومَن الذى يخطر فى باله أنى لا أخرج من البيت إلا قليلاً بعد تأدية واجباتى الرسمية ؟

من الذى يظن أنى أُنفق على الكتب والحبر والورق أضعاف ما أُنفق على الطعام والشراب ؟

عند الله والحب جزائى !

* * *

طوَّفتُ بشوارع القاهرة ما طوَّفتُ ، ثم رجعتُ إلى دارى مضُعَضْعَ الأعصاب .

فما الذى وقع فى قصر الزعفران ؟

ليتنى أعرف !

ليتنى أعرف !

٥٢

لبستُ اليوم بدلة البونجور مرة ثانية لأزور قصر عابدين مع أعضاء المؤتمر الطبى ، فقابلت فى طريقى إليه سعادة محمد باشا شفيق فقصّ علىّ أحاديث فى تاريخ حىّ عابدين وما صنعه الخديو إسماعيل فى تمدين ذلك الحىّ ، وقد ذكّرنى فى حديثه بما كان يقصه أستاذنا إسماعيل بك رأفت وهو يسمر مع أصفيائه بمنازل الحلمية الجديدة . فمتى يرسل الله إلى القاهرة رجلاً مثل علىّ باشا مُبارَك ليتحدث عن خِططها فى العصر الحديث ؟

إن القاهرة تتشوف إلى مؤرخ ، فمتى يُبعث ذلك المؤرخ ؟

سيقام العيد الألفى للقاهرة بعد قليل ، وستنشر عنها وزارة المعارف مجلدًا أو مجلدين ، ولكنى أخشى أن لا تظفر القاهرة بغير أبحاث غَبيّة بليدة لا تصوِّر غير ما وعتْ كُتب التاريخ .

وأنا أعرف بصدق الفراسة أن القاهرة الحديثة لن تظفر بغير صفحات هزيلة من الأساتذة العظام الذين تعرفهم بعض المعاهد العالية .

وسوف تعلمون !

القاهرة اليوم لا يعرفها فلان وفلان من الذين لا يثقون بأعينهم كما يثقون بعيون المؤرخين ، وفى الدنيا « علماء » يرون الرواية المدوَّنة فى كتاب أصدق من رؤية العِيان !

القاهرة اليوم لا يعرفها إلا الصحفيون الذين يطّلعون على سرها المكنون .

فى القاهرة ألوان كثيرة لا يعرفها غير الراسخين فى علم أسرار النفوس وسرائر القلوب .

فأين الأدب الذى يسجّل ما تضمر القاهرة من غرائب وأعاجيب ؟

لقد كنتُ أحب أن أكون ذلك الأديب ، ولكن هذا يعرِّضنى لمتاعب يضيق عن دفعها الوقت .

ومن واجبى أن أراعى أنى مسئولٌ أمام وزارة المعارف ، وهى تحدُّ من حرية الأديب .

وأنا مع ذلك قلتُ فى القاهرة كل شىء ، كما قلت فى بغداد كل شىء ، فمن شاء فليكشف الرموز عما قلت فى القاهرة وبغداد ، فلا يزال فى الدنيا أذكياء يفهمون أسرار الحروف .

* * *

دونتُ اسمى فى تشريفات جلالة الملك وتمكثتُ عسانى ألقى أصدقائى من أطباء العراق .

فلما لقيتهم سألت : كيف كانت سهرتكم فى قصر الزعفران ؟

ثم هالنى أن يقابَل هذا السؤال بوجُوم مزعِج .

ــ يا جماعة ما الذى وقع ؟

ــ لم يقع شيء !

ــ يظهر أنكم غاضبون .

ــ لسنا غاضبين ، وإنما نحن عاتبون .

وبعد أن قهرتهم على المكاشفة أخبرونى أن رفعة رئيس الوزراء لم يحضر الحفلة مع أن الدعوة مذيَّلةٌ باسمه ، فضحكتُ ضحكة الاستغراب من أن يضايقهم غياب رئيس الوزراء !

ولما استوضحونى قلت : إن الدعوة موجهة من رئيس الوزراء ، ولكنها ليست دعوة شخصية ، حتى يجب عليه الحضور ، وإنما هى دعوة الحكومة التى تنوب فى مثل هذه الأحوال عن الأمة ، فأنتم لم تكونوا فى ضيافة محمد باشا محمود ، وإنما كنتم فى ضيافة الأمة المصرية .

وقد دهشوا من هذا التفسير ، فقلت : هو ذلك ، ولكن أكثر الضيوف لا يعلمون !

* * *

وعندئذ عرفتُ الخطأ الذى وقع فيه مكتب رئيس الوزراء حين قصر الدعوة على الضيوف ، لأن هؤلاء الضيوف لا يكتفون بأن يتحدث بعضهم مع بعض إلى أن يتناولوا العشاء ، وإنما كان يجب أن يدعى معهم جماعة من أدباء مصر ليرفعوا عنهم أثقال الاستيحاش .

وأغلب الظن أن ما وقع ليلة أمس سيقع مثله فى الحفلة التى يقيمها وزير المعارف والحفلة التى يقيمها مدير الجامعة المصرية .

فمن واجبى أن أنبه من ألاقيهم من الضيوف إلى أن تلك الدعوات ليست دعوات شخصية ، وإنما هى دعوات قومية .

ومن عيوب مصر أنها قد تسكت حين يجب الكلام ، وقد تتكلم حين يجب السكوت .

فيا بنى آدم من أهل مصر !

علِّموا أبناءكم سياسة الصمت وسياسة القول .

٥٣

هنا القاهرة !

هنا القاهرة : وطن العُروبة .

هنا القاهرة : وطن الإسلام .

* * *

لم أحضر حفلة الشاى التى أقيمت فى عصرية اليوم ، وقد أُقيمت حفلتان إحداهما بدار الهلال الأحمر والثانية بمصلحة الطب الشرعى .

وإنما مضيتُ إلى دارى لأستجمَّ وأستريح ، عسانى أصلح للسمر مع ضيوف القاهرة فى المساء . وأنا أكتب هذه الصفحات بعد نصف الليل ورأسى مصدوع من الجدَل الذى عانيته مع أهل سورية ولبنان والعراق .

وأقول بصوتٍ يُسمع من فى القبور إن بعض الأمم العربية أُصِيبَتْ بنَوبَةٍ من الجنون ، وهذه النَّوبة تعتادها فى كل لحظة : وهى الزعم بأن مصر تقول إنها فرعونية لا عربية .

وهذا الزعم هو فى الأصل دسيسة استعمارية أراد بها المستعمرون أن يُفهِموا العرب أن مصر ليست منهم « وإذا صح أن مصر ليست سِنادًا للعروبة فستكون العروبة خبرًا من الأخبار بعد حين ، لا قدَّر الله ولا سمح » .

وكل كاتب يزعم أن مصر ليست عربية وإنما هى فرعونية فهو أحد رجلين : رجل مغفَّل لا يفطن إلى الدسائس الاستعمارية ، أو رجل مأجور يعيش من فتات روما أو لندن أو باريس !

ويجب أن يكون مفهومًا أن العرب يتعرضون اليوم لأزمة شديدة : هى اختبار ما يقرأون وما يسمعون ، فإن نجحوا فى هذا الامتحان فسيكونون من السعداء .

تجلس مع شاب طيب القلب من أهل سورية أو لبنان فتحادثه محادثة الصديق للصديق ، ثم تراه ينقلب فجأة فيقول : ولكن مصر تقول إنها فرعونية !

وما تكاد تسمع هذا القول حتى تعرف أن ذلك الشاب السورى أو اللبنانى من المساكين ، لأنه انخدع بما سمع من أبواق الزور والبهتان .

* * *

وأردت أن أصل إلى سرِّ العَتب على مصر فسمعتُ هذا السؤال من أحد الأطباء :

ــــ ولماذا لا تقرأون مجلاتنا كما نقرأ مجلاتكم ؟

فنظرت إليه نظرة الغضب وقلت : أنتم تقرأون مجلاتنا لأنها تقدم إليكم ما تشتهون من غذاء العقول والقلوب والأذواق ، ونحن لا نقرأ مجلاتكم لأن مجلاتنا شغلتنا شغلاً عنيفًا ، وصرفتنا عن التطلع إلى ما تُصدر المطابع فى غير مصر من البلاد العربية .

ورجع الطبيب الذى أحاوره إلى عقله لحظة ثم قال :

ـــ هذا حق ، ولكن ...

ـــ أفصح أيها الطبيب .

ـــ ولكنكم لا تعرفون رجالنا كما نعرف رجالكم .

ـــ أنتم تعرفون رجالنا ونحن نجهل رجالكم لسبب يخفى عليكم .

ـــ وما هو ذلك السبب ؟

ـــ اسمعْ ، أيها الطبيب ، اسمع ما أقصه عليك ثم انقله إلى كل من يعترض على نحو ما تعترض .

ـــ إليك أُذنى وقلبى وعقلى : فأنا أحب أن يزول عَتْبى على مصر .

ـــ اسمع ، أيها الطبيب ، إن حرية الصحافة مزية تفردت بها مصر بين سائر أقطار العربية ، فجرائدكم ومجلاتكم لا تحدثكم عن شمائل رجال السياسة ، ولا تكشف لكم عن بواطن الحقائق السياسية ، جرائدكم ومجلاتكم لا تقول إلا ما تحب حكوماتكم أن تقول ، فهى تترك فى أفئدتكم فراغًا عظيمًا ينتظر من يحتله من الأقلام الحرة فى وطن النيل ، ولك أن ترجع إلى نفسك فتسألها عن السبب فى غرامكم بمطالعة الجرائد المصرية والمجلات المصرية ، إن جرائدنا ومجلاتنا تصوِّر رجال السياسة تصويرًا لا يعرف التزويق ولا التهويل هى تُشعركم بأن الوزراء بشرٌ مثلكم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وأنتم من أجل ذلك تعرفون من رجالنا ما لا نعرف من رجالكم . أستغفر الحق : فأنتم تعرفون من رجالنا ما لا تعرفون من رجالكم .

ـــ ما معنى ذلك ؟

ـــ معناه ، أيها الطبيب ، أن السورى واللبنانى يعرف رجال مصر أكثر مما يعرف رجال سورية أو لبنان أو العراق ، لأن جرائدنا تتحدث عن رجالنا بصراحة لا تعرفها الصحافة فى سائر البلاد العربية ، وفى قلوبكم فراغ كبيرٌ ينتظر من يحتله من رجال الأدب والبيان .

ـــ زدنى ، زدنى .

ـــ إن مصر هى اليوم محور القضية العربية ، والأوربيون أنفسهم يعرفون ذلك : فهم يبذلون نشاطهم فى مصر ليستطيعوا السيطرة على البلاد العربية ، فنحن فى محنةٍ لا تخطر لكم فى بال : لأننا نقاوم كفاح الغرب وعتاب الشرق ، ولذلك تفاصيل أطويها عنك ترفقًا بحياتك الغالية ، وجزاؤنا على ذلك كله أن تقولوا إننا فراعين لتعينوا أوربا وأمريكا على الطعن فى العروبة

المصرية .

— زدنى ، زدنى ، زدنى .

— ومصر تُشتم فى بلادكم كل يوم ، وتقرأون تلك الشتائم باسمين ، مع أن فينا من يبيت مؤرَّق الجفون حين يسمع كلمة لا تليق فى حق إحدى الأمم العربية .

— هذا مستحيل !

— هذا مستحيل ؟ وكيف ؟ أُنظُر أيها الطبيب ثم احكُم : فمصر هى المسئولة عن التنويه بالجمال المبثوث فى سائر الأقطار العربية ، وهى المسئولة عن الدعوة إلى مصايف الشام ولبنان ، وهى المسئولة عن إحياء الثقافة العربية والإسلامية ، ولكن ليس من حق مصر أن تقول إنها أمة عربية أو إسلامية ، وإلا حقتْ عليها غضبة العرب والمسلمين !

— ما هذا الذى تقول ؟

— كذِّبنى ، إن استطعت ، وذلك أن تذكر السبب فى التحامل على مصر ، التحامل البغيض الذى يصدر عن ناس لم يلقوا منا غير الإكرام والإعزاز والتبجيل .

— ومن هم الذين يشتمون مصر ؟

— لا أريد أن أسميهم ، وهُم يعرفون أنفسهم .

— من هم ؟

— هم إخوان أعِزَّاء يقابلون المعروف بالنكران !

— من هم ؟ من هم ؟

— هم أصدقاء لطاف ظِراف يتدلَّلون علينا تدلُّل الأبناء على الآباء .

— من هم ، من هم ؟ من هم ؟

— أظننى أوضحتُ .

— لم تُوضِح ، وإنما تركتنى فى عماية وضلال .

— اسمع ، أيها الطبيب ، أنا لا أهتمّ بالأشخاص وإنما أهتمّ بالمبادئ ، وما يهمنى أن يخطئ فلان أو فلان ، وإنما يؤذينى أن تخطئ الأمة الفلانية .

— ومن هى تلك الأمة الفلانية ؟

— هى تلك الأمة الفلانية !

— وهل كتب الله على الدكتور زكى مبارك أن لا يتكلم بغير الرَّمز والإيماء ؟

— وهل كتب الله عليكم أن لا تفهموا بغير التصريح ؟

— اسمع ، يا دكتور !

ـــ قُلْ أسمعْ .

ـــ إن مصر تنسى أننا نميل على جوانبها كما يميل الأبناء على الآباء .

ـــ أشكر لك هذا اللطف ، ولكن هل تظن أن الستة عشر مليونًا فى مصر تفطن إلى هذه الدقائق الذوقية ؟ هل تظن أن سكان مصر كلهم سيقولون إنكم تشتموننا من باب الدلال ؟

ـــ نحن نشتمكم ؟ معاذ الله !

ـــ اسأل المعاجم تخبرك .

ـــ وماذا تقول المعاجم ؟

ـــ المعاجم تشهد بأن ألفاظكم تخرج على الذوق فى أكثر الأحيان .

ـــ ولكنكم تقولون إن مصر فرعونية .

ـــ تلك هى اللوثة التى تعتادكم من حين إلى حين !

ـــ وهل نحن ملتاثون ؟

ـــ معاذ الله ، وإنما أنتم فضلاء وأذكياء ، وآية ذلك أن تقولوا إن مصر ليست عربية مع أن مصر تنفق ملايين الدنانير فى كل عام لنشر اللغة العربية .

ـــ ولكن مصر تقول إنها إسلامية .

ـــ نعم ، مصر تقول إنها إسلامية لتسند العروبة .

ـــ كيف ؟

ـــ إن العروبة مَدِينةٌ للإسلام ، ولولا الإسلام لظلت بلاد العرب بلادًا ذليلة يعتدى عليها الأحباش من جانب ، والفرس من جانب ، والروم من جانب .

ـــ ولكن نبى الإسلام كان بطلاً عربيًّا .

ـــ لم يكن نبىُّ الإسلام بطلاً عربيًّا ، وإنما كان بطلاً عالميًّا ، والمرض الذى تعانيه بعض القلوب لم يأت إلا من الجهل بهذا الموضوع الدقيق ، فالإسلام هو الذى مكّن العرب من السيطرة على العالم بضعة قرون ، والقرآن تحدث عن موسى وعيسى بأفضل مما تحدثت التوراة أو تحدث الأنجيل ، وقد كان نبى الإسلام أعظم رجل عرفه الشرق : لأنه حرص على إحياء ما فى الشرق من معانٍ ذوقية وروحية ، ولو كان من أهل الأثرة والأنانية لحارب اليهودية والنصرانية .

ـــ الإسلام لم يحارب اليهودية ولا النصرانية ؟

ـــ الإسلام لم يحارب اليهودية ولا النصرانية ، وإنما حارب الابتداع عند النصارى واليهود .

ـــ أنت بذلك تغير وجه التاريخ .

— المضللون هم الذين يطمسون معالم التاريخ .
— ومن هم أولئك المضللون ؟
— هم الذين يستكثرون أن نكون عربًا ومسلمين .
— ولكنكم تدعون إلى الخلافة .
— من قال ذلك ؟
— تقوله جرائدكم فى كل يوم .
— ذلك كلام يُنشَر فى الجرائد المصرية نقلاً عن الجرائد الإنجليزية والإيطالية .
— خبلتنى !
— أنت لا تحتاج إلى خَيَال جديد !

* * *

تلك خلاصة المحاورة التى وقعت بينى وبين الطبيب « ف . ص . ج » وهو عربىٌّ مخلصٌ له فى سورية ولبنان أعمامٌ وأخوال ، وقد استظلَّ بأفياء مصر حينًا من الزمان .

ولكن ما موقف مصر من هذه الشؤون ؟

أنا لم أر أحمق من المصريين : لأنهم قد يتكلمون حين يجب الصمت ، وقد يصمتون حين يجب الإفصاح .

إن مصر عربية ، وهى فى عروبتها أصدق من بلاد الحرمين ، وطن النبىِّ العربىِّ الأمين ، ولكنها تفتح الباب للدساسين الذين يذيعون الشكوك حول القومية العربية .

ومصر لا تنوى أن تعيد نظام الخلافة الإسلامية ، ولكنها لا تؤدِّب من « يمضغون » حديث الخلافة من حين إلى حين ، ليصلوا إلى بعض المآرب الشخصية .

ومن العجيب أن مصر لا تسأل أبناءها المخلصين عن دقائق هذه الشؤون ، ولا تفكر فى الاستنارة بآراء من عرفوا الاتجاهات المختلفة فى الشرق .

أليس من الغريب أن لا يفكر وزير الخارجية مرةً واحدةً فى محادثة الأساتذة الذين عاشوا فى الحجاز أو اليمن أو الشام أو العراق ؟

أليس من الأغرب أن لا يفكر صحفىٌّ واحدٌ فى استطلاع ما عندنا من فهم الاتجاهات السياسية فى الشرق العربى ؟

إننا نقرأ الجرائد فنعجب لأفهامها الخواطىء عن الشرق .

وأكاد أجزم بأن ما ينشر فى أكثر جرائدنا عن الشرق لا يزيد فى الصحة عما نشرته مجلة « الموظف » عن إيوان كسرى حين زعمت أن أنقاضه نُقلتْ إلى البصرى والكوفة ، مع أن هذا فى حكم المستحيل ، والذى يحكم هذا الحكم يجوز عنده أن تُنقَل أنقاض بعض المنازل من

القاهرة إلى أسوان !

لم يسألنا أحد من رجال السياسة أو رجال الصحافة عما عرفناه من الاتجاهات السياسية فى الأمم العربية ، ولعلهم كانوا ينتظرون أن نسعى إليهم لنبصِّرهم بما يجهلون !

فما الذى عندى من الحقائق التى تدوينها فى هذه المذكرات ؟

لم ألتفت فى العراق إلى السياسة المحلية ، وهل ألتفت إلى السياسة المحلية فى مصر حتى ألتفت إليها فى العراق ؟

لم يكن يعمنى من السياسة فى العراق إلا فهم الجوانب المتصلة بالسياسة الدولية للأمم العربية ، أو الأمة العربية كما يعبِّر الأستاذ أبو خلدون ، وقد فهمتُ مما رأيتُ وسمعتُ واستنتجتُ أن الأمم العربية تنفر أشد النفور من فكرة الخلافة ، وهم يرونها من علائم السيطرة والاستعلاء .

فمن الحزم أن تنفُض مصر يدها من هذه الفكرة جُملةً واحدة ، ومن الحزم أن يفهم المصريون أنهم ليسوا أعقل من الأتراك .

وما هو أثر الخلافة الإسلامية فى التاريخ ؟

لقد كانت دائمًا مصدر نزاع بين الأمم العربية والإسلامية ، وبسببها فاضتْ سيولٌ من الدماء ، ومن أجلها تناحرتْ أممٌ وشعوب .

يجب أن نحدِّد الغرض من اتصالنا بالأمم العربية ، فهذا الاتصال ليستْ له صبغةٌ استعمارية ، بالتأكيد ، لأن الأمر بيننا وبين إخواننا العرب لا يزال عند قول شوقى :

وعلينـــا كما عليكـــم حديـــدٌ تتنـزَّى الليـوثُ فى قُضبانِـــه

المنفعةُ الحقيقية لمصر هى أن تشترك فى إحياء النهضة العلمية بالبلاد العربية ، وهذا الاشتراك ليست له منافع ترجع إلى الجيوب ، ولكن منافعه المعنوية أعظم مما يتصور الشعراء حين يستوحون الخيال . ومن الشرف لمصر أن تكون دولة لها مطامح معنوية ، فهذه المطامح المعنوية تزيد ثقة المصريين بأنفسهم ، وتسوقهم سوقًا إلى ميادين المجد ، وتقهرهم على الإكثار من تزويد عقولهم بزاد العلم الحديث .

فإن لم يكن بدٌّ من النص على المغانم العاجلة فإنى أقول إن اتصال مصر بالأمم العربية اتصال ثقافة ومودّة وأُخوّة يخوِّف أعداءَها أخطر تخويف ، لأن الأمم العربية فيها نخوةٌ وشهامة ، وحرصها على مودّة مصر يُدخِل فى صدور أعدائها الرُّعب ، وسلاح العطف ليس بالسلاح المفلول ؛ فمن المؤكد أن إنجلترا لا تُلاينُ مصر إلا وهى تعرف أن لها قوتين : قوتها الذاتية ، وقوتها المكسوبة من عطف الأمم العربية .

وأنا لا أرتجل هذا الكلام ارتجالاً ، وإنما هو كلامٌ أفدتُه من التجاريب : فالإنجليز يعتقدون

أن الثورة الهندية كانت صدًى للثورة المصرية ، وهم يعتقدون أن غضبَ مصر بعد الهدنة كان له تأثيرٌ مزعج فى أكثر أقطار الشرق . وأندية لندن وروما وباريس تنظر بعين الحذر والخوف والجزع إلى ذيوع الثقافة المصرية فى الأقطار الشرقية . وما تسنَّم الحُكم رجلٌ من ساسة الغرب إلا فكّر فى الاحتراس من خطر القاهرة فى الشرق .

وهذه الأمم العربية التى نشترك فى إنهاض حياتها الأدبية والعلمية والاجتماعية سيكون لها بإذن الله شأنٌ وشؤون ، وإذا صح أن ننتفع بعطفها وهى ضعيفة فسننتفع بعطفها وهى قوية ، وإذا جاز أن تنافسنا هذه الأمم فى الأيام المقبلات فستكون المنافسة المنتظرة حافزًا يدعونا إلى مضاعفة الجد والنشاط . ولا يخاف المنافسة إلا الضعيف ، ولسنا ضعفاء .

وأنا أصرِّح علانيةً بأنى مهدتُ لهذه المنافسة وأنا فى العراق ، ولو بقيتُ هناك مدةً وافيةً لخلقتُ للقاهرة منافسًا خطيرًا هو بغداد .

وما خنتُ وطنى بذلك : لأن وطنى لا يسرُّه أن تخمد جذْوة الحماسة العربية .

وخلاصة القول أن مصر لا تسود بغير الإخلاص ونكران الذات .

من حق مصر أن تتغطرس حين تنظر إلى الغرب ، ولكن من واجبها أن تتلطف حين تنظر إلى الشرق .

والشرق جُرِّب مرةً فأقام الدليل على أنه أهلٌ لحمل الأمانة العلمية ، كما قال الدكتور عبد الرحمن عمر ، فما الذى يمنع من أن نكون جادِّين أصدق الجد فى مقاومة الغرب ؟

إن أعظم مجد لمصر هو أن تستطيع التفاهم مع الأمم العربية والإسلامية فى الشرق لتخلق منهم دروعًا حصينة تقى اللغة العربية من عدوان اللغات الأجنبية .

وذلك لا يتم إلا بشرطٍ واحد : هو أن تسلم مصر من الاتهام بالغرض .

ومصر خاليةٌ خلوًّا تامًّا من الغرض ، ولو عرفتُ عنها غير ذلك لفضحتها بقلمى : لأن الحق عندى أعزُّ وأشرف ، ولكنها مع الأسف تسكت عن الدسائس والوشايات ، وتمنح الفرص السوانح لمن يتجرون بالخوض فى أعراض الشعوب .

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول :

عُقد فى القاهرة « مؤتمر الخلافة » منذ أكثر من عشر سنين فرأيت أن أسأل بعض « العلماء » عما تستفيد مصر من الخلافة فقيل إن للخلافة مزية هى توطيد مركز « العلماء » .

فمن هم أولئك « العلماء » حتى نعرِّض مصر فى سبيلهم للقيل والقال ؟

وما هو الأزهر نفسه حتى نُبَلْبِل من أجله خواطر الأمم العربية والإسلامية ؟

يجب أن يذهب لحاله كل من يحترف السياسة أو الدين فى سبيل الرزق .

يجب أن نكون من أمثلة النزاهة والإخلاص لنضع الحجر الأول فى بناء الشرق الجديد .

وهذا حال مصر فى هذه الأعوام ، ولكنها تسكت سكوت المريب ، فتفتح الطريق للدساسين من أهل الشرق والغرب . وصدق المتنبى حين قال :

ولم أر فى عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام

إن مصر شريفة الأغراض إلى أبعد الحدود ، وفيها أريحية تفرض عليها التضحية فى كثير من الأحوال ، ولكنها تعمل ولا تتكلم فى زمن لا يغنى فيه العمل عن الكلام ، لأنه يقوم مع الأسف على الدعايات .

* * *

وهذا الدرس البليغ أخذته عما اتصل بحياتى الأدبية :

أُغرِمتُ بالأدب الفرنسى منذ سنة ١٩١٥ فراعنى أن أراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول بأساليب لا أجد لها نظائر فى الأدب العربى ، فقررتُ أن أرجع إلى نفسى لأفتّش عما فيها من أسرار وغرائب وأعاجيب ، عسانى أُمِدُّ الأدب العربى بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب ، ومضيتُ فدرستُ طوائف من الغرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الإنسانية فى العصر الحديث وقد جمعت من ذلك كله محصولاً يعزُّ على من رامه ويَطُول .

ثم هالنى أن أرى الناس ينظرون إلَّى نظرات الرِّيبة والاحتراس ، وأزعجنى أن يصارحنى بعض الأصدقاء بالقطيعة لأنه يخاف على أهل بيته من الشاعر الذى يقول :

أصبْاكَ ما خَلفَ السِّتار وإنما خَلفَ الستائر لُولُوٌ مكنُونُ

والناس فى غَفَلاتهمْ لم يعلموا أنى بكلِّ حسانهمْ مَفتُونُ

ولما دخلتُ بغداد وجدت ناسًا يرتابون فى أمانتى بسبب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « حب ابن أبى ربيعة » وفى تلك المقدمة كلامٌ قلتُه فى الدعوة إلى الأدب المكشوف .

وأنا الذى جنيتُ على نفسى : لأنى لم أُبيِّن المراد من الأدب المكشوف ، وما أردت به إلا الصدق فى تصوير العواطف والأهواء ، ليكون فى ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس .

ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون ، لأنى بحكم أعمالى الرسمية من رجال التربية ، ولأنى رجلٌ متأهل وله أبناء ، ولأنى أتسامى إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة الوطنية .

وما الذى كان يمنع من تحديد الغرض الذى قصدت إليه حين أثنيت على الأدب المكشوف ؟

منع من ذلك أنى اعتمدت على عقول بنى آدم وفيهم أذكياء .

ومن هنا جاء الغلط : فالجاحظ وابن قتيبة والثعالبى كانوا يعرفون أن مؤلفاتهم لن تصل إلا إلى المياسير من الخواصّ ، أما أنا فأعيش فى عصر كثر فيه نقل المؤلفات من أرض إلى أرض ،

ومؤلفاتى ذائعةٌ ذيوعًا لم أكن أتوقع أن تصل إليه ، وقد يكون فى القراء من يخفى عليه أنى أدعو إلى مبادىء أخلاقية سامية أغشيّها بالفُتون كما يصنع الطبيب فى تغشية « البرشامة » المُرَّة بغشاءٍ من الحلواء .

وقد يكون لى خُصُومٌ يتخذون من أدبى ذريعةً إلى إقصائى عما أطمح إليه من المناصب العالية ، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون فى سرائر أنفسهم أنى من أهل الصدق ، ولكن الخصومة لها طبائع سُود ، وهى تحرِّف الكَلِم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء .

والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرأون ، وهل أنسى ما وقع بينى وبين الأستاذ سعد اللبان ؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديقٌ حميم ، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعاريض ، ولكنه مع ذلك أسرَّ إلىّ مرةً أنه يحب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسى فى كتاب « ذكريات باريس » .

وقد ضحكتُ ضحكةً أصرح من ضحكاته الصريحة ، وأكدتُ له أنى صادقٌ فى كل ما تحدثت به عن نفسى من غراميات باريس !

ولما نشرتُ مذكراتى عن غرامى بمرجريت ورعاية ابنها موريس كتب إلىّ ناسٌ من بغداد يرجوننى أن لا أفضح نفسى على نحو ما صنعتُ فى نشر تلك المذكرات ، لأن ذلك يؤيد حجة خصومى هنا وهناك .

كان علىَّ أن أعتبر بما رأيت وسمعتُ ، كان علىّ أن أعتبر منذ اليوم الذى أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه فى كتاب « مدامع العشاق » بمقال نشره فى جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب « مدامع العشاق » يحرِّض على الشهوات .

* * *

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن العقل يفرض أن نوضِّح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات ، فلو أنى كنت أفصحت عن غرضى منذ أول يوم تصديتُ فيه للنشر والتأليف لأعفيتُ نفسى من متاعب القيل والقال .

ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب .

فمؤلفاتى حين تُفهَم فهمًا خاطئًا لا تضرُّ أحدًا غيرى ، وأراجيف المفسدين لها نتيجةٌ صغيرة وهى إخراجى من خدمة الحكومة المصرية .

ولكن التجريح حين يوجَّه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع ، فسكوتُ مصر عما يوجَّه

إليها من تُهم كواذب قد يعطِّل رسالتها العلمية فى الشرق ، فيضرها مرةً ويضر الشرق مرتين ، لأن الشرق العربى يريد حقيقةً أن يثق بأن له إخوانًا أشِقّاء فى مصر ، وهو يتأذى حين يوهمه المفسدون بأن العواطف العربية ليست إلا خداعًا فى خداع .

وهذه الأزمة شهدتها بنفسى حِين زرت لبنان وسورية وفلسطين والعراق ، ولعلى أراها حِين يوفقنى الله لزيارة تونس والجزائر ومراكش ، فأهل تلك البلاد الشقيقة يجزعون مرات فى كل يوم لأن صنائع الاستعمار يوهمونهم أن مصر لا تفكر فى غير السيطرة والاستعلاء .

وقد دار هذا الحديث بمنزل ليلى منذ نحو خمسة عشر شهرًا ، ودونتُ رأيى فيه بالجزء الأول من هذه المذكرات ، ولا أذكر بالضبط ما دونتُ هناك : لأن وقتى يضيق عن مراجعة ما أكتب ، ولكن المفهوم عندى أنه لا بدّ من إنشاء قلم خاص بمصلحة الصحافة لمراجعة ما يُكتب عن مصر فى سائر الأقطار العربية والإسلامية ، ومراقبة ما يُنشر فى جرائد مصر عن تلك البلاد .

ومن الواجب أن يكون الموظفون بذلك المكتب رجال لهم خبرة ودراية ومعرفة بأحوال الشرق ، ومن أهل الغيرة على الأُخُوَّة العربية ، ويجب حتمًا أن يكونوا عرفوا الشرق وأن يكونوا فى صدق إبراهيم المازنى وعبد الوهاب عزام ومحمد عبد العزيز سعيد ومحمد فهيم وعبد الواحد الوكيل ، ومن إليهم من أفاضل الرجال . وإنما ألحُّ فى الدعوة إلى إنشاء هذا القلم الخاص لأنى أعرف أن الصحافة المصرية معرَّضة لخطر عظيم : هو محاكاة الصحافة الأوربيـه ، والصحافة الأوربية تستبيح ما لا يباح !

ولو شئتُ لنصصتُ على أن أكثر الصحفيين عندنا شبان تعوزهم التجاريب ، وفيهم ناس يُشبهون النملة حين تقف فوق البطيخة : فالبطيخة عند النملة هى الكرةُ الأرضية ، ومصر عند بعض الصحفيين هى أم الدنيا ، وما سواها سرابٌ فى سراب !

وبهذه المناسبة أذكر أنى قرأت للأستاذ أميل زيدان كلمة حول الاختبار الصحفى بمناسبة تفكير كلية الآداب فى إنشاء قسم للصحافة ، وهو يرى أن أعظم سؤال يوجه إلى الطالب فى قسم الصحافة هو السؤال الذى يشهد جوابه بأن الطالب يفهم جميع الظروف التى تظهر بها الجريدة اليومية من وقت إعداد المقالات إلى وقت ظهورها فى السوق .

وقد فهمت من كلمة الأستاذ أميل زيدان أن « الخبر » له قيمتان : قيمة حقيقية وقيمة صحفية .

وهذا حق .

ولكنه سيرٌ فى طريق التضليل ، ففى جرائد مصر أخبار لها قيمة عظيمة من الوجهة الصحفية ، ولكنها مشئومة من الوجهة الوطنية : فكتابة مقال عن دخائل بعض البيوت ينفع

نفعًا عظيمًا من الوجهة الصحفية ، ولكنه مؤذٍ من الوجهة الوطنية ، ونشر كلمة مثيرة للخواطر أجدى على الصحفى من الاشادة بكتاب جيد .

ونشر خبر يمزّق ما بيننا وبين بعض الأمم العربية من صلات يزيد توزيع الجريدة ألفًا أو ألفين ، ولكنه يرجع على مصر بالوبال .

فما الذى ستصنعه كلية الآداب حين تنشىء قسمًا للصحافة ؟

أنا أرجو أن يكون لذلك القسم المنتظَر فوائد غير التمهيد لأكل العيش وتقليل عـدد العاطلين .

أنا أرجو أن يكون قسم الصحافة بكلية الآداب نواةً لوزارة الدعاية التى سننشئها بعد عام أو عامين ، يجب أن لا يدخل هذا القسم غير الشبان المزوَّدين بالألقاب الجامعية من الذين ظهرت عليهم أمارات الاستعداد للخدمة الوطنية .

وليس من العيب أن يُفْهَم أننا نكوِّن شبانًا يصلون بيننا وبين أهل الشرق أو أهل الغرب .

بل العيب كل العيب أن نترك علاقاتنا الخارجية تحت رحمة شبان تعوزهم التجارب من الذين يرون أن الخبر الكاذب أنفع صحفيًّا من الخبر الصحيح .

* * *

والغيرة على مصر تفرض أن أسجل المشاهدة الآتية :

لم أدخل مدرسة فى القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية أو أسيوط باسم التفتيش إلا حرصت على معرفة ما يقرأ التلاميذ فى أوقات الفراغ .

وقد خُيِّل إلىّ أن هذا أهم من ملاحظة الحضور والغياب .

فماذا رأيت ؟

رأيت أن التلاميذ عندنا لا يقرأون المجلات الجدية ، وإنما يكتفون بقراءة المجلات الفكاهية .

وهذا يخالف تمام المخالفة ما شاهدته يوم كنت فى العراق ، فالتلاميذ العراقيون يُقبِلون على المجلات الجدية إقبالاً شديدًا ، على نحو ما كان يصنع التلاميذ المصريون منذ عشرين سنة .

وأذهب إلى أبعد حدود الصراحة فأقول :

إن مجلاتنا الفكاهية تُقرأ عندنا ، أما مجلاتنا الجدية فتقرأ فى غير مصر من الأقطار العربية ، ولا يقرأها فى مصر غير الخواص .

فما معنى ذلك ؟

معناه أننا عجزنا عن رياضة شبّاننا عجزًا قبيحًا ، ولم نستطع أن نقدم إليهم الجِدَّ فى صورةٍ مقبولة وأسلوبٍ أخّاذ ، وتلك هى المهمة الحقيقية لسِحْرِ البيان .

ومعناه أيضًا أننا لا نفكر فى الشبان المصريين حِين نكتب ، وإنما نفكر فى الشبان العراقيين

والحجازيين واليمنيين والفلسطينين والسوريين واللبنانيين وفى أمثالهم من شبان تونس والجزائر ومراكش . وهذا غرضٌ شريف ، ولكن يجب أن يدخل الشبان المصريون فى الحساب ، لأنهم قوةٌ هائلةٌ جدًّا ، ولأنهم سيحملون الأمانة العلمية فى المستقبل القريب .

وقد جمعتُ المدرسين فى إحدى المدارس الأجنبية وصرختُ فى وجوههم : لماذا يزهد تلاميذكم فى المطالعات ؟

فقال قائل منهم : هذا عيب شائع فى المدارس المصرية فكيف تُؤَاخَذ به المدارس الأجنبية ؟!

وهذا الجواب أفحمنى : لأنى أعرف أن أكثر المدرسين عندنا يبخلون على أنفسهم بكتاب ثمنه خمسة قروش ، فكيف أنتظر أن يولَع التلاميذ بالمطالعات !

ولكن لا بدَّ من التفكير فى الخلاص من هذه القناعة العقلية .

إن متوسط ما يقرأ الشاب الفرنسى فى العام الواحد ستون كتابًا .

فكيف يجوز أن يمر العام على الشاب المصرى بدون أن يطَّلع على كتاب واحد ؟

العيبُ عيب المؤلفين .

وهل ضَعُف التأليف فى مصر ؟ مصر لم يضعف فيها التأليف ، ولكنه منحرفٌ بعض الانحراف .

المؤلفون المصريون فى هذه الأيام لا يفكرون فى غير الخواصّ : فهم يشتغلون بتحقيق الأدب الجاهلى والنثر الفنى فى القرن الرابع وفلاسفة اليونان والتصوف الإسلامى وينسون أن من واجبهم أن يحدِّثوا الشبان عن معضلات العصر الحديث .

ومن المحزن أن أصرح بأن مصر لم يَنبُغ فيها كاتب يسيطر على عقول الشبان بعد المنفلوطى ، وما كان المنفلوطى بأعلم من العقاد أو طه حسين ، ولكنه كان أقدر منا جميعًا على الوصول إلى أفئدة الشباب .

وقد ظفر المنفلوطى بمجد لم يظفر بمثله أعاظم الكتاب فى باريس .

جلستُ مع المنفلوطى ساعة فى المكتبة التجارية فطلبتْ كتبه وهو حاضر أكثر من سبعين مرة ، فمتى يُخلَق الكاتب الذى تُطلَب كتبه فى الساعة الواحدة عشر مرات لا سبعين مرة ؟

وقد تعب الدكتور طه حسين فى محاربة المنفلوطى ، ثم قال يوم مات : يجبُ أن يُخلَق فى مصر منفلوطىٌّ جديد .

فمتى يُخلق المنفلوطى الجديد ؟

* * *

ما لى ولهذا كله ؟ يجب أن آوى إلى فراشى لأستعدّ لرحلة الغد مع أعضاء المؤتمر الطبى فلى معهم شؤون وشؤون .

إلىّ ، أيها القلم ، ولا يُرعك أن يكون الفجر اقترب ، فلا بدّ من تسجيل ما وقع فى اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبى العربى .

لم أحضر الاجتماعات العلمية بكلية الطب ، لأنى قضيت الليلة الماضية فى جدال وإنشاء ، والجدال والإنشاء يأخذان الوَقود من عافية البدن وقوة العقل . وكذلك استرحتُ إلى الضُّحى ، ولم أخرج من بيتى إلا قُبيل الظهر لألهوَ ساعةً بالطواف حول شارع الألفى وشارع فؤاد وشارع عماد الدين .

وفى تمام الساعة الثانية كنتُ فى ميدان إبراهيم لأصحب الضيوف إلى أهرام سقارة .

ومن الواجب أن أسجل أنى لم أر أهرام سقارة قبل اليوم ، لأن المصرىَّ يجهل بلاده أقبح الجهل ، وأستطيع أن أصرِّح بأنى لم أر أسوان إلى اليوم ، وسأراها بإذن الله يوم أذهب للتفتيش على بعض مدارس الصعيد ، وتحقيقُ ذلك سهل : لأنى أسافر فى الدرجة الأولى بالمجان !

وهل رأيتُ الأقصر إلا يوم ذهبت إليها بالمجان مندوبًا عن جريدة الأفكار سنة ١٩٢٢ لأصف قبر توت عنخ آمون ؟

المصرىُّ فى بعض أحواله تُعوزه غريزة التطلع إلى المجهول وهل يصدِّق أحد أنى لم أر فلسطين وسورية ولبنان إلا حين سافرت بالمجان مندوبًا من الحكومة المصرية لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

إن كان المصريون جميعًا فى مثل حالى من حب العزلة والاعتكاف فسيفوتهم شىء كثير من فهم ألوان الوجود .

ركبتُ إلى سقارة ، وأنا أجهلُ من الضيوف بطريق سقارة .

ولم أعرف « ستوديو مصر » إلا لأنى كنت ذهبتُ إليه مدعوًّا لأشهد حفلة الافتتاح .

* * *

كانت الخضرة تروع الأنظار من الجانبين ، وكان للوادى سحرٌ قهار لا يسلم من فتونه إلا من حُرِم نعمة الإحساس .

ولقينا فى الطريق نخلات تذكِّر بنخلات العراق .

ورأينا الإبل والشاة والأنعام وهى تتذوق لذة القرار فوق ظهر الأرض ، فتذكرتُ أن المصورين لا يرون صورة السلام إلا فى طمأنينة تلك الحيوانات فوق مرابع الأعشاب

والبقول ، وصح عندى أن المزية الأصيلة للإنسان هى التفرد بحمل الهموم والأحزان فى سبيل الحب والمجد .

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يغزو قلبَه الحزنُ ، ولا يعرف معنى الحزن من غير الإنسان إلا الحيواناتُ الراقية ، فالحزن ليس علامة ضعف وإنما هو علامة قوة ، وما عاب الناسُ الحزنَ إلا لخوفهم من أن يكون بابًا إلى الاستسلام والقنوط ، فثورتهم عليه ثورة رجال يعرفون عواقب ما يشعرون .

ولو كان الحزن مما يَشين فى جميع الأحوال لما كان فى الأنبياء بكّاءون .

والكتب التى سيطرت على العالم — وهى التوراة والإنجيل والقرآن — لم تخلُ من حزنٍ وبكاء .

ومحمدٌ ﷺ بكى يوم مات ابنه إبراهيم .

وجميع العظماء ذاقوا مُلوحة الدمع .

وأنا بكيتُ يوم فارقت ليلاى ، وسأبكى أيامى فى حماها إلى أن أموت .

* * *

هذه هى أهرام سقارة التى خلقت الجدل بين إسماعيل صبرى وخليل مطران ، وقد بينت ذلك فى الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » فلا أشغل نفسى به فى هذا الحديث .

وها نحن أولاءِ نتنسم الهواء فى بقعة صحراوية كانت ملعب الفراعين منذ آمادٍ طوال .

وما قيمة أهرام سقارة بجانب أهرام الجيزة ؟

إن العظمة هنا أقل من العظمة هناك .

ولكن لسقّارة مزيةً : ففيها مدافن العجول .

* * *

دخلت تلك المدافن مع الضيوف فهالنى أن أسمع من « الدليل » كلامًا لا يُقره ذوق ولا عقل ، فقد ظن ذلك الجاهل أن المصريين لم يكونوا يعبدون العجول إلا لأنها مبقّعة الألوان .

وما هى إلا لحظة حتى أشرت إليه أن يسكت وانطلقتُ أقول :

سيداتى ، سيادتى :

أنتم هنا فى ضيافة التاريخ ، تاريخ الفراعين ، وهم قومٌ حفظوا التوازن الدولى فى التاريخ القديم ، فمن العقوق أن تسمعوا فيهم ما لا يليق .

سيداتى ، سادتى :

إن الفراعنة عبدوا العجول ، ولكنْ لذلك سرٌّ يخفى على الجهلاء : فالفراعنة كانوا يعطفون على « البقر » أشد العطف ، لأنهم كانوا يرون فى البقرة صورة الخير وصورة الحنان ، وعن

الفراعنة أخذ الناس حبَّ البقر فى الهند وفى العراق. ، أما الهند فأخباره فى هذا الباب لا تخفى عليكم وأما العراق فتاريخ الحجاج يسجله أصدق تسجيل ، فقد نهى الحجاج عن ذبح البقر ليضمن الخير لأهل العراق ، وكان ذلك فرصةً لسخرية بعض شعراء العراق من الحجاج .

فالفراعنة هم الذين أذاعوا فى العالم القديم تقديس هذا النوع من الحيوان المستأنس الظريف ، ولو شئت لقلت إن « البقرة » أوفر حنانا من المرأة ، وقديمًا كان العرب يصفون المرأة الجميلة بأنها من بقر الجِواء ، وهم يريدون النص على حلاوة العينين وطراوة الحنان ، وإن لم يفطن إلى دقائق هذا المعنى أكثر الشراح .

كانت الوثنية هى الدين الغالب فى مصر قبل أن تهتدى إلى التوحيد ، ولكن أى وثنية ؟ هى وثنية شِعرية جعلت العالم أمام أعينهم وأفئدتهم أمواجًا من النور الوهاج .

والمهم أيها السادة أن تعرفوا أن مصر من أعظم أوطان المبادىء : كانت صادقة فى الوثنية ، وكانت صادقة فى النصرانية ، وكانت صادقة فى الإسلام .

أما صدق مصر فى الوثنية فيشهد به ما خلَّفتْ من الآثار الرائعة التي يندر أن يكون لها مثيل فى العالم ، وأتحداكم أن تثبتوا أن العالم القديم فى أى بقعة من الأرض خلَّف آثارًا تشبه أو تقارب ما خلَّف الفراعين .

وأما صدق مصر فى النصرانية فيشهد به التاريخ ، فالمسيحيون كلهم يؤرخون بميلاد المسيح ، أما نصارى مصر فيؤرخون بمذابح الشهداء .

وأما صدق مصر فى الإسلام فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، ويكفى أن تذكروا أن مدينة القاهرة تزدان بمجموعة نفيسة من المساجد ليس لها نظير فى أى مدينة إسلامية ، ومَن حدثكم بأن فى العالم الإسلامى مدينة يظهر فيها سلطان الإسلام كما يظهر فى القاهرة فهو مضلِّل كذوب .

إن مصر أيها السادة هى البلاد التى استعربت استعرابًا تامًّا منذ اطمأنت إلى الإسلام ، وهى التى دحرت الصليبيين ونجت الشرق من بأسهم الشديد ، وهى كذلك التى استعصمت وعزَّتْ فلم ينل منها التتار والمغول أى منال .

فأرجوكم باسم الأدب والذوق السليم أن لا تعرضوا لمصر فى ماضيها القديم بما يسىء ، فقد اعتنقت الوثنية عن صدق ، ثم اعتنقت النصرانية عن صدق ، وفتحت صدرها للإسلام عن صدق .

* * *

وعند هذه الكلمة صاح بعض الضيوف : ولكن مصر الإسلامية تسمح بشرب الخمر

علانية !

فقلت : هذا حق ، ولكنه من دلائل القوة الأخلاقية .

فقال : وكيف ؟

فقلت : لأن المصرىّ فى سريرة نفسه يبغض النفاق ، فهو يستبيح الإثم فى العلانية، وقد يأنف من الإثم فى الخفاء ، وهذا الجهر بالمعاصى فى مصر هو الشاهد على أن عندنا قوةً خُلُقية ، لأن المرء لا يجهر بالمعصية إلا وهو يحارب أقوامًا يقاومون العصيان ، ولو ضعُفت الأخلاق العامّة فى مصر لما كان هناك موجب لأن يفتضح من يفتضح فى طلب اللذات .

أضيفوا إلى ذلك ، أيها السادة ، أننا نلقَى أوربا وجهًا لوجه ، ولو اتفق ذلك الحظ السعيد أو المشئوم لغيرنا من المسلمين لشقُوا به أعنف الشقاء .

إن أوربا تدخل إلينا من كل باب ، ونحن مع ذلك نسدّ فى وجهها جميع الأبواب .

وقد تسمعون أننا نأخذ عن أوربا ما تملك من سيئات ونزهد فيما تملك من حسنات

وهذا كذب وافتراء :

فمصر هى التى نقلت إلى اللغة العربية فرائد المؤلفات الأوربية ، وما سمع إنسانٌ فى الشرق بعلوم الأوربيين وآدابهم إلا بعد أن نقلناها إليه .

أنتم تعلمون أن تركيا كانت تسيطر على مصر سيطرة تكاد تكون فعلية ، ومع ذلك تنسون أننا سبقنا تركيا إلى اقتباس المدنية الأوربية ، فعرفنا أسرار الحضارة الحديثة قبل أن يعرفها الأتراك .

وعن مصر أخذ الشرق العربى أنظمه التربية والتثقيف ، وعن مصر أخذ الشرق الإسلامى فكرة التوفيق بين العلم والدين .

قد تسمعون أن مصر أخذتْ عن الغرب نظام السهرات وأدب الرقص .

وهو كذلك .

ولكن متى سلم ابن آدم سلامةً تامة من آفة التقليد السخيف ؟

وما لكم لا تعترفون بأن من أهم مزايا مصر أن تكون من أقدر الأمم على تذوق ما تراه من هدًى وضلال ؟

إن مصر أطلّتْ فجاةً على بساتين الحضارة الحديثة فكانت أسبق الأمم الإسلامية إلى الفتنة بما فى تلك البساتين من أزهار وأشواك .

أنتم لا تعرفون كيف امتُحِنَّا وابتُلينا ، يا إخواننا فى الشرق ، أنتم لا تعرفون أنكم لو ابتُليتم بمثل ما ابتُلينا لكان مصيركم مصير آدم حين عصى ربه فى الفردوس .

إن بعض الأمم الإسلامية رجعت إليها العصبية الجاهلية فأحيتْ لغاتها القديمة وزهدت فى

اللغة العربية : لغة القرآن ، أما مصر فستظل بإذن الله إلى الأبد وهى الحصن الحصين للغة العربية .

* * *

وهنا هتف هاتف : أهذه محاضرة عن مصر ؟

فقلت : إن مصر بلدكم ، أيها الضيوف الأعزاء ، ودفعُ التهم عن مصر يجب أن يقع من أنفسكم موقع القبول ، إن عِرض مصر هو عِرض العروبة ، والدفاع عن مصر دفاعٌ عن العروبة ، ولولا إيمانى بأن صدوركم تنشرح حين تُذكَر مصر بالخير الجزيل لطويتُ عنكم هذه الشمائل الغُرّ من أخلاق وادى النيل .

وما الذى تغنم العروبة حين تصح أراجيف المبطلين فى عروبة هذه البلاد ؟

إن مصر تشعر بأنها مسئولة أمام الضمير العربى ، وهى من أجل ذلك تبذل ملايين الدنانير فى كل عام لتقوية الثقافة العربية ، ومن واجب العرب أن يشجعوا هذه الحماسة ، وأن يفهموا أن تحاملهم على مصر قد يخلق أحقادًا فى بعض الصدور التى لا تُدرِك جيدًا قيمة الأخوّة العربية .

* * *

وهنا اعترض أحد الضيوف قائلاً : أنت قلت إن المصريين عبدوا البقرة مع أن الصور المرسومة على جدران هذا المعبد صور ثيران .

فقلت : إنهم اختاروا الثور فى بعض الصور ليسجلوا رأيهم فى تمجيد القوة ، ولو أنك زرت معبد الكرنك فى الأقصر لرأيتهم صوروا الرجال بأسلوب ينافى الحياء ، ليُفهموا من لا يفهم أن الفحولة هى أعظم خصائص الرجال .

ثم خرجنا من المعبد الذى صوِّرت فيه العجول لندخل السرداب الذى وضعت فيه توابيت العجول ، وكنت فكرت فى التمتع بلحظة لهو فى ذلك السرداب ، وأغرانى بذلك أنْ رأيت فتاةً جميلةً تُشبه ظمياء وهى تنظر إلىّ نظر الحنان بعد أن سمعتْ خطبتى فى الدفاع عن وثنية الفراعين ، فسايرتها إلى السرداب مسايرة الطيش للشباب .

وقلت فى نفسى : إن المصريين عصوا ربهم بعبادة البقر ، فكيف يفوتنى أن أتقرب إلى ربى بعبادة الظباء .

وفى أثناء الزحام الذى تدافع فى ظلمات السرداب هجمتُ على تلك الفتاة فضممتها إلى صدرى وقبلتها قُبلتين أثيمتين ، وظل ذراعى طوقًا لخصرها النحيل إلى أن فضحتنا مصابيح السرداب ، فنظرتُ إلى وجهها أجتلى ما فيه من إشراق وفتون فإذا هى امرأةٌ حيزبون !

فأين ضاعت تلك الفتاة ؟

أين ضاعتْ ؟ أين ضاعتْ ؟

وكيف اهتدتْ إلىّ هذه الحيزبون ؟

أشهد بالله أننى تلميذ الشريف الرضى ، الشريف الذى قال :

أيها القانص ما أحسنـ ـتَ صيد الظَّبَيَات

فاتَكَ السرب وما زُوِّد ت غير الحسراتِ

وبعد هذه الخيبة فى الصيد خرجت إلى مقصف الشاى وأنا مكسوف ، فاكتفيت بالجلوس خلف سُور المقصف مع بعض الضيوف ، فأطل الدكتور عبد الواحد الوكيل وقال : تعال يا دكتور زكى لتسمع خطبة العشماوى بك ، فنهضتُ متثاقلاً لأسمع خطبة ذلك الرجل البليغ .

لم أر سعادة العشماوى بك ولا معالى الدكتور هيكل باشا مع أن الدعوة موَّجهة من وزير المعارف ، وقد اعتذرتُ لمن سألونى بأن هذه ليست دعوة شخصية ، وإنما هى دعوة وزير المعارف ، والوزير نفسه ليس فى القاهرة وإنما يقضى أيام العيد فى أسوان .

* * *

آه ثم آه من أخطار السكوت : سكوت مصر عن تصحيح مركزها أمام الأمم العربية .

عُدت بالسيارة مع أحد فضلاء العراق فحدَّق فى وجهى طويلاً ثم قال : إن كان فى الدنيا إنسان يصوِّر الحق بصورة الباطل ويصوِّر الباطل بصورة الحق فهو الدكتور زكى مبارك ! إيش لون طبيب لخاطر الله ؟

فقلت وأنا أبتسم : وأنت يا فتى العراق ، ماذا تريد أن تقول ؟

فقال : فهم الناس من خطبتك أن مصر سبقتْ إلى العروبة ، وهذا غير صحيح ، لأن فكرة العروبة نشأت أولاً فى الشام والعراق .

فقلت : اسمعْ ، يا صديقى ، ثم بلِّغ إخوانك فى الشام والعراق : إن مصر سبقت إلى العروبة من الوجهة القومية أما أنتم فسبقتم إلى العروبة من الوجهة السياسية ، والفرق بين الوجهتين بعيد .

فقال : كيف ، كيف ؟

فقلت : إن الدعوة إلى العروبة من وجهة سياسية نشأت عندكم أولاً ، لأن فكرة العروبة كان يراد بها التخلص من طغيان الأتراك ، ونحن قبل الحرب لم نكن نشكو طغيان الأتراك : لأننا كنا ابتُلينا بالاحتلال الإنجليزى ، فانصرفتْ جهودنا كلها إلى مقاومة ذلك الاحتلال ، وكان الوطنيون المصريون فى ذلك العهد يعطفون على تركيا ، لأنهم كانوا يرجون أن يخلقوا للإنجليز أعداءً من الأتراك . وآية ذلك أن المصريين الذين عاشوا فى تركيا شاركوا أهل الشام والعراق فى العطف على القضية العربية التى خُلقتْ خلقًا لمقاومة الغاشمين من سلاطين آل

عثمان ، وأنتم تعرفون أن القائد عزيز على المصرى باشا وضع الحجر الأول فى بناء القضية العربية وهو فى استامبول . ويجب أن تعرف أيها الأخ أن فكرة العروبة كانت ذات وجهين : أحدهما مقنّع وثانيهما صريح ، أما الوجه المقنّع فهو وجه المأجورين الذين كانوا يملأون جيوبهم بالدنانير الإنجليزية ليحاربوا الأتراك باسم العروبة، وأما الوجه الصريح فهو وجه الأشراف من أهل الشام والعراق ، هو وجه الرجال الذين آمنوا بوجوب الدعوة إلى إنشاء أمبراطورية عربية تعيد بناء الإسلام والعروبة على أساس متين .

وأنتم فى العراق جهلتم ما أُحيط بتلك القضية من دسائس فشُبِّه لكم الخطأ بصورة الصواب ، واتهمتمونا بالتخاذل عن نصرة القضية العربية ، ولو اطلعتم على السرائر لعرفتم ما نحن عليه من الصدق والاخلاص .

— هذا كلامٌ نفيسٌ جدًّا ، ولكن كيف سكتم عن إعلانه إلى هذا اليوم ؟

— إن المصريين أجهل الناس بالسياسة ، وأكثرهم يتوهم كما توهم سعد زغلول أن الحق فوق القوة ، وأنه سينتصر ولو بعد حين ، هل تصدق أيها الأخ أن الحكومة المصرية ليس فيها موظف مسئول عن تعقب ما يقال عنها فى الشرق ؟ هل تصدق أن الحكومة المصرية تُصدر على حسابها بعض الأعداد من الجرائد الأوربية والأمريكية للتحدث عما وصلت إليه مصر فى ميادين العلم والاقتصاد و لم تفكر مرةً واحدة فى أن تُصدر على حسابها عددًا من الجرائد العراقية أو السورية أو اللبنانية ؟ إن مصر تعتمد على أصدقائها فى الشرق ، ولكن فاتها أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء !

لو كانت الحكومة المصرية تعقل لنشرت كتابًا تبين فيه ما صنعت فى خدمة العروبة من الوجهة القومية .

فقال الرفيق العراقى : و لم لا تصدر أنت هذا الكتاب ؟

فقلت : أنا مشغولٌ عن السياسة بالحديث عن الملاح !

— وكيف تُشغَل بالحب عن السياسة ؟

— لأن الحب هو الذى نبَّه العرب إلى خطر الطغيان .

— وكيف ؟

— لأن أبيات سيدنا عمر بن أبى ربيعة رضى الله عنه هى التى بصّرت الرشيد بمواقع الرشد ، وهل تنبه الرشيد بمواقع الرشد ، وهل تنبه الرشيد إلى واجبه فى صيانة العروبة إلا حين غنّته إحدى الجوارى قول فتى قريش :

ليت هندًا أنجزتنا ما تَعِدْ	وشَفَتْ أنفسنا مما تجدْ
واستبدت مرةً واحدةً	إنما العاجز من لا يستبدّ

— ولنفرض أنك عَقَلتَ ، فما الذى كنت تقول لتثبت أن مصر سبقت إلى فكرة العروبة من الوجهة القومية ؟

— كنت أقول إن مصر أول بلد عربى حمل راية النهضة فى العصر الحديث ، وقد نقل المصلحَ الكبيرَ محمد على من حال إلى حال ، فقد كان محمد على باشا الكبير تركيًّا وكان يتمنى بالطبع لو استطاع تتريك مصر ، ولكنه رأى ذلك يعطل مطامحه الإصلاحية ، فتعرّب هو ليخلق من مصر دولة عربية ينافس بها قومه من الأتراك ، وقد رأيتم أن جلالة الملك فاروق نسى لغة أجداده من الأتراك مع أن العهد بهم قريب ، فحدثنى عن بلد استطاع أن يُخضرِم ملوكه كما استطاعت مصر أن تخضرم ملوكها الأمناء .

— ولكن مصر تكثر فيها الوشائج الأجنبية .

— لأن الله عز شأنه جعل صلة الوصل بين الشرق والغرب ، ومن حسن الحظ أن يكون لنا هذا النصيب من عناصر النبوغ والعبقرية .

— ولكن هذا يقدح فى المصرية .

— وهل كان هارون الرشيد عراقيًّا وهو صاحب الفضل الأكبر على العراق ؟ وهل كان عبد الرحمن الداخل أندلسيًّا وهو صاحب الفضل الأكبر على الأندلس ؟ وهل كان المعزّ مصريًّا وباسمه بُنيت القاهرة ؟

وهل كان فيصل عراقيًّا وأنتم ترونه مؤسس العراق الجديد ؟ وهل كان نابُليون فرنسيًا وبأمجاده وحروبه تعطر تاريخ الفرنسيس ؟

إن « المانجة » فاكهةٌ هندية الأصل ، ولكنها حين غُرِستْ فى مصر أقامت الدليل على أنها كانت فى الهند من الغرباء ، والإسلام نشأ فى بلاد العرب ، ولكنه حين اتصل بمصر عرف أن مصر هى وطنه الأصيل ، واللغة العربية نشأت فى جزيرة العرب ، ولكنها حين استأنست بمصر آمنتْ بأن العروبة هى من خصائص وادى النيل ، والليل المظلم الموحش لم يتوجع منه أحدٌ كما يتوجع المصريون والعراقيون ، ولكن المغنين المصريين تفردوا بالاجادة فى ترتيل « يا ليل ، يا ليل ، يا ليل » وصديقكم الوفىّ أبوه عربىّ الأصل وأمه تركية الأصل ، ولكنه قيثارة تغرِّد بمحاسن النيل والفرات .

فكيف تنكرون أن يكون من فضل مصر أن تلتقى فيها حضارة البحرين : بحر القُلْزُم وبحر الروم ؟

أحب أن أعرف كيف تنكرون الحق والعراقُ لم يعرف التضحية بالأنفس والأموال إلا فى سبيل الحق ؟

— خَبّلتنى ، خَبّلتنى !!

— إن مصر تريد أن تريح العالم العربى من وباء الجنسيات .

— إيش لون ؟

— لم يرتفع العرب والمسلمون إلا بفضل الثورة على العصبية الجاهلية التى تقوم على أساس الجنس ، ووباءُ النسب فى تاريخ العرب كانت للتمييز فقط و لم تكن للتفريق ، فكان يقال بصرى وعراق وموصلى ، كما كان يقال إسنوىّ وباجورى وشنشورى ، وكما يقال جامعىّ وأزهرى .

إن مرض الجنسية يا صديقى مرضٌ خبيث ، وهو قادرٌ على تمزيق الأواصر بين الأمم العربية والإسلامية إن تركناه بلا علاج . إن كثيرًا من الشبان المصريين يزورون أوربا وأمريكا ثم يرجعون وفى أيديهم زوجات أوربيات أو أمريكيات ، فمتى أرى الشبان الذين يزورون الشرق من المصريين يرجعون وبأيديهم زوجات عراقيات أو سوريات أو حجازيات ؟ متى يفهم الشاب المصرى أن من الشرف أن يستطيع خَلْق مودّات لوطنه فى الشرق ؟ أنت يا صديقى تجهل الأسباب التى مكنت العرب من أن يسيطروا على العالم سيطرة أدبية نحو ثلاثة قرون .

— وما هى تلك الأسباب ؟

— هى أسباب كثيرة يدركها فلاسفة التاريخ ، ولكنها عندى ترجع إلى سبب واحد : هو سلامة العربى المسلم من مرض الوطنية .

— إيش لون ؟

— الوطن فى عُرف العربى القديم هو داره فقط ، وكان العربى يحنّ إلى وطنه يوم كان ضعيفًا ، فلما أرشده الإسلام إلى أن الوطن الصحيح هو الكرةُ الأرضية مضى يصول ويجول من الشرق إلى الغرب وينشر لغته ودينه فى رحاب الأرض .

الرجل العربى هو أستاذ الرجل الإنجليزى ، فعن العرب تلقّى الإنجليز أصول الرجولة السليمة التى لا تعرف البكاء فى سبيل الوطن . كان العربىُّ أنّى شرّق أو غرّب يُقبِل على الجد والهزل إقبال الأصحاء ، فتراه تارةً فى المسجد ، وتراه تارةً فى الحانة ، وهو فى جميع أحواله فَرِحٌ جَذلان ، وكذلك الإنجليزى ينقل إلى كل أرض أصول البهجة والانشراح فيخلق لروحه كنيسة فى كل بقعة ، ويخلق لقلبه حانةً فى كل مكان .

وكان العرب فى بعض مذاهبهم المعاشية أبعد نظرًا من الإنجليز ، لأن العربى كان يرى من حقه أن يصاهر من يشاء ، ومن هنا كان الأدب العربى فى أيام ازدهاره أقرب إلى الحياة من الأدب الإنجليزى ، لأن الأدب العربى طُعِّم بآداب كثيرة أما الأدب الإنجليزى فهو فى الأغلب مصبوغ بصبغة محلية . وأنا أعتقد أن العروبة لن تنهض إلا إذا تخلقت بأخلاق الأسلاف فرحبت بالمصاهرات ، وأقلعت عن الطائفية المذمومة التى تجعل من الأمة العربية شعوبًا مختلفة المذاهب والميول والأذواق ، هل تصدِّق أيها الأخ أن المصرى حين يعيش فى العراق قد يعانى

من المتاعب ما لا يعانى الإنجليزى حين يعيش هناك ؟

ــ كيف ؟ كيف ؟

الإنجليزى يعيش فى العراق بلا هموم لأنه لا يُسأل عن شىء غير الواجب الذى ذهب لتأديته فى العراق ، أما المصرىّ فيُسأل عن أشياء كثيرة : لأن ابتلاء العروبة بالطائفية يجعله هدفًا للقيل والقال ، ولأن المصرى فى العراق لا يُسأل أمام العراق وحده ، وإنما يُسأل أمام كثير من الأمم العربية ، وله الويلُ كل الويل إن غفل عن مراعاة التيارات الحزبية التى تدخل إليه من كل باب ، وكان ذلك لأن المصرى يدخل العراق وهو يعتقد أنه مصرى ، ولو اعتقد واعتقد معه الناس أنه عربى لانعدمت تلك المحرجات . فالآفة الكريهة التى تواجهنا فى كل وقت هى أننا نحمل أوطاننا فى قلوبنا ، الأوطان الإقليمية ، ولو أننا اكتفينا بالوفاء للوطن الكبير وهو الأمة العربية لعشنا سعداء فى كل بلد نحلّ فيه ، وقد عاب قومٌ أن ألبس السدارة منذ أول يوم دخلت فيه بغداد ، وقالوا إنى أتودد إلى أهل العراق ، ولو عقلَوا لفطِنوا إلى أن المروءة هى التى قضتْ بأن أتودد إلى العراق . وهل يغض من قدر الرجل أن يتودد إلى قوم وثقوا به واستقدموه لبعض المناصب العالية ؟

هل يكون من العيب أن يقول العراق إنه تمصّر أو أن يقول المصرى إنه تعرّق ؟

وقد عاب علىّ ناسٌ أن أطيل القول فى الثناء على أهل العراق ، فهل يجب على الرجل أن يشغل نفسه بعدِّ العيوب على من يعرف من الرجال ؟

الرجولة السليمة تُوجب على الرجل العربى أن يؤمن بأنه مسئول عن صيانة الأعراض لكل بلدٍ يحل فيه ، وقد أكرمنى الله بهذا الخُلُق فلم أر فى العراق غير الجميل ، وأرجو أيها الأخ أن لا تروا فى مصر غير الجميل .

ــ إن مصر فى أعيننا أجمل من الزهر المطلول .

ــ هى كذلك فى أعينكم لأنكم تنظرون إليها كما ينظر المحب إلى الحبيب ، ولولا الحب لرأيتموها صحراء جدباء ، فليست مصر إلا بلدًا كسائر البلاد فيه الحُسن والقُبح ، والخير والشر ، والرُّشد والغىّ ، والهدى والضلال ، هى بلد كله محاسن لمن ينظر بعين الحب ، والرجل الموفّق هو الذى يشغل بصره باجتلاء المحاسن ويتعامى عن العيوب ، كما أصنع حين أسير فى شارع فؤاد .

ــ وماذا تصنع حين تسير فى شارع فؤاد ؟

ــ أنسى أنه شارعٌ تجارىٌّ يقوم على قواعد من مشكلات الحساب ، وأتوهم أنه لم يُخلق إلا ليكون معرضًا للصباحة والملاحة والفتون .

ــ أنت إذنْ من الشعراء .

— وهل فى ذلك شك ؟ ألم أساير الكواكب فى القاهرة وباريس وبغداد ؟

* * *

فرغنا من رحلة سقّارة ومن افتراع الأحاديث فى الطريق و لم يبق إلا أن نسمع أغانى أم كلثوم بالجامعة المصرية ، فماذا رأينا وماذا سمعنا هناك ؟

أؤجل تدوين ما شاهدت وما سمعت إلى فرصة قد تسنح بعد حين ، ففى صباح الغد سألقى محاضرة فى تعريب المصطلحات الطبية ، ويجب أن أستريح . ويكفى أن أقول إنى قبّلتُ الآنسة أم كلثوم أمام جمهور من الناس منهم وزير الصحة ، وقد ابتسم وقال : إن هذه القبُلَة شفاءٌ من كل داء .

هذا حق .

ولكن تلك القُبلة زادتنى جنونًا إلى جنون .

إشهد ، يا معالى الوزير ، أننى قبّلتُ الآنسة أم كلثوم ، ولتصنع ليلى ما تشاء !

٥٥

شُغِلتُ ليلة الأمس بأم كلثوم وبتحرير ما شاهدت فى اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبى ، ولم أفطن إلى وجوب النظر فى بريد العيد ، وقد تركه أهلى فوق المكتب لأتملى بالنظر فيه حين أرجع ، فماذا رأيت حين اطلعت عليه فى الصباح ؟

رأيت خطابًا معطرًا من ليلاى فى العراق ، وهى تسأل كيف صبرتُ عنها كل هذه الشهور الطوال ؟

كيف صبرتُ ؟

الله يعلم كيف صبرتُ ؟

لم أصبر عن سُلوان ، وإنما صبرتُ عن يأس .

إن حالى فى دنياى شبيهةٌ كلَّ الشبه بحال الحَمَام فى العراق :

فالحمام فى العراق ينوح فى كل وقت من قسوة الجوّ هناك ، وهو مع ذلك لا يفكر فى الهجرة لأنه يحب العراق ، وأنا فى مصر أشكو الظلم فى كل وقت ، ومع ذلك لا أفكر فى الهجرة لأنى أحب مصر ، مصر التى فيها القاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وأسيوط وسنتريس .

ماذا صنعتْ ليلى بقلبى ؟

لو كنت أعقل لهجرت مصر إلى الأبد لأتخرج فى الشعر والفلسفة على يدىْ ليلاى فى العراق .

كانت ليلى تحدثنى فى كل لقاء عن خطرات قلبها الخفاق ، كانت تقول « بعد السهرة الماضية أحسست لذع الضمير لأنى صنعت معك كيت وكيت » وكانت تقول « بعد السهرة الماضية أحسست راحة الضمير لأنى منحتك كيت وكيت » وكانت تقول « لم أنم بعد السهرة الماضية لأنى كنت خرجت فى حديثى معك على بعض قواعد الذوق » وكانت تقول : « نمتُ نومًا سعيدًا فى الليلة الماضية لأنك رُحتَ وأنت راضٍ عنى » وكانت تقول : « استروحتُ معنى النعيم بالأمس لأنى أهنتُك فى دارى » وكانت تقول : « كدتُ أقتل نفسى بالأمس لأنى كشفت أمام عينيك بعض الحجاب » وكانت تقول : « احترس من رفع الكلفة مع ظمياء لئلا تتوهم أنك تلقاها بما تلقانى » وكانت تقول : « إن ظمياء فى حاجة إلى العطف فظللها بجناحيك » .

كانت تقول ، وكانت تقول ، وكانت تقول .

وبفضل ليلى رأيت اصطخاب الأمواج فوق السريرة الإنسانية ، ولو بقيتُ فى ضيافة ليلى سنتين اثنتين لعرفت الغرائب من أسرار الوجود .

الفرقُ بعيدُ بين ليلى ومرجريت .

كانت مرجريت تقدِّم إلىَّ كل أسبوع كتابًا من غُرر المؤلفات الفرنسية لأرى كيف يفهم الرجال سِرَّ الحياة .

أما ليلى فكانت تحدثنى عما رأتْ وما أحسَّتْ وما عرفتْ وما جهلتْ .

كانت ليلى تحدثنى عن كل شىء ، وكنت أرى النور ــ نور الفلسفة الصحيحة ــ وأنا أستمع قولها المختلف الأفانين ، وكان حديثها أجدى على قلبى وعقلى من ألف كتاب .

وهل أنسى ليلة خرجنا لمشاهدةِ فِلْم « يحيا الحب » فى سينما الحمراء ؟

كانت الرواية فى جانب ، ونحن فى جانب .

كنا فى الحقيقة وكانت الرواية فى الخيال .

وقد شهدتُ معها أكثر من عشرين رواية سينمائية ، فرأتْ ورأيتُ أن الحياة لم تنبض فى قلب عاشقين كما نبضتْ فى قلبى وقلب ليلاى . وكانت ــ حرسها الحب ــ تميلُ علىّ من وقتٍ إلى وقت لأنسى ما يعتلج فى صدرى من هموم وأحزان ، كانت ليلى تعرف بوحى القلب أننا قد نفترق إلى غير مَعاد ، لأنى كنت أعيش فى بغداد عيش الطائر الغريب .

غفرتُ لك يا ليلى جميع الذنوب ، وصفحتُ عما اقترفتِ من مهلكات .

ما الذى كان يمنع من أن تبلُغى غاية العُنف فتنهبينى من أهلى ومن وطنى ؟

ما الذى كان يمنع من أن نفتضح لنعيد سيرة عمر بن أبى ربيعة مع غادة العراق ؟

ما الذى كان يمنع من أن نكون شغل الأفئدة فى سائر الأقطار العربية ؟

ما الذى كان يمنع من أن أخاصركِ سافرةً فى شارع الرشيد ؟

ما الذى كان يمنع من أن نغرق معًا فى دجلة أو فى الفرات ؟

آه ، ثم آه !!

منع من ذلك أننى كنتُ أحمق وأنك كنتِ حمقاء .

اسمعى ، يا ليلى ، اسمعى .

لقد تشوَّفتُ إليك تشوُّف الزهر إلى النَّدَى ، وتشوُّف السارى إلى البدر ، وتشوُّف الخائف إلى الأمان ، وتشوُّف العاشق المهجور إلى طيف الخيال .

أتعجبين من أن أُشغَل عنك بليلَى المريضة فى الزمالك ؟

لا تعجبى ولا تغضبى ، فقد كُتِبَ علىّ أن أنتقل من هَولٍ إلى هَول ، ومن ليلٍ إلى ليل .

فإن آذاكِ أن أُشغَل بسواكِ فتعالَى إلى ذراعىَّ أسبوعاً أو أسبوعين ، واعلمى يا ليلى أنى لن

أتركك بلا انتقام إن صبرتِ عنى : سأفضحك فى كل أرض ، وسأقول إنى قدّمت قلبى إلى إنسانةٍ لا تعرف أقدار القلوب . وسأغتاب العراق بلا تهيب : سأقول إن العراق لا يملك غير ذخائر قليلة من عذاب الأفئدة وشقاء الأرواح ، سأقول إن العراق لم ير وجه الرشيد ولا طلعة المأمون ، ولم يأنس بأدب طه الراوى ، ولم يفرح بأريحية فلان وفلان من الذين عرفتهم فى بغداد ، سأقول إن الحبوبى لم يكن من أهل النجف ، وسأقول إن دار المعلمين العالية ليست فى بغداد ، وسأقول إن النادى العسكرى لا يطل على دجلة ، ولا يرى الأمواج المفضّضة فى الليالى المقمرات ، وسأقول إن الأعظمية لا تعرف العيون السود ، وسأقول إن الكرادة ليس فيها شعراء شبيبيُّون ، وسأقول إن الجَزْرة لا يُؤكل فيها السمك الحىّ ولا السمك المسقوف ، وسأقول إن ليلى نجدية لا عراقية ، وسأنقل هواىَ إلى ليلى المريضة فى لبنان .

* * *

على روحى أنا الجانى .

كانت ليلى فى يدى ، وكنت أفِرُّ منها كما يفر المريض الجاهل من الطبيب .

جذبتنى بيدها ذات ليلة لنختفى من القمر تحت ظلال الأشجار البواسق .

فماذا صنعتُ ؟

وقفتُ بجانبها كالتمثال . وكنت من الآثمين .

وتلطفتْ ليلى فقبلتْ يدى ، فهل فهمتُ مغزى ذلك التلطف ؟

إن رأيتك ، يا ليلى ، مرّة ثانية ، فسأصنع بك ما يصنع الأسد الفاتك بالرّشأ الربيب .

وموعدنا فى القاهرة أو فى بغداد .

ولكن متى نلتقى فى القاهرة أو فى بغداد ؟

إن حولى ملايين من العيون ، وأنا رجلٌ مفضوح النظرات ، وله فى كل أرضٍ أعداء ، فأين السبيل إلى أن أخلو بك أسبوعًا أو أسبوعين قبل أن أموت ؟

ولا تجزعى ، يا ليلى ، من أن أكثر من ذكر الموت ، فأنا أعتقد أن الدنيا ألأم من أن تسمح بأن أسكن إليك قبل الموت .

كنت تقولين : أنت يا دكتور رجلٌ صيغ من المعانى .

وهذا ، يا معبودتى ، حقّ .

ولكن من البلاء أن يكون الله صاغنى من المعانى .

فلو كنتُ كسائر الرجال لنسيتُ هواكِ بعد فراق بغداد .

سأموت ، يا ليلى ، وأنا أهتف باللحظة التى اعتنقنا فيها يوم جُنَّ القيظ فى مطلع حُزَيران .

ومن النعيم أن أذكرك بالوجد يوم أموت .

فأرجوك بالله وبالحب أن تجعلى لمحبوبك الغالى قبرًا رمزيًّا بين قبور الصوفية فى ضواحى بغداد ، فإنى أخشى أن يُنسَى قبرى كما نُسِيَ قبر العباس بن الأحنف ومسلم ابن الوليد .

أحبك ، يا ليلى ، فاذكرينى بالشعر والدمع يوم أموت .

متى أراكِ ، يا ليلى ، متى أراكِ ؟

ومتى تسكنين إلى صدرى بمصر الجديدة أسبوعًا أو أسبوعين ، أو لحظةً أو لحظتين ؟

إن متُّ قبل أن أراكِ فسأكون بإذن الهوى من الشهداء .

* * *

شغلنى خطاب ليلى فلم أصل إلى كلية الطب إلا بعد مضىّ وقت على انعقاد لجنة المصطلحات الطبية .

كان العشماوى بك رئيس اللجنة ، وكنت أعددت خطبة نارية تشبه الخطبة التى أعددتها لمصاولة الدكتور عبد الواحد الوكيل فى بغداد ، خطبة أسجِّل بها تهاون الجامعة المصرية فى تدريس الطب والعلوم باللغة العربية ، خطبة يجزع لها وكيل وزارة المعارف ، ويؤرِّق بها مدير الجامعة المصرية .

وقد نظرتُ فى الخطبة مرات وأنا فى الطريق وأضفتُ إليها فقرات تجعلها أحدَّ وأعنف .

وهل يمكن الوصول إلى الإصلاح فى مثل هذه البلاد بغير الحِدّة والعُنف .

يجب أن يكون السوط حاضرًا فى كل وقت لئلا تهدأ الجياد ، جياد الفروسية المصرية .

* * *

ولكن شاءت المقادير أن تُطوَى تلك الخطبة إلى الأبد ، فقد وقف الدكتور على باشا إبراهيم وقال : لا أُذيع سرًّا إذا قلت لكم إن مجلس الأساتذة قرر فى الجلسة الماضية تدريس الطب باللغة العربية .

وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب !!

لقد ضاعت علىَّ الفرصةُ فلم أُسمع أساتذة كلية الطب ما يكرهون ، ولم أُوذِ وكيل وزارة المعارف ولا مدير الجامعة المصرية .

ولكنى ظفِرتُ بمغنَمٍ عظيم سيضاف إلى حسناتى فى خدمة القومية العربية ، فمنذ خمسة عشر عامًا وأنا أخطب فوق المنابر وأكتب فى الجرائد والمجلات داعيًا إلى تدريس جميع العلوم باللغة العربية فى كليات الجامعة المصرية ، وقد أسرفتُ فى الحماسة لتلك الدعوة أشد الإسراف ، فلم يكن رجال المعارف يُصبحون أو يُمسون إلا وأفئدتهم مملوءةٌ بالرُّعب ، وأنفسهم فوّارةٌ بالغيظ ، ولو جمعتُ ما كتبتُ وما قلتُ فى سبيل هذه الدعوة لتألفت منه مجلدات ضخام تقذَى بها أعين الحاقدين .

اليوم عرفتُ قيمة الصبر على مكاره الجهاد ، فما كنتُ أنتظر أن أفوز فى بلدٍ يكره بعض أهله أن يسمع صوت الحق .

اليوم أسجِّل صفحةً جديدة من صفحات الجهاد فى سبيل القومية العربية .

شعرتُ اليوم بنشوة روحية لم أعرف مثلها من قبل ، وهل كنتُ أنتظر أن أصل إلى غرضى بمثل هذه السرعة ؟

الواقع أنى أحسنت تخير الفرصة للدعوة إلى سيطرة اللغة العربية فى كليات الجامعة المصرية ، فقد قمتُ بهذه الدعوة فى وقتٍ كانت فيه مصر مُرهَفة الحسّ ، واعية العقل ، كريمة الوِجدان .

كنتُ أدعو إلى الحق قومًا لهم قلوبٌ وعزائمُ وآمال .

كنتُ أدعو إلى الحق رجالاً يتوثبون لتمجيد العروبة المصرية .

فإلى أساتذة كلية الطب أوجِّه تحيتى وثنائى ، وأرجو لهم المزيد من نعمة التوفيق .

* * *

وقد ذكرنى هذا الفوز بفوزٍ سَلَف : فأنا أول من دعا إلى أن يكون معلمو اللغات الأجنبية فى مدارسنا مصريين لا أجانب .

وقد استقتلت فى سبيل هذه الدعوة حتى انتصرتُ ، وكانت بشائر النصر إنشاء قسم بكلية الآداب لتخريج مدرسين للغات الأجنبية ، وإيفاد بعثات من الشبان المصريين إلى الجامعات الأوربية ليشتغلوا بعد عودتهم بتدريس اللغات الأجنبية فى المدارس المصرية .

وهنالك انتصارات كثيرة توّج الله بها جهادى فى سبيل القومية العربية تضيق عنها صحائف هذه المذكرات . وما أغرانى بالإشارة إلى ذلك حبّ الثناء ، كما يتوهم الغافلون ، وإنما أردت أن يفهم جميع الشبان أن الصدق فى الجهاد لا يخيب ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

* * *

لم أشترك فى زيارة المتحف المصرى ولا زيارة دار الآثار العربية ، وإنما اكتفيت بشهود رواية مجنون ليلى ، وسأدوِّن ملاحظاتى فى صباح الغد ، لأن حديثى عنها قد يطول ، وأحب أن آوى إلى فراشى لأناجى ليلى فى الأحلام ، إن لم يكن طيفها قد اعتصم بالهجر الجميل .

٥٦

ـــ إيش لون ليلى ؟
ـــ عُوفيتْ ومرِض الطبيب .

* * *

كانت عصرية الأمس من أعجب العصريات ، وفيها خفقَ القلبُ ثم خفق حتى خشيتُ أن يفرّ من قفص الضلوع ، إن كانت فيه بقيةٌ من العافية يستعين بها على النجاة من شَرَك الحب .

كـأنّ القـلبَ ليلـةَ قِيـلَ يُغـدَى بلـــيلى العامريـــةِ أو يُـــراحُ
قطـــاةٌ عَزَّهـــا شَرَكٌ فبـــاتت تجاذِبـــهُ وقـــد عَلـــقَ الجنـــاحُ
فلا فى الليـل نـالتْ مـا تُرَجِّـى ولا فى الصبـح كان لها بَـــرَاحُ

وتفصيل ذلك أن وزارة المعارف دعت أعضاء المؤتمر الطبى العربى إلى شهود رواية مجنون ليلى بدار الأوبرا الملكية ، وقد رأى سعادة العشماوى بك أن يلقى كلمة يبين فيها كيف اختارت الوزارة هذه الرواية فقال :

« اخترنا هذه الرواية لسببين : الأول أنها من نظم أمير الشعراء شوقى ، وكان رحمه الله شاعر العروبة والإسلام ، وهو الذى قال :

كان شعرى الغناءَ فى فرح الشر قِ وكان العـــزاءَ فى أحزانِـــهْ

أما السبب الثانى فهو رغبة وزارة المعارف فى أن تستهدى بآرائكم فى مشكلة الحب : فقد عُقد مؤتمر السنة الماضية فى بغداد لمداواة ليلى المريضة فى العراق ، ومؤتمر هذه السنة عُقد بالقاهرة لمواساة الطبيب الذى عرفتموه فى بغداد ، وفيه مَشابهُ كثيرةٌ من المجنون ، ويهمنى أن أخبركم أن معالى الدكتور هيكل باشا يسره أن توفَّقوا إلى حلّ حاسم لمشكلة الحب ، وقد اعتذر عن الحضور لأنه يقضى أيام العيد فى أسوان ، وسأُبلغه آراءكم بالتفصيل » .

وقد قوبلتْ هذه الكلمة الوجيزة بالإعجاب ، ولكن أزعجنى أن يجهل بعض الأطباء شخصية الطبيب الذى أشار إليه وكيل وزارة المعارف .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن فى الناس من يشتركون فى المؤتمرات للنزهة والسياحة بدون أن يعرفوا الغرض من عقد المؤتمرات ، ألم أسجل من قبل أن أحد الأطباء البولونيين كان يظن أن « ليلى » اسمٌ لبعض الأمراض ؟

وقد وقع شيءٌ من ذلك فى هذه السنة فقد ظن بعض أعضاء المؤتمر أن « طبيب ليلى » شخصية معنوية يُراد بها الطبيب الحيران .

وأعوذ بالله من الجهل !

إن ليلى يا بنى حوّاء امرأةٌ جريحة القلب تقيم فى بغداد ، وطبيب ليلى يا بنى آدم رجلٌ مفطور الفؤاد يقيم فى مصر الجديدة ، فكيف غابت عنكم هذه الحقائق وأنتم أطباء ؟

* * *

ثم رُفع سِتار المسرح ليشهد النُّظارة فجيعة المجنون .

ورفعتُ أستار قلبى لأشهد فجيعتى فى هواى .

وأين حظى من حظ المجنون ؟

كان المجنون يحب « ليلى » واحدةً بسبب احتجازه فى البيداء .

أما أنا فصريعُ الليليات فى الحواضر والبوادى .

كان المجنون يقرأ صفحةً واحدةً من كتاب الوجود .

أما أنا فأطالع جميع الصحائف من أسفار الوجود .

وهل أُتيح للمجنون أن يهيم حول شواطىء النيل والسين وبَردى ودجلة والفرات ؟

هل أتيح للمجنون أن يشهد ليالى الجنون فى القاهرة وباريس وبغداد ؟

هل أتيح للمجنون أن يعانى من بلاء العقل ما أعانى ؟

إن المجنون كان يخاطب ليلاه فيقول :

وقد يُبتلَى قومٌ ولا كبليتى ... ولا مثل وجدى فى الشقاء بكم وجدُ
غزتنى جنود الحب من كل جانبٍ ... إذا حان من جُندٍ قُفُولٌ أتى جندُ

أما أنا فلا أدرى من أخاطب : لأنى أصبحتُ وَتَرًا من أوتار القيثارة الوِجدانية ، ولأن قلبى مشدودٌ إلى القوة الكهربائية التى تربط الوجود كلّه برباطٍ وثيق .

كان قيس فى جنونه يدرك أن فى الدنيا أنوارًا وظلمات ، أما أنا فلا أعرف الفرق بين الأنوار والظلمات ، لأن الهوى محانى ومحا وجودى فلم أعُد أُدرك كيف يُظلم الليل أو كيف يُشرق الصباح .

وأنا مع هذا الخبال مسئول أمام قوانين الوجود .

فأنا أعظم نكبةً من قيس لأن بلاءه كان أخف من بلائى .

خرج قيس من دنيا العقل فاستراح .

وبقيتُ فى دنيا العقل فابتليتُ مأعنف فنون الجنون .

* * *

أما بعد فما أريد أن أنتظر قرار الأطباء فى فَضّ مشكلة الحب كما تنتظر وزارة المعارف ، فإن الأمر لا يزال عند قول الشريف :

دَعَوا لى أطباء العراق لينظروا سقامى ، وما يعنى الأطباء فى الحبّ
أشاروا بريح المندل اللَّدن والشذا وردِّ ذِماءِ النفس بالبارد العذب
يطيلون جَسَّ النابِضَيْنِ ضلالةً ولو علموا جسُّوا النوابض من قلبى

آه ، ثم آه !!

سيرجع الأطباء إلى بلادهم صِحاح القلوب ، وسيطول حديثهم عما رأَوا فى القاهرة وضواحى القاهرة من حُسْنٍ وفتون .

وسأبقى فى بلائى وهُيامى .

سأتحسَّر أبد الدهر على ما ضيَّعتُ من شهوات القلب يوم كنتُ فى بغداد .

أنا ، يا ليلى ، عليل .

فإلى صدرى وقلبى وروحى ، يا سمكة الفرات .

أمَا واللهِ لو تجدين وجدى جَمَحتِ إلىَّ خالعةَ العذارِ

إن ضممتك إلى صدرى مرةً واحدةً قبل أن أموت فسأصير قيثارةً تتغنَّى بالحمد والثناء على فاطر الأرض والسموات .

وإن حُرِمتُ نِعمةَ الأنس بروحكِ الشفاف فسأتمرد على خالق السِّحر فى العيون .

رباه !

أَنقذنى من كرب الشكّ فى كرمك ، فأنا أستحق منك كل عطف ، لأنى أصدق مَن خلقتَ من عقلاء المجانين .

٥٧

انتهى اليوم بخير : فلم أُغرق نفسى فى النيل عند القناطر الخيرية ، و لم أقتل نفسى فى فندق مصر الجديدة . وحياتى مع ما أُعانى فى سبيل المجد والحب أعجوبةٌ من الأعاجيب .

* * *

مضيت مع الضيوف إلى القناطر الخيرية ، وأنا أعرف هذه القناطر منذ الطفولة لأنها فى منتصف المسافة بين القاهرة وسنتريس .

وصلتُ إلى هناك وأنا أُدمدم بقول ابن النحاس :

كم أُداوى القلبَ قلَّتْ حيلتى كلما داويتُ جُرحًا سال جُرحُ

فالقناطر الخيرية أجمل بقعة فى الأرض ، وليس لها نظيرٌ فى مشرق ولا فى مغرِب ، وبسببها مات الشيخ سيد درويش : فقد وقذه حسنها الفضّاح وهو يلحّن رواية « هُدى » فلم يرجع من هناك إلا وهو فى علة الموت .

* * *

هنالك تذكرت الإنسانة الغادرة التى اقترحت أن نؤجل فرصة الهُيام فوق سَدَّة الهندية إلى أن نلتقى فوق القناطر الخيرية ، وقد وعدتْ بتحقيق هذا الأمل العذب يوم عُقِد مؤتمر فلسطين بالقاهرة ، ثم أخلفتْ . عليها وعلى جميع بنات حوَّاء أشنع اللعنات !

وهنالك تذكرت أن القناطر الخيرية أُنشئت بسواعد الأمة كما أنشئت الأهرام بسواعد الأمة ، فعرفتُ لماذا سموها القناطر الخيرية .

وهنالك سألت الله أن يُمدَّ فى عمرى إلى أن أُعانى طغيان الحب فى موسم طغيان النيل .

وهنالك ظهرتُ فى عدة صور فيها وجوهٌ من مصر والشام والعراق .

وهنالك صافحتُ فتاةً من دمشق وطن ...

وطن مَن ؟

لا أريد أن أفضح نفسى وقد سترنى علاَّم الغُيوب .

* * *

ثم نُصبتْ موائد الشاى .

وبعد ذلك أعلن الدكتور عبد الواحد الوكيل أن هذه الحفلة أقامها سعادة الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية ، وأن الدكتور عبد الوهاب عزام سيلقى كلمة.

الجامعة .

فما الذى قاله ذلك الخطيب ؟

قال إنه يتكلم باسم الجامعة وباسم مصر .

وما كاد يفرغ من خطبته حتى هتف الجمهور :

الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك .

فوقفتُ وقفة الأسد الغضبان ثم قلت :

إن الدكتور عبد الوهاب عزام تكلم باسم الجامعة وباسم مصر فلم يبق إلا أن أتكلم باسم العراق .

وعندئذٍ تقدم الدكتور سامى شوكت فوضع سدارته فوق رأسى ، فكانت تلك السدارة تاج العافية .

أيها العراق .

أنا أُحبك ، وأشتاق إلى سعير الوجد فى بغداد .

أيها العراق .

متى تُقضَى ديونى عند نَخَلات البصرة وسنابل الموصل وسمكات الفُرات ؟

متى ؟ متى ؟

إن بلائى بالشوق سيطول .

٥٨

وفى مساء اليوم أقيمتْ حفلة العَشاء فى فُندق مصر الجديدة .

فما الذى وقع ؟

وقع ما سمَّوه شُرب الأنخاب !

وشُربُ النَّخب هو أن يرفع الحاضرون كؤوسهم بأسماءٍ مختلفات .

وقد شربوا نخب جلالة الملك فاروق الأول وأنخاب الأقطار العربية .

ولكن الكؤوس لم يكن فيها غير الماء !

فضحتمونا يا ناس !

ينبغى لأهل مصر أن يختاروا واحدًا من اثنين : الرِّى أو الجفاف .

إن شرب الخمر يعدُّ فى مصر من المنكرات ، ولكن شرب الأنخاب مقبول ، فكيف غاب عن أهل مصر أن « خيال » الشراب يذكِّر « بحقيقة » الشراب ؟

أتريدون الحق ؟

إن أهل مصر يصطنعون المزاح فى بعض الأحيان !

* * *

ومال علىَّ الدكتور عبد الأمير عّلاوى وهو يقول :

ألا تذكُر أن الخمر كانت فى مؤتمر بغداد أرخص من الماء ؟

فقلت : لأن صحافة القاهرة أطولُ لسانًا من صحافة بغداد !

فقال : وكيف ؟

فقلت : لو أن الجمعية الطبية المصرية سمحت بشرب الخمر كما سمحت الجمعية الطبية العراقية لنشرت ذلك صحافةُ القاهرة تحت إطارٍ من السواد !

فقال : وهل يسلم الصحفيون عندكم من غَوْل الصهباء ؟

فقلت : إن الصحفيين عندنا يقتصدون فى الشراب ، والرجل من عقلائهم لا يشرب فى اليوم الواحد أكثر من عشرة أكواب !

فقال : وما ذنبنا نحن حتى نعيش فى القاهرة عيش الجفاف ؟

فقلت : سأسقيك حتى تغفر ذنوب القاهرة يا شيطان !

ومضيتُ فأتحفته بثلاثة أكواب من شراب الزنجبيل فى القهوة التى أقضى فيها سهرات الصيف .

* * *

كانت خُطب هذا المساء تفوقُ العدّ ، ولم أعِ منها غير خطبة الدكتور عبد الرحمن عمر ، وخطبة الدكتور سامى شوكت ، وخطبة الأستاذ عبد المنعم رياض ، وقصيدة الدكتور إبراهيم ناجى .

وقد طالت الخطب ثم طالت حتى قال العشماوى بك : لم تُبقوا لنا شيئًا نقوله فى مؤتمر الثقافة العربية !

* * *

انتهى المؤتمر وانقضتْ أيامه ، فهل واسانى ؟

كان هذا المؤتمر يملك وسائل المواساة ، لو كنت أصلح للمواساة ، وكيف أقبل المواساة ودائى فى الحب داءٌ عُضال ؟

لن أصل إلى العافية إلا يوم يفهم قومى أن لعلتى وصفًا غير الذى يعرفون .

أنا أعيش فى الشرق عيش الأذلاء ، لأن أهلى فى الشرق ليسوا أعزّاء .

سأُحِس روح العافية يوم أشعر أن الشرق للشرقيين وأن أهل الغرب لا يعيشون فى الشرق إلا عيش الغرباء .

سأُحس روح العافية يوم أشعر أن الشرق خلا من المنافقين والمخادعين .

سأُحس روح العافية يوم أشعر أن اللغة العربية تحاول تعريب الغرب مرةً ثانية كما صنعت فى عهد بنى أمية وعصر بنى العباس .

إن الشرق العربى والإسلامى يملك أخصب بقاع الأرض ويسيطر على أعظم البحار ، فمتى نعيد سيرة الأسلاف ؟ ومتى يكون للعروبة الإسلامية علمٌ واحدٌ يلقى الرعب فى صدور الأعداء ؟

إن ذلك لا يتمُّ إلا يوم نتسامح بالأخلاق .

وما هى الأخلاق ؟

أنا أُعيذ الشرق من أخلاق العبيد ، الأخلاق السلبية التى تنحصر فى البعد عن آفات الشهوات ، وإنما أريد له أخلاق الفحول ، الأخلاق الايجابية التى تفرض عليه أن يحب الحياة

ليكافح فى سبيل الحياة .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

* * *

وإلى اللقاء فى ساحة المجد المنيع ، المجد الذى عرفته جيوش قرطبة والقاهرة وبغداد ، يوم كنا أقطاب السياسة والقوة فى المشرق والمغرب ، ويوم كنا أساتذة الممالك والشعوب .

أما بعد فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط الطوال ، فقد ابتدأتُ فى تدوين هذه المذكرات فى الشهر التاسع من سنة ١٩٣٧ وانتهيت منها فى الشهر الثالث من سنة ١٩٣٩ ، وبذلك أكون شغلت نفسى بحديث ليلى سبعة عشر شهرًا ، أو تزيد . فما الذى جنيتُ من سهر الليالى فى تدوين هذه المذكرات ؟ .

غنِمتُ أشياء ، وخسِرتُ أشياء .

غنمتُ الإيمان بالشرف ، فلولا تصوُّنى وعفافى وأمانتى فى حبّ ليلى لخمدتْ وَقْدةُ الشوق منذ أول يوم تلاقينا فيه ، ولو خمدت تلك الوَقدة لاندثرت جميع المعالم من ذلك التاريخ الجميل .

وغنمتُ الإيمان بالقلب ، فقد عرفتُ كيف استطاع قلبى أن يحيلنى إلى قوةٍ روحية قليلة الأمثال .

وغنمتُ الإيمان بالصدق ، فبفضل الصدق بكتْ ليلى فى دارى بكاء الحنان يوم كنتُ فى بغداد .

وغنمتُ الإيمان بالحب ، فبفضل الحب صرتُ شُغل الأفئدة فى جميع الأقطار العربية .

* * *

وخسرتُ أشياء :

خسرتُ السلامة من سماجة المتقولين وسفاهة العذّال .

وخسرتُ الراحة من كمد القلب وعذاب الروح .

وخسرتُ الفضيحة فى حب ليلى ، لأننى كنت مع الأسف من عقلاء المجانين .

* * *

أيها القمر الذى يملأ أرجاء مصر الجديدة فى شهر المحرم ، أيها القمر ، أيها القمر ، بلّغ ليلاى فى بغداد أنى أعانى آلام الكتمان ، بلّغ ليلاى أن سرّى لا يزال مكتومًا بعد هذه المئات من الصفحات .

وآه ثم آه من عذاب الكتمان !

كان غرامى بك يا ليلى قدَرًا من الأقدار ، وكان مكتوبًا خُطَّ بالدمع على أسارير الجبين .
وكم توقرتُ يا ليلى لأصدّ الجوى عن قلبك الخفاق .

فإن كنتُ ضيعت عليك فرصة الفضيحة فى غرامى فقد حفظتُ لك نعمة الصيانة من أراجيف السفهاء ، وذلك أجمل ما تظفر به القلوب والنفوس ، فى زمن يكفُر أهله بشريعة الحب أبشع الكفُران .

* * *

ولو كنتُ كتمت هواى عن الناس وحدهم لخفَّ الأمر وهان ، ولكننى كتمتُ هواى عن ليلاى وضللتها أشنع تضليل ، فهى لا تعرف اليوم مواقع هواى ، ولا تفهم أنى مفتونٌ بها أعنف الفتون .

سألتنى ليلاى ذات مساء : أنا ليلاك يا دكتور ؟

فأجبت : علمُ ذلك عند علام الغيوب .

وكان ذلك لأنى كنتُ ألزم الأدب حين أراها مع أنى أفضح نفسى فيما أنشر بالجرائد والمجلات ، فهى تتوهم أن هواى عند غيرها من الليليات ، وما أكثر أوهام الملاح !

ومَن ليلاى فى العراق ؟ مَن ليلاى فى العراق ؟

هى ليلاى فى العراق ، هى أم العينين السوداوين ، هى الإنسانة التى كانت تشتهى أن تكون نور بيتى فى بغداد ، هى الإنسانة التى اقترحت أن نغرق معًا فى دجلة أو فى الفرات .

وليتنا غرقنا معًا فى دجلة أو فى الفرات

* * *

كتمتُ هواكِ ، يا ليلى ، فهل تكتُمين هواى ؟

أنتِ الآن مضللة أعنف تضليل : لأنى حرَّفتُ هواى فيك أعنف تحريف .

فأرجوك بالله وبالحب أن تؤمنى بأنى لم أتحدث عنك بحرفٍ واحد فى هذه المذكرات الطوال .

إن عِرضى فى يديك ، يا محبوبتى الغالية .

وعرضك فى يدىَّ ، يا محبوبتى الغالية .

وسترى الأيامُ أينا أحفظ للعهد ، وأكتم للسر ، وأعرف بالوفاء .

ليلاى .

كنتِ وعدتِ بأن تقيمى بين ذراعىَّ فى مصر الجديدة أسبوعًا أو أسبوعين .

ومؤلفاتى ذائعةٌ ذيوعًا لم أكن أتوقع أن تصل إليه ، وقد يكون فى القراء من يخفى عليه أنى أدعو إلى مبادىء أخلاقية سامية أغشيّها بالفُتون كما يصنع الطبيب فى تغشية « البرشامة ».المُرّة بغشاءٍ من الحلواء .

وقد يكون لى خُصُومٌ يتخذون من أدبى ذريعةً إلى إقصائى عما أطمح إليه من المناصب العالية ، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون فى سرائر أنفسهم أنى من أهل الصدق ، ولكن الخصومة لها طبائع سُود ، وهى تحرِّف الكَلِم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء .

والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرأون ، وهل أنسى ما وقع بينى وبين الأستاذ سعد اللبان ؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديقٌ حميم ، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعاريض ، ولكنه مع ذلك أسرَّ إلىّ مرةً أنه يحب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسى فى كتاب « ذكريات باريس » .

وقد ضحكتُ ضحكةً أصرح من ضحكاته الصريحة ، وأكدتُ له أنى صادقٌ فى كل ما تحدثت به عن نفسى من غراميات باريس !

ولما نشرتُ مذكراتى عن غرامى بمرجريت ورعاية ابنها موريس كتب إلىّ ناسٌ من بغداد يرجوننى أن لا أفضح نفسى على نحو ما صنعتُ فى نشر تلك المذكرات ، لأن ذلك يؤيد حجة خصومى هنا وهناك .

كان علىّ أن أعتبر بما رأيت وسمعتُ ، كان علىّ أن أعتبر منذ اليوم الذى أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه فى كتاب « مدامع العشاق » بمقال نشره فى جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب « مدامع العشاق » يحرِّض على الشهوات .

***

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن العقل يفرض أن نوضّح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات ، فلو أنى كنت أفصحت عن غرضى منذ أول يوم تصديتُ فيه للنشر والتأليف لأعفيتُ نفسى من متاعب القيل والقال .

ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب .

فمؤلفاتى حين تُفهَم فهمًا خاطئًا لا تضرُّ أحدًا غيرى ، وأراجيف المفسدين لها نتيجةٌ صغيرة وهى إخراجى من خدمة الحكومة المصرية .

ولكن التجريح حين يوجّه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع ، فسكوتُ مصر عما يوجّه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٥ جنيهات